الترجمة الكاملة
(٢)

وصف مصر

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

ترجمة
زهير الشايب

العرب فى ريف مصر وصحراواتها



دار الشايب للنشر

اهداءات ١٩٩٩
صندوق التنمية الثقافية
القاهرة

٢

وصف مصر

الترجمة الكاملة

وصف مصر

العرب في ريف مصر وصحراواتها

تأليف

علماء الحملة الفرنسية

ترجمة

زهير الشايب

دار الشايب للنشر

١٠ ش سليمان الحلبي - التوفيقية

ت: ٥٧٤١٣٧١ - ٥٧٢٦٨٣٠

الى

مِصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

يسرني أن أقدم الى قراء العربية هذه الطبعة الثانية من هذا المجلد ، وهى مناسبة طيبة لحمد الله ولتوجيه الشكر للقارىء النبيل الذى اولى هذا العمل ثقته واقباله .

ومما له دلالته الطيبة أن تصدر هذه الطبعة فى ظروف هى افضل بكثير من الظروف التى صدرت فيها الطبعة الأولى،فقد اصبح لهذا العمل اليوم ناشر يتعهده مشكورا ، هو مكتبة الخانجى العريقة بعد أن كان عبء نشره يقع على كاهلى المثقل ، كما حاز العمل ثقة القارىء والجهات المعنية بعد ان كان يتحسس طريقه وقتها على استحياء يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، واخيرا فقد نال هذا العمل - وهذا افضل لدى من أن اقول نلت انا عنه - جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٧٩ كما كان موضع ترحيب كل الاقلام الجادة والشريفة .

ويسعدنى أن تصدر هذه الطبعة فى وقت نوشك فيه أن نصدر مجلدين من مجلدات اللوحات هما المجلدان الخاصان بالدولة الحديثة فى شكل فنى لائق للغاية يستحق الشكر عليه كل من ساهم فيه . وبذلك يكون هذا المجهود قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام .

اما عن هذه الطبعة ، فانها تختلف عن الطبعة الأولى فيما يلى :

١ - اعادة ترتيب الدراسات ، فجاء الجدول الخاص بالقبائل العربية فى نهاية الكتاب وليس فى بدايته استجابة لملاحظة القراء غير المتخصصين الذين وجدوا هذه البداية غير مشجعة لهم على القراءة، مع اننى وضعتها على هذا النحو لاعتبارات أكاديمية .

٢ — اضافة دراسة جديدة اليه تتناول خروج العبرانيين من مصر وهى احدى دراسات العصور القديمة لمصر ، أما السبب فى اضافتها هنا ، فهو أن مؤلفها ، دى بوا — ايميه قد قدمها للجنة التى قامت بنشر وصف مصر باعتبارها متممة لدراسته عن القبائل العربية فى صحراوات مصر والتى وردت فى هذا المجلد .

وهذه هى المرة الأولى التى أسمح لنفسى فيها بنقل دراسة من دراسات العصور القديمة لتتجاور مع دراسات عن الحالة أو الدولة الحديثة فى مصر لأننى اقتنعت بأهمية ذلك ، وبعد أن فكرت فى الأمر مليا ، وقد شجعتنى اعتبارات مماثلة على ضم الدراسة الخاصة بالموسيقى عند قدماء المصريين للدراسة الهامة أو الموسوعة الكبيرة التى تناولت الموسيقى العربية على ضفاف النيل والتى سيبدأ صدورها تباعا اعتبارا من المجلد السابع وهو المجلد القادم الذى سيصدر فى وقت قريب بعون الله .

والله نسأل ان يجنبنا العثرات وان يهدينا سواء السبيل وأن يوفقنا الى تقديم بعض ماينفع وطننا مصر واخوتنا المصريين .

مارس ١٩٨٠ — المترجم

مقـــدمة الطبعـــة الأولى

صدر منذ نحو عامين المجلد الأول من الترجمة العربيـــة الـكاملة لـــكتاب وصف مصر ــ وتعنى الترجمة الكاملة هنا اننا ننشر النص الكامل دون تصرف من أى نوع ، أما تقديم ترجمة كاملة لكل وصف مصر فسيظل مطمحا نرجو أن تساعدنا الأيام فى تحقيقه ــ مشتملا على احدى دراسات هذا السفر الضخم ، وكان موضوعها « دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين » ، وهى من وضع المهندس الشاب ، ج. دى شابرول ، الذى يشار اليه باسم شابرول دى فولفيك ، والذى شارك فى الحمـــلة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

ولقد كانت النية تتجه الى مواصلة نشر أجزاء من وصف مصر تباعا لـــكن الظروف لم تكن مواتية ، فتأخر نشر المجلد الثانى منه الى اليوم ، ولابد أن القراء سوف يلتمسون العذر حين يعلمون أن نشر هذه الترجمة، فضلا عن الترجمة ذاتها ، يتم بجهود ذاتية .

● وفى مقدمة المجـــلد الأول ذكرت انه على الرغم من أية دوافع ذاتيـــة ، قـــد تكون وراء نشر مؤلف كهذا ، الا اننى احب أن اربط الجهد كله بتلك الحركة التى دبت فى مصر ، منذ يونيو ١٩٦٧ ، والتى زادت بعد اكتوبر ١٩٧٣ ، الذى أعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثقتها بالنفس، فاستمرت فيما بدات فيـــه فى محاولتهـــا التفتيش والبحث عن الذات ، ساعية الى استقراء كافة تاريخها ، لاسيما تاريخها الحديث الذى بدا فى بعض فترات حياتها المعاصرة وكأنه لا يلقى الاهتمام الكافى . وحين أحاول ان اجد ما اتقدم به هذا المجلد الثانى ، فاننى أجدنى أكاد أكرر نفس ماقلته آنذاك . أن التاريخ حلقات متصلة ، كل حقبة منه تحمل ظل سابقتها ، كما انها تتشكل على نحو ما ملامح الحقبة القادمة حتى ولو قامت ثورات شاملة ، تسعى لتغيير كل شىء ، فمعطيات الواقع وعنـــاصره ، التى يتشكل منها الحاضر ، الذى يصبح بعد ذلك «تاريخا» قادرة على التحور، لتوجد فى أشكال جـــديدة ، بتسميات جـــديدة . وأكثر من ذلك فان ما « مضى » ــ اى ماحدث واصبح تاريخا ــ هو اكثر أبعاد الزمن صدقا،

لأنه تشكل بصفة نهائية ، فى حين يظل الحاضر افتراضا زئبقيا ، يقفز دوما الى الأمام ، أو يتشبث بمعطيات الماضى ، أو يفعل الاثنين فى وقت معا فى اغلب الأحيان . نعم ، قد تضطرنا الظروف لاستقراء الماضى على نحو ما ، كما ان من المشروع — من الناحية الأكاديمية البحتة وليست السياسية العارضة فقط — أن نختلف فى تفسير دروس التاريخ ، ومغزى معطياته ، لكن الوقائع مع ذلك لابد لها ان تحترم هذا الوازع الأخلاقى ، ليس فقط لأن الصدق مع النفس يقتضي ذلك ، وانما لأننا — أيضا — اذا ماسلكنا هذا الدرب — درب عدم احترام الوقائع التى تمت أو تجاهلها — لن نستطيع مطلقا ان نفهم الحاضر الذى نعيشه ، وسيصبح هذا الحاضر مجرد محاولات تتنصل متخبطة ، فى حين يصبح المستقبل نفسه مغامرة غير مأمونة الى ان يأتى اليوم الذى يصبح فيه المستقبل واقعا مريرا ، أو حاضرا لم نكن نتوقع أننا نسير اليه .

لكن هذا الذى نقر به لا يعنى مطلقا أننا نحبذ الجمود أو ندعو اليه ، فالتطور حتمى شئنا ام أبينا ، والماضى لا يعود مطلقا ، كما انه ليس خيرا كله ، وفى نفس الوقت ، فلابد ان تكون لنا احلامنا وطموحاتنا فى مستقبل افضل ، نصنعه ، ولا ندع الأيام تصوغنا كما تهوى . ولكن يبقى هناك على الدوام الفرق بين الطموح المشروع وبين الخيال المحض، وبين الاعتراف بالواقع وبين الجمود ، وفى كلمة ، بين أن نبنى فوق أساس متين ، وبين أن نشيد قصور الوهم العالية فوق الرمال الناعمة، المتحركة .

لابد ان هذا كله ، أو بعضا منه ، أو اكثر من ذلك ، هو الذى حدا بالحركة المصرية فى مصر أن تنقب فى تاريخها الحديث ، وان تتصدى له ، وان تحاول اعادة النظر فى أمور كادت تعد من المسلمات . ومن اللافت للنظر ان الذين تصدوا لهذه الحركة الفكرية التى ارتبطت بالتاريخ لم يكونوا كلهم من اساتذة التاريخ ، مما يعنى ان التاريخ كعلم قد أصبح « ثقافة » يحرص المثقفون جميعا ليس فقط على الالمام بها وأستيعابها ، وانما كذلك على الاسهام فيها ، دون أن يعنى ذلك مطلقا اى مساس بقدر وانجاز أساتذة التاريخ الأجلاء ، الذين ستظل منوطة بهم بطبيعة الحال الانجازات الرئيسية فى هذا المجال .

ومن جهة اخرى فاننى لا اريـد ان اقحم رايى هنـا ، ولست أريد بالذات ان يكون تقديم هذه الدراسات هو المناسبة التى يقال فيهـا راى خاص او يدور جدل لا ينبغى ان يتحمل هذا العمل وزر خطئـه ان كان مخطئا ، أو ينال دعما بسببه قد لا يستحقه ان كان هذا الراى صائبا . فلسنا هنا على الأقل ازاء مؤلف نضعه فى الوقت الحاضر ، نساهم به فى جدل قائم ، لـكنه « ترجمة » لدراسات كتبها « اجانب » عن ظروف بعينها عاشتها مصر فى بعض مراحل حياتها ، كما انها قد كتبت من وجهة نظر هى ليست وجهة نظرنا . وقـد حملت وجهـة النظر هـذه بالطبع بصمات الظروف التى كتبها فيها أصحابها ، كما عبرت اكثر من ذلك عن رغباتهم وطموحاتهم ومتاعبهم هم .. وان كان ذلك لايعنى انكار الوقائع، كما لا يعنى كذلك أن تصدر حكما قاطعا بموجبها ، فليست هى الحيثيات الوحيدة ، أو التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ، واكثر من ذلك فاننا لاينبغى أن ننظر الى الحاضر من معطيات ماض ولى ، بل وتمثلته مصر واصبح جزءا منها . بل اننا قد نرى فى هذه اللوحة القـاتمة التى تقدمها هذه الدراسات التسع فى مجملها - بخصوص علاقة مصر بالقبائل العربية التى كادت تحيط بها وتنفذ الى اعماق واديها ودلتاها وعلى الرغم من كل التحفظات الضرورية التى سبق ابرازها - أمرا ايجابيا ينبغى ابرازه، الا هو تلك القدرة العبقرية الفذة التى لمصر ، والتى تمكنها من استيعاب كل المتناقضات ، واحتواء كافة نواحى السلب ، ثم تمثل ذلك كله بخطو وئيد لـكنه واثق ، ثم افرازه فى النهاية كيانا سويا ، متناغمـا ، وفوق ذلك كله ، مصريا .. كأنما كانت هذه الحركة العنيفة من الشد والجذب بوتقة ينصهر فى أتونها شعب مصر ، ليصـبح واحدا من اكثر شـعوب العـروبة امتزاجا وتوحـدا .. وليس صـدفة أن مصر وحـدها دون كل شعوب المنطقة ، هى التى لاتشكو من وجـود أقليـات عنصرية فى داخلها ، على الرغم من كثرة من وفدوا اليها .. وبخلاف شعوب اخرى من حولنا .

بل اننا نكاد نقف فى هذا المثال الفـذ على درس حضـارى ، بل انسانى عظيم فى هذه القدرة على التمثل والهضـم ، فحين تمثلت مصر العناصر المملوكية والتركية مثلا ، فقد جعلتهم ابناءها ، لايكاد يميزهم أحد عن سواهم ، وبغض النظر عن بعض التفاصيل الوقتية أو المرحلية ،فقد اصبحوا محض مصريين ! وهكذا ذاب الغالب فى المغلوب ، واصبح قدره قدره ، وهو نفس قدر مصر ، يجوز عليهم مايجوز عليها .

وإذا ماتركنا كل هذا لنقترب من العمل الذى بين يدينا فاننا نجده كما سبق القول ، يشتمل على تسع دراسات لثمانيــة مؤلفين من الذين شــاركوا فى الحملة الفرنســية على مصر ، وبالتــالى فى وضع وتأليف كتاب وصف مصر .

وإذا كان من المقبول والممكن أن نقدم الدراسات الــكبيرة من هـــذا المؤلف الــكبير فى كتب مستقلة كما هو الحال بشأن المجلد الأول ، وبشأن دراسات أخرى كثيرة : كدراسة جومار عن مدينة القــاهرة ، ودراســة ديجينيت ولارى عن الأمراض ، ودراسة جيرار عن الزراعة والصــناعة والتجارة ، ودراسة فيوتو عن الحالة الحالية لفن الموسيقى والغناء عند المصريين ، فانه من غير الممكن أو المتصور كذلك أن نقدم الدراسات القصيرة على نفس النحو ، أى فى كتب مستقلة ، كما لايحسن تقديمها مجمعة كيفما اتفق . ولكى يكون القارىء فى الصورة معنا ، فاننى أوضح له دون أن يعنى ذلك أى مأخذ ــ أن الدراسات فى كتاب وصف مصر تتجاور فى نفس المجلد ، قصيرة وطويلة ، دون نسق منهجى واضــح . هى اذن أشــبه بكتب وكتيبات مستقلة تتجاور أو تتلاحق دون رابطة منهجية ، وان كانت تدخل كلها بالطبع ضمن اطار « وصف » مصر .

ولقد حاولنا أن نضفى هنا طابعا منهجيا على هـــذه الدراســـات ، فحاولنا تجميعها حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله . فجاء هـــذا المجلد بدراساته التسع التى تدور كلها حول القبـــائل العربيـــة ودورها فى مصر .

ومثل هذا المنهج ــ مع انه فى تقديرنا افضل مايمكن اتبــاعه ــ لا يمكن أن يكون مبرءا من العيوب ، ان لــكل دراسة من هذه الدراسات التسع ظروفها التى كتبت فيها ، كما أنها تختلف باختــلاف نظرة كل من مؤلفيها الثمانية الى الأمور ، مابين منصف ومتحامل ومجامل ايضا .. وما بين نظرة استعمارية تنشد الاصــلاح لغرض بعينه ، وما بين فهم انسانى شامل وعميق للأمور .

ومن جهة أخرى فان معطيات هذه الدراسات تتجاوز فى الحقيقـــة الاطار الذى وضعت داخله فى ترجمتنا العربيـــة ، فلسوف تقــابلنا فى ثنــاياها :

ـ امور تختص بجغرافية مصر وطبوغرافيتها

ـ وامور اخرى تتعلق بمسيرة الحملة الفرنسية ذاتهـا على مصر والمتاعب والصعوبات التى كانت تواجهها .

ـ وأمور ثالثة قد تدخل فى نطاق تاريخ العلم، فالأحداث والاكتشافات اليوم قد تجاوزتها .

ـ وهناك أمور رابعة تعد من قبيل جغرافية التاريخ . أى تنـاول التاريخ فى مرحلة بعينها بشكل سكونى .

وهذه بالتأكيد عيوب ليست من صنع واضـعى هـذه الدراسات ، الذين لم يقصدوا وقتها ان يضعوا دراستهم فى نفس السياق الذىنضعها نحن فيه اليوم ، وانما هى ناتجة بالتأكيد من محاولة اضفاء منهج لامناص من اتباعه فى واقع الأمر ـ لـكنه بالتأكيد يأتى من خارجها . وعلى كل فان مثل هذه العيوب تختفى كلية لو أننا حذفنا العنوان الذى اقحمنـاه على هذه الدراسات التسع ، واكتفينا بالاشارة الى هذا المجلد باعتباره المجلد الثانى فى الترجمة العربية الـكاملة ، وان كان هـذا بدوره غير متصور ، الا بعد ان تتم ترجمة ونشر هذا السفر كاملا ، او علي الأقـل المجلدات الثلاثة الخاصة بالدولة الحديثة .

ولقد شارك فى تأليف هذه الدراسات كما سبق القول ثمانيـة من علماء الحملة الفرنسية ، وأبرز هؤلاء بالتأكيد الرياضى الشهير العـلامة مونج ، رئيس المجمع العلمى الذى انشأه بونابرت فى القاهرة . وتوضح الدراسة التى « يشارك » بها هنـا ـ الدراسة الرابعة « دراسةموجزة عن عيـون موسى » ـ اسـلوبه المركز والملىء ، والصـارم فى دقتـه وموضوعيته ، وان كنا نأسف حقا لاننـا لم نجد له فى هذا الاطار الذى اخترناه دراسات اكبر واطول .

واول دراسات هذا المجلد الذى بين يدينـا من وضع أميديه ايمليان جوبير وهو مستشرق فرنسى ، وعضو مجمع العلوم فى فرنسا ، وقـد شارك فى حملة مصر بوظيفة سكرتير اول مترجم للقائد العـام بونابرت، وتولى تدريس اللغة التركية عقب عودته الى فرنسا ، ثم قام ببعض المهام الدبلوماسية فى فارس وتركيا خدمة لنابليون . وقد عين بعد عودة الملكية

الى فرنسا سكرتيرا مترجما عام ١٨١٩ ، وفى عام ١٨٣٠ عين مدرسا للغة الفارسية فى الكوليج دى فرانس ، وله مؤلفات عن رحلاته الى ارمينيا وفارس ، وعن قواعد اللغة التركية . كما ترجم عن العربية جغرافية الادريسى . وله بالاضافة الى ذلك مقالات كثيرة .

اما الدراسة الثانية فهى لأحد شبان مهندسى وضباط الحملة الفرنسية الذين تصمت كثير من المراجع عن ذكرهم للاسف ، جراتيان لوبير وهو الشقيق الأصغر للمهندس لوبير كبير مهندسى الحملة الفرنسية ، الذى اشرف على الدراسات الهندسية الخاصة بقناة السويس . ومن دراساته فى وصف مصر ، يتضح انه كان من معاونى الجنرال مينو ، وقد أصيب كما ذكر بالطاعون مرتين ونجا من الموت بأعجوبة وتوضح دراساته تشبعه بتخصصه كمهندس اذ يكاد يكون العالم فى نظره أطوالا ومقاييس . وفضلا عن ذلك فان نظرته للامور يشوبها — فى بعض الدراسات — نوع من التعالى والتعصب .

أما الدراسة الثالثة فهى من وضع الجنرال أندريوسى (أنطوان — فرانسوا أندريوسى) ، وهو جنرال (عسكرى) ودبيلوماسى ، وهوالحفيد الأصغر لأندريوسى المهندس والعالم الرياضى ، كان عضوا فى مجمع القاهرة وبعد عودته الى فرنسا عين سفيرا لبلاده فى لندن ثم فينا ثم استانبول على التوالى . وخلال المائة يوم عاد الى الخدمة تحت قيادة نابليون ، وبعد واترلو شارك فى المفاوضات لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وله دراسات هامة أبرزها دراسة عن تناقص مساحة كوكب الأرض .

أما ج. كوتل مؤلف الدراسة الخامسة فهو مهندس ، ولد فى مانس ١٧٤٨ ومات بها عام ١٨٣٥ ، اى انه جاء مصر وعمره نحو خمسين عاما ، وقد درس منذ طفولته الفيزياء والكهرباء ، وكان رئيس اركان لجنة السلم العام ، وقد أدت معركة أبى قير الى ضياع كثير من المادة التى جمعها عن مصر .

والدراستان السادسة والسابعة من وضع مؤلف واحد هو دى بوا — ايميه ، ومن المعلومات القليلة التى تذكرها المصادر عنه نعرف انه طالب مهندس ، وانه قدم الى مصر وعمره نحو تسعة عشر عاما . لكننا حين نقرأ دراستيه ، وكذا الأعمال الأخرى التى ساهم بها فى وصف

مصر ، سوف نظن انفسنا بازاء شيخ كبير عركته الأيام وباحت له بمكنونات سرها وتجاربها . وتجمع اعماله الشامخة بحق بين غزارة المعلومات ، وسلاستها ، وبين عذوبة الأسلوب ورقته وشاعريته . وهو لايصدر فقط عن روح متصفة وانما يتجاوز ذلك بكثير فيصدر بحق عن روح انسانية عظيمة ، لاتقف عند حدود الأجناس والحضارات بل تتداعى عندها الحدود وتتداخل الحضارات ، ونلمس في كتاباته حبه العظيم لمصر وانبهاره الشديد بها . ومن عجيب أننا لم نسمع به واحدا من كبار ادباء فرنسا وعظمائها ، وقد يعود ذلك لأن عمره العبقرى كان قصيرا ، فقد مات وعمره لما يتجاوز ٣٦ عاما .

واذا كانت تنقصنا المعلومات الوفيرة كذلك عن ب.م. مارتان مؤلف الدراسة الثامنة ، وان كنا نتعرف عليه من خلال دراسته ، ونلحظ انه كان متشبعا الى حد ما بأفكار مينو الاستعمارية بخصوص مصر ، مع اننا نحيى فيه حقا رغبته الجامحة فى معرفة مصر والوقوف حتى على مجموعة احجارها ، فاننا ولاشك نعرف الكثير عن جومار او ادم — فرانسوا جومار مؤلف الدراسة التاسعة عن عرب مصر الوسطى ، وهو مهندس وجغرافى واركيولوجى . وقد ولد فى فرساى عام ١٧٧٧ ومات عام ١٨٦٢ — اى انه قد قدم الى مصر وعمره لما يتجاوز ٢١ عاما ، وعلى الرغم من ذلك جاءت دراساته الكثيرة لتشهد له بالدقة وسعة الأفق واتساع المعارف ، وسلاسة الأسلوب لذلك فقد حل محل مونج عندما غادر الأخير مصر فى صحبة بونابرت . وقد ساهم بجهد كبير فى نشر وصف مصر ، وقد كانت له مكانة كبيرة عند كل من محمد على وسعيد باشا ، وانعم عليه بلقب بك ، ولما اعيد انشاء المجمع العلمى المصرى اسندت اليه رياسته الفخرية عام ١٨٦١ ، وكان معدودا من بين كبار علماء الجغرافيا والآثار القديمة فى فرنسا .

ولقد ترددت كثيرا فى اختيار بعض هذه الدراسات كى ادخلها فى هذا الاطار ، وتكاد الدراستان الثانية والثامنة تحظيان بأكبر قدر من هذا التردد ، خاصة واننى قد اعددت مجلدا آخر من هذه الدراسات القصيرة يدور حول « وصف بعض المدن والأقاليم المصرية » ، لكننى فضلت بعد تفكير طويل وضع هاتين الدراستين على الرغم من انتمائهما اكثر الى هذا النسق ، بسبب كبر حجم المجلد الخاص بالمدن من ناحية ، وبسبب وجود

اشارات هامة ومسهبة حول القبائل العربيـــة فى الدراستين ، وكذلك بسبب وجود قائمة بالقبائل العربية فى بنى ســـويف والفيوم ، وهو أمر تتضح جدواه حين تربط هذه الدراسة بالدراسة الأخيرة التى تدور حول العرب فى مصر الوسطى .

ويحتم واجب الأمانة أن أقر بالمصـــاعب التى واجهتنى فى تحقيـــق اسماء القرى والأماكن والقبائل ، بسبب الأخطاء الاملائية ، واخطاء النطق منجهة وتشابه هذه الأسماء نفسها منجهة أخرى، مع غيبة الارشادات التى تستخدمها اللغاتالأجنبية اليوم حين تكتب الأسماءالعربية.وقد اقتضى ذلك منى بذل الكثير من الجهد والوقت والاستعانة بالأصـــدقاء والمراجع وكافة المظان المتيسرة .. ومع ذلك فاننى ارجو المعـــذرة ان كانت قـــد تسربت رغم ذلك كله بعض الأخطـــاء فى هذا الخصوص . وهذا قصور لاشك فيـــه فى حالة حدوثه لايمكن تبريره واننى فى هذا الصـــدد أتقبل بصدر رحب كل توجيه أو حتى تصويب .

كما يدفعنى واجب الأمانة أن اقرر ايضا اننى قد تصرفت فى موطن أو اثنين فى ترجمة عبارتين وجدت من اللائق أن اتصرف فى ترجمتهما . وقد أشرت الى ذلك فى موضعه .

كما أن الأمانة تقتضى كذلك أن اشير الى تلك المساعدات القيمة التى لقيتها فى سخاء وروح علمية عالية من الأساتذة والأصـــدقاء ، اســـتاذنا الدكتور عبد الرحمن زكي والأخوين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن استاذ التاريخ بكلية البنات الاسلامية والأستاذ رينيه خورى .

كما لا يفوتنى أن أوجـــه شـــكرا خاصـــا للاخ الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الذى افسح لهذا الجهد صـــفحات مطولات من مجلته القيمة ، بشكل يستحق عليه من جانبى كل الشكر ، كما كان لتشجيعه بالـــكتابة عنـــه بقلمه أو بأقـــلام آخرين افضـــل الأثر فى نفسى .

وحين اختم ذلك باسداء الشكر الى السيدة زوجتى على ماتقدمه من عون وتشجيع من أجل انجاز هذا العمل فاننى لا افعل ذلك لياقة أو مجاملة وانما اقرارا لحق واعترافا بواقع ملموس ومشكور .

كما اقدم الشكر لكل من ساهم فى تشجيعى على هذا العمل ولو بمجرد التشجيع الشفهى — واقدم الشكر سلفا لكل من يتطوع بالنصح والتوجيه .

وكل ما أرجوه أن يكون هذا الجهد نافعا لوطنى مصر ولمواطنى المصريين وسيكون هذا — لو تحقق — هو افضل الجزاء .

والله تعالى هو الموفق ،،،

زهير الشايب

مارس ١٩٧٨

الدراسة الأولى :

جولة فى إقليم المريوطية

جراتيان لوبير

العنوان الأصلى للدراسة هو :

دراسة موجزة عن الجزء الغربى من ولاية البحيرة والذى كان يعرف قديما باسم اقليم المريوطية .

حين نتذكر وجود منطقة قديمة لم تتغير طبيعتها (*) .. لكنها مع ذلك لم تعد كما كانت فى الماضى آهلة بالسكان أو مزروعة ، فمعنى ذلك اننا نحاول النظر فى امكانية استجلاب سكان جدد اليها ، وبخاصة عندما لاتكون هذه الأراضى قد فقدت العوامل الطبيعية لخصوبتها . ونحن نقصد هنا بهذا الحديث ذلك الاقليم الذى يقع فى أقصى الغرب من شمال مصر والذى كان يعرف فى زمن الامبراطورية الرومانية باسم اقليم المريوطية ، والذى لا يحمل اسم مريوط الحالى الا مجرد ذكرى باهتة لوجوده . وهذا الأسم — مريوط — قد اطلقه العرب على مدينة قديمة فى هذا الاقليم .

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة تقع على مشارف الاسكندرية ،فانها فى أيامنا هذه مهجورة وخالية من السكان حتى اننا لا نكاد نعرف — مجرد معرفة — عدد المدن الخربة الموجودة فيها والتى لا يتردد عليها سوى العربان الرعاة أو الرحل ، الذين يأتون ليقيموا فيها خيامهم فى أوقات معينة من السنة .. وسوف يساهم الوصف السريع الذى نقدمه هنا عن حالة هذه المنطقة فى الماضى وكذلك بعض المعلومات التى نقدمها عن

(*) فى الرابع من جرمينال من العام التاسع بالتقويم الثورى الفرنسى ، الموافق ٤ ابريل ١٨٠١ ، قطع الجيش الانجليزى — التركى جسور ترعة الاسكندرية ، عند الطرف الغربى لبحيرة المعدية ، على بعد ٧٫٥ كيلومترات من باب رشيد ، الواقع الى الشرق من السور القديم لمدينة الاسكندرية ، فتدفقت مياه هذه البحيرة المالحة ، وكذا مياه البحر الذى يتصل بها .. وبعد سبعين يوما أى فى نهاية شهر بريريال (١٥ يونية ١٨٠١) امتلأ الحوض القديم لبحيرة مريوط .

ولكى تتبين فرق الجيش المعسكرة بالاسكندرية حقيقة حالها ،وطبيعة الموقف الذى أصبحت فيه ، قامت **دورية** استطلاع من الجيش لمسح هذه المنطقة ، فكانت هذه الدراسة **(المترجم)**

حالتها الراهنة فى رسم خريطة مصر الجديدة وفى اعطاء افكار دقيقة الى حد ما عن هذا الجزء من أرض مصر (١) .

وقد أطلق الرومان اسم اقليم المريوطية على كل البلاد الواقعة بين بحيرة ماريوتيس « مريوط » والبحر فى الشمال . ويحد هذا الاقليم من جهة الغرب : البحر بلا ماء ، ومن جهة الجنوب وادى اقليم نتريوتيس ، ومن الشرق الترعة التى كانت تحمل مياه النهر الى البحيرة التى أعطت الاقليم اسمها . وكانت بحيرة ماريوتيس تمتد حسبما يقول سترابون حتى مدينة تابوزيريس على الخليج البلنتينى ، وكانت محاطة بالمساكن الفخمة والقرى والمدن وكانت مدينة ماريا عاصمة لهذا الاقليم . وقد عاشت هذه المدينة قبل مجىء تمبيز بوقت طويل فى العام ٢٢٩ من تأسيس روما أى قبل الميلاد بـ ٥٢٥ سنة . ويقول هيرودوت حول هذا الموضوع : « وعندما شعر سكان ماريا بالنفور من الحفلات الدينية التى كانت للمصريين ، أرسلوا يستلهمون الوحى من جوبتير آمون كى يعرفوا ما ان كان ينبغى عليهم أن يخضعوا لهذه القوانين ، لانهم كانوا يظنون انفسهم من شعوب ليبيا لكن الوحى أجاب بأن كل البلاد التى يغطيها النيل بمياهه تابعة لمصر ، وان الاقوام الذين يشربون من مياهه انما هم مصريون » . وهذا الأقليم الذى يقع على تخوم الصحراء الليبية هو فى الواقع اقليم مصرى ، وكان على الدوام خاضعا لحكم الأمراء المصريين ، وفضلا عن ذلك ، فهو يدين بكل مبانيه وزراعاته لمياه النيل . وعلى هذا فان اجابة وحى آمون تبدو صحيحة وطبيعية .

وترجع أسماء اهم المدن والقرى فى هذا الاقليم — كما نوردها هنا — الى العالم الجغرافى بطليموس الذى يحدد مواقعها الجغرافية على النحو التالى :

---

(١) مريوط . واسمها القديم ماريوتيس . يقول عنها عبد الرشيد فى معجمه : انها مدينة تقع بالقرب من الاسكندرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ، واشتهر عن سكانها انهم يعمرون طويلا .

اسم المدينة	خط الطول		خط العرض	
شيموفيكس	٣٠´	٥٩°	٦´	٣١°
بلنتين	٤٥´	٥٩°	٠	٣١°
جزيرة شرسونيسيس ومدينة بورتس	٠	٦٠°	٦´	٣١°
مونوكامينيم	١٠´	٥٩°	٣٠´	٣٠°
هاليرا	٤٠´	٥٩°	٥٠´	٣٠°
تابوديريس	٥٠´	٥٩°	١٥´	٣٠°
كوبى	١٠´	٥٩°	٢٠´	٣٠°
أنتيفيلى	٣٠´	٥٩°	٢٠´	٣٠°
هيراكس	٤٠´	٥٩°	٤٠´	٣٠°
فوموثيس	٠	٦٠°	٤٠´	٣٠°
بالى ماريا فيكس	٠	٦٠°	١٠´	٣٠°
ماريا بالوس	١٥´	٦٠°	٥٠´	٣٠°
الإسكندرية وراكوتيس	٣٠´	٦٠°	٠	٣١°
كانوبوس ، مينلاى ، متروبوليس	٤٥´	٦٠°	٦´	٣١°

ويمكن بواسطة هذا الجدول ، أن نستدل بسهولة على الموقع الخاص بأهم الأماكن فى هذا الاقليم القديم ، وان نرسم خريطة له ، ولكنا سرعان ما نلحظ عند تمحيص هذا الجدول ، بعض الأخطاء التى تعود بلا ريب ، الى معطيات خطوط العرض ، اذ كيف نجد جزيرة شرسونيسيس ، التى لا جدال فى انها هى الموقع الحالى لمريوت (العجمى) ، وهو راس صغير به حصن ، ويقع على بعد فرسخين صغيرين ، على الشاطىء الذى ينحدر الى الجنوب الغربى من الاسكندرية — كيف يمكن لنا ان نجدها مبينة على ار ّ. الى الشمال من خط عرض هذه المدينة .

ويمكننا ان نقول المزيد بخصوص موقع بلنتين ، التى تبين على نفس خط الاسكندرية ، على الرغم من أنها اكثر ابتعادا ، نحو الجنوب الغربى.

ومع ذلك فان من العسير أن نتقبل ان يكون بطليموس ـ وهو العالم الجغرافى والفلكى الذى ينتمى الى مدرسة الاسكندرية ، والذى كان يقيم بهذه المدينة من عام ١١٧ الى ١٦١ من العصر الحديث ـ هو الذى يمكن أن يقع فى أخطاء كهذه حول مواقع أماكن شديدة القرب من عاصمة مصر، كانت تربطها بها علاقات قوية بسبب روابط السياسة والتجارة والدين.. ولعل من الأقرب للصواب أن ننسب هذه الأخطاء الى الناسخين والى مترجمى هذا العالم الجغرافى كما يمكن أن ننسبها كذلك الى شراحه كما يرى جوسلان Gosselin (٢) فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق Géographie des Grecs

ويحدد سترابون مواقع المدن الساحلية لهذا الاقليم بشكل مخالف فيتحدث عن كينوسيما وعن تابوزيريس التى يقول عنها بأنها لاتقع مباشرة على شاطىء البحر وانه كان يحتفل فيها بأعياد كبرى ، ثم يتحدث عن تابوزيريس اخرى تبعد من الأولى بمسافة كافية ، وكان يجرى فيهما كل عام - فى فصل الربيع ـ مسابقة للشعب وبخاصة بين الشبان الذين كانوا يساهمون فى الاحتفالات بالنصيب الأكبر . ونفهم من كلام سترابون انه كانت تحدث هناك كما كان يحدث أيضا فى كانوبى ومنديس Mendis مشاهد شهوانية خليعة كان يغطيها الكهنة بأقنعة من اسرارهم (٣) .

---

(٢) يقول جوسلان Gosselin فى كتابه : الجغرافيا عند الاغريق ، الذى شرح فيه ملاحة القدماء ان بوزيدونيوس Posidonius قد اقترح على مدرسة الاسكندرية مقياسا جديدا للدرجة الأرضية ، وينقص هذا المقياس الذى أخذ به ، قيمة الدرجة الى ٥٠٠ غلوة ، فكانت الدرجة تقاس من قبل بـ ٧٠٠ غلوة للمسافات التى تؤخذ باتجاه خطوط العرض ، وفى الاسكندرية تغيرت المسارات القديمة ، لكن بعضها قد نسى بلا جدال: وينسب جوسلان الأخطاء التى تسربت الى جداول بطليموس الى هذا التغيير .

(٣) فى كتابه عن تاريخ المصريين ، لا يتحدث هيرودت عن الأعياد السنوية التى كانوا يحتفلون بها فى منديس Mendis الا فى تكتم غامض عادة كالأسرار المصرية نفسها ، على الرغم من انه قد شارك فى هذه الأعياد وتمثلها ، ومع ذلك ، فاذا كان هذا المؤرخ قد استطاع أن يحتفظ بالسر الذى أقسم على الحفاظ عليه للكهنة المصريين ، وبخاصة فيما يتصل بديانتهم ، فان بطاركة الاسكندرية ، وآباء الكنيسة الأول ، لم يتحرجوا من أن يكشفوا عن خسة وبذاءة هذه الأعياد فى كتاباتهم ، ويمكن الرجوع فى هذا الصدد الى لارشيه Larchet ، الترجمة الفرنسية لهيرودت ، الكتاب الثانى ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، باريس ، ١٨٠٢ ، (الملاحظات أرقام ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢) .

وبعد هاتين المدينتين اللتين تحملان اسـم تابوزيريس تأتى مدن : بلنتين ، نيسييى ، باجوس ، شرسنونيسيس ، والأخيرة عبارة عن رأس صغيرة بها حصن وحامية ، ولم تكن تبعد عن الاسكندرية الا بـ ٧٠ غلوة « الغلوة الاغريقية = ٧٦ر٥٠ قامة وتساوى الغلوة الأولمبية ٩٥ قامة ».

وكانت هذه المنطقة تشتهر بجودة نبيذها ـ وكان من خاصـيته انه يعيش لوقت طويل ـ وكانت الاسكندرية تصدر منه كميات كبيرة الى روما والى بلدان اجنبية أخرى . كما كانت هذه المنطقـة ايضا تمتلىء بأشجار الزيتون وان كان نوعه هنـاك أقل جودة من نوع الزيتـون الذى كان يزرع باقليم أرسينويت Arsinoïte حيث يعطى الزيتون هنـاك كميـات وفيرة من الزيت .

وكان يسكن الجزء الأكبر من هذا الاقليم فى القرون الأولى للمسيحية، فى عصر اباطرة القسطنطينية ، المسيحيون الذين كانوا يفرون هربا من اضطهاد وملاحقـة الأريوسيين والدوناتيين واتبـاع المـذاهب الأخـرى ليجدوا ملاذا فى صحراوات مصر الغربية وفى الصـعيد . وكان وادى مريوط مزدحمـا بالسكان ، وبلغ عدد الأديرة التى بنيت هنـاك حـدا دعا الامبراطور فالون Valens فى القرن الرابع أن يكلف الكونت دوريان d'Orient حاكم الاسكندرية أن يجرد حملة على الرهبان الذين يجـدهم هناك قادرين على حمل السـلاح (٤) .

---

(٤) يقول فلورى Fleury فى كتابه ، موجز التـاريخ الـكنسى Abrégé de l'Histoire écclésiastique ان الامبراطور فالون valens قـد أمر عام ٣٧٦ بأن يجند الرهبان وأن يرغمـوا على حمل السـلاح كجنود . وعلى الرغم من انه قد ينظر الى هذا الأمر على انه صـادر عن حاكم يضطهد الـكنيسة ، الا انه يمكن القول بأن هذه الألوف الهائلة من الرهبان قد جعلت مثل هذا الأمر ضروريا ، فلقد بلغ عدد الأديرة فى مصر العليا وحدها خمسة آلاف دير وكانت مدينة أوكسيرينشيس oxcyrynchus الواقعة فى الصعيد الأدنى تضم عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبـة كما كان دير التبين Tabenne الذى أنشأه القديس باخوم فى الصعيد الأعلى يضم خمسة عشر الف راهب ، أما الدير الذى انشأته أخته والذى يقع فى مواجهة ديره فكان يضم اربعمـائة فتـاة ، وكان عـدد الذين يحضرون الاجتماعات العـامة السنوية التى تعقد تحت رياسته يصل الى خمسين

=

وقـد بلغ عدد الذين جندوا قسرا فى اقليم الجنوب حوالى خمسة آلاف رحلوا جميعا الى القسطنطينية ، حيث الحقوا بجيش الامبراطور . اما الأديرة التى نجدها حتى اليوم فى وادى بحيرات النطرون وفى المناطق الأخرى من مصر ، فليست سوى بقايا هذه الألوف من الأديرة التى كانت تغص بها فيما مضى هذه الصحراوات ، كما أن الخرائب التى عثر عليها الفرنسيون فى كل مكان فى جولاتهم الاستكشافية العسكرية التى قاموا بها فى هذا الجزء الغربى من مصر ، تشهد بصحة مايقول به التاريخ عن ازدحام هذه المنطقة المهجورة اليوم بالسكان فى الزمن القديم . وسنقدم هنا بعض التفاصيل باعتبارها ذات نفع .

قام اللواء ديستان Destaing قائد منطقة الرحمانية بعد عودة الجيش من الحملة على سوريا ببعض حملات ضد العربان فى شهر ترميدور من

= الف راهب . وكان عدد الرهبان المقيمين فى الأديرة الكبيرة وحدها فى مصر يبلغ ٧٦ الف راهب ، أما عدد الراهبات فقد بلغ حوالى العشرين الفا . ولا يتضمن هذا الرقم اعداد الرهبان والراهبات فى الأديرة الصغيرة التى لا يحصيها عد ، وكان يخضع لسلطة الأب سيرابيون Sérapion بالقرب من أرسينويه Arsinoé عشرة آلاف راهب .

ويمكن أن نرجع سبب هذا الحماس لحياة الأديرة فى ذلك الوقت الى تفشى روح الحزبية التى مزقت الكنيسة فى القرون الأولى من انشائها ، أكثر مما يمكن أن نرجعه الى الأضطهادات التى تعرضت لها الكنيسة : فقد كانت الاسكندرية مسرحا داميا لانشقاقات الدوناتيين والآريوسيين ، ذلك ان المسيحية التى انتشرت بعد المسيح فى صمت وسلام ، بدأت فى عهد قنسطنطين (حوالى عام ٣٣٠م) تنتشر بالاغراء والارهاب وقوة السلاح ، وهنا بدأ الصليب يخضب الأرض بالدماء ، وتسبب آريوس ، الليبى المولد وزعيم الطائفة التى تحمل اسمه ، واثناس بطريرك الاسكندرية ، بانقسامهما ، فى قيام حروب اهلية عديدة فى هذه المدينة ، وقد استطاع آريوس ، الذى ادانه مجمع نيس عام ٣٢٥ ، والذى اعاده قسطنطين من المنفى ، أن يضم الى حزبه أكثر من ٧٠٠ فتاة من الاسكندرية ومريوط .

انظر :

L'Histoire des Bas - Fmpires, t. ler, liv IV et t. III liv. XVIII p. 262.

وكذلك :

L'Histoire de la décadence de l'Empire Romain, t. VI. p. 68.

العام السابع « اغسطس سنة ١٧٩٩ » فاخترق اقليم البحيرة الى منطقة مريوط وقال انه قد شاهد هناك عددا كبيرا من المدن والمساكن المتهدمة .

وفى شهر نيفوز من العام التاسع (يناير ١٨٠١) قام فريان Friant قائد حامية الاسكندرية بحملة ضد بعض قبائل العربان ، واندفع بجنوده حتى برج العرب ، الذى يقع على مسيرة تسع ساعات على الشاطىء الجنوبى الغربى من الاسكندرية . وكانت هذه أول مرة منذ الاحتلال الفرنسى لمصر تكتشف فيها هذه البقعة من الساحل المصرى . وقد أبدى هذا القائد فى تقريره العام عن الحملة ، أسفه لانه لم يصحب معه بعض الأشخاص من العارفين بالآثار القديمة .

وقد قام كبير مهندسى الحملة ، لوبير Lepère — وهو اخى الأكبر — يصحبه السادة فاى Faye وشابرول Chabrol ولانكريه Lancret وهم من مهندسى الطرق والكبارى ، قام كل هؤلاء بجولة فى اقليمى رشيد والبحيرة ، كان القصد من ورائها استكشاف ترعة الاسكندرية ، التى تبدأ من الرحمانية ، حاملة مياه النيل الى المدينة ، ومن هناك رحل هؤلاء المهندسون فى الرابع من بليفوز من العام التاسع (٢٤ يناير ١٨٠١) لمشاهدة الآثار الموجودة عند برج العرب . وقد سجلت نتائج هذه الجولة الاستطلاعية تحت رقم ١٠٧ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ومنذ نزول الانجليز فى ابى قير ، قام قائد الحامية من سلاح الهجانة ببعض الحملات فى هذا الجزء ، وقد اخبرنى بأنه قد مر هناك بأطلال هامة (٥) وقد تمثلت جيدا كل هذه المعلومات ، وانتهزت فرصة آخر حملة استطلاع كلف بها هذا الضابط من قبل الجنرال مينو ، لكى اتأكد من حجم المساحة التى تغرقها بحيرة ماريوتيس (مريوط) وان كانت كل المنطقة قد غرقت بأكملها فى نهاية شهر بريريال من العام التاسع (يونية ١٨٠١) . وهذا ما سأتحدث عنه بافاضة فى مقالى عن البحيرات فى مصر . وقد كان

---

(٥) نقرأ فى رحلات جرانجيه Les Voyages de Granger (ص ٢٢٢) انه يوجد على بعد ستة فراسخ الى الغرب من برج العرب ، برج آخر قد تحول الى أنقاض ، وقد لاحظ هذا الرحالة (فى عام ١٧٣٠ — ١٧٣١) وجود كتابات عربية على جدرانه .

القصد من وراء هذا الاغراق الذى تم ، حصار الفرنسيين فى الاسكندرية، وذلك بقطع اتصالهم بفرقة الجيش الموجودة بالقاهرة .

رحلنا من الاسكندرية فى السادس عشر من فلوريال من العام التاسع (٦ مايو ١٨٠١) ، مع قائد الحامية المسيو كافالييه Cavalier على راس اربعين رجلا من الهجانة ، وكان معنا احد ضباط البحرية هو المسيو جار Gard الذى تلقى تعليمات بأخذ مجسات فى نقاط متفرقة من البحيرة ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وصلنا الى اول جزيرتين فى وادى مريوط . كانت المياه بالفعل قد تجاوزتهما بكثير ، وكانتا فى ذلك الوقت قد خصصتا للدفاع عن هذا الجزء المحصور من البحيرة والذى يشكل الراس الشمالية لهذا الوادى . عبرنا الى هاتين الجزيزتين فى قارب من تلك القوارب التى كانت تتبعنا ، فى الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ، ووجدنا اكبر عمق لمياه البحيرة الذى يبلغ ٥٠٠ الى ٦٠٠ قامة يبلغ عند هذه النقطة ٤٠ بوصة ، وبعد أن نصبنا خيامنا بالجزيرة واصلنا فى اليوم التالى ابحارنا داخل البحيرة التى وصلنا اليها فى الوقت الذى كانت قد وصلت اليها فيه مياه الاغراق . وتوغلنا لمسافة فرسخين الى غرب الجنوب الغربى ، تتبعنا فرقة الحرس التى كانت تسير بحذاء الشاطىء الغربى للجزيرة . وعلى هذا البعد ، وكنا فى حوالى الساعة الثامنة من صباح السابع عشر من فلوريال ، وجدنا أن عمق المياه لم يعد يتجاوز أكثر من ٧ الى ٨ بوصات . وعندما فشلت قواربنا فى التقدم لأبعد من ذلك ، غادرناها لكى نكمل مهمتنا الاستطلاعية سيرا على الأقدام . وبعد ذلك بحوالى نصف فرسخ انتهى المدى الذى وصلت اليه مياه الاغراق . وكانت هذه المياه تواصل حركتها حثيثا . وفى نفس الوقت واصلنا صعود الوادى حتى نتعرف على زاوية اتجاهها وحتى نمنح انفسنا الوقت الكافى لملاحظة المدى والحد اللذين سيبلغهما الغرق فى الأيام التالية .

وبعد قليل وصلنا الى ضريح ، كانت المياه ماتزال على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة منه ، ويطلق على هذا الضريح اسم القبة الكبيرة ، وهو حسب العادة عبارة عن مقبرة لبعض شيوخ العربان ، وهؤلاء ينظرون اليها بتقديس كبير ، وهى تقع على بعد حوالى مائتى خطوة من شواطىء

البحيرة فى شعب صغير لأحد التلال وتحيط بهـا اشـجار النخيل التى تحميها من رياح البحر مرتفعات هذا التل نفسه والذى يمتد بطول شاطىء البحيرة . وبعد أن عبرنا مرتفعات هـذا التل فى الشمال هبطنا الى واد صغير مواز للبحيرة وللشاطىء ، ويمتد بطول البحر ابتـداء من الضريح ولمسافة ١٠ ـ ١٢ فرسخا الى الجنوب الغربى ، ويجد المرء هنا وهناك بعض جذوع النخيل وآثار خضرة واشارات لم تستغلق علينـا تدل على وجود مياه عذبة تحت رمال الصحراء . وتغلق هذا الوادى الصغير من جهة الجنوب سلسلة متصلة من المرتفعات التى تحدثنا عنها والتى تشرف على بحيرة مريوط ، أما من جهة البحر « الشمال » فتحده سلسلة صغيرة من المرتفعات الصخرية التى تحاذى الساحل بأكمله ، وهى مغطاة برمل ابيض يكونه البحر ويلقى به بلا انقطاع على شواطئه ، فتبعثره الرياح او تجمعه فى شكل كثبان صغيرة متحركة . وهناك ، توجد مياه حلوة ، ولو انها تميل للملوحة بعض الشىء وذلك فى حفرات ضحلة حفرها العربان لسقاية ماشيتهم . تتبعنا هذا الوادى من القبة الـكبيرة حتى برج العرب حيث وصلنا الى هناك بعد مسيرة ثلاث ساعات .

وبرج العرب ، عمود له قاعدة مربعة تحمل جذعا مثمن الزوايا تعلوه كتلة دائرية ضخمة على غرار عمود مبتور لم يعد يتناسب ارتفـاعه مع الارتفاع الذى يفترض له من طول قطره . وهذا المبنى القائم على الشاطىء ، لايبدو فى الواقع الا كعمود هائل معكوس بشكل جزئى . وفى الخارج ، على احد وجوه الجزء المثمن منه ، وهو الوجه المقابل للبحر ، نجد عدة درجات لسلم لابد انه ينتهى الى بداية البرج على عمق حوالى عشرة أمتار تحت سطح الأرض ، وهذا المبنى الذى قام بفحصه مهندسونا فحصا جيدا ، جيد البنـاء ولابد انه كان يستخدم كنقطة مراقبة بحرية شأنه شأن كل الأبراج الأخرى التى تقع بالمثل على الشواطىء قليلة الارتفـاع فى مصر وفى هذا الجزء من صحراواتها الغربية .

وقبل أن انتقل الى موضوع آخر ، ينبغى أن اتحدث عن شىء لم ألق عليه سوى نظرة عابرة ، حيث كنت على الدوام متخلفا عن رجالنا لكثرة ما كنت اتوقف لتفحص الأنقـاض والمواقع ، أريد أن اتحـدث عن ربوة مرتفعـة بعض الشىء نلاحظها على نفس السلسلة التى تفصل البحيرة

من البحر ، مخلف هذه الربوة الواقعــة على بعد ٤٠٠ ــ ١٢٠٠ متر من برج العرب عند الاتجــاه نحو الاسكنــدرية تلمح أنواعا من النواطير وأجزاء مبنية من الحجارة واخيرا واجهات مربعة الزوايا وماثلة لتعطى فى مجملها شكلا هرميا . وفى أسفل هذه الربوة ، يوجد قاع به أنقــاض خزان جميل للمياه كما توجد منشآت أخرى . وإسم كوم أبوصير (٦) الذى يطلقه العرب على هذا المـكان انما هو مشتق من اســمه القــديم ، تابوزيريس ، وهي المدينة التي يحدد مكانها كل من سترابون وبطليموس ــ وقد سبق ان ذكرنا ذلك فيما سبق عن هذا الموقع ، وان كان موقعها هذا يتفق فى الواقع مع تابوزيريس أخرى كانت كما سبق أن حدد العالم الجغرافى اليونانى تقع على بعد مسافة من مدينة تحمل هذا الاسم (٧)، والتى نظن أن موضعها كان فى نفس موقع برج العرب كما ســنوضح فيما بعد .

وبمواصلة السير بحذاء الساحل الى الجنوب الغربى يجد المرء على بعد ٤٠٠ متر من البرج ، اطلال مبنى واسع مربع الشكل تحيط به جدران يبلغ ارتفاعها من ١٢ ــ ١٥ مترا ويبلغ طول واجهاته حوالى ٢٤ مترا . ويتجه مدخل هذا المبنى باتجاه الاسكندرية . وتعلو هذا المــدخل قبتــان ويضم المبنى فى داخله حجرات بها بعض النوافذ الصغيرة والعالية مما لا يسمح الا بدخول قــدر كاف من الضوء وهذا يعنى بوضوح أنها خلوات سرية والحجرات متينة البنــاء كما أنها سهلة ومريحة ، وجدرانها مبنية من الحجارة ولها مظهر جذاب . ويبدو للوهلة الأولى أن هذا المبنى ينتمى

---

(٦) فى رأينا ، أن اسم « ابو صير » يحتفظ بكل معنى الاسم القديم الذى كان يعنى عند الاغــريق ، كمــا لاحظ ديودور ، مقبرة أوزيريس، وبوزيريس التى يلفظها العرب بوصــير هي الاسم الــذى كان المصريون يطلقونه على الأماكن التى توجد بها مقبرة لأوزيريس . وتوجد كذلك قرية تحمل هذا الاسم غرب أطلال ممفيس عند سفح الجبال التى أقيمت عندها أهرام سقارة . ويقول المترجم الحاذق لهيرودت المسيولارشيه Larchet فى شروحه ، ان بو باللغة المصرية تعنى مقبرة . ويضيف هــذا المترجم العلامة أن بلو تارك يخبرنا انه نقل عن أودوكس Eudoxe انه على الرغم من وجود مقابر عديدة لأوزيريس فان جسمه كان مدفونا فى بوزيريس .

(٧) انظر الوصف الخاص بمدينة تابوزيريس القــديمة والذى قدمه ســان جنينى Saint Genis ــ وصف آثار العصور القديمة ، وصف مصر .

الى العمارة المصرية . لـكنه فى واقع الأمر ليس سوى تقليد لها ، وهو مبنى جميل . وتدل انقاض اعمدته المضلعة وقمته ذات النمط القوطى التى تجدها فى أطـلال السور ، على أن هـذا المبنى يعود تاريخه ، مثل برج العرب ، الى العصر الرومانى ، وفى نفس الوقت ، فاننا نستطيع واثقين أن ننسب بنـاءه الى جوسـتنيان الذى عمل فى حوالى منتصـف القرن السادس عشر ـ كما يذكر بروكوب Procobe ـ على بنـاء عدد كبير من المنشـآت فى تابوزيريس ، الواقعة ـ كما يقول هذا المؤرخ ـ على الشاطىء الأفريقى ، على مسيرة يوم من الاسكندرية ، والتى كانت تضم كما يذكر مقبرة لأوزيريس ، وليس ثمة شك ، فى أن هذا هو المكان الذى حـدد فيـه هيرودت ، النقطة الغربية لقاعدة الدلتا ، والذى كانت تقام فيـه الأعياد على شرف أوزيريس ، وهى الأعياد التى كانت تجذب كل عام ، أعدادا هائلة من النـاس ، وبخاصة الشباب كمـا ذكرنا ، وكمـا يذكر سترابون .

وتقدر المسافة بين الاسكندرية وتابوزيريس الواقعـة على الخليج البلنتينى حسب جدول تيودستيوس بـ ٢٥ الف خطوة فى مقابل ٧٥٦ قامة (١٤٧٣ مترا و ٤٧ سم) بالميل الرومانى ، اى ما يساوى ١٨٫٩٠٠ قامة (٣٦٫٨٣٦ مترا) ، لكن يبدو أن هذه المسافة ، هى تلك التى تقع بين الاسكندرية وتابوزيريس التى كانت توجد كما سبق القول ، عند كوم أبى صير ، والتى عثرنا على خرائبها على بعد ١٫٠٠٠ الى ١٫٢٠٠ متر ، الى الشمال الشرقى نحو الاسكندرية ، ونحن نقدر المسافة بين أطلال تابوزيريس ، التى تقع على الخليج البلنتينى (ويسمى حاليا خليج العرب) بمسيرة تسع ساعات ونصف الساعة ، اى انها ، اذا ماقدرنا مسـيرة القوافل بـ ٤٫٠٠٠ متر فى الساعة الواحدة ، حسب ملاحظاتنا فى مصر ، تساوى ٣٨٫٠٠٠ متر .

وفيما بين برج العرب ، والمبنى الذى انتهينا من الحديث عنه ، ترتفع سلسلة من الجبـال تخترقها محاجر ادى استغلالها الى انشاء المبـانى والمدن التى ذكرناها ، وقد حفرت بعض هـذه المحـاجر واقتطعت على شكل مغارات . ويمكن ان يبلغ عرض الساحل فى هذه النقطة ابتداء من حافة البحر حتى حافة وادى مريوط والذى يبـدو كما لو كان حوضـا للبحيرة ، من ١٠٠٠ الى ١٢٠٠ متر ، ويلاحظ فى حوض هـذا الوادى

نتوءات أو سدود صغيرة تعترضه وهى التى عملت على تسهيل الاتصال بين الساحل وبين كل البــلاد فى الجنوب . وتخترق هذه النتوءات بعض الجسور الصغيرة المخصصة لتصريف مياه المطر فى الشتاء . وتتوقف المياه المتسربة من بحيرة مريوط على بعد حوالى الألف متر الى الشمال الشرقى حسبتقرير المسيو لوجنتى ، ذلكالضابط المهندس الذى قام بالاستطلاعات الأخــيرة فى هــذه المنطقــة . وفى نفس الــوقت ينبغى أن يكون من المؤكد ـــ بحسب حالة هذه الأماكن ـــ أن مياه البحيرة قد تتجــاوز كثيرا هذه السدود فى الجنوب الغربى حيث كان النيل فيما مضى يصب مياهـــه فى هذه البحيرة مما ادى الى اتساع مساحتها الى حـــد كبير كمــا لاحظ سترابون .

وعلى بعد بضـــعة ميريامترات « الميريامتر = ٠٠٠ر١٠ متر » يظل يحتفظ الشاطىء الذى يتبع على الدوام اتجاه غرب جنوب الغرب بنفس طبيعته ، وبنفس تكوينه من الحجر الجيرى والرملى الشديد البياض .

اما عن الوادى الثانى الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى تمضى زاوية اتجاهه موازية للشاطىء ولوادى مريوط الــكبير فانه يصبح ابتــداء من برج العربجزءا سهليا محصورا ينتظم اتساعه علىنحو كبير بين ٥٠ر٢٠٠ متر حتى ليبدو وكأنه ترعة حفرتها يد الانســــان . وتنمو الخضرة هنــاك بوفرة متمثلة فى شجيرات ونبــاتات بحرية . وقـــد سرنا فى هذا الوادى لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وعند بلوغنا القمة التى يقود اليها الطريق لم أر سوى امتداد لنفس هذا المنظر . وعندما عملت على حفر حفرة فىهذا الجزء من الشاطىء استخرجت رمال كبيرة الحجم وشـــديدة الرطوبة ، وعلى عمق قـــدم واحدة نقط ظهرت مياه ملحية الطعم مما يؤكد أن الأرض فى هـــذا الوادى الصغير ادنى من مستوى سطح البحر . وقـــد نصبنا خيامنا فى هذا المــكان الذى شكل بالنسبة لنــا ملجأ امينا يسهل الدفاع عنه اذا ماحدثت اية مفاجأة لنا من جانب العربان

وفى اليوم التالى ، الثامن عشر من فلوريال . عبرنا الى جنـــوب وادى مريوط الــكبير . الذى يبلغ اتساعه مابين ٠٠٠ر١ و ٢٠٠ر١ متر ، ووجدت نفس الشكل الذى سبق أن وجدته عند برج العرب ، شكل السهل الواحد ، المــكون من رمال كبيرة الحجم ، وان كانت أقل طينية ، وتغطيه

بعض النباتات ، ومن أعلى سلسلة المرتفعات التي تحد هذا الوادي الكبير ، والتي تمتد بطوله من الجنوب الغربي وحتى الشمال الشرقي ، لمحنا رأسا يبدو انها تشكل نهاية للخليج البلنتيني القديم ، من جهة الغرب ، في الوقت الذى تشكل فيه نهايته من جهة الشمال الشرقي رأس شرسونيوس والتى تسمى اليوم بالضريح أو الشيخ . ومن هذه النقطة ، لمحت كذلك سلسلة أخرى من الجبال تتجه نحو الجنوب الغربي لتنتهي بنفس هذه الراس . وينبغي أن نستنتج أن هذه السلسلة ، تنتمي الى السلسلتين من الجبال ، اللتين تشكلان حوض البحر بلا ماء .

لم يشأ قائد الحملة ، المسيو كاماليه ، الذى كان يشاركني نفس اهتماماتي أن ينهي استطلاعاتي التي كانت قد تجاوزت الغرض من استطلاعاته هو ، وأن كان قد رفض أن نمضي لأبعد من ذلك بمثل هذه الحراسة الضعيفة وفي هذه المنطقة من الصحراء التي يتجول فيها عديد من قبائل العربان . نزلنا الى السهل وسرعان ما صعدنا الى الشمال الشرقي محاذين سلسلة جبال مريوط . وقد دلتنا الخضرة الوفيرة والآثار التى خلفتها الماشية اننا في منطقة يتردد عليها العربان الرحل . واستولى رجالنا على ٦٠ من العجول والأبقار والخراف التي تمر حراسها ، وقد شاهدنا بعض العربان يهربون عدوا نحو أماكن غير مكشوفة تشكل لهم ولا شك خطوط الرجعة اذ اننا حين تتبعناهم وجدناهم اختفوا فجأة .

وبعد قليل ، وجدنا أطلال مدينة صغيرة ، وبين الأنقاض والأحجار وجدنا بعض خزانات المياه والكثير من الآبار المبنية المعتنى بها ، وثمة جداول مرصوفة تتجمع فيها مياه الأمطار وتحملها بفعل انحناءات محسوسة في نفس الاتجاهات المؤدية نحو هذه الآبار . وبعد أن استرحنا بعض الشيء في هذا المكان تذوقنا مياهه فوجدناها طيبة فملأنا منها قربنا . وقد مرت الماشية التي استولينا عليها من العربان بهذا المكان دون أن تشرب ، ومن هنا نفهم بالطبع أن المياه لاتنقصها .

وبعد مسيرة نصف الساعة الى الشمال الشرقي ، وعلى مسافة ٨٠٠ — ٩٠٠ خطوة من سطح سلسلة الجبال التي سرنا بحذائها وعن شمالها وجدنا ، بقايا مدينة أخرى صغيرة ، لابد أن مبانيها كانت على قدر من الفخامة ، وشاهدنا هناك أطلال منشآت جميلة من الحجر . ومن الطوب

الأحمر وأبراجا وأرصفة تحتيه وخزانات مياه .. وبمواصلة سيرنا فى نفس الاتجاه وجدنا بعد ثلاثة ارباع الساعة خرائب هائلة لمدينة ثالثةحيث تناثرت على مساحة واسعة اكوام من الحجارة الضخمة والمكدسة بشكل مضطرب ينتج عن حال مدينة قلبت رأسا على عقب وأخيرا وعلى بعد مسافة مشابهة وخلال سيرنا الى الامام ، عثرنا على خرائب جديدة لمدينة رابعة . وينبغى ان نلاحظ أن المسافات التى حسبناها ، هنا بالزمن ، انما قد حسبت بحساب السير السريع للجمال .

ونظن أن بامكاننا أن ننسب الى خرائب المدن الأربع ، الكبيرة منها والصغيرة ، والواقعة فى إتساع يقل عن أربعة فراسخ اسماء المدن والقرى المبنية بجدول بطليموس بحسب الموقع الخاص بكل منها وهى كما يلى بادئين بأكثرها بعداً : كوبى ، انتيفيلى ، هيراكس ، فوموثيس .

وكل هذا الجزء من الصحراء تكسوه الخضرة والأشجار . ويبدو أن تربتها القابلة للزراعة تحتوى على رمل اقل وطين صالح للزراعة اكثر مما تحتوى سهول البحيرة . وعند صعودنا الى الشمال عبرنا من جديدسلسلة الجبال التى تشرف على جنوب منطقة مريوط ، وعند قمتها لمحنا على بعد حوالى الفرسخ الى الجنوب الغربى برج العرب . ويكفى هذا لتحديد الموقع الجغرافى بدقة كاملة لخرائب المدن والقرى الأربع التى تحدثنا عنها عند اتجاهنا من جديد نحو الجنوب الغربى .

كان المسيو كافالييه قائد الحملة يجد فى البحث عن خرائب اكثر اثارة سبق له أن زارها ويريد أن يرينى اياها . وتوجد هذه الخرائب على الشاطىء الجنوبى لبحيرة ماريوتيس « مريوط » تجاه ضريح ابى الخير الواقع على حافة الشاطىء المقابل والذى سبق أن زرناه منذ يومين ، وهى عبارة عن انقاض سور مزدوج لمدينة حصينة يبلغ ارتفاعه مترا او مترين فقط وتعلوه أبراج ، وينتهى فى شماله الشرقى برصيف متقدمداخل البحيرة. ولا يمكن أن يتطرق الينا الشك للحظة واحدة فى ان هذهالخرائب الهامة والتى تقع على بعد حوالى ٣٠ الفا من الأمتار الى جنوب الجنوب الغربى للاسكندرية ، ليست سوى اطلال مدينة ماريا ، العاصمة القديمة لاقليم المريوطية .

وقبل أن امضى لأبعد من ذلك ، سأتحدث عن مبنى هام يقع بأكمله تقريبا وسط حوض البحيرة على مسافة ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر الى الجنوب الغربى من مدينة ماريا ، ومع ذلك فليس بمقدورى ان اقــدم عنــه الا مقاييس جزافية اذ كان على — وقد أصبحت وحيداً بعد أن قمت بزيارة بعض الجزر والخرائب الأخرى بالبحيرة — أن أسرع للحاق بالفرقة التى اصبحت بعيدا عنها والتى كانت فى هذه اللحظة قد وصلت الى ماريا ؛ لهذا لم أستطع أن أتوقف طويلا عند هذا المبنى الهام على الرغم من أننى جئته دون قصــد منى ، ذلك أن القارب الذى كنت أركبه قد ساقتنى نجاة بينما هو يصارع سهل البحيرة الرطب وانزلق الى هذا المكان .

وهذا المبنى عبارة عن سور مستطيل الشكل يبدو أن طول واجهتيه الكبيرتين يبلغ ٥٠ — ٦٠ مترا بينما يبلغ عرض الواجهتين الصغيرتين من ٢٠ الى ٢٥ مترا . وجدرانه مبنية بحذق شديد وعلى هيئة مرافىء ماريا التى لم أكن بعد قد زرتها والتى توجهت اليها للحاق بالمسيو كامالبيه الذى كان ينتظرنى هنــاك . ويبلغ سمك هذه الجدران من ٣ — ٤ أمتار ويبلغ ارتفاعها نفس الطول عند قياسه من فوق التربة الخارجية باعتبارها فراغا خاليــا . وكان الموقع المنعزل لهذا المبنى الواقع فى الحوض الجافلبحيرة مريوط والذى لم تكن مياه الاغراق تبعد عنه فى ذلك اليوم بأكثر من ٤٠٠ الى ٥٠٠ متر ، وكانت الفتحة الوحيدة التى لمحتها فيه توجد نحو البحيرة من عرضها .. كان كل هذا يجعلنى اظن بأن هذا المبنى لايمكن أن ينشأ فى هذا الجزء الذى يمكن لمياه البحيرة أن تغرقه الا لكى يستخدم فى بناء او ترميم او قلفطة سفن شراعية حربيــة وبوارج وانه كان من الممكن أن يفتح او يغلق حسب الحاجة لملئه بالماء او لتجفيفه هو والمبانى التىبداخله منها . ومن الصعب أن نستنتج غاية اخرى للافادة من مثل هــذا المبنى الذى تبدو ترساناتنا لبنــاء السفن فى طولون ، وروشفل ، وبربست فى فرنسا ، وفى بعض الموانى الــكبرى فى أوربا ، مجرد محاولة للاقتراب من عظمته .

وبعد أن زرنا موقع ماريا عبرنا البحيرة متجهين الى الشمال الغربى نحو ضريح أبى الخير الواقع فى الجهة المقابلة كما سبق أن قلنا ، وقــد عبرناها بواسطة طريق صغير مرصوف ، تم بنــاؤه فى هذه الجهة كما

تم بنـــاء غيره فى نقاط اخرى على يد العربان حتى يحصـــلوا على طرق ميسورة لكى يقوموا بجولاتهم عبر سهول هذه البحيرة القديمة ، الطينية والرطبــة .

كانت مياه الاغراق قد وصلت بالفعل الى علو يبلغ ١٠ ـــ ١٢بوصة على الأكثر وذلك عنـد النقطة الأولى من هـــذا الطريق الذى يبلغ طوله ـــ وهو قليل التعاريج ـــ حوالى ١٤٢٠خطوة من شاطىء لآخر منشواطىء البحيرة أى ما يبلغ ٥٨٠ قامة اذا ما حسبنا خطوة كل من الجنديين اللذين ارسلتهما الى هناك لاجراء هذا القياس باعتبار قدمين ونصف القدمللخطوة الواحدة وكانت مياه البحر تتقدم حثيثا نحو برج العـــرب الى الجنـــوب العربى . ويمكننا تصور أن هذه المنطقة يمكن أن تصبح نقطة الاتصال بين الأسكندرية وفرقة الجيش التى لاتزال تحتل الرحمانية وبالتالى مع بقيـــة الجيش فى القاهرة . تلك كانت نقطة هامة وثمينة قد حصلنا عليهاويمكننا تقديمها الى القائد فى الاسكندرية ، فلقـــد كانت هـــذه هى الهـــدف من استطلاعنا .

ولذا ، فلكى نتأكد من الأرتفاع المحتمل للمياه فى هذه المنطقة ، فى حالة الاغراق الكامل للبحيرة ، فقد قمت بعمل تفدين (أى تعيين الارتفاع النسبى لمختلف أجزاء الأرض) ابتداء من البحـــيرة وحتى البحر ، مرورا بالضريح ، وكذلك فوق جزء منخفض من الجبل الذىيفصل بينهما ،وأرسلنا لهذا الغرض من يقوم بقياس منسوب المياه فى الجزر الأولى التى تحدثنا عنها ، والتى كنا نقوم عندئذ بتقويتها . وفى اليوم التالى ، قمت بعمل هذا التفدين أولا من البحر الى البحيرة ، لكى احصل على تقدير مؤكد . واليكم ما حصلت عليه من نتائج :

فى التاسع عشر من فلوريال من العام التاسع (٩ مايو ١٨٠١)، كانت مياه البحيرة تنخفض عن مستوى مياه البحر بـــ ١٠ لنية ، ٦بوصة، ٢ قدم ، ومن جهة اخرى ، بلغ ارتفاع المياه فى الجزء الأكثر انخفاضا من الطريق المرصوف الذى يعبر البحيرة ، فى نفس اليوم ٨ بوصة ، ١قدم، ويؤكد هذان التقديران ، أن عمق المياه فى هذا الجزء من البحيرة ينبغى أن يصل الى ١٠ لنية ، ٢ بوصة ، ٤ قدم ، بل ويمكننا ان نصـــل بهـــذا

العمق الى خمسة اقدام ، بسبب اندفاع المياه نحو هذا الطرف من البحيرة، وبسبب اختلاف المتوسطات فى مياه البحر الواطئة (٨) .

وتبلغ مسافة الأرض المحفورة من الشطآن ، من البحيرة الى البحر حوالى ٣٥٢٠ خطوة أو ١٥٦٧ قامة حسب تقديرنا السابق للخطوة ، لكن هذه المسافة تشتمل على ارتفاع وانخفاض الجبل وهو الأمر الذى يستوجب منا أن نزيد هذا التقدير بحوالى العشر . وقد جعلنا هذا التقدير نتوصل الى أن النقطة الأكثر ارتفاعا من سلسلة الجبال التى تشرف على البحيرة والبحر كما قلنا تصل الى ٦٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وان أدنى نقطة فى الوادى الصغير المتاخم والموازى للشاطىء تصل الى ١٠ اقدام فوق منسوب البحر .

ومن ذلك نستنتج ان المياه المالحة بعض الشىء ، والتى هى برغم ذلك صالحة للاستعمال ، والتى نجدها على عمق ٢ الى ٣ اقدام فى كل انحاء هذا الوادى الصغير ، المتد حتى برج العرب ، حيث يعدل من طبيعته ، ليتخذ مستوى ادنى ، يبلغ مستوى منسوبها هى الأخرى من٧ الى ٨ اقدام ، اعلى من مستوى سطح البحر .

واضيف الى هذه التفاصيل أن قائد الحملة المسيو كافالييه وكذلك ضابط البحرية المسيو جار قد أسعدهما أن مساطر الارتفاع ظلت تعمل طيلة النهار الذى استغرقته هذه العملية المدققة التى زاد من صعوبتها، وبالذات من ناحية الرؤية ، كثرة الوقفات والمراحل وشدة الحرارة والتموج

---

(٨) قلت من قبل ، انه فى اليوم السابق على عبورنا للبحيرة تجاه ضريح ابى الخير ، كانت مياه الاغراق قد بلغت بالفعل ارتفاعا قدره ١٠ ــ ١٢ بوصة عند ادنى نقطة من الطريق المرصوف ، وعندما ثبت علامة على الشاطىء الشمالى للبحيرة فى هذا اليوم ١٨ فلوريال وجدت فى اليوم التالى ١٩ منه زيادة فى ارتفاع المياه قدرها ٨ بوصات فى مدى أربع وعشرين ساعة ، مما جعلنى اقدر هنا ارتفاع المياه فوق أدنى نقطة من الطريق المرصوف بـ ٢٠ بوصة .

الشديد فى طبقات الجو فوق رمال الصحراء (٩) .

وكنت قد لاحظت خلال الاربع والعشرين ساعة التى امضيناها عند ضريح ابى الخير ، أن مياه الاغراق التى كانت قد امتدت بالفعل الى بعد نصف فرسخ ، الى الجنوب الغربى من ماريا ، نحو برج العرب ، قد ارتفعت فى هذه النقطة الى ٤ لنية ، ٨ بوصة ، وعند عودتنا من الاسكندرية ، وجدنا أن العمق عند الجزر الصغيرة التى قمنا بتحصينها ، والتى اجرينا عندها أولى ملاحظاتنا منذ أربعة أيام ، قد أصبح ٧٠بوصة. اذن ، فقد بلغ الاغراق هناك فيما بين ١٦ ، ٢٠ من فلوريال حوالى ٦ بوصة ، ٨ قدم ،فلقد سبق لنا القول بأن هذا العمق لم يكن يبلغ فى السادس عشر من فلوريال الا حوالى ٤٠ بوصة . واختتم هذه البيانات، بأن هذا العمق ينبغى أن يكون قد بلغ اليوم ١٠ اقدام ، فى هذا الجزء من البحيرة ، وخمسة عند قمة ماريا .

---

(٩) قلة فقط من الفرنسيين الذين اقاموا فى الاسكندرية هم الذين لم يكن بمقدورهم ان يلاحظوا أثر انكسار الأشعة على هذه المنطقة من سواحل مصر ، وعندما ترنو فى هذه المدينة نحو برج العرب فانك تلاحظ على الدوام نوعا من البخار يرتفع من الارض والبحر ، مشكلا درجات محسوسة جدا للونين متمايزين ، لون يميل الى الشقرة ولون يميل الى الزرقة : وهذا ناتج عن انكسار اشعة الشمس فى الطبقات الدنيا من الجو عند الأفق ، وترسم هذه الأشعة الملونة وتشكل أمام البصر بشكل واضح هذه الالوان ، التى تعود الى تاثير انكسار الأشعة فوق رمال الصحراء ومياه البحر .

وبعد متاعب ذلك اليوم ذبح جنودنا فى المساء ، وفى خمتنا ، عند الضريح ، ووسط القطيع الذى استولوا عليه ثورا باطلاق رصاص البندقية عليه من على بعد خمس عشرة خطوة، وبقى الحيوان الذى أصيب فى منتصف جبهته لحظة بلا حراك ، ثم ترنح وسقط . ان العبور من الحياة الى الموت ليس سوى وميض ، واحاط بالحيوان للحظة كل ثيران القطيع ثم اطلقوا جميعا خوارا طويلا ، اخذ بعده البعض منهم فى الابتعاد ، والبعض الآخر فى الهرب ، وقد اصابهم ذهول عميق . ولقد ذكرتنى هذه الملاحظة التى هزتنى ، وأرجو الا يعتبر البعض تدوين ذلك امرا لاجدوى من ورائه ،بهذا البيت الجميل لفرجيل :

وارتجف الثور بفعل الضربة ، وترنح ، ثم سقط

وقد جاء تذكرى لهذا البيت طبيعيا ، لأن الصورة التى رسمها الشاعر اللاتينى صحيحة وحقة . وقد قام بترجمته ترجمة أمينة المسيو ديليل Delille فى الياذته الفرنسية .

تحركنا من هذه الجزر الصغيرة متوجهين الى الشمال الغربى نحو الضريح عابرين سلسلة الجبال حيث توجد محاجر واسعة لابد أنها قد استغلت فى بناء الاسكندرية . ويتكون الشاطىء فى كل هذه المنطقة من تربة حجرية ورملية تسير فيها الجمال بمشقة بالغة . فى هذه المنطقة، والى الغرب من هذا الضريح نزل الجيش الفرنسى ، أول يولية ١٧٩٨ » . ومن منطقة الضريح توجهنا الى الاسكندرية حيث دخلناها « ١٠ مايو ١٨٠١ » وهو اليوم الخامس لمغادرتنا هذه المدينة .

وفى يوم ٢٣ التالى قمت بتفدين آخر عند قطع فى الساحل يبدو أنه كان ترعة قديمة تصل بين خليج الاسكندرية والبحيرة على مسافة ٥٨٥٠ مترا الى الجنوب الغربى للعمود .

ويمكننا ان نرى هناك آثار مجرى هذه الترعة القديمة التى لايجاوزا متوسط ارتفاع الجزء الثانى منها ٤ اقدام فوق مستوى البحر ، كمانلاحظ انها لا تتطلب الا جهدا ضئيلا لكى يعود عن طريقها الاتصال القديم بين مينائى الاسكندرية وموانى مريوتيس . وقد لاحظت كذلك ان مياه البحيرة فى الفترة التى قمت فيها بهذه العملية كانت قد ارتفعت الى حوالى ٣ اقدام و١١ بوصة و٣ شرطات ذلك أن قياس الارتفاع الأخير قد اخذ بالنسبة لمستوى مياه البحيرة لكى نحصل على مستوى مياه البحر ، وقد ظلت تتزايد الأطوال التى تقدمها المجسات التى ادليتها فى البحيرة باتجاه هذه الترعة القديمة التى بلغت من ٨ اقدام من المياه الى ٥٠٠ قامة .

وفى الثامن والعشرين من هذا الشهر ، تراوحت الأطوال التى أعطتها المجسات ، بين ١١ قدما و٧٠٠ الى ٨٠٠ قامة ، بحيث ينبغى أن تصل المياه عند اقصى درجات الاغراق من ١٥ الى ١٧ قدما .

وفى يوم ٢ من بريريال التالى ، حصلنا بالمثل على ٧ — ٨ اقدام من المياه ، فى المسافة بين الجزر الصغيرة المحصنة على الشاطىء الجنوبى للبحيرة من نفس النقطة التى قمنا بقياسها منها ، يومى ١٦ و٢٠ من فلوريال .

لم اشأ ان اتحدث عن عدد من الخرائب الأخرى ، كبيرة كانت أم صغيرة وجدتها فى كل مكان وبخاصة على الشواطىء الجنوبية للبحيرة ،

فيكفينا من هذه الجولة الاستطلاعية أنها جعلتنا نعثر على موقع سبع مدن او قرى هامة نعتقد أنها تنتمى الى مدينتين باسم تابوزيريس ، واحدة منهما تقع على الشاطىء والاخرى تقع بالداخل ثم مدن وقرى كوبى ، وانتيفيلى ، وهيراكس ، وفوموثيس واخيرا مدينة ماريا عاصمة هذا الاقليم والتى تقع على شاطىء بحيرة تحمل اسمها .

وقد جعلتنا هذه الجولة ندرك أن كل الشاطىء وكل داخل هذه الصحراء التى تغطيها الخرائب والتى تمرح فيها قبائل عديدة من العربان الرحل والرعاة قد ظلت على الدوام صالحة للسكنى ، بحيث يمكننا أن ننزع أى ظل من شك قد يحيط بشهادة المؤرخين الذين يقولون بأن هذه المنطقة كانت فيما مضى منطقة زراعية مزدهرة وآهلة بالسكان . ونرى فى النهاية أنه يكفى لكى تعود هذه المناطق الى حالتها القديمة أن يعاد حفر الترع المتفرعة عن النيل والتى كانت تجلب اليها كل عام مصادر الخصوبة .

أما بخصوص مختلف القبائل العربية التى يبدو أنها وضعت يدها على المنطقة، فانه ينبغى على حكام مصر أن يتركوا لها حرية استغلالها شريطة أن يصبحوا مزارعين مسالمين ، والا فعلى هؤلاء الحكام أن يجلوهم عنها بقوة السلاح .

أما القبائل العربية التى تجوب صحراوات مريوط ، والتى تقوم بغاراتها حتى وسط اقليم البحيرة ، فهى قبائل الجومات والطزوات ، بنى عون ، الجوابى ، الهنادى ، أولاد على (١٠) ، ويزرع عربان القبائل الثلاثة الأولى بعض أجزاء من اقليم البحيرة ، وهى الأجزاء المتاخمة للصحراء . وقد استقر عرب بنى أونوس فى قريتى جوامى والحوش حيث يزرعون الشعير . ولكى نعمل على توطين هؤلاء نهائيا هناك فلا

---

(١٠) حصلت على جزء من هذه المعلومات عن طريق المسيو شابرول Chabrol الذى قام ببحث واسع حول مختلف القبائل العربية التى تجوب هذه الصحراوات ، ومهما تكن هذه اللمحة سريعة ، فمن الأفضل أن نوردها هنا ، ذلك أن المسيو شابرول قد أخبرنى بأنه يخشى أن يكون قد فقد المادة التى جمعها حول هذا الموضوع .

(جراتيان لوبير)

ينبغى أن نسلك معهم مسلك العنف والقسر بقدر ماينبغى أن نخلع عليهم حمايتنا ضد القبائل التى تقف منهم موقف العداء ، فلقد أصبح هؤلاء يصطنعون شيئا فشيئا عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ويبدو أنهم مؤهلون لكى يصبحوا مزارعين .

وفى الوقت نفسه ، فمن الميسور أن يترك عربان الهنادى حياة الترحال ، وينبغى على حكام مصر ، حتى يبلغوا بهم هذه الحال أن ينتزعوا منهم ، عن طريق هجمات خاطفة ماشيتهم ، وبخاصة خيولهم ، ذلك أنهم سيصبحون مضطرين للاستقرار وممارسة الزراعة ، اذا ماحرموا من وسائل الهرب السريعة وهو الأمر الذى سيحد من غاراتهم وانتهاباتهم . وينبغى حتى نرغمهم على ذلك أن نستولى على الحبوب التى يحصدونها من بعض المناطق التى تساعد مياه الأمطار على زراعتها ، وذلك قبل أن يقوموا بحصادها وفى النهاية فان وطأة العوز : عندما يصبح هؤلاء محرومين من كل مصدر دخل — ستضطرهم الى اللجوء الى طلب عون الحكومة وحمايتها .

ان هذه الوسائل التى عددناها باعتبارها أساليب يمكن اللجوء اليها ضد بعض قبائل العربان هذه، لتتناسب عموما مع نوع الحرب التى ينبغى دعمها ضد كل القبائل التى تخرب وتروع حدود مصر ، والتى يمكن أن يبلغ تعداد محاربيها مجتمعين كما يقول الجنرال رينييه Reynier فى كتاب « الأوضاع فى مصر » Situation de l'Egypte من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ فارس ، هذا ان لم تفرق المصالح فيما بينهم ، وتجرهم الى حالة من الحرب المستمرة بينهم وبين بعضهم البعض .

ويشكل عربان أولاد على بشكل دائم ، حين يراد حماية مصر من غاراتهم عقبات أكبر من تلك التى تشكلها القبائل العربية الأخرى ، فهؤلاء العربان يأتون كل عام لقضاء عدة شهور على الحدود الغربية لمصر ويعيشون فى حالة حرب دائمة مع بقية القبائل . ولقد جعلت منهم الأتاوات التى يحصلونها والمصادر التى يحصلون عليها أثناء رحلتهم الطويلة فى الصحراء الممتدة بحذاء سواحل البحر فى غرب مصر ، بالاضافة الى ما يحصلون عليه من مكاسب من ماشيتهم وما يستحوذون عليه بفعل القوة ، كل هذا جعل منهم أعداء أشداء يخشى بأسهم بالنسبة لولايات مصر الغربية ، حيث

يقتربون دائما فى موسم الحصاد السنوى كى يقوموا بالانتهاب والسلب ولكى يبثوا الرعب والأحزان فى هذا الوقت من العــام . لذلك ينبغى أن تخصص قوة متحركة ، كتلك التى يمتلكونها هم ، لكى يمكن أتقاء شرهم، ويمكن أن يقوم بسلاح الهجانة الذى انشاه قائد الجيش الفرنسى فى مصر بهذه المهمة المرجوة ، والتى لابد أن تصبح الشغل الشاغل لاهتمام الحكومة الام ، بخصوص هذه المنطقة القديمة والبائسة .

الدراسة الثانيـــة :

رحلة الى وادى النطـــرون

الجنرال اندريوسى

العنوان الأصلى للدراسة هو :

دراســـة موجزة عن وادى بحيرات النطرون وعـــن النهـــر بلا ماء ، حسب المعلومات التى حصلنا عليهـــا من جولة استكشافية تمت فى ٤،٥،٦،٧،٨ بليفوز من العـــام السابع ، (أى ٢٣،٢٤،٢٥، ٢٦،٢٧ من يناير ١٧٩٩) .

(المترجم)

يكاد لا يعرف الناس عادة من كل أرض (١) مصر، الا واديها الذى يرويه النهر ، ومع ذلك ، فهناك من الاعتبارات الجغرافيـة والحكايات التى يرويها مؤرخون قدامىورحالة محدثون ، مايدفع علىالاعتقاد بأن مياه النيل كانت قد اقتحمت فى أزمنة ضـاربة فى القدم ، أعماق صحراوات مصر الغربية ، وأنها قد تركت هناك آثارا لمجراها .

واذا صح أن ملوك مصر القدامى قد أمكنهم ــ كما يدعى هيرودت ــ دفع النيل واحتواءه فى حوضه الحالى ، عن طريق قيامهم بأعمال هائلة، فلابد أن يعد هذا العمل من جانبهم ، واحدا من تلك الأمور العظيمة التى يمكن لذاكرة البشر أن تحتفظ بها .

ان البحث فى هذا المجرى الابتدائى للنيل ، ينبغى أن يلقى الضوء على الجغرافيا الفيزيقية لمصر ، وعلى تلك الأعمال التى بذلت كى تصبح ارضها خصبة ، كما لابد أن يفضى بنـا الى الطريق الـواجب اتبـاعها لاصلاح نواحى الخلل ، التى أحدثتها حقبات الأزمان ، وأدت الى تراكمها، الهمجية والجهل فوق أرض محرومة من مزايا الأمطار ، لن يكون لها من مصير فى غيبة الفيضانات أو وسائل الرى الصـناعى سـوى التحولة والعقم .

ويشير الجغرافيون لهذا المجرى القديم للنيل باسم « بحر بلا ماء » ويسميه اهالى البلاد باسم « البحرالفارغ » . ومنالمعروف أن هذا المجرى لا يبعد كثيرا عن بحيرات النطرون التى بدىء فى استغلالها من جديد منذ حوالى خمسة عشر عاما ، والتى يشتد الطلب على منتجاتها فى مجالات صناعية عديدة فى فرنسا . ومن المعروف كذلك انه يوجد بالقرب منهأديرة ومغارات لرجال الدين الأقباط ، أنشئت فى القرن الرابع الميلادى أى فى ذلك الوقت الذى انجذب فيه الى أعماق صحراوات الغرب ، وبفعلالوله بحياة الأديرة ، رجال يتقدون حمية وحماسة لدينهم أو آخرون هيـابون

---

(١) سـبق أن نشرت هـذه الدراسـة فى Décade égyptienne (دورية تصدر كل عشرة أيام) التى كانت تطبع فى القاهرة .

آثروا السلامة فابتعدوا عن الغير ، وان كانوا قد ظلوا مرغمين بفعل احتياجاتهم على الاقتراب من هذا الغير ، سعيا وراء استثارة شفقتهم او تأجيج ايمان ساذج لديهم .

ولقد كان مما يثير فضولنا ، وهو فى نفس الوقت أمر مفيد لاعتبارات عدة أن نتعرف على ذلك الجزء من أرض مصر الذى انتهينا من الحديث عنه.ومن اجل تقدير كل الأمور التى يمكن أن تفيد منها كل من الجيولوجيا وضروب الصناعة المختلفة فلقد دعا لاعداد هذا البحث السادة برتوليه Bertholet وفورييه Fourier وريدوتيه Redouté الشاب (٢) .

ولقد كان لدى أنا الأمر ، أثناء قيامى ببعض العمليات العسكرية ، بأن أحمى أبحاثهم فى مناطق تتعرض على الدوام لغارات العربان الرحل، الذين يأتون أحيانا من الصعيد وأحيانا أخرى من أطراف اقليم البحيرة ، الى مشارف هذه الصحراوات لسلب بل ولاغتيال هذا المزارع المسالم، والفلاح البائس . ولقد تجمعنا هناك لكى نحاول تجميع كل الملاحظات التى تبدو لنا على درجة من الأهمية وسأقدم فى هذا الموجز عرضا لتفاصيل الرحلة ، تاركا للمسيو برتوليه مهمة أن يقدم بنفسه نتيجة التجارب الهامة التى قام بها ، لكى يتعرف على طبيعة المادة ، وسوف تكون هذه النتائج ذات فائدة قصوى ، بمجرد أن يبين لنا المجالات التى يمكن استغلالها فيها .

---

(٢) فنان ماهر فى رسم اللوحات والحيوانات ، وبخاصة الأسماك الملونة ، كما الحق باللجنة المسيو ديشانوى Duchanoy والمسيو رينو Regnault ، تلميذ برتوليه .

الفصل الأول

عن وادي النطرون

رحلنا من الطرانة فى ٤ بليفوز « ٢٤ يناير » الساعة الثانيةصباحا، وبعد مسيرة اربع عشرة ساعة لمحنا الوادى الذى توجد به بحيرات النطرون .

الحالة الطبوغرافيــة :

يفصل وادى النطرون عن وادى النيل هضبة فسيحة ، يتدرج سطحها ببطء وتوازى النيل على الدوام ، ويبلغ عرض هذه الهضبة التى تظل على الدوام ، تقريبا محافظة على نفس مستواها ، ثلاثين ميلا ، وتغطى ارضها المتينة والصلبة بالحصى من مختلف الأحجام ، وبزلط صغير مستدير يتلون بالوان مختلفة ، وببعض الزلط المختلط بالعقيق .

وقد دفعت الرياح القوية القادمة من جهة الغرب ، الى الجهةالأخرى من التلال التى تحف بالنيل ، وكذلك الى داخل الوادى ، كل الرمال المتحركة ، ويبدو الحجر الجيرى فى بعض المناطق على سطح الأرض . وفيماعدا ذلك ، فان المرء لا يلمح فى هذه الصحراء التى قد يظن المرء بأن الطبيعة قد تركتها نسيا منسيا ، الا ثلاثة او اربعة أنواع من النباتات الضعيفة والصغيرة والمبعثرة للغاية ، مثل نبات الشوكية (٣) nitraria والبنج البنفسجى (٤) أو « الداتورة » .

وسوف يكون من العسير أن يستطيع اى كائن حى ان يجد مايعيش عليه ، فوق ارض على مثل هذه الدرجة من القحولة ، وفى نفس الوقت

---

(3) Nitraris Schoberi, Lin.
(4) Ayoscyamus daturas Fors.

فاننا لم نجد هنـــاك سوى نوع واحد من الحشرات ، ليس من هذا النوع من الأنواع الشائعة ، ويطلق عليه اسم mente obocure ، والصفة التى تحملها هذه الحشرة ، « صفة العتمة » ، تماثل تماما حالة العزلة التى نحياها ، فى أعماق مثل هذه الصحراوات .

وعند الرحيل من الطرانة ، يتخذ الطريق اتجاهه فى البـــداية من الشرق الى الغرب . وقبل الوصـــول الى النطرون بحوالى الساعتين، وبعد ان يكون المسافر قـــد اجتاز ممرا جبليا بالغ الانخفـــاض ، يسميه النـــاس راس البقرة ، يمضى الطريق نحو الشمال الغربى ، مع ميل أكبر إلى جهة الغرب ، وعندما هبطنا ، وجدنا فى منتصف هذا الجنب ، وفوق ربوة ، قصرا أو حصنا مهدما ، بنى سوره المربع والـــذى تعلوه ابواب مستديرة عند اثنين من زواياه ، بواسطة قطع صغيرة من النطرون ، مما بدل على أن الأمطار ليست بذات بال فى هذه المنطقـــة ، كما رأينـــا فى الانحدار المقـــابل دير براموس أو دير الأروام ، كما يوجـــد الى الشمال وعلى نفس المسافة تقريبـــا دير السريانيين أو دير بيشوى حيث يجـــاور كل منهما الآخر .

اقمنا مثلثـــا يربط القصر ودير البراموس ودير السريانيين . واذا ماتخذنا كقاعدة ، تلك المسافة التى تفصل بين القصر ودير البراموس، والتى قمنـــا بقيـــاسها مُوجـــدناها تبلغ ٧٢٣١٣/٤ مترا فان ضلعى المثلث الآخرين يبلغان ٧٤٣٠ ٢/٣ مترا للمســـافة بين القصر ودير السريانيين ، و ٩٢٥٨ ١/٤ مترا للمسافة بين هـــذا الدير ودير البراموس ، واذا أردنا الذهاب بين واحد من هذه الأماكن وبين غيره يكون علينا أن نجتاز طريقا هو عبارة عن رمال متحركة أو ثابتة فى بعض الأحيان بفعل بعض الطحالب النباتية ، ويلمح المرء هناك بعض النباتات ، ويقابل فى كل مكان الجبس وكتل الصخور الجيرية ، كما يرى اجمل الأحجـــار الطبـــاشيرية بين دير البراموس ودير السريان .

الجغرافيا الفيزيقية للوادى :

يصنع وادى النطرون زاوية ٤٤ درجة الى الغرب مع خط الزوال المغنـــاطيسى أما فيما يختص بالمواقع التبادلية للبحيرات وأطوالها ، فانها تقع فى نفس الاتجاه الذى للوادي ، ويحدد الأب سيكار حوضها العمودي

باتجاه الوادى ، وهو ما يتعارض بصفة عامة مع الهيدروجرافيا « علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار » . ولم يبين الأب سيكار على خريطته، سوى بحيرة واحدة كبيرة ، فى الوقت الذى توجد فيه ست منها : ثلاث الى الشمال من القصر وثلاث الى الجنوب منه ، بل أن اهالى الطرانة يذكرون أن عددها سبع . فقد كانت البحيرة رقم ٤ منفصلة بالفعل الى بحيرتين بواسطة سد تحطم فى الوقت الحاضر . ويبين دانفيل — وهو يتفق فى ذلك مع سترابون — بحيرتين ، لكنه يعطيهما نفس الموقع الذى يحدده الأب سيكار P. Sicard

وبحيرات النطرون عبارة عن مساحة تبلغ ستة فراسخ طولا ، ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ متر عرضا ، وذلك من طرف الحوض الى طرفه الآخر، وهى منفصلة عن بعضها البعض بواسطة رمال قاحلة ، وتحمل البحيرتان الأوليان منها ، وهما الواقعتان نحو الجنوب اسم بركة الدوارة أو بحرة الاديرة اما البحيرات أرقام ٣،٤،٥،٦ فتحمل أسماء لا تدل على معنى محدد، ويقوم عرب السمالو (٥) بتهريب النطرون من البحيرة رقم ٦ وينقلونه الى الاسكندرية .

وتوجد المياه العذبة — وان كانت درجة صلاحيتها تتفاوت — اذا ماحفرنا بطول البحيرات فى الانحدار المتجه الى ناحية النيل ، وتجرى المياه بغزارة على سطح الأرض لمدة ثلاثة اشهر فى العام ، أى فى تلك الشهور التى تلى انقلاب الصيف ، وتتزايد المياه عند نهاية ديسمبر ، ثم تبدأ فى الانخفاض تدريجيا ، حتى ان بعض البحيرات يصاب بالجفاف .

وينبغى بصفة أساسية أن نلاحظ الحالة الفيزيقية للبحيرات ، اذ تنقطع شواطىء البحيرات من جهة الشرق الى خلجان صغيرة ، حيث ترشح المياه وتتخذ شكل نافورات عند بداية الوديان الصغيرة ، ثم تتسرب بعد ذلك فى شكل نهيرات صغيرة تتجه الى أعماق الأحواض . اما البحيرة رقم ٣ ، فان الجزء من الأرض الذى يعلو عن هذه الينابيع — وهذا ما لاحظناه

---

(٥) عرب السمالو ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الجوابى الذين سنتناولهم بالحديث فيما بعد ، هم عرب رحل بالغو الكرم ، ولهم ثلاثة رؤساء (مشايخ) ، اكبرهم الشيخ سليمان أبو دمن ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى ١٫٠٠٠ رجل ، وتملك اربعين حصانا .

بصفة خاصة يمتد ليبلغ عرضه مائتين وخمسين مترا ، تغطيها بلورات من الملح ، ينهض وسطها وبكميات وفيرة بعض الشيء ، هذا النوع من الغاب المسطح الذى يستخدم فى صناعةالحصر العادية . اما الأرض التىتشغلها هذه الينابيع فيبلغ عرضها ٩٦ مترا ، وتشرف فى شمال البحيرة علىشريط من النطرون يبلغ ٣١ مترا . اما البحيرة فيبلغ عرضها ١٠٩ من الأمتار . فى حين يبلغ طولها ٥١٤ مترا ، اما أقصى عمق لها فيبلغ نصف المتر . وقاعها طباشيرى مختلط بالرمال ، والمياه فى هذه البحيرة وحدها لها لون الدم .

تلك هى الحالة الفيزيقية للبحيرة رقم ٣ من جهة النيل ، ويلامس الشاطىء الأيمن لحوضها رمال قاحلة ، وهناك ينمو بعض الغاب ، ويبدو ان المياه العذبة لا تصل اليه . فهل يمكن القول بأن المياه التى تغذى البحيرات تأتى من النيل مخترقة فى بطء هذه الكتلة أو هذه المسافة التى تبلغ ثلاثين ميلا ، والتى تفصل وادى النيل عن وادى البحيرات ، متبعة فى مسارها تكون الانحدارين اللذين يتجه أحدهما الىالشمال وثانيهما الى الغرب ؟ أم هى بعد أن انفصلت عن النيل بفعل هذين الانحدارين قد جاءت من رأس الوادى ــ كما سنرى فيما بعد ــ تلتمس وادى النيل فى الفيوم ؟ وعلى الرغم من كون الراى الثانى اقرب الى الطبيعة ، الا انه لا يبدو معقولا ، اذ من المؤكد أن المياه التى تصب فى البحيرات تخرج من انحدارات الشط الأيمن الذى يعلوه . وثمة عدد قليل من الينابيع على الانحدار المقابل ، وتوجد هذه على عمق كبير . وينهض الراى الأول على انتظام حركة ارتفاع وانخفاض المياه فى البحيرات كل عام ، وفى فترة تتصل بشكل شبه مستمر بفترة الفيضان .

تحليل مياه البحيرات :

تحتوى مياه البحيرات على أملاح ، تختلف حتى فى أجزاء من نفس البحيرة الواحدة ، مما يدل على عدم وجود اتصال بين مياهها .

وهذه الأملاح هى على الدوام: موريات الصودا ، وكربونات‌الصودا ، وقليل من سلفات الصودا .

وتغلب كربونات الصودا فى بعض هذه البحيرات ، بينما تغلب موريات الصودا فى البحيرات الأخرى .

ويبدو — تبعا للحالة الفيزيقية للارض — ان كربونات الصودا قد جاءت الى هذه البحيرات عن طريق مياه النافورات التى تحدثنا عنها، وكذلك عن طريق مياه الأمطار ، وهذا هو مايفسر لنا لماذا يكون الملح الموجود فى جزء من البحيرة يختلف عنه فى جزء آخر منها .

ومياه البحيرة رقم ٤ وجزء من مياه البحيرة رقم ٣ ذات لون أحمر قان يشبه لون الدم ، ويعود هذا الى أمر مادة نباتية — حيوانية ،وعندما تتبخر هذه المياه يحتفظ الملح البحرى — وهو الذى يتبلور أولا — بهذا اللون الأحمر ويكتسب رائحة الورد الجميلة .

ويرى المسيو برتوليه أن تكون الصودا ، يعود الى تحلل الملح البحرى بفعل كربونات الجير الموجودة فى الأرض الرطبة ، التى يتم فيها هذا التحلل . ووجود الرطوبة أمر ضرورى لحد كبير لتحلل الملح البحرى، وقد رأينا أن هذا أمر متوفر . أما عن الحجر الجيرى ، فانه موجود بكميات كبيرة فيما بين النيل والبحيرات ، وكذلك فى الوادى ، حيث يظهر اما فى شكل صخور أو فى شكل طباشير .

استغلال النطرون

يشكل استغلال النطرون جزءا من التزام الطرانة (٦) التى تدخل حاليا ضمن الحدود الجديدة لولاية الجيزة (٧) .

ويتم نقل النطرون فى الفترة مابين البذر والحصاد ، وتتجمع القوافل فى الطرانة ، وتتكون القافلة الواحدة من مائة وخمسين جملا ومن ٥٠٠

(٦) تشتمل منطقة الطرانة على ستة قرى منها : كفر داود ، الطرانة ، وأبو نشابة .

(٧) كان يحد ولاية الجيزة تحت حكم المماليك ، من الشمال الجسر الأسود ، الذى كان يفصلها عن ولاية البحيرة ، لكنها تمتد الآن حتى قرية أبو جروة . ويعبر الجسر الأسود الأول ، ابتداء من الكثبان الرملية ، حيث ينحدر حتى النيل . وعند طرف هذا الجسر بالقرب من قرية أم دينار ، توجد قناطر لتمرير مياه الفيضان ، أما المياه التى يحجزها الجسر الأسود ، طول الوقت المطلوب ، فانها تخصب السهل ، وتجعل انتاجه بالغ الوفرة .

الى ٦٠٠ حمار ، وترحل مع حراسها عند غروب الشمس ، لتصل الى البحيرات أثناء النهار ، فتكسر النطرون وتحمله ثم تعاود الرحيل .

وفى أثناء العودة تتوقف القافلة فى منتصف الطريق . وتصنع وقودها من روث حمير وجمال القافلة السابقة (٨) ويشرب رجال القافلة ومرشدوها القهوة ، ويدخنون النارجيلة ، ويتزودون بقليل من الخبز ، وذلك بعجن الدقيق فى طبق من الخشب ، ثم بانضاج العجين على الفحم ، ويقيم مرشد القافلة نقط حراسة لكى تظل القافلة فى حمى ضد العربان ، وتنام بقية القافلة لبضع ساعات ، ثم تعاود السير ، لتعود الى الطرانة فى اليوم الثالث .

ويقدر ما تنقله كل قافلة بستمائة قنطار من النطرون ، كل قنطار منها يزن ٤٨ أقة (٩) .

والطرانة هى مستودع النطرون ، وينقل النطرون بطريق النيل الى هذه القرية ثم يرسل الى رشيد ، ومن هناك يذهب الى الاسكندرية ، ثم يصدر من ثم الى أوروبا ، أو ينقل الى القاهرة حيث يباع لكى يستخدم فى تبييض الكتان وصناعة الزجاج (١٠) .

ويقدر الفاقد الذى يصيب المادة عند التفريغ أو الايداع بـ ١/١٠ الوزن .

ويدفع فلاحو قرى الطرانة الست الميرى المقدر عليهم من نقل النطرون ، واذا ماحدث نتيجة لظهور العربان أو بفعل أحداث أخرى أو

---

(٨) يؤدى نقص الوقود ، على الدوام ، بالقوافل المتتابعة فى الصحراء ، الى أن تتوقف فى نفس الأماكن التى عسكرت فيها سابقتها من قبل .

(٩) تساوى الأقة ٤٠٠ درهم أو رطلين ونصف زنة مارك .

(١٠) يوجد فى القاهرة نوع آخر من النطرون ، يجلبه الجلابة السود فى قوافل دارفور وسنار ، ويستخدم فى تجهيز التبغ المصرى ، اذ يخلط به لاعطائه نكهة نفاذة . وقد قام المسيو رينيولت بتحليل هذا النطرون ، ووجد أنه يحتوى على كمية من مريات الصودا أكبر من غالبية العينات التى جلبناها معنا .

عانى استغلال النطرون من بعض التعطيل ، يدفع الفلاحون احدى عشرة بارة (١١) عن كل قنطار كان مقدرا أن ينقلوه .

ويباع النطرون فى مصر بسعر القنطار زنة ٣٦ اقة ، بخردة واحدة تساوى بدورها تسعين بارة .

ويدفع المشترى اجرة الشحن النهرى ، ويجهز الملتزم البارود والرصاص لحرس القوافل ، ويبلغ عدد افراد هذا الحرس ستين رجلا مسلحا ويطلق عليهم اسم الباشات .

ويدفع اليهم الملتزم اجورهم . والتزام النطرون هو ضريبة ملح حقيقية ، وتلتزم القرى التى تملك منشآت تستخدم فيها هذه المادة بشراء كمية محددة منها كل عام .

وقد جعلت صعوبة اختراق وادى النطرون ، من العسير ، فى كل وقت ، دراسة أحوال البحيرات ، فكان استغلالها يتم على غير نظام او قاعدة . وشواطىء البحيرات كما سبق القول مغطاة بكتل من بلورات الكريستال التى لا يقترب منها احد ، والتى يمكن برغم ذلك الحصول منها على فوائد جمة ، فهى توجد بكميات وفيرة . ولا يستغل من بين هذه البحيرات فى الوقت الحالى الا البحيرة رقم ٤ . ويدخل الرجال عراة الى المياه ، ويكسرون وينزعون النطرون بكماشة حديدية مستديرة الشكل ، يبلغ وزنها حوالى الستين رطلا ، احد فكيها على هيئة عش الغراب ، اما الآخر فينتهى بسن مدببة من الصلب . وهؤلاء الرجال لا يلقون أدنى اهتمام بالنطرون الموجود على سطح الأرض ، والذى يمكن انتزاعه بجهد اقل من الجهد المبذول فى استخراجه من البحيرات بكثير . وانه لمشهد مثير للفضول ان ترى هؤلاء المصريين ، وهم يخرجون من البحيرات فى بياض شاهق ، بينما هم فى الحقيقة سود البشرة أو برنزيو اللون .

تجارة النطرون :

تعتمد حالة تجارة النطرون بالمثل على تحليلات لم نكن فى وضع يسمح لنا بالقيام بها ، وعلى نوع من النشاط والاهتمام لا يمكن لنا

---

(١١) كل عشرين سو Sous فرنسية تساوى ٢٨ بارة .

الاضطلاع به ، فى بلد ظلت فيه مكاسب الصناعة فريسة لمغارم الحكام ومظالمهم . وقد يترك المستغلون فى النطرون خليطا من مختلف الأملاح مع الصودا ، وبالذات الملح البحرى ، الذى يؤدى وجوده الى زيادة مجحفة فى وزن النقلة . ومن جهة أخرى يشكو صناع مارسيليا فى أنهم يعانون من أضرار حقيقية وكبيرة ، اذ تتحلل غلاياتهم اثناء غلى الأملاح ، وبداوا لذلك يقبلون على الصودا القادمة من اليكانتى . وهكذا كانت مصر توشك ان تفقد هذا المصرف لبضاعتها فى أوربا ، لولا أن الحرب قد نشبت فجأة فجعلت نقل الصودا من اليكانتى أمرا اكثر مشقة .

وفى سنوات ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ ، ١٧٩٠ ، عندما أمكن لتجار مارسيليا عقد صفقات تجارية جديدة ، فانهم استوردوا الى فرنسا كمية هائلة من النطرون ، خزنوا جزءا كبيرا منها فى محلاتهم .

ويتم تصدير النطرون المصرى الى الخارج ، الى البندقية وفرنسا وانجلترا ، ويكاد ماتستورده انجلترا يساوى نفس الكمية التى تستوردها فرنسا ، اما البندقية فلا تحصل الا على خمس ماتستورده الدولتين الأخريين .

وقد اهتم المسيو رينيولت بموضوع شديد الأهمية ، هو أن يفصل اكبر قدر من الصودا عن النطرون ، بقصد تقديم النطرون الى أغراض التجارة وهو فى أقصى درجات نقائه ، الأمر الذى يؤدى مع زيادة طفيفة فى مصاريف استخراجه الى مضاعفة انتاج وقيمة الصودا ، مع اتباع نفس الأساليب المستخدمة . ويوجد الملح البحرى فى بعض أنواع النطرون بين طبقتين افقيتين من الصودا ، بحيث يمكن استخلاص الملح بشكل آلى .

وهكذا ، فتجارة النطرون فى مصر ، بعد أن أصبحت هذه مستعمرة ، سوف تعتمد على اعتبارين أساسيين :

الأول : الاستغلال الحر للبحيرات ، وسيصبح هذا الاستغلال فى شكل افضل ، عن طريق اقامة حرس ، واتخاذ اجراءات عسكرية ، مثل اعادة استخدام وترميم القصر وشغل الأديرة القبطية .. الخ ، لأن العربان فى هذه الحالة — وأمرهم لا يخفى علينا — سيكونون اقل مدعاة للمخاوف .

- الثانى : اختيار وتنقية النطرون . وينبغى أن تقام المنشآت الخاصة بتنقية النطرون فى أماكن أكثر قربا من البحيرات مثل القصر والطرانة .

منتجات الممالك الثلاث « النباتية والحيوانية والجمادات » :

يوجد على شطآن البحيرات البوص والسمار بوفرة شديدة ، كما توجد منتجات أخرى من المملكة النباتية . وتتناقض خضرة هذه النباتات بدرجة تبعث على الدهشة ، مع بياض بللورات الملح شاهقة البياض، ومع اللون الرمادى الكالح لحصى الصحراء .

ونرى بالقرب من البحيرات غاب البوص ذا السيقان العالية (١٢)، والطقطق « زهور من فصيلة الرصاصيات » الخالى من الأوراق (١٣)، والاثل الفرنسية (١٤) والارطماسية البحرية (١٥) « نبات عطرى » والسمار (١٦) والبوط « أو عصنوية المروج » ذات الأوراق العريضة (١٧). وهذا النبات الأوربى الذى ينمو بوفرة فى فرنسا ، فى البرك والمستنقعات، وهو واحد من أغزر النباتات على شواطىء بحيرة النطرون . وترى هناك الشنجبار ذات الأوراق الضيقة (١٨) « هو نبات زينة » ، والجمان أو الطرطير ذات الورود البيضاء (١٩) والجنبة أو الحولاى (٢٠) ذات الأوراق الرمادية . وتوجد أيضا السويدا (٢١) وهو نوع من الصودا ويطلق عليه هذا الاسم فى حين يسميه العربان باسم الصهد . ويشاهد هناك ايضا بعض أشجار النخيل قليلة الارتفاع ، وهى تكون غابات كثيفة ، لكنها لا تنتج ثمارا على الاطلاق . وقد وجدنا خلف البحيرة الأخيرة بقليل عشرين نخلة منزوعة من الأرض ، ومجمعة كيفما اتفق فى شكل كومة ، بحيث يمكن القول بأنها قد انتزعت وحطمت بفعل حركة عنيفة .

---

(12) Arundo maxima, Fors.
(13) Statice aphylla, Fors.
(14) Tamarix gallica, Fors.
(15) Artemisia marltima, Lin.
(16) Juncns spin asus, Lin.
(17) Typha latifolia, Lin.
(18) Lithospermum angustifolium, L.
(19) Zygophyllum album, Lin.
(20) Fagenia scabra, Fors.
(21) Suoeda vera, Fors.

أما انواع الحيوانات المختلفة هناك فليست كثيرة العدد فترى الجعل أو القنديد (٢٢) والسرطان بأنواعه المختلفة (٢٣) والنمل العــادى والنمل الضخم ذا الأجنحة ونوعا من البعوض الذى تسبب لسعته أوراما هائلة. ومن طبقة الصدفيات نجد القواقع « الحلزون » من النوع الصغير ، ومن ذوات الأربع نجد الحرباء والغزلان ، ويستدل على الأخيرة من آثار أقدامها المشقوقة التى تتركها على الرمال . وقد تعرفنا بين الطيور على دجاجــة المــاء والبط والشرشير « البط البرى » ، وتوجد هذه الطيــور بوفرة شديدة وبخاصة عند البحيرة الأخيرة ، وهى التى يقل تردد الناس عليها .

ولا يوجد فى وادى النطرون أى أثر لمنشآت قديمة ، اذ لم نشاهد فيها وراء البحيرة الرابعة الا أثر مصنع للزجاج ، وقــد تعرفنا عليه من انقاض أفرانه المبنيــة بالطوب الأحمر ، ومن بعض فتات المعادن والزجاج فى اشكال مختلفة . ويزخر الموقع الذى كان يوجد به بالمادتين اللازمتين لصناعة الزجاج ، وهما الرمل الصوانى والصودا . ولعل الخشب فى ذلك الوقت لم يكن بالندرة التى هو عليها اليوم . ولسنا نعرف الى أية فترة تنتمى هذه المنشأة ، وكان من الممكن أن نستدل على ذلك من نقوش الميدالية او قطعة النقود التى عثرنا عليها هناك ، لكن هذه النقوش كانت صــدئة لدرجة لم يكن من السهل معها أن نفك أيا من رموزها .

---

(22) Pimelia muricata.

(23) Carabus variegatus.

الفصل الثاني

طبوغرافيــة البحر الفــارغ

يقع وادى النهر بلا ماء الى الغرب من وادى بحيرة النطرون . وهذان الواديان اللذان يلتصقان كل منهما بالاخر ، لا ينفصلان الا عن طريق تل مرتفع ، وتستغرق المسافة من الديرين الى الوادى المجاور ساعة ونصف الساعة .

وقد تكدست الرمال فى وادى نهر بلا ماء ، ويبلغ اتساع حوض هذا الوادى من شاطىء لآخر حوالى ثلاثة فراسخ . ويمضى المرء أربعين دقيقة كى يهبط ، عن طريق منحدر منتظم على نحو معقول ، حتى يصل الى قاع الوادى فوق الرمال .

وهذا الوادى قاحل لا تبدو به أية مصادر للمياه : وقــد وجدنا به الــكثير من الخشب المتحجر ، وعددا من اجسام أشجار بأكملها يبلغ طول البعض منها ثمانية عشر قدما . ولم يكن يبدو أن أجسام الشـــجر وقطع الخشب التى ظهرت لعيوننـــا قد مستها يد الانسان (٢٤) . وكانت غالبيتها قد تحجرت تماما اما اقلها فقد بدا اقل تقدما فى تحجره ، لذلك كان مغلفا بطبقة بالغة الكثافة وبالغة الصلابة. اما الجزء الذى يشكل المادة الخشبية « اللباب » فكان متباعدا فى شكل طبقات من الورق . وقد وجدنا كذلك

---

(٢٤) يؤكد ب. سيكار P. Sicard (Lettres édifiantes) أن المرء يجد فى وادى نهر بلا ماء صوارى ، وانقاض سفن متحجرة ، الا اننا لم نلاحظ شيئا من ذلك ، وان كنا فى الحقيقة لم نر الا جزءا من الوادى : ويدعى جرانجيـــه Granger فى تقريره عن رحلته الى مصر ، ان ما نأخذه عادة على أنه خشب متحجر ليس كذلك على الاطلاق ، ومع ذلك ، فان العينات التى احضرناها لها بالتأكيد خواص الخشب المتحجر، حتى أنها بدت كذلك فى أعين افراد اقل خبرة ودراية ، كما ان علماء الطبيعة الحاذقين ، الذين فحصوها بعناية ، قد حكموا عليها نفس الحكم .

فى هذا الحوض سلاسل عظام من السمك الكبير الذى بدا لنا متحجراً، وهو ما يضيف احتمالا جديدا — كما سنرى — الى الاحتمال القائل بأن المياه كانت تجرى فى هذا الوادى ، وانها كانت تحتوى على حيوانات تعيش فيها .

وبخلاف الأخشاب المتحجرة ، يرى المرء ، وبشكل خاص على منحدرات الوادى ، أحجار صوان ملفوفة ، جاءت دون شك من مكان جد بعيد ، بالاضافة الى الزلط والجص والبلورات الصوانية المكونة داخل تجويفات ، وانواع من الجيود « وهو حجر به تجويف ومبطن ببللورات او بمادة معدنية » وقطع من الشب « حجر كريم مختلف الألوان » المستدير، وقطعا من الحجارة ذات قاعدة صوانية تميل الى اللون الأخضر ، وبعضا من اليشب المسمى بالزلط المصرى .. الخ وتنتسب غالبية هذه المواد الى تلك الجبال النائية فى صعيد مصر ، ولا يمكن أن تنتقل هذه المواد الى هنا الا عن طريق مياه النيل . اذن فقد كانت هناك صلة بين النيل ونهر بلا ماء ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة صلة بين الواديين ، وليس ثمة مايؤكد أن مثل هذا الاتصال كان مستحيلا ، لكننا سوف نؤسس وجود هذه الصلة على اعتبارات أخرى .

ان اتجاه وادى نهر بلا ماء هو نفس اتجاه وادى بحيرات النطرون، والرأى الشائع هو أن المرء عند اتجاهه الى الجنوب بين هذه الوديان ، يصل الى الفيوم ، وعند اتجاهه الى الشمال منها يترك على يساره اقليم مريوط (٢٥) . وهذا هو الطريق الذى يسلكه العربان عادة للقيام بغاراتهم

---

(٢٥) تقع مريوط على مسافة أربعة فراسخ الى الغرب من الاسكندرية ، نحو البحر ، وتستطيع سرية من الفرسان ، راكبى الجمال (الهجانة) أن تصلها فى ساعتين ونصف الساعة ، ويجد المرء فى هذه المنطقة ، ثلاثة آبار عميقة ومعتنى بها ، تغذيها مياه الأمطار ، ويلمح المرء فى المنطقة المجاورة بعض الخرائب ، وكذلك مقابر العربان المزدانة بالتعويذات ، وهذه عبارة عن آيات من القرآن ، موضوعة داخل كيس صغير من الجلد ، معلق فى خيوط فوق المقابر .

فى مناطق الصعيد . كما أن اتجاه هذين الواديين ، يدفع الى استنتاج ان نقطة تماسهما تقع فى نفس المكان الذى ترسم فيه على الخريطة بحيرة موريس ، كما أن اتساع وادى النهر بلا ماء بالاضافة الى مايذكره المؤرخون عن بحيرة (قارون) يدفع الى الاعتقاد بأن هذا الخزان لم يكن سوى رأس لهذا الوادى ، الذى سد بشكل طبيعى بفعل تكدس الرمل ، أو بواسطة يد الانسان ، بطريقة يمكن القول معها بأن بحيرة موريس قد تكونت ولم تحفر . وهذا الراى شديد الترجيح بحيث أن المرء عندما يفكر فى طبوغرافية هذه البلاد سيجد ما يقنعه بأن خزانا يحفر تحت مستوى تربة مصر ، سوف يجعل المياه التى ينلقاها بغير ذات نفع لهذه التربة . ولقد أوضحنا أن المياه التى حجزت على هذا النحو ، ستكون بالأحرى فى وضع تجرى معه نحو نهر بلا ماء ، لا أن تجرى الى داخل وادى النيل .

ولكى تكون هذه المياه نافعــة للجــزء الأدنى من مصر ، كان الأمر يقتضى عكس ذلك ، اى إن يكون حوض البحيرة ، بدلا من أن يكون محفورا بشكل طبيعى ، قد يكون عن طريق ســدود علوية أقيمت فــوق الأرض الطبيعية ، بقصد ان تحجز بعد الفيضان كمية من المياه أعلى من مستوى أرض مصر . ان وجود بحيرة موريس ، والغرض الذى ينسب اليها عادة، سيصبحان اذن امرين مشكوك فى صحتهما ، وربما يشكلان على الــدوام مشكلة تستدعى الحل .

= وتلامس ارض مريوط ، التلال التى تنتهى اليها المرتفعات الليبية ، أما التربة هنـــاك ، فهى عبارة عن ارض رسوبية ، تشابه ارض مصر ، ونبعا لذلك ، فانها تدين بتكوينها لميــاه النيل ، التى كانت تصل الى هناك فيما مضى ، وحين تسقط الأمطار ، تتكاثر بعض الأعشاب فى مربوط ، وهذا مايدفع العربان ، وبخاصة الجوابى ، الى الذهاب الى هنــاك مع قطعانهم ، ولأن الآبار لا تتزود بالمياه الا عن طريق الأمطار ، فان ميــاه هذه الآبار ، تتجدد فى أوقات الجفاف ببطء شديد . ويتردد العربان على مريوط بسبب قربها من الاسكندرية ، ولأنها تقع على طرف خط الآبار الذى يجاور الصحراء عند الاتجاه الى ولاية البحرة . ويؤدى هــذا الخط الى بحيرات النطرون ويصل المرء بعد عبوره الهضبة التى تفصــل الواديين، بعد مسيرة يوم ، وعند الطرف الشمالى للبحيرات ، الى مرتفعين متجاورين يطلق عليهما اسم النهدين .

وهذا الجزء ، الذى سمحت لنـــا الظروف بالتعرف عليه ، هو مفتاح الجغرافيا الفيزيقية لمصر .

وان كان لنا ان نتجاسر على التشبع لراى ، لقلنا أن اتساع وحجم حوض النيل فى الفيوم يعودان الى منفذ بحر بلا ماء الذى يبدو على نحو هائل . ويحدد الأب سيكار ، ويحذو حذوه سترابون ، حوض هذا الفرع القديم للنيل ، بأنه يتجه نحو بحيرة موريس ، لـكنهما يتركان نقطةالتلاقى غامضة ، ويعطيان لبحيرة موريس نسبا وأبعادا من الضخامة بحيث تتجاوز الحد بالنسبة لاتساع بحر بلا ماء . واذا كان الراى الذى عرضناه لايعدو أن يكون الا نوعا من التخمين ، فان النتائج التى حصلنا عليها ، وحسب استنتاجاتنا ، من المهمة الاستطلاعية التى قمنا بها ، توضح لنا ، انهكانت توجد مجارى مياه كبيرة فى داخل الصحراوات . وانه من المحتمل جـدا ان كان النيل ينقسم الى عدة فروع الى الجنوب من بحيرة موريس ، وان الفرع الحالى كما سبق أن لاحظنا كان يجرى فى قاع الحوض بطول التلال الليبية ، كما تبرهن على ذلك شهادات المؤلفين ، وخطوط مهد أو قاع هائل يستمر بطول هذه التلال ، ويستحيل أن يكون هذا المهد قـد تـكون الا بواسطة مجرى مياه كبير . وقد وجدت هـذا المهـد فى كل اتساع ولاية الجيزة ولمساحة تبلغ ثلاثين فرسخا ، وثمة مظهر لافت للنظر وهو انه يتوغل الى الأمام متجهـا نحو الجنـوب حتى يصـل فيما أزعم حتى بداية بحر يوسف ، اى عند النقطة التى يعتقد أن النيل فيها قـد غير مجراه ، لكى يلقى بثقله على الشط الأيمن ، وفى أعماق هذا المهد تجرى ميـاه بحـر يوسف (٢٦) .

وهكذا يبدو لنا من شهادات التاريخ القديم التى تناولت تربة مصر :

١ ــ أن النيل ، او بترجيح اكبر ، أن جزءا من مياهه كانت تجرى داخل صحراوات مصر الغربية عن طريق وادى النطرون ونهر بلا ماء .

٢ ــ أن المياه قد دفعت الى الوادى الحالى ولعلنـا نستطيع ان نفسر بهذا ، لماذا كانت مياه الفيضان فى عصر هيرودت ترتفع الى خمسة عشر ذراعا بينما لم تبلغ فى زمن موريس الا ثمانية اذرع فى حين انها اليوم ، تبلغ ثمانية عشر ذراعا .

---

(٢٦) تحمل هذه الترعة فى البداية وهى تمر بولاية الجيزة اسم ، ترعة اللبن ، ثم ترعة الاسراء ، ثم تستعيد فى ولاية البحيرة اسمها الذى تسمى به فى مصر العليا وهو اسم : بحر يوسف .

٣ ـ ان النيل بعد هذه العملية قد جرى بأكمله بموازاة التلال الليبية، وشكل لنفسه المهد الذى نراه فى مصر السفلى ، وفى جزء من مصر الوسطى .

٤ ـ أن النيل قد « حمل » على الشط الأيمن وان هذه الفترة قد سبقت مباشرة الوضع المنتظم للفروع السبعة للنيل وتكوين الدلتا (*) .

٥ ـ أن الشهادات الجغرافية التى عاصرت الوقائع السابقة ، تؤكد بالاضافة الى ما قلناه ، أن مياه النيل تميل للاتجاه نحو الغرب، وهو ميل يوضحه فى مصر ، كما هو الحال فى كل بلد آخر ، فى أى موقع آخر ، فعل وتأثير الطبوغرافية العامة للارض .

ويتبع هذا الراى الأخير ، أن المشروع الذى كان لدى البوكيرك والذى كان يُرمى الى تحويل مصر الى أرض جرداء ، بتحويل مجرى النيل ، كان ممكن التحقيق لو انه قد دفع بمياه النيل الى الصحراء الغربية ، أكثر منه ممكنا لو أنه دفعها الى اتجاه البحر الأحمر ، كما كان يقضى مشروعه .

ان وادى النهر بلا ماء لبس هو النقطة النائية فى هذه المنطقة ،اذ يمكن للمرء أن يتوغل من هناك الى داخل أفريقيا ، فسكان الطرانة يذهبون الى ماوراء هذا الوادى لقطع السمار ، الذى تنقله قبيلة عرب الجوابى من قراهم ، ليباع فى منوف (٢٧) حيث يستخدم فى صناعة ارق انواع الحصر ، ولكى نتوجه من وادى نهر بلا ماء الى المكان الذى

(*) انظر دراستنا عن بحيرة المنزلة . (المجلد الثالث من الترجمة العربية) .

(٢٧) منوف : هى احدى مدن الدلتا ، وتقع مباشرة امام الطرانة على بعد فرسخين من فرع رشيد ، وأربعة فراسخ من فرع دمياط ، وعلى الشط الشرقى لترعة الفرعونية ، التى تعبر ، بالمثل ، الجزء الجنوبى من الدلتا ، ابتداء من فرع دمياط ، حتى فرع رشيد ويقفلها عن جهة فرع دمياط جسر يسمى الفرعونية ، وبهذه الطريقة أمكن توزيع عادل للمياه، بحيث حصلت الولايات الواقعة الى شرق او الى غرب الدلتا ، على نفس الامتيازات ، وتستطيع ادارة متنورة، بأيسر السبل ،أن تعالج الاضطرابات والمتاعب التى نجمت عن جشع وجهالة الحكومة السابقة ، عندما فضلت ولاية المنصورة ودمياط على حساب ولاية البحيرة ، التى تحول جزء كبير من اراضيها بسبب نقص المياه ، الى صحراء حقيقية .

تقطع منه السمار ينبغى أن نسير ثلاثة أيام كاملة من شروق الشمس حتى الغروب ، دون ان يكون بامكاننا ان نعثر على ماء طيلة هـذه المسافة ، وحتى نبلغ المنطقة التى ينمو فيها السمار .

زحف الرمال :

قلنا فى بداية هذه الفقرة ان وادى نهر بلا ماء قد غص بالرمال . وما يقال بخصوص هذه الرمال هو نفس مايمكن قوله بخصـوص الرمال التى توجد فى وادى النيل ، فقد حملتها الرياح من فوق الهضاب الواقعة الى الغرب . وحيث أن وادى النطرون ووادى نهر بلا ماء لا ينفصلان الا بواسطة تل ضيق ، فان الوادى الأول يكاد لا يسـاهم على الاطلاق فى زحف الرمال هذه ، على الرغم من انه توجـد على يمين الوادى أو الى الشرق منه ، تلك الهضبة الواسعة التى تفصله عن النيل . ويدل ذلك بوضوح على تحرك محدد للرمال من الغرب الى الشرق ، وقد كانت هذه الحركة ملموسـة منذ وقت طويل ، لدرجة سببت أشد القلق على مصير تلك المنطقة شديدة الخصـوبة من أرض مصر ، وهى تلك التى توازى الشاطىء الأيسر للنهر .

ودون أن نخرج كثيرا عن الاطار الذى حددناه لأنفسنا ، نستطيع القول بأن الكثبان التى تقع فوقها قرية منية سـلامة والتى تضم أتريس ووردان (*) قد تكونت بفعل انتقال الرمال من الصحراوات الليبية ، عن طريق الرياح القادمة من الغرب ، وتحت هذه الكثبان توجد تربة رسوبية تكونت من طمى النيل اى أنها بمثابة قاعدة لهذه الكثبان ، وترتفع منهـا أشجار جميز بالغة الجمال ، لتخرج من قلب هذه الكثبان القاحلة .وتصل الرمال فى هذه المنطقة ، وفى مناطق أخرى الى النيل ، كما يصل رماد فيزوف الى شاطىء البحر . وتردم الرمال الطريق الموازى للنهر ،وتضطر المسافر الى اجتياز هذه الأرض المرتفعة والمتحركة .

ويؤدى هذا الأمر ، بالاضافة الى ماقلناه فى دراستنا عن بحيرة المنزلة ، الى أمور نوجزها فيما يلى :

(*) انظر الخريطة الطبوغرافية لمصر .

هناك ثلاثة أسباب مجتمعة عملت منذ وقت طويل على حصر أرض مصر وتدهور خصوبتها . وهذه الأسباب هى : عمل الحكومة وهـو فى عمومه ذو أثر مضاد للصالح العام ، تقلبل فاعلية مياه النيل وهو الأمر الذى ادى نتيجة للادارة السيئة للحكومة الى طغيان مياه البحر علىالأجزاء الدنيا وغير المستوية من أرض مصر ، واخيرا ذلك العمل المستمر والدءوب للرياح التى تدفع رمال الصحراوات من الغـرب الى الأراضى الصـالحة للزراعة والى الترع والنهر .. ومن الممكن تعـديل الظروف فيما يختص بالسببين الأولين، لكن ليس ثمة جهد بشرى يمكنه أنيتصدى لزحفالرمال. وفى غيبة العوامل الطبيعية القادرة على ذلك ، فقد أدت السذاجةوالجهل الى تلمس الخرافات ، فنقرأ مثلا عند مؤلفين عـرب (٢٨) ان أبا الهول، الذى يشاهد بالقرب من الأهرام، هو بمثابة تعويذه لايقاف الرمالالليبية، ومنعها من التوغل فى أراضى ولاية الجيزة .

ومع ذلك فاننا نعتقد ان بامكاننا أن نضـيف الى ما سبق ، وكما امكننا أن نلاحظ ذلك بأنفسنا ، أن غزوة الرمال الليبية تقارب من نهايتها، بالنسبة لمصر السفلى على الأقل ، حيث لا يوجد فى الواقع الا القليل من الرمال المتحركة فوق الهضبة ، الى الغرب من النيل .

وهذه الهضبة من الحجر الجيرى .

وتكاد تكون كل الرمال التى ترى فى وادى النيـل من نوع الرمال الصوانية ، فلا يبقى اذن للرياح الا الرمال التى يمكن أن تنتج عن تفتت الأحجار الجيرية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان وادى نهر بلا ماء ، يقوم بدور الحـاجز ضد الرمال التى تزحف من داخل أفريقيا نحو النيل ، ويوازى هذا الوادى ولايتى الجيزة والبحيرة ، وفى الحقيقة فان وادى نهر بلا ماء هذا يغص بالرمال ، لكن الرمال لايزال أمامها الكثير حتى ترتفع الى حواف حوضه،

---

(٢٨) انظر جغرافية عبد الرشيد ، الذى كتب عام ١٤٠٣ من العصر الحـديث (الميـلادى) .

بل انه حتى لو حدث ذلك، فسوف يكون على الرمال أن تسد وادىبحيرات النطرون قبل أن تبلغ الهضبة لتنتقل من هناك الى وادى النيل .

ان عمل الرياح على الرمال الموجودة فى هذا الوادى هو بلا جدال اكثر الأمور مدعاة للاسف ، وهذه الرمال تتحرك وتغير من مكانها ،وسوف تصل بعد انتقالها من صخرة لأخرى الى النهر ، كما يشاهد ذلك فىالأماكن التى يضيق فيها وادى النيل ، فى حوض مصر .

ومع ذلك ، فليست الرياح وحدها هى التى تنهض بكل العبء لـــكى تدفع بالرمال نحو النيل ، فمياه النيل نفسها ، بتحميلها على الشطالأيسر، وبنحرها لهذا الشط ، تسعى بنفسها حثيثا نحو الرمال .

الفصل الثالث

عن الأديرة القبطيـــة

انشـــئت الأديرة القبطيـــة الموجودة فى وادى النطرون فى القرن الرابع ، ومع ذلك فيبدو أن هذه الأديرة قـــد أعيد بنـــاؤها أو ترميمهـــا مرات عدة ، منذ هذا التاريخ . وثلاثة من هذه الأديرة قد بنيت على شكل مستطيل ، يبلغ طولها من ٩٨ الى ١٤٢ مترا ، ويتراوح عرضـــها مابين ٥٨ الى ٦٨ مترا ، الأمر الذى يؤدى بمتوسـط مساحتها الى ٧٥٦٠ مترا مربعـــا .

ويبلغ ارتفاع جدران السور ثلاثة عشر مترا على الأقل ، أما سمكه فيبلغ عند الأساس من ٢ ١/٢ الى ٣ من الأمتار وهى مبنيـــة من خامات جيدة وبشكل معتنى به . وبسيطر على الجزء العلوى طوار يبلغ عرضه مترا واحدا . وبالحائط فى أعلى الطوار كوات بعضها الى داخل الجدار وبعضها تميل وتنزلق الى خارجه حتى يسهل الدفاع عن النفس ضد العربان ، وذلك بقذفهم بقطع من الحجارة حيث أن أنظمة الرهبـــان تحرم عليهم استخدام الأسلحة النـــارية . ولهذه الـــكوات المنزلقة الى الخارج ، أقنعة لتأمين الناس من طلقات البنادق .

وليس للاديرة الا مدخل واحد ، وهو خفيض وضيق فلا يبلغ ارتفاعه اكثر من متر ، كما لا يصل عرضه لأبعد من مترين ويغلق هذا المدخل من الداخل باب شديد السمك ، مزود بمزلاج فى أعلاه وبقفل خشبى قوى « ضبة » فى وسطه ، كما انه مزود عند أسفله بعارضة حديدية تخترقها مسامير ذات رءوس ، وبخلاف ذلك فان مدخل الدير مقفل على نحو ما وباحكام من الخارج ، وذلك بواسطة رحوين من الجرانيت موضـــوعتين على جانبى المدخل الضيق ، وقطر كل منهما اقل بقليل من ارتفاع المدخل ويسمح سمكها بأن ينهضا فى ثبـــات . وتشرف على الباب شرفة دفاعية يمكن منها احراق المهاجم والقاء الحجارة فوقه . وعندما يراد الاختباء ،

ببدأ راهب موجود خارج الدير في دحرجة واحدة من الرحوين بواسطه عتلة ، ثم يثبتها ، ثمبدحرج الأخرى وينسل الى الداخل ليجر ، نحوهالرحى الأخرى فتأخذ مكانها بشكل طبيعى الى جانب الأولى وعندما تتماسك الرحوان يتقفل الباب،ومن طريق الشرفة الدفاعية يكون منالسهل اكتشاف أولئك الذين يريدون زحزحة الرحوين .

والى جوار هذه الشرفة ، يوجد الناقوس الذى يتدلى منه حتى يلامس الأرض حبل مصنوع من ليف النخيل . وفى بعض الأحيان يستيقظ الرهبان اثناء الليل على صوت الناقوس ، ومع ذلك فهم على الدوام يلزمون الحذر والحيطة ، حتى ولو تعرفوا بالفعل من حيث هم أعلى الأسوار ، على انهم يتعاملون مع اناس أصدقاء ، فانهم لايقررون فتح الباب امامهم واستقبال الطارق الا بعد أن ينزل راهب عن طريق الشرفة متعلقا فى طرف حبل مربوط فى رحى صغير ليرى عن قرب ما ان كان ثمة من يبغى اخذ الدير على غرة ، وعندما يأخذ فى فتح الباب يبقى واحد من الرهبان فى أعلى الحائط متخذا وضع الحارس ، حتى يلحظ ما ان كان هناك من يأتى على بعد من العربان .

ولكل دير بداخله برج مربع الشكل ، لا يمكن الدخول اليه الا بواسطة جسر متحرك يبلغ طوله خمسة أمتار ، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض ستة اقدام ونصف القدم . ويرفع الجسر بواسطة حبل أو سلسلة تمر من خلال الجدار ، ويلتف هذا الحبل حول رحى أفقية ، وينتهى البرج بسطح علوى فوق جدار السور .

وللاديرة الثلاثة التى تجاور البحيرات آبار محفورة يبلغ عمقالواحدة منها ثلاثة عشر مترا ، ويوجد بكل بئر حوالى المتر من المياه العذبة التى ترفع بواسطة ساقية ذاتقواديس . وتستخدم المياه فى احتياجاتالرهبان ولرى حديقة صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات ، كما تزرع فيها بعض الأشجار مثل النخيل والزيتون والتمرهندى والحناء والجميز . وعند نهاية شهر يناير ، يبلغ ارتفاع مياه الآبار حده الأقصى ، لتنخفض اثناء الصيف لكن الآبار لا تنضب مطلقا .

ويمتلك دير السيريان شجرة سانت افرام (٢٩) ، وهى شجرة مقدسة يبلغ ارتفاعها ٦ أمتار ونصف المتر ، ويبلغ محيطها ثلاثة أمتار .. انها شجرة التمرهندى (٣٠) التى يظن الرهبان السيريان أنهم وحدهم الذين يحوزون مثل هذه الشجرة « أى أنها لا توجد عند سواهم » .. وهذه الشجرة بالغة الندرة فى مصر السفلى ، لكنها بالغة الانتشار فى الصعيد.

وليس للدير الرابع الذى يحمل اسم دير الأنبا مقار الا بئر واحدة، مياهها مالحة ، ولكن ثمة بئرا محفورة على نحو طيب (٣١) ومياهها بالغة العذوبة تقع خارج الدير وعلى بعد أربعمائة متر منه ، كما يوجد نبع عند الانحدار المقابل لهذا الممر الجبلى ، وللديرين الآخرين بالمثل نبع يجاورهما.

وصوامع الرهبان عبارة عن حجرات ضيقة ، لا يصلها من ضوء الا من طريق المدخل الذى يبلغ ارتفاعه أكثر من المتر . وأثاثهم ليس سوى حصيرة وجرة وقلة (٣٢) . والكنائس منظمة على نحو طيب ، لكنها تزدان بصور رسمت بخشونة ، وبخلاف ذلك فكل شىء مضطرب ، غير منتظم وغير نظيف وخال من الذوق . وحيث أن فقر الأديرة لايسمح لها مطلقا باتخاذ زينات فاخرة ، فان الرهبان يجدون فى تجهيزها بأشياء

---

(٢٩) يحكى انه حدث فى الأزمنة الأولى لحياة الأديرة ، ان شكا الرهبان من ضيقهم بحالتهم ، ومن أنه لا ينمو حولهم فى وحدتهم القاحلة تلك أى نبات . ولكى يقوى القديس افرام من حماستهم ، ويزيد من ايمانهم ، فقد امر احد اتباعه بأن يزرع عصاه فى الرمال ، مخبرا اياه أنها ستغدو شجرة ، وبعد فترة تردد أطاع الراهب الشاب . ويقال ان المعجزة قد حدثت وان العصا قد مدت لها جذورا وأنبتت لها فروعا ، وانها هى نفس الشجرة التى لا تزال تنهض حتى اليوم وتحمل اسم شجرة القديس افرام أو شجرة الطاعة .

(30) Tamarindus indica, lin.

(٣١) يبلغ عمق هذه البئر خمسة أمتار ، وهى على شكل مربع ، طول ضلعه متر وثلث المتر ويبلغ ارتفاع الماء بها اقل من المتر بقليل .

(٣٢) يقال لها ايضا وبشكل اكثر شيوعا : بردق ، وهذه الكلمة الأخيرة تركية ، والقلل عبارة عن آنية مصنوعة من الطين المعد والمحروق ، بطريقة تسمح بنسوغ خفيف للمياه ، وهى تستخدم فى تبريد الماء ، وذلك بتعريضها ، هى ، لتيار الهواء .

مقلدة .. وهكذا فبدلا من المصابيح الفضية تجد لديهم مصابيح من بيض النعام لها تأثير جميل لحد لا بأس به .

ورجال الدين هؤلاء ، هم فى العادة عور أو عميـان ، ولهم ملمح وحشى ، حزين وقلق ، ويعيشون على بعض الدخول ، وبصفة أساسية على العطايا والاحسان ، ويتغذون على الفول والعدس المطبوخ بالزيت ، وينقضى وقتهم فى الصلاة ، ويحترق البخور فى هذه الخلوات التى يحيط بها بحر من الرمال .. ويعلو الصليب القباب عالية الارتفاع .. ويوجد تسعة من الرهبان فى دير براموس وثمانية فى دير السيريان ، واثنا عشر فى دير الأنبا بيشوى وعشرون فى الدير الرابع ، ويعنى بطريرك القاهرة برعايا هذه الأديرة الأربعة .

اننا فى الحقيقة لنجهل ماتكون عليه مبـاهج وملذات حيـاة هؤلاء الرهبان الورعين والمتوحدين ، فنحن لم نلمح شيئا يمكن أن يشتم منـه انهم يعتنون بتثقيف أرواحهم ، ولا بتنشيط أيديهم . والـكتب التى بين يديهم ليست سوى مخطوطات صوفية مكتوبة على رق أو على أوراق من القطن ، وبعضها مكتوب بالعربية ، وبعضها الآخر مكتوب باللغة القبطية ، وعليها فى الهامش ترجمة عربية ، وعندما تصفحنا المخطوطات الاخيرة ، وجدنا أنها ربما تعود الى ستمائة عام . وقد عبرنا داخل هذه الأديرة ، ووقفنا على كل تفاصيلها ، وقد أخذ الرهبـان بسرور بالغ اسـتعدادهم لزيارتنا هذه ، وعدوها بمثابة تقدير لهم أرضى كبرياءهم .. وقبل خروجنا تقبلنا خبز القربان (٣٣) الذى قدموه لنا .

ويقوم رجال الدين تجاه العربان بواجب الضيافة الاجبارية . وهم مضطرون أن يكونوا على الدوام فى كنف حراستهم ، ولذلك فهم عنـدما يذهبون من ملجأ لآخر ، لايفعلون ذلك الا فى اثناء الليل ، ويمر العربان بالأديرة اثناء جولاتهم ، ويتوقفون ليتناولوا طعامهم ، ولـكى يستريحوا ويريحوا خيولهم ، ويقدم اليهم الرهبان واجب الضـيافة هـذا من وراء الجدران ، ذلك انهم لا يفتحون لهم الأبواب مطلقا ، فثمة بكرة موضوعة

---

(٣٣) يصنع خبز القربان دون خمور ، وهو مستدير ، ويبلغ سمكه سمك الاصبع ، وهو فى حجم كف اليد ، ويغطى سطحه بحروف عربية .

على احدى زوايا السور ، الغرض منها أن تنزل بواسطة حبل قفة الخبز والخضار والشعير المخصص لهم . وهم مضطرون للسلوك على هذا النحو حتى لايتعرضوا عندما يقابلهم العربان خارج الأديرة للنهب بلوالقتل على أيدى هؤلاء . وحيث أنهم يعيشون فى وطأة هذا الخوف والقهر فانهم يتحملون بنفاد صبر متعصبى الديانة المسيطرة . وتلك هى الآفة الرهيبة لهذه الأفكار المسبقة ، التى تؤدى الى أن يكون اختلاف الدين ، بل وحتى اختلاف المذهب سببا فى خلق أعداء متباغضين فى هذه البلاد، ليس فقط بين اتباع المسيح واتباع محمد ، بل وحتى فى داخل الاسلام نفسه بين أولئك الذين يتبعون مذاهب مختلفة فى اطار الدين الواحد ، وكان الرهبان يسألوننا — وكأنه أمر دينى مقدس وبلهجة لا تخلو من غرض — وماذا سيكون موقفكم من المسلمين (*) ؟ ولم يكن هذا أول سؤال من نوعه يوجه الينا ، منذ وطئت أقدامنا أرض مصر .

ومع ذلك فان المصلحة والخرافة تقربان فى بعض الأحيان بين هؤلاء الخصوم الطبيعيين ، فيحدث على سبيل المثال فى مناطق معينة أن يرسل مسلم ، يريد أن ينشىء برجا للحمام ، الى اديرة الصحراء التماسا مصحوبا بهدية مناسبة ، ويتقبل الرهبان الورعون الهدية ، ويعطونه فى مقابلها بطاقة بها عبارات دينية ، من شأنها ، عندما توضع فى البرج وحسب الاعتقاد الشائع ، أن تجعله مزدحما بالحمام ، وأن تجلب له البركة والازدهار .

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف .   [المترجم]

الفصل الرابع

عن عرب الجوابى وعن البدو

يتردد على شواطىء بحيرات النطرون كل عام عربان الجوابى(٣٤)، وهم أبنـــاء قبيلة عربية رحالة ومضيافة ، وتعسكر هذه القبيلة هناك مع قطعانها فى فصل الشتاء . ويعمل هؤلاء العربان فى خلال هذا الفصل من العام فى نقل النطرون والسمار ، كما يقومون بنقل البلح ، ولـــكى يحصلوا عليه ، يذهبون فى شكل قوافل الى ســيوة ، واحـــة آمون ، ويستغرقون فى رحلة الذهاب الى هناك من ١٢ الى ١٥ يوما . وهؤلاء العربان يعيشون فى حالة سلم دائمة (٣٥) ، فهم مســالمون ، يتجولون هنـــا وهناك بحثـــا عن الميـــاه والمراعى لماشيتهم . وتحتفظ هذه القبيلة اكثر من سواها بالعادات القديمـــة ، وابنـــاؤها رعاة بسطاء لا يميلون لاحتراف الزراعة . وهم رقيقو الحاشية ، لطيفو المعشر ، ولا يحسون بأدنى غضاضة من نوع الحياة التى يحيونها . ومع ذلك فعواطفهم متأججة، وبخاصة عاطفة الحب ، الذى هو صنو للغيرة فى كل البلدان ، وخاصة عند الشرقيين . وقـــد تدفعهم هذه العاطفة فى بعض الأحيان الى سلوك متطرف ، بالغ القسوة (٣٦) .

---

(٣٤) رؤساء قبيلة الجوابى هم الشيوخ : قراميط أو غالب ، وهو شيخ القبيلة الاكبر ، والحاج عيسى ابو على ، والحـــاج طه أبو ديل ، وتتكون هذه القبيلة من حوالى الفى رجل ، وقد يصـــل عدد ماتملك من خيول الى الستين .

(٣٥) أناس مسالمون ، لا يبدأون مطلقا بشن الحرب ، ولا يشهرون السلاح الا للدفاع عن النفس ، وهو أمر نادر الحدوث ، وهم ينصرفون عادة لـــكسب المـــال .

(٣٦) هواد ، رب لأسرة كبيرة العدد ، وشيخ مسن يحظى بالاحترام، ومن اتبـــاع الحاج طه ، وذات يوم وجـــد ابنـــه الوحيد قتيلا الى جوار زوجته ، وكانت تلك متزوجة من قبل من رجل آخر ، طلقها لبعض التعلات الواهية ، ولمـــا كان هذا الأخير مجنونا بحبها لدرجة السعار ، فقد أقسم =

وملابس الجوابى ، حرام وبرنس وهو نوع من المعطف الذى يشبه الغفارة التى تستخدمها الكنيسة الرومانية عند اقامة قداس ، وهو من الصوف الأبيض. وتستخدم هذه الأقمشة فى صنع ملابس الرجال والنساء، وهى تصنع فى النوبة ، ويشتريها العربان من القاهرة ، وبصفة خاصة من الاسكندرية .. وتغزل النسوة وبر الماعز ليصنعن منه أقمشة الخيام وبعض البسط العادية .

وتتمثل ثروة الجوابى ، وعموما كل عربان الصحراوات ، فى الجمال وقطعان الأغنام والماعز ، بينما تتمثل ثروات من استوطنوا القرى منهم فى الماشية الكبيرة وقليل من الجمال . ومن ذا الذى كان يدور بخلده أن الثروة فى وسط هذه الصحراوات القاحلة ، شأنها فى ذلك نفس شأنها عند الأمم المتحضرة، يمكن أن تصنع هذا التمايز وتبتعد بأصحابها عن حياة الفطرة ؟ فليست كل الأمهات العربيات يرضعن بأنفسهن أطفالهن ، اذ تتخذ الثريات منهن لأطفالهن مرضعات . أما أولئك اللائى لا يسلمن أبناءهن لامهات مأجورات ، فيعرفن فيما يبدو الأهمية التى توحى بها هذه السن الحنون للشعوب المتحضرة . وعند الهجوم على مخيم عربى ، لم يتخذ احتياطاته الكافية ضد المفاجآت، يركب الرجال على الفور خيولهم ويهربون سريعا تجاه النيل ، وتبقى النسوة وحدهن مهجورات ، ولكى يعقين بطش جنودنا وابطاء زحفهم يتسترن على نحو ما بأطفالهن ويضعنهم أمامهن ، وقد يتم هذا من جانبهن بدافع من الغريزة وحدها ، كما قد يتم بعد انعام للفكر ، لكن مثل هذه العقبات لم تكن لتوقف زحف رجالنا الشجعان، فكانوا يلتقطون اثناء جريهم هذه المخلوقات البائسة ويحملونهم ثم يودعونهم على مقربة من امهاتهم ويواصلون ملاحقة الأعداء .

= هذا المخبول أن يقتل بيده من يتزوجها . وكان عند كلمته ، وحيث لم يستطع هواد أن يتحمل رؤية قاتل ابنه ، فقد انسحب الى الصعيد ، فجر معه، دون قصد منه ، العديد من الأسر ، وحين لاحظ هذا الأب المسكين أن انسحابه قد ادى الى حدوث اضطراب فى القبيلة ، فقد آثر أن يكظم آلامه حتى لا يؤذى الصالح العام لقبيلته ، فعاد الى كنف الحاج طه ، لكنه كان يشاهد على الدوام حزينا وعيناه مليئتان بالدموع ، وعاش حياة مليئة بالألم والضنى .

ومن العسير ألا تدب الفوضى فى مخيم استولى عليه عنوة ، ففى هذه الحال ترى النسوة العربيات وهن خائفات من أن تطبق عليهن شريعة المنتصر ، ويلجأن كى ينفرن منهن رجالنا ، الى تكتيك شاذ وهو أن يلطخن وجوههن بروث البقر .

ويحمل عربان الصحراء اسم عرب الخيش أى عرب الخيام ، أما الساكنون خلف الجدران، فقد كانوا فيما مضى عربا رحلا ،وعندما اقتربوا من بلدان مزروعة ظلوا لفترة تحت الخيام ، ثم بدأوا شيئا فشيئا يبتنون لأنفسهم بيوتا مثل بيوت فلاحى مصر .

وليس هناك عقد يربط أفراد قبيلة ما بشيخها ، ويعود هذا الشيخ فى معظم الأحيان الى أصل ضارب فى القدم ، يسر الناس أن يعرفوه، ومع ذلك فعليه لكى يصبح على رأس قبيلته ، أن يستخدم الاقناع والمهارة والمرونة ، وباختصار كل الكياسة المفترضة فى حاكم ماهر ، اذ أن عليه فى الوقت نفسه أن يعقد السلم أو أن يشن الحرب ، وأن يقضى فى كل مايمكن أن يكون نافعا للقبيلة .

وما أن يعقد سلام مع قبيلة أو ما أن يتم تعامل معها حتى يخلع على شيخها جبة وشال . وعادة تقديم الهدايا أمر مستقر ، حتى أنه لا يتيقن أن الاتفاق قد تم بدون ذلك .

ويتفاوض شيوخ العرب فى **كرامة** او مع استخدام العنف ككل المخاتلين . ان مايسمونه اكل العيش والملح مع الحلفاء الجدد ، ذلك الأمر الذى يحظى بالاحترام فيما يقال ، ليس سوى فعل شائع أملته العادة ، فلقد برهن عربان ضفتى النيل انهم لا يحترمون العهود ، فهم ينتهكون المواثيق التى وضعوها ذات حين ، حين أملى عليهم ذلك ضعفهم أو مصلحتهم .

وعندما يذهب العربان للقاء شخصية يحترمونها ، فانهم يتركون خيولهم على بعد مائة خطوة ، ثم يتقدمون اليه سائرين على أقدامهم .

ولا يعرف العربان قوانين أخرى غير قانون القصاص ، وحيث لايوجد قانون رادع ، ولا قضاة يستطيعون تنفيذه فسوف يبقى القتل بلا عقاب

ما لم يات الاغتيال ، ليقابل هــذا الضرب من ضروب اســتخدام القوه ، وعندئذ فان ما ننظر اليه نحن على اعتباره جريمة او جبنا ، يغدو انتقاما مشروعا يتابعه اهل القتيل من جيل لجيل .

وتغذى الاغتيالات نوازع الحرب من قبيلة لأخرى ، أو بين القبائل والقرى ، ويقال عندئذ ان بين هؤلاء دما . وفى بعض الأحيــان يضطر الناس أن يدفعوا ثمنا لاعادة شراء الدم واحلال السلام « الدية » ، وان كان ينظر الى ذلك باعتباره عارا ، وعندئذ يصبح على الضعيف المتخاذل ان يدفع جزية مضاعفة للأقوى .. أما القرى التىترفض أن تدفع فتتعرض للسلب والنهب ثلاث مرات ، ويصيب مثل هــذا السلب القرى بالفزع، وينظر الفلاحون الى العربان كما ينظرون الى وباء مخيف . سألت مرة احد مشايخ قرية ما : هل حل الطاعون بقريتكم هذا العام ؟ فأجاب ،نعم مرتين ، فلقد حل الطاعون والعربان .

والغرام بالمولود الذكر أمر ذو مذاق طيب ومرغوب عند العرب ، كما هى الحال عند كل أمم الشرق .

ويؤدى العربان الصلاة خمس مرات فى اليوم ، ويتناولون الطعام قبل صلاة الظهر وقبل الصلاة الأخيرة « العشاء » عند انتهاء الغسق ، ويكفى طعــام اثنين من سكان القرى لاطعــام عشرة من العربان ،فهؤلاء يأكلون القليل من الخبز ، ويستخدمون لطحن الدقيق طاحونة ذات ذراع مزودة بشقين صغيرين منالحجارة « رحى » ويأكلون كذلك البلح،ويشربون القليل من الماء ، ويفضلون لبن النوق ، وينامون حوالى ست ساعات فى اليوم . وقلما يأكل العربان اللحم ، ولا يعرف هؤلاء وجبــات البــذخ: فخروف محمر يقدم بأكمله بعد قطع رأسه ، هو الوجبة الفاخرة لديهم، وهذه ، لا يقدمونها الا ترحيبا بزائر كبير او شيخ عربى .

ولا يبالى العرب بقياس الوقت الا لمعرفة أوقات الصلاة .ويقدرون الوقت بقيــاس طول ظلهم ، ويقيسون هذه الظلال بقــدميهم عاريتين، ويضعونها واحدة أمام الأخرى بالتبادل ، ويرون — كقاعــدة عامة — أن الظهر يتحدد صيفا عندما يبلغ طول الظل قدما واحدة والشمس عمودية . ويتحدد نفس الوقت شتاء عندما يبلغ طول الظل تسعة أقدام . أما الفترة

ألفاصلة بين منتصف النهار وغروب الشمس « العصر » فيتفق حلولهــا دسيفا عند بلوغ طول الظل سبعة أقدام .

ويعنقد العربان بسبب جهلهم وسذاجتهم بأن علاج الحمى وعلاج بقية الأمراض ، يتم بأن يوضع تحت رأس المريض ورقة تحتــوى على بعض كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش . وهنـــا ينـــام المريض وهو شـــديد الثقـــة فى هـــذه التـــذكرة « الطبيـــة » ، وأكثر من ذلك فى قدرة العناية الالهية .

ويجد النسوة العربيـــات عند نهاية فترة الحمل ، عند بنات جنسهن ، العون والمساعدة فى عملية الرضـــاعة ، ويؤكد البعض أن الفتيـــات أو النسوة الأرامل اللاتى يصبحن حاملات يقتلن علي يد أهليهن ، هذا ان لم يقتلن انفسهن بأنفسهن .

ويخشى العربان كثيرا وبائى الجـــدرى والطـــاعون . ويســـارع الأشخاص الذين لم يصابوا مطلقا بهذين المرضين الى الابتعاد عن أولئك الذين يصابون بأى منهمـــا . ويترك الجـــدرى ندوبا كبيرة ، وبرغم كل افكارهم الدينية المسبقة ، يقوم العربان باحراق جثث الذين ماتوا بالطاعون ، ويولون ذلك الأمر عناية شديدة .

ويقدر عمر الأطفال بالنسبة الى أحداث أو فترات معينة ، وهكـــذا فان مواليد هذا العـــام ستقدر أعمارهم بالنســـبة الى دخول الفرنسيين الى مصر . ولدى العربان نوع من التقويم يغطى حوالى ســـتة أعوام . وليس ثمة سجلات عامة ، لذلك يكتب تاريخ مولد الطفل على قطعة بالية من الورق ، أو على صفحة من القرآن (الـــكريم) كما يكتب تاريخ ميلاد الأطفال فى القرى على أبواب المنازل أو جدرانها .

ويؤدى بهم نقص الأدوات الطبيـــة الى ممارسات شـــاذة لعـــلاج جروح الأسلحة النـــارية ، يهدفون من ورائها الى الاستعاضة عن آلات الجراحة ، لاخراج المقذوفات النارية التى لم تصل لأبعد من اللحم أملا فى الشفاء ، وهذه الممارسة هى مطابقة شق أحدث فى الجزء الخلفى لضفدعة بشق الجرح وربط الاثنين برباط محكم ، ويزعم العربان أن الحركة المرتعشة التى تحدثها الضفدعة وهى تموت كفيلة بجذب المقذوف الى الخارج .

وينظف العربان الجرح بالزيت أو الزبد ، ويكوونه بالجنزار ، حتى يمنعوه أن يلتئم قبل الأوان ، ولنفس الغرض ، ولكى يساعدوا المصاب على التحمل الجميل ، يضعون فى الجرح زلطة صغيرة ، وهو أمر يماثل الكى الذى نستخدمه لهذا الغرض فى أوربا .

ويصحب العربان معهم اينما ذهبوا ، الجزء الأكبر من ثروتهم ومئونتهم ، ويحتفظون فى مخيمات اقامتهم بالقش المهروس « التبن » والحبوب ، وذلك فى تجويفات كبيرة محفورة فى الأرض . وتحدد مجاورة الآبار العذبة وبعض قطع الأرض ذات الانتاج الضعيف ، أو البحيرات الملحة التى يقدم استغلالها بعض النفع — يحدد كل هذا اختيار مكان مخيماتهم ، وبالاضافة الى ذلك فللعربان على مبعدة أربعة أو خمسة فراسخ من مشارف الأرض المزروعة ، مخازن مسورة بسور عال . والى الأبعد من ذلك ، فى الصحراء ، توجد مستودعات فى الرمال توضع عليها علامات لا يعرفها الا أصحابها .

ولكى يحتمى الجوابى من سلب وانتهاب القبائل الرحل لهم ، فانهم مضطرون لاستضافة هؤلاء فى مخيماتهم ولتقديم الشعير لجمالهم ، ولا يعرف العربان الرحل « البدو » أى نوع من القوانين ، وقد كانوا على الدوام فى عداء مع الحكومة الأخيرة التى كانت قد توصلت ، برغم ذلك و... بعض الظروف ، الى تضييق الخناق عليهم فمنعتهم من دخول مصر .

ومنذ بضعة اشهر أخذت فتيات الهنادى (٣٧) ينشدن لنا :
عاش الشعب الذى طرد مراد من القاهرة .
عاش الشعب الذى اتاح لنا أن نرى القرى .
عاش الشعب الذى جعلنا نأكل الفطير (٣٨) .

---

(٣٧) شيخ القبيلة الرئيسية من قبائل الهنادى ، هو موسى أبوعلى ، ولهذه القبائل من ٣٠٠ الى ٤٠٠ حصان . ويرتفع الرقم الى ٩٠٠ — ١٠٠٠ اذا ما أضفنا ما تمتلكه القبائل الصديقة والمتحالفة معها من خيول ، ولعل الهنادى هم اقدم القبائل الليبية التى يتعرف عليها المرء فى مصر .

(٣٨) نوع من الفطائر المورقة والتى غمست أوراقها فى السمن ، ويأكلها الناس مغموسة فى عسل النحل ، وكثيرا ما تؤكل مغموسة بالعسل الأسود .

ولكنهم منذ تمكنا بفعل اجراءات عنيفة أن نقمع سلبهم وانتهابهم ، قد كفوا عن الترحيب بنا . وينبغى للمرء أن يحترس من العربان بالقدر الذى يحتمى به من اللصوص والسفاحين . وهم لا يوحون بأية رهبة كفرقة مسلحة مادام هناك من يقاومهم أو يزحف عليهم ، وفضلا عن ذلك فلقد توغلنا « نحن الفرنسيين » فى الصحراء التى كانوا يظنون أنفسهم فى منعة فى جوفها ، ولم تعد هذه الرمال القاحلة بغريبة علينا .

والعربان مسلحون بحراب (٣٩) يستخدمونها بمهارة ، ويقذفونهـا وهم ممتطون خيولهم لكنهم يجحفون بخيولهم الطيبة وذلك بإيقافها مُنجـأة على قدميها الخلفيتين ، وهى تجرى بأقصى سرعتها وان كانوا فى نفس الوقت يبذلون قصاراهم للعناية بها الى حد لم نسمع به من قبـل . ولا يغير العربان مطلقا وهم على هيئة صفوف لكنهم يغيرون متفرقين ، وهـم يطلقون صيحات عالية تختلط بسـباب بذىء ، وطريقتهم فى الحرب هى الطريقة التى تتبعها الفرق الخفيفة .

والخيول العربية شديدة السرعة . ويطلق الفرسان لها العنـان دون ان يتركوا السرج التى يمسكون بها بيـدهم اليسرى ، وهم يحملون على عدوهم، فاذا قتلوه سلبوه، وفى بعض الأحيان يحزون راسه ويحملونها على طرف حرابهم دليـلا على النصر ، وعندما لايحرزون النصر يعودون ليحملوا على عدوهم عن ميمنة أو عن ميسرة أو يسعون لتحسين وضعهم بارتقاء الأماكن العالية .

لـكن العرب فى العادة مسلحون على نحو غير جيد ، وبارودهم واسلحتهم النـارية بالغة الرداءة ، والبارود مغلف بطريقـة شـائهة . وكمية الفحم به أكثر مما يلزم، وهم يحملونه فى علب مصنوعة من الخشب،

---

(٣٩) الحربة ، قطعـة حديد مربعة الشكل ، تنتهى بسن مشحوذة، وتثبت فى عصا يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ودرجـة اختراق الحربة أقل من درجة اختراق الرمح ، الذى تكون حديدته مسطحة ، لكن الجروح التى تحدثها الحربة ، بتواليها ، تكون أقسى واخطر من جـرح الرمح ، اذ تسبب الاصـابة بالتيتانوس ، ويحمل العرب الذين يقطنون حول النيل الحراب والرماح ، فى حين يحمل عربان ليبيا الأسلحة النارية.

كما يحملون الطلقــات بشكل منفصــل فى حقيبــة من الجــلد ، ومن النادر أن يعبئوا بنادقهم بالخراطيش .

وكان من عادة العرب المتاخمين لمصر أن يرسلوا الى بولاقجواسيس يتخفون فى هيئــة فلاحين ، وكان هؤلاء يتعرفون على نوع وحجم الفرق التى كانت تخرج من القاهرة للزحف عليهم ، ويذهبون لتقديم تقرير عن ذلك ، وعلى الفور كانت القبيلة ترفع خيامها وترسل الى اعماق الصحراء بالنساء والأطفال وكل ثمين لديهم ، ويمشى العرب لعدة أيام حتى ينهكوا خصمهم ، وفى هذه الأثناء تتجمع القبــائل المتحالفة ليقــرروا ان كانوا سيهجمون ومتى ، أم ان عليهم أن يكتفوا بصد هجوم العدو .

وتقيم المخيمات نقاط استطلاع فوق المرتفعات ، ويضع أفراد هذه النقاط عماماتهم فوق رماحهم ، فان راوا ان من الأفضل أن تقوم مخيماتهم بالهجوم يتجه هؤلاء ناحية العدو أو الضحية التى قرروا الاغارة عليها ، اما فى الحالة المضادة فيعودون الى جهة المخيم .

وعندما يخشى العرب من هجوم العدو عليهم ، يتفرقون فى مخيمات كثيرة العدد ، ويستكشفون العدو عن بعد كبير ، ويحتفظون بالجمال مقيدة بالقرب من الخيام ليكونوا مستعدين للفرار فى أقرب وقت .

وعندما يشتبك المخيم مع قبــائل اخرى ، تظهر الفتيــات على مراى من المتصارعين ، ويضربن على الدفوف ، وترن فى الهواء اغانيهن لتلهب الحماسة ، ويستقبل الجرحى بعناية كبيرة من زوجاتهم وحبيبــاتهم .. ويقدر هؤلاء النسوة الشرف حق قدره ، ويزيد تقدير القبيلة لشيخها كلما زادت الندوب فى وجهه « دليلا على ماتلقى من جروح دفاعا عن الشرف » فهذا الشرف ، الذى هو دعامة الامبراطوريات ، يقوم بالدور نفسه عند هذه العصب البائسة من اللصوص .

وينظر الى معركة يهلك فيها عشرون أو خمسة وعشرون رجلا على انها معركة دامية ، وتظل ذكراها محفوظة فى تاريخهم .

وعلى الجيش الذى يزحف فى الليل سعيا وراء العربان أن يحذر من خطأ يجعله يتوهم ان ثمة مخيمات حيث لا وجود لأثر لها ، وينتج هذا

الخطأ — وهو يحدث كذلك فى حروب البحار — حين تظن اشعة النجوم عن بعد على انها نيران العربان .

ولقد اوجبت الطبيعة على الانسان حين وهبته غريزة التكاثر ، أن يسعى لبقاء نوعه . ويعيش فى تخوم مصر أربعون ألف عربى لا يجدون فى رمالهم القاحلة اى مصدر لحياتهم ، وهم ينظرون الى أرض مصر باعتبارها عقارا لهم . وتحت هذا الادعاء ، يأتون اليها ليمارسوا آلاف الانتهابات والسرقات ، ولقد سعت كل حكومات مصر الى ردعهم ، لكنها لم تنجح فى ذلك كل النجاح .

وفى خضم هذا الصراع ، وجد الفلاح المسكين نفسه يرتعد فرقا من عمال « موظفى » الحكومة ، الذين يعتصرونه وينقلون كاهله ، ومن العربان الذين ينتهبونه ويسفحون دمه .

لقد كان هذا على الدوام قدر شعب مصر ، وكل ما نأمل فيه أن يتحسن مثل هذا القدر .

خط سير داورية الاستطلاع التى مرت ببحيرات النطرون والنهر الفـــارغ

المسافة المقطوعة مبينة بالأمتار أو مقدرة بالساعات	عدد الأمتار	عدد الساعات	ملاحظات
من الطرانة إلى القصر	—	١٢	بالنسبة للقوافل
من القصر إلى البحيرة رقم ٣	٦٢٨	—	
من القصر إلى الطرف الجنوبى للبحيرات	—	١½	
من القصر إلى الطرف الشمالى	—	٤	
من القصر إلى دير براموس	٧٢٣١	—	
من القصر إلى دير السيريان	٧٤٣٠	—	
من دير براموس إلى دير السيريان	٩٢٥٨	—	
المسافة بين دير السيريان ودير الأنبا بيشوى	٤٤٤	—	
من دير السيريان إلى دير الأنبا مقار	—	٣	حسب الاستدلال
من دير براموس إلى النهر بلا ماء	—	١½	حسب الاستدلال
من دير السيريان إلى النهر بلا ماء	—	١½	مع الاتجاه شمالا وجنوباً
من دير الأنبا مقار إلى النهر بلا ماء	—	١	حسب الاستدلال
من دير الأنبا مقار إلى وردان عن طريق ميت سلامة	—	١١	

وصلنا فى الخامس من بليفوز (٢٥ يناير) الى الطـــرف الشمالى للبحيرات ، ووصلنا فى السادس منه الى دير براموس ، وفى الســـابع منه عبرنا النهر بلا ماء .

الزوايا التى سـارت عليها بعض اتجاهاتنـا
بالنسبة لخط الزوال المغناطيسى

الاتجـاه من القصر الى دير براموس	١٦٢°
الاتجاه من القصر الى دير السيريان	١٨٠
الاتجاه العـام للبحيرات	٤٤
الجـانب الشرقى لوادى السيريان	٧
واجهة الدخول الى دير الأنبـا مقار شمالا وجنوبا	١٠

اما مداخل الأديرة الثلاثة فتطل جهة الشمال .

الدراسة الثالثة

دراسة موجزة عن عيون موسى

ج . م . ج

على الشاطيء الغربى لخليج السويس ، وعلى بعد أربعة فراسخ الى الجنوب من المدينة ، ويكاد يكون فى مواجهة وادى التيه ، توجد منابع مياه رسمتها كل الخرائط ، تعرف باسم عيون موسى ، ولسوف نقع فى خطأ بين اذا ماظننا ان اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة فى القدم ، وأنه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم، ذلك ان اسم هذه الينابيع شأنها فى ذلك شأن عين العذراء فى المطرية « هليوبوليس القديمة » ، وشأن عيون غيرها كثيرات ، لا يعود الى ماقبل وقت استقرار المسيحية بمصر ، حيث تحورت أسماء قديمة ، تتصل بديانة تزعزعت مكانتها ، الى أسماء أخرى مشابهة ، فى المعتقدات الجديدة .

وعلى الرغم من ان عيون موسى أقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى من الصحراء ، فانها مع ذلك مائلة الى الملوحة ، ونتيجة لهذا الأمر ، فليس من خاصيتها أن تروى من الظمأ بقدر ماتروى المياه العذبة ، وان كانت تكفى للابقاء على حياة النباتات والحيوانات ، وقد روينا منها لمدة أربع وعشرين ساعة أثناء زحف شاق ، لكننا لم نسغ طعمها . ومن جهة أخرى فحيث ان هذه المياه تجرى وتتجدد بصفة مستمرة، فانها رائقة على الدوام ، وليست لها لا رائحة ولا مذاق غير مناسبين ، فى الوقت الذى تتعكر فيه مياه غالبية الابار عادة ، بفعل الاهتزاز الذى تحدثه حركة الاغتراف منها ، والتى لها على الدوام رائحة كريهة مقززة ، وعلى سبيل المثال فان بئر المجرود الواقعة على بعد أربعة فراسخ الى شمال السويس ، والمخصصة لسقاية محمل مكة — بعد مسيرة ثلاثة أيام من القاهرة ، وهى محفورة على عمق مائتى قدم — تتحلل وتتعفن فيها المواد الحيوانية والنباتية ، التى لايستطيع أحد ان يتفادى سقوطها فيها ، ولذلك فان لمياهها — بخلاف قذاراتها الطبيعية — رائحة كبريتية يتحملها المرء بصعوبة .

ولابد ان عيون موسى كانت على الدوام بذات نفع كبير لعرب الطور، الذين يسكنون ضواحى جبل سيناء . فالعرب مضطرون على الدوام ان يجلبوا من مصر بعضا مما يحتاجونه من مواد تموينية ومصنوعات أجنبية،

وعليهم فى مقابل ذلك ان يحملوا اليها منتجات الغابات الصغيرة التى تغطى جبالهم ، ولم يكن هذا التبادل ليتم الا عن طريق قوافل كان عليها على الدوام ان تتخذ من عيون موسى واحدة من محطاتها . وفضلا عن ذلك . فما أن كانت تتم منشآت بحرية فى أعماق الخليج ، وليكن فى السويس ذاتها ، أو فى وادى التيه ، أو على الطريق من البحر الأحمر حتى ممفيس .. حتى يكون من الضرورى أن يتردد الناس على هذه العيون ، لأنها مصدر لاغنى عنه ، بعد أن تنضب مياه الخزانات التى تكونها مياه الأمطار اذا ما مرت فترة من جفاف طويل .

لكن الوقت الذى كانت فيه عيون موسى — فيما يبدو لنا — تجذب اكبر قدر من الاهتمام ، هى تلك الفترة التى دارت فيها الحرب ، التى تحالف خلالها البنادقة والمصريون ضد البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق الى الهند عن طريق راس الرجاء الصالح . فمن المعروف أن هؤلاء الجمهوريين ، كى يدافعوا عن صولجان التجارة الذى احتفظوا به حتى ذلك الوقت ، والذى بدا انهم سيفقدونه ، قد أنشأوا وسلحوا أساطيل لهم فى السويس ، ولكن ليس من المحتمل على الاطلاق ان يكونوا قد أقاموا ترسانات لبناء السفن عند عيون موسى ، اذ لايقدم موقعها اية ميزة فى هذا الخصوص ، ومع ذلك فيبدو انهم قد أنشأوا هناك موردا تتزود منه السفن بحاجتها من المياه ، لكن لم يبق شيء من آثار هذا المورد على الاطلاق ، لقد تبدد كل شيء او قل لقد أستهلكه العربان ، ولا يجد المرء هناك اية آثار اخرى الا اساسات ، جزء كبير منها تحتى ، وهذه الآثار التى لاتزال هائلة والتى لم نكتشف الا جزءا منها فى ذلك الوقت القصير الذى امكننا ان نخصصه لها ، هى بالدرجة الأولى انقاض خزانات كبيرة شيدت بعناية . وكانت تجلب اليها مياه العيون عن طريق ترع مغطاة وكانت المياه تنتقل منها بواسطة قناة حتى شاطيء البحر . وقد اكتشف الجنرال بونابرت هذه الترعة المغطاة بكل طولها الذى يبلغ من ٧٠٠ — ٨٠٠ قامة* ، وقد بنيت من مواد بنائية جيدة ، وكانت مغطاة فى كل طولها ، وليس لها من انحناء الا عند البلاج الذى تسير تحته ، وبعد توقف استعمال

(*) تساوى القامة ستة اقدام (المترجم)

هـــذه الترعة ، ادت الرمال التى جلبتها المياه الى طمسها فى الخمسين قامة الأولى منها . اما الجزء الباقى ففى حالة جيدة ، بحيث يمكن اعادتها الى العمل بأقل المصـــاريف الممكنة . وعلى الشاطىء تنتهى الترعةبأكمتين كونتهما الأنقاض ، ولعلهما من آثار المورد الذى تحدثنا عنه ، ويتضـــح ذلك من الاسم الذى يطلق عليهما . ولابد ان يكون هـــذا المورد قـــد بنى بطريقة مناسبة ، من ناحية الشكل وطبيعة الأوانى التى كان من المعتاد استخدامها لنقل المياه اثناء الرحلات البحرية .

وعلى بعد حوالى مائتى قامة ، الى الشمال من العين الأخيرة ،يوجد جبل هائل لحد ما ، وهو يتكون شأنه شأن جبل تستاتشيو Tcstaccio فى روما، من أنقاض الجرار وآنية أخرى مصنوعة منفخار سيىء النضج.

وقد اكتشفنا هناك بقايا هى بلا جدال انقاض لأفران قديمة ، اذن فقد كان هناك فى هذه المنطقة منشأة هائلة لصناعة الفخار ، ولا يمكن أن يكون غرض هذه المنشأة الا صناعة الانية الفخارية، التىتكون السواقى، التى بواسطتها تنزح مياه الابار لرى الأراضى التى لايغرقها الفيضان فى كل أنحاء مصر ، وفى الحقيقة فعندما اصبحت عيون موسى آهلةبالسكان، كان كل البلاج الممتد من العيون حتى الشط مزروعا ، وما زلنا نرى فيها حتى اليوم عددا لا بأس به من النخيل الصغير ، الموزع بنظام لا يمكن أن يكون قـــد تم صـــدفة . وتلك النخلات الصغيرة ، وهى فيما يبدو ليست سوى سلالات من اشجار قديمة بليت ، انمـــا هى على الأقل أدلة على وجود زراعة قـــديمة فى هذه المنطقة ، ولم تكن هذه الزراعة تتطلب اى نزح للمياه من اجل الرى ، حيث كان فى مقدور مياه العيون بسهولة أن تصل ، عن طريق قنوات غير مغطاة الى كل الأجزاء المنزرعة ، لذا لمتكن السواقى ضرورية . ولذلك فانّنـــا لم نجد بين هذه الأكداس الهائلة من الفتات والحصى التى تكون المرتفع ، الا مايمكن أن يعود الى سواقى لم يتغير شكلها منذ ازمنة ضاربة فى القدم .

وكل هذه السواقى التى رأيناها كانت مصنوعة من فخار ذى كفاءة عالية لحد كبير ، ونحن نعتقد أن الغرض من هذه المنشأة الكبرى للفخار، هو صناعة الجرار الـــكبيرة المخصصة لنقل المياه بحرا ، فى بلد ادت ندرة الخشب فيـــه ، بل وربما غيبة الصناعة ، الى جعل صناعة البراميل

امرا غير عملى . لذلك فقد كان أولئك الذين يفدون لجلب المياه من عيون موسى على ثقة بأنهم سيجدون الجرار التى سنسنوعبها ، وأنهم سيجدون بنفس الطريقة الآنية الفخاريه الأخرى اللازمة لاستعمالهم الشخصى .

وشكل عيون موسى ظاهره هامة فى الهيدروستاتيكا (*) فالينابيع المختلفة التى تكونها ، والتى يبلغ عددها ثمانية ، توجد كلها على قممعدد مماثل من مرتفعات مخروطية صغيرة ، تنتهى كل منها فى جزئها العلوى بفوهـه تستخدم كحوض للعين ، ومنه تسيل الميـاه على السطح المخروطى بواسطة قنوات طبيعية ، وعلو هـذه المرتفعـات يختلف فيما بينها ، واكثر هذه المرتفعات علوا يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما من مستوىالأرض المجاورة ، وقـد نضبت عين المرتفع الأخير منذ وقت طويل ، وفوهتهـا مليئة بالرمال التى كدستها فيها الرياح ، ولا يزال يرى هناك حتى اليوم، جذع نخلة قطعها العربان بعد أن كانت قد نمت نموا كبيرا .

ولقد كان من السهل ان نتفهم الطريقة التى تكونت بها المرتفعـات التى توجد على قممها العيون . فقد ادت الرطوبة التى نشرتها مياه احدى العيون فى ارض مجاورة ، الى نمو خضرة دائمة حول حوضها ، وأدت أعشاب هذه النباتات الى تقليل سرعة الريح التى تصـطدم بها ، ممـا جعلها تتخلص من كل حبوب الرمل الـكبيرة التى كانت تحملها ، وحيث ان سيقان هذه الأعشاب كانت تحمل تلك الرمال التى تحجزها ، والتى تترسب أسفلها ، فقد بدات هذه الرمال تتماسـك بفعل الرطوبة ، حتى تلتحم ببعضها البعض ، مما جعلها تصمد لهبات الرياح بالغة القوة . وقد اخذت كربونات او سلفات الجير التى تحتويها ميـاه النبع متحللة ، والتى كانت تتعرض للهواء بفعل البخر ، أخذت تتشكل بللورات بين حبوب الرمل وتشكل جلوتينا تكمل هذا الالتحام . ومن هنا فان حواف الحوض توجد عالية بعض الشيء . وكان على المياه أن ترفع من منسوبها مع كل ارتفاع للحوض لكى تخرج منه وتسيل الى خارجه ، وحيث أن الظروف التى تؤدى لحدوث ذلك هى من طبيعة يمكن أن تتكرر معها على الدوام، فانه يمكن القول بأن عملية الارتفاع مستمرة برغم بطئها ، وبعـد وقت طويل يصبح النبع الذى يرتفع منسوبه على الـدوام ، فى قمـة مرتفع

(*) علم دراسة توازن المواضع وضغوطها . (المترجم)

مخروطى ، يتكون من مادة رملية وطباشيرية مالحة كمياه النبع نفسه ، تخرج منها شرارات تحت ضربات المعاول .

وحيث أن النبع الذى يعد حوضه أعلى الأحواض ارتفاعـا قـد نضب ، فان من الطبيعى أن نرى أن ارتفاعا يبلغ ٤٠ قدما وهو الارتفاع الذى وصل الحوض اليه — هو أقصى حد ، ويعود هذا الى درجة المقاومة التى تقدر عليها الجدران الداخلية للقنوات التحتية التى تجلب المـاء الى الحوض ، أكثر مما يعود الى ضخامة قوة الضغط الذى يحدث على قاعدة المرتفع ، وبمجرد أن تتمكن المياه — وهى تحاول صعود هذا الارتفاع — أن تحطم جدران قنواتها ، وأن تتخذ لنفسها مخارج جديدة ، فان عيونا جديدة تكون قد تكونت ، وتصبح هى السبب فى نضوب الأولى ، لتكون بنفس الطريقة ، المرتفعات التى توجد على قممها اليوم هذه العيون .

ومهما يكن الأمر ، فانه من المحتمل لحد كبير ان **عيون موسى لم يكن لها** — فى هذه الفترة البالغة البعد — من نبع الا ذلك النبع الذى نضب منذ زمان طويل ، وان الينابيع الثمانية التى تعطى مياهها اليوم ، والتى لهـا أحواض اقل ارتفاعا من حوض ذلك النبع الذى جف ، قد تكونت فى زمن لاحق ، أو بفعل تحطم القنوات التى كانت تحمل الميـاه لشـدة ضعف جدرانها ، أو بسبب تنقيبات تمت بقصد انشاء مبان مختلفة ، وقت أن كان الناس يترددون على النبـع ، وحين كانت المنـاطق المحيطـة بهذا النبع آهلة .

ولابد ان كان من المفيد أن نتعرف على شـكل وطبيعـة القنوات الطبيعية التى كانت تجلب المياه الى ينابيع عيـون موسى ، خلال سهل فسيح من الرمال ، تحملت خلاله ضغطا قويا ، قادرا على دفعها كى ترتفع لأكثر من اربعين قدما فوق مستوى أرض هذا السهل ، ولابد ان كان من المفيد كذلك ، أن نحاول التأكد مما ان كانت هذه المياه تأتى من سلسلة الجبال التى تبدأ من سوريا لتنتهى بجبل سيناء ، والتى نلمحها على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الشرق من العيون : لـكنا لم يكن لدينا الوقت للانشغال بمثل هذه الأبحاث التى لم يكن يرجى منها أى نفع قريب .

الدراسة الرابعـــة

ثمانية وعشرون يوماً في سيناء

ج . كوتيل

العنوان الأصلى للدراسة هو :

ملاحظات حول طبوغرافية شـــبه جزيرة سيناء .. التقاليد، العادات ، الصناعة، التجارة ، الشعب والسكان .

ينقسم الخليج العربى أو البحر الأحمر ، عند خط عرض ٢٨ شمالا، الى فرعين ، يتجه أحدهما الى شمال الشمال الغربى ، ويتجه الآخر الى الشمال الشرقى ، ويطلق على الأول اسم بحر القلزم اى بحر العرب اما الآخر فيسمى بحر العقبة أى بحر الشرق .

وتشكل مساحه الأرض الواقعة بين هـذين الفرعين ، والتى تبلغ مساحتها ١٦٠٠ **فرسخ** مربع والتى نسـمى شـبه جزيرة الطور ، أو سيناء ، امتدادا للجزيرة العربية الصخرية (الصحراوية) ، وتمتـد من خط طول ٣٠ َ ٣٠ ° الى ٣٠ َ ٣٢ ° ومن خط عرض ٢٨ ° حتى خط عرض ٤٥ َ ٢٩ ° شمالا .

وكل أجزاء هذه المساحة الداخلية تغطيها الجبال ، وهى جبال قديمة من الجرانيت والرخام السماتى فى بعض الأحيان ، أو هى تكوينات حديثة من الجبال الرملية او الحجر الجيرى والجص (الجبس) فى أحيان أخرى.

وتنبع الوديان التى تسكنها قبائل عربية عـديدة ، بخـلاف بعض النباتات الشوكية ، عددا صـغيرا من أشـجار (المن) وبعض اشجار الأكاسيا (الست المستحية) التى يطلق عليها اسم الأثل ، واذا مااستثنينا بعض اشجار النخيل والنبق وبعض الحدائق التى تنمو فى سفح جبـال حوريب وسيناء وفيما حول الطور ، فاننا لن نجد فى كل شبه الجزيرة اى نوع من الزراعة ولا أية أرض يمكن زراعتها .

كنت قد أبديت الرغبة فى الانضمام الى الرحلة الذاهبـة الى جبل سيناء التى أخذتها لجنة الفنون على عاتقهـا ، فلقـد كان يهم الحكومة الفرنسية أن نتعرف بشكل خاص على القبائل العربيـة ، التى تدفعهـا الحاجة وتجارة الفحم ونقل البضـائع التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر ، للمجيء الى القاهرة مرات عدة كل عام. ونتيجة لذلك فقد اوقف كل شيء من أجل الرحلة ، وكانت قافلة الطور قد وصلت منذ بضعة أيام ، وكانت تتهيأ للعودة الى بلادها ، واقترح على المسيو بليار Belliard قائد القاهرة أن أسافر معها ، فقبلت ، وشـاء المسيو روزيير ، خبـير المعـادن ، أن يقتسم معى مخاطر ومتاعب هذه الرحلة ، وكان القائدالعام قـد سبق أن تعـامل مع أهم شـيوخ البلاد وخلع عليهم الجبـة ، كما

وعدهم بمكافآت سخية مقابل وفائهم وخدماتهم ، وطلب اليهم تقديم بعض الرهائن ففعلوا دون مشقة .

اليوم الأول

خرجنا من القاهرة ، المسيو روزيير وأنا ، فى السابع عشر من بروميير من العام الثامن (٩ اكتوبر ١٨٠٠) ، مع شيوخنا الأربعة ، ومترجمين اثنين ، أحدهما مصرى والاخر رومى ، وخادمين مصريين ، بالاضافة الى العربان الذين يقودون جمالنا ، وكنانركب نوعا من الجمال يسمى الهجين .

وعلى الرغم من أن الامور كانت نحتم اصطحاب حراس ، فقد كان الامر فى الواقع مستحيلا فى بلاد لاتكاد تنتج شيئا ، فمجرد حمل المياه اللازمة لمجموعتنا والتى روعى فى كميتها أن تفى فقط بأبسط الضروريات، لم يتم بلا صعوبات من نوع ما ، كما أن اصطحاب هؤلاء الحراس كان سيؤدى من جهة اخرى الى تبديد الهدف الذى أخذت على عاتقى أن أحققه، الا وهو دراسة شعب بالغ التوجس ، لا يولى ثقته لأحد ، ويظن أن أحدا لايمكنه زيارة الصحراء الا بقصد التمهيد لغزوهم .

لقد بدت لى الثقة التامة هى الوسيلة الوحيدة للنجاح مع العربان، لذلك لم اشترط عليهم سوى شرط واحد ، هو أن نظل نرتدى ملابسنا الفرنسية ، ذلك أن ارتداء ملابس لم نكن معتادين عليها سيكون بالنسبة لنا أمرا غير مريح ، كما أن هذا التخفى (بارتداء زى غير زينا) قد يستثير شكوك العرب دون أن يزيد من درجة أمننا نحن .

كانت القافلة المسكونة من بعض ابناء شبه الجزيرة ، والتى كانت قد جلبت الى القاهرة الفحم والبضائع التى أفرغت فى السويس ، قد سبقتنا ، وكانت قد عسكرت ولابد فى الصحراء على بعد حوالى اثنى عشر ميلا ، وقد لحقنا بها عند نهاية اليوم بعد مسيرة استغرقت ست ساعات ، ولم يسمح لنا اتساع المعسكر الا بزيارة جزء منه ، وقد بدت على الجميع دهشة ممزوجة بالارتياح والسرور ، وبخاصة على الشبان منهم ، عندما رأونا . توقفنا بين جماعات منهم حيث قدموا الينا القهوة ، ويبدو أنه قد أثار اعجابهم أن يشعر اثنان من الأوربيين بالأمن بينهم .

اليوم الثـــانى

فى صبيحة اليوم التالى رحلنا ، كانت كل العيون مركزة علينا ،وبدا العرب أكثر اندهاشا عنـــدما راونا ننزل من فوق الجمـــال لنمشى بينهم بلا ســـلاح (١) .

وعندما كنا نريد أن نقدح بعض الزلطات (للحصول على النار) كانوا يجلبون الينـــا اكثرها شفافية اذ يظنونها افضـــل ما يصـــلح ليستعمل كقداحات . واذا ماتفحصنا ملابسهم ، كان شـــكل قبعاتنـــا ، وملابسنا الضيقة القصيرة ، والجلد الذى كنا نحبس فيـــه أقـــدامنا وسيقاننا .. كان كل ذلك يبدو غير مريح ولا نفع من ورائه . وبينما كنت اتفحص بنادقهم وخناجرهم سالنى احدهم أين توجد اسلحتى فأجبته على الفور مشيرا الى اسلحتهم : « هذه هى أسلحتى. ألست مسلحا كى تدافع عنى ؟ »فأجابنى: « أنت فرنسى طيب ، اذاهب مع أصدقائك الى الطور ؟ » (٢) .

كانت لدى الرغبة فى أن أعرف عدد الرجال والجمال الذين يكونون قافلتنا ، وكان يستحيل على أن اعرف ذلك عن طريق الشيوخ (٣) ، وبعد محاولات عدة لاحصائهم قدرتهم ثمانمائة شخص ، ويضم هذا العدد أطفالا كثيرين وبعض النساء ، كما كان هنـــاك ٨٠٠ر١ ـــ ٠٠٠ر٢ جمل من بينها ٩٤ جملا محملا بالبضـــائع الى ســـوريا ، وتسير فى صحبة احدى قبائل الطور وهى قبيلة لم يسبق لنـــا التعامل معها . ويقود الرجل الواحـــد ثلاثة جمـــال . ولـــكى يمر خمسمائة جمل فان الأمر يحتـــاج الى خمس عشرة دقيقة ، وقد انفقت قافلتنا فى ذلك اكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

ويحمل كل رجل خنجرا ، لكننى لم احص اكثر من بندقية واحدة لكل ثلاثة رجال .

---

(١) كنت احوز سيفا بالغ الجمال كان لأحد المماليك ، وكنت اتركه على الدوام متدليا من قرنوس برذعة الجمل الذى كنت أركبـــه حينما كنت اتمشى بينهم .

(٢) طلب العرب نفس الشىء من المسيو فولنى Volney أثناء رحلته الى سوريا .

(٣) لا يعبر اهل الطور عن الكميات الا بكلمتى : قليل وكثير ، وهم لا يعدون لا أعمارهم ولا أعمار أولادهم ، وعندما تسألهم عن الأمر يجيبون بأنه شىء لايحتاجون لمعرفته .

استمر السير طيلة اليوم ، وكان راكبو الجمــــال منهم يندفعون الى الامام فى بعض الأحيان ، ثم يتوقفون لحظة لتناول القهوة ، ويستحق النظام المتبع فى اقامة المعسكر ، والدقة التى يتم ذلك بهــا ، وقفـــة خاصـــة لتوضيح تفاصيله .

يحدد وجود الأعشاب التى تقابلها القوافل فى بعض مناطق الصحراء المنخفضة مكان اقامة المعسكر ، فهذه هى المناطق التى تبقى فيها ميــاه الأمطار التى تسقط مرة أو مرتين فى العــام لوقت أطول مما تبقــاه فى مكان آخر مما يجعل البذور تنمو .

وتتوجه القوافل الى هناك لتستريح بعد مسيرة تبلغ ٨ـــ١٠ ساعات . وأول قبيلة تصل الى المكان هى التى تعسكر أولا ثم تتبعها بقية القوافل على التوالى . ويتم ذلك دون ارتبــاك أو تخبط . وتتشكل القبائل دائرة واسعة ، وتتخذ كل قبيلة مكانها المعتــاد فى نفس النقطة من الدائرة ، ثم تنقسم هى بدورها الى زمرات وتتكون كل زمرة من عدة عائلات أو من مجموعــات تعيش على الشــيوع تتكون كل منهــا من ستة الى عشرة أشخاص (٤) .

وفى لحظة خاطفة تنزل حمولة الجمال ، وتذهب هذه وحيدة ، أو يقودها طفل ، الى منطقــة الــكلأ والأعشاب التى تقع فى بعض الأحيان على بعد ميل من مكان المعسكر (٥) وعندئذ يجرى اثنــان أو ثلاثة رجال من كل زمرة ليبحثوا عن بعض الأعشاب أو النباتات الجافة بينما يقــدح واحد ممن بقوا القداحة ويشعل النــار ثم يحرك الهواء بذيل ردائه ، وينحنى فى بعض الأحيان ليستقبل الريح بشكل منحرف ويوجه الهواء الى النــار ، ويقوم آخر بتحميص البن (٦) ويقوم ثالث بعجن الدقيق وصب الروجا أو الفطير . وهو نوع من الأقراص ، لا خميرة فيــه ، يبلغ سمك

---

(٤) حيث أن القوافل تتكون من نفس القبائل والعائلات فمن المرجح أن يظل نظام المعسكر هو نفسه على الدوام .

(٥) ليس ثمة ما يدل على الطريق ، فأقدام الجمال وأقدام الانسان لا تترك أى أثر فى هذا البحر من الرمال والزلط .

(٦) يحمص البن فى ملعقة حديدية ثم يصحن بعد ذلك بواسطة عصا غليظة فى اناء من الفخار .

الواحدة منها ٥ـ٧ مم ويتناسب حجمها مع عدد أبناء الزمرة الذين يشاركون فى اكلها . وبعد نحو اقل من ١/٤ الساعة يكون هذا العجين قد نضج بين الرمال الساخنة وقطع الفحم الصغيرة وبعرات الجمال المحترقة والتى تظل فى بعض الأحيان مشتعلة بعد نضوج الفطيرة (٧) .

وسرعان ما تنتهى هذه الأعمال التى تستدعى الابتعاد عن المخيم ، ويجلس الناس من حول النار ، ويتناولون القهوة بينما هم يأكلون الروجا ، ويزيد بعضهم على ذلك بعض الدقيق والأرز المطبوخ مع قليل من الزيت وبعض البصل ، ويضيف آخرون الفول والعدس ، وتنتهى الوجبة على الدوام بتناول القهوة . وتمتد المناقشات فى كثير من الأحيان لساعات طويلة ، فيتحدث الناس عن السفن التى ينتظر قدومها من جدة وينبع ، وعن حمولة الجمال ، وعن المطر الذى طال انتظاره ، واذا كان ثمة راو للحكايات فانهم يصغون اليه بانتباه ويضيفون الماء الى ثفل البن . ولقد كنت أجلس على مسافة قصيرة من هذه الجماعات متخيلا اننى انصت الى تجمع من أبناء ريفنا .

وعند نهاية النهار تعود الجمال من تلقاء نفسها ، وتسعى نحو المكان الذى انزلت فيه حمولتها ، فاذا اخطأت الطريق اليه ، فانها تسرع نحو صوت سيدها يناديها .

كنت كل ليلة اقوم بجولة فى جزء من المعسكر ، وكانت كل جماعة تدعونى لتناول القهوة وان استريح على جلد الماعز ، فاذا ماقبلت كانوا يرددون : « طيب فرانسيس ، انت فى الطور ، سوا سوا » اى : « انت فرنسى طيب ،قادم الى الطور ، مع اصدقاء لك » .

وفى الغد ، قبل انبلاج النهار ، كان الناس يعملون فى تحميل الجمال ، بينما يضع الآخرون القهوة والروجة ، وبعد ذلك نرحل ؛ ويستتب النظام ، بشكل تلقائى ، وطبيعى .

---

(٧) اذا كان العدد اكبر مما ينبغى فانهم يصنعون اكثر من فطيرة .

اليوم الثالث

فى هذا اليوم ، عسكرنا فى المجرود ، على بعد حوالى ثمانية اميال من السويس حيث واتتنى الفرصة كى اتبين كم سيكون من الطبيعى ، لو اننا اصطحبنا معنا حراسا ، أن تقل الثقة فينا ، والتى كان من مصلحتنا أن نبثها فى نفوس العرب ، فلقد لحق بنا هناك ضابط مهندس ، لم يستطع الافادة من سفر قافلتنا ليصحبنا الى السويس .وقد أدركنا هنـاك ، بعد مسيرة يومين ، ومعه حرسه . لمحه العربان عن بعد فلاحظت على الفور تغيراً فى سحنتهم وسرعان ماحدست السبب . لقد اعتقدوا اننى خدعتهم ، وأن حرسا قد جاء يصحبنا فى جبالهم . وعلى الفور مررت بعدد كبير من خيامهم وأنا اكرر : اننى اثق فى شرف العرب، ويمكنكم أن تثقوا فى شرف الفرنسيين ، سنذهب وحدنا ، رفيقى وأنا الى جبالكم ، وستصحبوننا انتم الى القاهرة ، فهذا الضابط الفرنسى (الذى ترونه) ذاهب الى السويس . وكرروا بأننا ذاهبون مع أصدقاء. وعسكر الجنود (الضابط وحرسه) بينهم ، وفى اليوم التالى عاودنا السير معا دون قلق أو شكوك .

اليوم الرابع

سرعان ماتركتنا القافلة تذهب كى تضرب خيامها فى عيون موسى بعد ان استدارت حول قمة قلزم السويس . كانت الجمال لم تشرب منذ غادرنا القاهرة اى منذ ٧٢ ساعة ، عندما وصلت الى العيون ، وذهبنا مع شيوخنا كى ننام فى السويس .

اليوم الخامس

فى اليوم التالى توجهنا بطريق البحر الى العيون حيث لحقت بنا جمالنا بعد ان دارت حول قمة الخليج ذى المد المنخفض ، كانت قافلتنا قد غادرت العيون فى الصباح ، وتهيأ كل امرىء للعودة الى قبيلته عبر الجبال ، وانزلت حمولة ٩٤ جملا من قافلتنا وهى البضائع الذاهبة الى سوريا ، وظلت البضائع فى حراسة بعض ابناء الطور الذين يتعامل معهم التجار لنقل البضائع الى هذه البلاد .

بقينا مع شيوخنا الأربعة ومع العربان الذين يقودون جمالنا ، كنا قد أصبحنا فى شبه جزيرة سيناء ، ولم يعد لدينا مانخشاه من العرب الغرباء الذين قد يكون عليهم دم ينبغى الانتقام له : لكن ماحدث للتجار الذين صحبونا حتى السويس وذلك المصير المحزن الذى كان من نصيب القائد المساعد « ديلانو » (٨) قد برهن لنا أننا لا ينبغى أن ننسى مخاوفنا فى رحلة لم نكن نستطيع أن نعرف موعد نهايتها ، اذ يعتمد ذلك على رجوع القافلة إلى القاهرة وهو الأمر الذى يتبع بدوره الحاجة التى يمكن أن يشعر بها العرب فى نقل بضائعهم الى هناك ، والذى يعود كذلك الى استتباب الأمن فى الداخل ، ومع ذلك فقد اتبعنا نفس طريقتنا فى الرحابة والثقة اللتين أظهرناها عند بداية الرحلة .

وبعد زيارتنا العيون (٩) واصلنا طريقنا ، تاركين البحر الأحمر الى الغرب وكانت تقع الى يميننا الجبال المسماة تيت (أو طيط) التىيسكن فى سفحها عربان الطور ، عسكرنا على بعد خمسة أميال من العيون عند خور ضيقيسمى عين، وهو قفر ليست به مياه ، ولا تنبت فيهاعشاب ولا أى نوع من الخضرة ، ولم نكن لنستطيع أن نوقد نارا لو أن العربان الذين يعرفون جيدا أحوال المناطق التى سنعسكر فيها لم يعوا أثناء الرحلة أو أثناء الطريق بالحصول على القش اللازم للوقود (١٠) .

اليوم السادس

فى اليوم السادس ، وبعد مسيرة ثمانى ساعات ونصف ، احيانا خلال سهل قاحل ، واحيانا اخرى من خلال كثبان من الرمال والأعشاب الشوكية ،وصلنا الى أبيصويره ، فى مكانتغطيه اشجار الأثل والنباتات، مما ينبىء عن ارض اكثر رطوبة . وفى الواقع فان المرء يجد هناك عددا

---

(٨) اختطف العربان القائد المساعد ديلانو ، اثناء ذهابه منالاسكندرية الى القاهرة وقد افتدى الرجل بكيس ملىء بالنقود الفضية ، وعندما اختلف العربان على كيفية اقتسام النقود ، وتشاجروا فيما بينهم ، أطلق عليهاحد العربان رصاصة فقتله .

(٩) أنظر وصف هذه العيون بقلم المسيو مونج Monge ، الدولة الحديثة ، المجلد ١ ص ٥٥٥ (الدراسة السابقة فى هذا الكتاب) .

(١٠) كثيرا ما يبتعد العربان أثناء السير ويجرون لمسافة تزيد على الميل كى يلتقطوا بعض الأعشاب اللازمة لسهرة المساء .

كبيرا من الآبار . يبلغ عمق الواحدة منها مترين ونصف المتر تحت سطح الرمال ، وقد تقوض جزء من هذه الآبار ، وعلى الرغم من أن مياه هذه الآبار جبيسة — فيما عدا واحدة منها على الأقل — فانها أفضل من مياه عيون موسى . ويتردد عرب ترابين على هــذا المــكان ، وهم يمتلــكون المنطقة ابتداء من القاهرة حتى وادى الغرندل على شواطىء البحر الأحمر ، وقد وجدنا كثيرين منهم يرعون هنــاك ماشيتهم .

اليوم السابع

عند الرحيل من أبى صويرة يقضى المرء عشر ساعات فى سهل قاحل على شاطىء البحر، وبعد ذلك ، وبعد أن يجتاز كثيرا من الشعاب الضيقة، يصل الى وادى الغرندل . ويمتاز هذا المــكان بمياهه المعدنية الحارة التى تسمى حمامات فرعون وتجرى هذه المياه فى سفح جبل يبلغ ارتفاعه مابين ٢٩٠ — ٣٩٠ مترا (١٥٠ — ٢٠٠ قامة) . وتسيل ميــاه العين الأولى بعمق يبلغ بوصتين ، وفى هذه المياه يرتفع ترمومتر ريومور الى درجة ٥٦ ، وتغطى الأحجار التى تسيل فوقها هذه المياه وكذلك تلك التى تحيط بالترعة بالــكبريت المؤكسد . وتجرى مياه عيون كثيرة اخرى خلال الرمال بطول يصل الى خمسين خطوة .

وعلى ارتفاع اربعة امتار (حوالى قامتين) فوق مستوى هذه العيون نجد فتحتين : تلك التى تقع الى اليمين وتؤدى الى مايشبه مغارة يرتفع فيها الترمومتر الى درجة ٣٤ وسط جو رطب تصــحبه رائحة الــكبريت القوية : أما الأخرى فتشكل مدخل كهف لا يزيد علوه على نصــف المتر (حوالى ١٥ — ١٨ بوصة) ، فوق عرض أكبر من ذلك بقــدر طفيف ، ولذلك يضطر المرء كى يبلغ النبع ان يزحف عاريا لمسافة يبلغ طولها ٢٣— ٢٥ مترا (١٢ — ١٥ قامة) فوق رمل حار ورطب ، وهناك يرتفع الترمومتر الى درجة ٣٦ . وهذه الحرارة المتزايدة ، بالاضافة الى هذا الوضع المتعب للجسم والذى يضطر المرء لاتخاذه ، هى السبب فى النصيحة التى تقال للمسافرين هناك والتى مؤداها ان النور ينطفىء داخل هذه المغارات وان هناك خشية من أن يختنق المرء هناك فى وقت قصير . لم نبق هناك لوقت طويل يكفى للتأكد من صحة هذا الزعم ، لكننى لم أشعر بأن انفاسى قد ضاقت كما ان رائحة الكبريت فى هذا الجو المشبع بالرطوبة قد بدت لى محتملة .

ويبدو لى أن وادى الغرندل كان فيما مضى مرفأ بالغ الجودة ، اذ هو فى حمى من رياح الشمال والجنوب لأنه مفتوح الى الغرب ، كما يساعد على الخروج منه رياح الشرق ، وهى التى تسود البحر الأحمر فى معظم الأحيان . وهنـــاك تشكل الميـــاه التى تسقط فوق الجبال مرة أو مرتين فى العام ، أضرارا كبيرة ، اذ تحمل الى الوادى كميـــة هائلة من الزلط ومن قطع الحجارة . وهذه هى المنطقـــة التى يزعم كثير من المؤلفين أن موسى قـــد أتى اليها بعد عبوره البحر الأحمر . وهذا الوادى (الخليج) جاف خال من الماء فى هذه الأيام .

اليوم الثـــامن

عند الخروج من وادى الغـــرندل يدخل المرء الى واد ضـــيق ، أو بالأحرى فى شعب تحيط به جبـــال عالية شديدة الانحدار ، ويبلغ طوله حوالى أربعة أميال ، وعند طرفه يصـــل المرء الى ربوة توجد بها بعض أشجار النخيل . وثمة بئر يبلغ عمقها المتر (حوالى ٣ أقدام) توفر كمية ضئيلة من المياه الرديئة وصفها بوكوك Pococke بأن لها مذاق الصلب ، وسرعان ماتنضب مياه هذه البئر ، لكنها تتجدد من جديد فجأة ، ومن هذه المياه يسقى العربان جمالهم . ويطلق على هذا المكان اسم الحوزية وهو يقع على بعد ٢٤ ميلا من أبى صويرة . وعلى الرغم من شدة ارتفاعه فوق سطح البحر ، فهناك سلسلة من الجبال العالية تتحكم فيه وتمتد هـــذه الجبال باتجاه سوريا . ويمتلك عربان الطور هذه الأراضى .

كان ما يزال علينـــا أن نمضى أثنتى عشرة ساعة فى الطريق حتى نصل الى مكان المخيم وعلى الرغم من أن هذه المنطقة كانت أفضـــل مكان قابلنـــاه ، منـــذ غادرنا القاهرة فاننا لم نبق بها الا لوقت يكفى بالـــكاد لسقاية جمالنـــا .

قادنا واد طويل الى الجنوب ، الى هضبة واسعة تحيط بها جبـــال تجعلها فى حماية من رياح الشمال . كانت الحرارة هناك ، فى الساعة العاشرة من الصباح ، شـــديدة الارتفـــاع ومع ذلك فقد كان الترمومتر لا يتجاوز درجة ٢٥ . وبعد أن عبرنا سلسلة الجبال الى الجنوب الشرقى دخلنا الى وادى اتل ثم فى شعب ضيق دفن به شيخ يسمى ريس الشمالة

ويحمل اسمه احد جانبى الوادى ، وهو المكان الذى نوجد به مقبرته . ويودع العربان هناك عند مرورهم من هذا المكان بعض الأغصان أو بعض قطع من القماش ، أما الجانب الآخر للوادى فيحمل اسم شبقية . وبعد ذلك ، وبعد أن نجاوز واديا مزروعا بأشجار الأثل (المن) نلاقى البحر من جديد الى الجنوب الغربى ، وقد توقفنا هناك كى نذهب ، على بعد خمسمائة قامة الى الشمال ، لزيارة جزء من الجبل الذى يستخرج العربان منه الكبريت . وفى واقع الأمر ، فقد وجدنا هناك بعض عينات من الكبريت شديدة التكلس .

وبمغادرة طريقنا نحو الجنوب دخلنا فى واد بالغ الاتساع، تحيط به جبال عالية مما يجعله فى حمى من رياح الشمال ، والشمال الشرقى ، والجنوب ، لكنه ، كما هو الحال فى وادى الغرندل ، يكاد يكون مردوما عن آخره . وبعد الالتفاف من حوله خوضا فى المياه لمسافة تبلغ حوالى الميل ، عسكرنا فى سهل المجرى (او المجره) وسط الكثبان التى كونتها غابات الاثل أو الطرفاء التى تصد الرمال التى تحملها رياح الشمال . وهناك توجد مياه غير طيبة . كانت مؤنتنا من مياه النيل قد نفدت عند السويس وجعلنا تلك معدتنا نشعر بالفرق بين هذه المياه وبين تلك .

اليوم التاسع

بعد مسيرة ساعة فى هذا الوادى الملىء بالشجيرات ، دخلنا فى واد تغطيه كتل من الجرانيت والسماق (الرخام) والزلطات المستديرة التى انفصلت عن السلسلة التى تطل على الجبال الجيرية التى اتبعنا اتجاهها، والتى اجتزناها بعد ذلك لكى نصل الى وادٍ يسمى فيران ، حيث تمنا دون أن نعثر على ماء .

اليوم العاشر

فى اليوم العاشر ، تضينا ثلاث عشرة ساعة فى صحراء جرداء، وفى وديان نلتقى فيها بالكاد بعض الأعشاب الشوكية : هناك ترى الى الغرب سلسلة جبال سيناء . وتوجد الى الشرق جبال من الحجر الجيرى . دخلنا وادى المغارة حيث اكتشفنا وسط أشجار النخيل شجرة دوم ، وهناك حوض مبنى يبلغ عمقه ستة اقدام يوفر كمية من المياه

الجيدة ، وبعد أن عبرنا سهلا قاحلا ، رطبا مليئا بالملح ، وصلنا بعد مسيرة ساعة الى الطور .

بندر طور أو ميناء الطور

يشكل ميناء الطور خليجا يبلغ اتساعه حوالى الميل ، ويكاد يكون ذا عمق متساوى السطح ، ويقع الخليج تحت خط عرض ١٢ً ٢٨° وعند خط طول ٢٠َ ٣١° الشمالى من خط زوال باريس . وقاع هذا الميناء ليس طينيا على الدوام ، فهو يتكون من كتل من المرجان وكتل من الأحجار يغطيها المرجان والقواقع على عمق متر أو مترين (٣—٦ أقدام) بل ان بعض شعاب المرجان هذه تصل لمستوى سطح الماء لتجعل من الجزء الشمالى الغربى نوعا من روضة تنتثر فوق سطحها المغطى الورود .وفى حين يرتفع مد البحر فى السويس من ١ ١/٢ الى مترين (٤ — ٦ اقدام) فانه لا يبلغ هنا اكثر من ثلاثة أرباع المتر فى أكثر حركاته قوة . اما فى النوبات العادية ، فانه لا يتجاوز ثلث المتر (١٠—١٢ بوصة) .

وتقوم سلسلة جبال سانت كاترين وسيناء بحماية هذا الميناء من رياح الشمال والشمال الشرقى ، كما تحميه من رياح الشرق غابات قديمة من اشجار النخيل وبقية قلعة الطور التى اصبحت شبه مهدمة تماما على وجه التقريب وان كان المرء لايزال يرى بها كوات فى مستوى سطح الماء تغطيها قباب على شكل مشكاة . كانت هذه المبانى المحطمة ، ومظهر الأرض ، وتلك الحدائق بالغة السوء ، وهذه الأسوار التى تكاد تكون كلها حطاما ، بالاضافة الى مظهر السكان البائس ، كان كل هذا يعطى صورة للخراب والموت . اما الميناء المفتوح الى الجنوب الغربى ، فتسده فى أكبر اتساع له كتلة صخرية ضخمة ، يبلغ ارتفاعها مستوى سطح الماء .

اما قريتا الشاذلية ، وبلد النصارى ، اللتان تكونان مدينة الطور القديمة فتضم من ٢٥ — ٣٠ مسيحيا ، ومن ١٠ — ١٢ عربيا مسلما وان كان هذا العدد لا يشتمل النساء والأطفال .

أما قرية الجبل الصغيرة ، الى جنوب قلعة الطور ، فلا تضم الا خمسة او ستة صيادين يعملون مرشدين للسفن التى تعبر الطور الى

السويس أو الى جدة ولا يتجاوز سكان كل هــذه القرى والنجوع مائة وثلاثين فردا .

ويدير شئون المسيحيين واحد من رجال الدين من دير سانت كاترين فى جبل سيناء ، وهو الذى يتسلم المؤن القادمة من القــاهرة عن طريق القوافل والتى يبعث بها الى الدير ، وكذلك السمك الــذى يشرف على صـــيده . ولا يفوق ببساطة مسكنه الا بساطة تلك الــكنيسة الصغيرة الموجودة فى منــائه .

وعلى بعــد ميلين من الطور ، الى الشمال الشرقى ، بالقرب من الجبال الجيرية ، يمتلك رجل الدين هذا حديقــة واسعة بعض الشىء ، تحيط بها الجدران ، وتزرع بها اشجار النخيل ، وتتفجر فيها عيون مياه معدنية حارة ، تسمى واحدة منها الحمامات . وهناك حوض واسع مسور تظل المياه فيه على ارتفاع ثمانية ديسيمترات وفى درجة حرارة ٢٧ ويبدو الحوض وكانه قد بنى خصيصا لهذا الغرض . وهنــاك كمية هائلة من سعف النخيل تغطى سطح هذه الأرض غير المزروعة .

وحيث ان اهالى الطور البؤساء لا يمتلكون على الاطلاق أية جمال، اذ ليس لديهم ما يحملونه الى القاهرة للمقايضة عليه ، فانهم مضطرون للعمل على جلب القمح عن طريق القوافل ، مما يضاعف فى سعره ،ولهذا السبب فهم يستهلكون منه القليل ، ويعيشون على السمك .

وفى الطور ، تهب رياح الشمال لجزء طويل من العام فيما عدا فصل الشتاء ، اذ تهب الريح فى هذا الفصل من جهة الجنوب وذلك حتى منتصف النهار فقط ، ثم تستعيد اتجاهها فى بقية النهار .

وتدخل السفن الصغيرة فى الميناء التى يبلغ عمقها ، وكذلك عمق المضيق البحرى من ٦ الى ٨ اذرع ، لكن السفن التى تخشى عادة أن يلقى بها على الساحل المنحدر الأجرد فلا تتوقف هناك الا للتزود بالمياه ، أما السفن الضخمة فتبقى فى الخليج . ويجد الناس فى الميناء ، على بعــد مسافة صغيرة من البحر آبارا مبنية بالحجارة بقدر كبير من العنــاية ، توفر مياها بالغة الجودة . وتعلن هذه الآبار ، بالاضــافة الى الحصن وبعض بقايا المنشآت القديمة ، أن هذا الميناء كان فيما مضى مطروقا لجد

كبير . لكن فقر السكان الذين لايستطيعون انتـاج أى شىء أو شراء أى شىء ، بالاضافة الى أحداث السلب التى مارسوها مرات كثيرة مع بعض السفن ، قد أبعد التجار عن هذا الميناء (١١) .

ولو أننـا اتبعنـا الطريق الذى اعتاد المسافرون ، وكذلك العربان المرافقون لنـا اتباعه لكنا قد دخلنا الجبل فى الشمال كى نذهب الى جبل سيناء على بعد أربعة وعشرين ميلا من الطور ، لكننا كنا نرغب فى القيام بالدوران حول شبه الجزيرة للتعرف على الموانى الواقعـة على طرفهـا وللتعرف على بحر الشرق (خليج العقبة) . ولكى نحقق هـذه الغـاية كان علينا أن نسير لمدة ثلاثة أيام بلا مياه ثم خمسة أو ستة أيام نقضيها وسط الجبال ، وهكذا كان يتعين علينا أن نمر وسط خيام قبيلة مزينة التى لا تشكل جزءا من تحالف قبائل الطور ، والتى لم تكن تربطنـا بهـا أية معاهدة (١٢) ومع ذلك فلم يكن لمثل هذه الصعوبات أن تعرقل مشروعنا .

وقد لقينا اكبر مقاومة من جانب العرب الذين كانوا معنـا ، فقـد احتجوا بصعوبة نقل المؤن اليهم ونقل المياه الى جمـالهم ، وقالوا لنـا اننا لم نتفق معهم الا على الذهاب الى الطور ومن هناك الى جبل سيناء، كما حذروا بأننـا قـد نهاجم من قبل عربان قبيلة مزينة الذين قد يطمعون فى اقتسام ما معنا من خيرات . ذللنـا كل العقبـات باسترضاء جزء من رفقائنا ومرشدينا وذلك بتقديم المؤن اليهم والى جمالهم ، وبتوضيح عزمنا الذى لا يلين على القيام بهذه الرحلة حتى وأن لم يبق معنا سوى مرشـد

(١١) لم يعد لدى أهالى الطور سوى تسع سفن‌صيد ، يمتلك‌الأروام ثماني منها. ويرى المرء هناك بقايا سفينة جانحة ، وكانت هـذه السفينة قادمة من ينبع ، ودخلت الميناء للتزود بالمياه . ويؤكدون أن مرشد الطور هو الذى جعلها تصطدم بالصخور عن عمد وانها نهبت بعد ذلك ، وكانت تحتوى على ١٣٠ بالة صغيرة من القماش ، تضم البالة الواحـدة ثمانين قطعة ، وثمانين طردا من العدس ، سعة الواحدة نصف أردب ، ومائة وعشرة من الأرز (شرحه) وبالتين صغيرتين من النحاس زنة الواحـدة ستمائة رطل . ويلقى العرب بمسئوليـة السلب على الأروام ، وهؤلاء يلقون بها على العرب ، وقبل مجيئنا الى الطور بخمسة عشر عاما نهبت قبيلة القرارشة احدى السفن ، فحرم عليهم المماليك المجىء الى القاهرة، وهكذا لم تعد الطور تدخل ضمن نطاق الموانىء التى يتوقف فيها التجار .

(١٢) لعل عربان هذه القبيلة هم الذين نهبوا البضـائع التى كانت قافلتنا قد نقلتها معنا من القاهرة حتى مدخل الجبال .

واحد ، وقلنا لهم فى النهاية : من حق العربان أن يخشوا قبيلة معادية . أما الفرنسيون فهم أصدقاء لكل القبائل . وعندئذ قال أحد الشيوخ المسنين : لا يقول الفرنسيون سوى كلمة واحدة . سنذهب معك حتى لا يصيبك سوء .

اليومان الحادى عشر والثانى عشر

لم يخدعنا رجالنا العربان ، مشينا لمده يومين ، على مسافة قصيرة من البحر ، أحيانا فى سهل رملى قاحل نادرا ما تلقى فيه بعض الشجيرات ، وأحيانا أخرى وسط جبال من الرخام السماقى والجرانيت المرقق (أى تتكون صخوره من طبقة فوق طبقة وهكذا) .

وكنا فى فصل تتقلب رياحه الجنوبيه والغربيه ، أى فى فصل العواصف ، وهو الفصل الذى يرغبه العربان أكثر من غيره لأنه يهيىء بعض المياه ، لكن الحرارة فى بعض الأحيان كانت أكثر ارهاقا لنا من أعلى حرارة عانينا منها فى صعيد مصر كما كانت درجة الحرارة أكثر ارتفاعا(١٣) وبعد أن سرنا طويلا الى الجنوب الشرقى دخلنا الى الجنوب فى واد طويل أو بالأحرى فى شعب عميق تحف به من الجانبين جبال تتكون حتى قمتها من أحجار مستديرة ، وكان الطين الذى يثبتها قد اكتسب قدرا من الصلابة حتى أن قطعا ضخمة منه كانت تسقط مندفعة نحو الوادى دون أن تتفتت . ويقع ميناء رأس محمد عند قمة الساحل ، وهو يشكل فيما يبدو نقطة انتصاف فى شبه الجزيرة .

ويتقبل هذا الميناء المفتوح عند شرق الشمال الشرقى ، لسان من الأرض فهو شبه جزيرة ، قمتها رأس جبل مرتفع بعض الشىء وهذا هو ما جعلهم يطلقون على هذا المكان اسم رأس محمد . وحيث يقترب الميناء بشدة من الجبل فانه يكاد يكون مطموسا فى جزء منه بالرمال والأحجار التى جرفتها السيول .

ولم نجد هناك أى نوع من المساكن .

---

(١٣) سجل ترمومتر ريومور درجة الحرارة فى الظل بـ ٣٢ درجة

اليوم الثالث عشر

فى اليوم الثالث منذ رحيلنا من الطور ، أو اليوم الثالث عشر من بدء رحلتنا ، سافرنا من رأس محمد للذهاب شرقا من خلال الجبال الى ميناء شرم (الشيخ) التى تقع تحت خط طول ١٠ً ٥٨َ ٢١° من خط زوال باريس وخط عرض ١٠ً ٥٦َ ٢٧° حيث وصلنا بعد مسيرة ثلاث ساعات. وتقسم هذا الميناء ، الذى يقع مدخله الى الجنوب ، قمة جبل يبلغ عرضه حوالى مائة قامة وبانحدار مماثل . ويجِد المرء على مسافة قصيرة من الشاطىء آبارا مبنية بكتل ضخمة من الجرانيت . كانت السفن تأتى الى هناك فيما مضى للتزود بالمياه ، وعندما كانت تفاجئها رياح معاكسة ،يلوح لها أن مدنها سوف تطول . فانها كانت تفرغ هناك بضائعها التى كانت تنقل برا الى القاهره ، وهناك ضريح وكثير من أحجار أضرحة كثيرة ، لعلها تنبئنا أن هذا الميناء كان فيما مضى آهلا بالسكان ، وقد شاهدنا هناك بعض الصيادين الذين لا يعيشون الا على السمك ، ابتعنا سمكا منهم ، وأكلوا هم غداءهم بالقرب منا ، وكانت الدهشة تبدو على أطفالهم ، الذين استملناهم الينا ببعض البارات ، من شكل قبعاتنا بشكل خاص .

وتقع شرم (الشيخ) فيما يبدو على بعد ستة الى ثمانية أميال من بحر الشرق (خليج العقبة) الذى ميزناه بدقة بواسطة جباله الواطئة للغاية ، وبدا لنا فى اتساعه يختلف قليلا عن اتساع بحر العرب، ولمحنا جبال الشاطىء الآخر تنخفض وتمتد لتتوغل فى الصحراء الغربية . قطعنا مسافة كبيرة بطول الساحل وكنا نود الذهاب الى العقبة ، قمة نهاية الخليج ، لكن ذلك كان يستوجب منا أن نعبر صحراء خالية لم يكن عرباننا يعرفونها ، فضلا عن اننا كنا سنبتعد عن جبل سيناء الذى كان هو الهدف من رحلتنا . ودخلنا الجبل عن طريق الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة .

وبعد ذلك بوقت قصير قابلنا فوق أحد التلال بعض الخيام فاقتربنا منها ، ولم يبد على النسوة الفزع لرؤيتهن لنا بل طلبن الينا اعطاءهن بعض الابر والبارات .

اتبعنا نفس الوادى باتجاه الشمال الغربى فوجدنا مرة أخرى بعض الأشجار ومخيما اكبر اتساعا ، كان هذا هو مخيم قبيلة مزينة ، لم يخدعنا

اذن شيوخنا ، حيث لم يبد أولئك مسرورين لرؤيتنا فلم يقدموا لنا أى شىء عند مرورنا من أمام خيامهم ، وسأل أحد العربان وهو يصحن بعصاه فى هاون من الخشب خليطا ويصنع منه البارود ، سأل بحدة مترجما « لماذا جئت بهؤلاء الكلاب » ولم يقم شيخ هذه القبيلة بدعوتنا الى داخل خيمته حسب عادة العرب كى لا يجعلنا نقترب من مخيمهم الذى كنا برغم ذلك قد اجتزناه . وعندما مدت مائدة الطعام وسط الوادى لم نبد أى ضيق أو قلق، واتخذنا مكاننا بينهم لنأكل العنزة دون أن نوجه الينا دعوة . وقدمنا اليهم البن ، ونمنا بينهم فى هدوء .

اليوم الرابع عشر

تدم الينا عرب المهاتنة ، وهى قبيلة صغيرة تنتمى الى عرب العواتمة الذين التقينا بهم فى اليوم التالى فى وادى النصب ، قدموا الينا فكرة أكثر دقة عن الطريقة الأبوية التى يتعامل بها العرب مع الأغراب ، وقدم الينا الشيخ الحاج حسن وأجلسنا الى جواره فى مدخل خيمته وأمر بذبح عنزة وأعطانا ماتغتسل به ، وبينما كانت النسوة يعددن الطعام ، وبينما نحن نتناول القهوة قام أحد المغنين ، وبعد أن ابتهل الى الله ، غنى المقاطع التالية مصطحبا آلة ذات أوتار ثلاثة (١٤) ، كان يعزف عليها أنغامه بقوس فى يده .

يتفق الناس كثيرا من مالهم كى يذهبوا الى مكة
ويتركون ابناءهم عاما كاملا كى يذهبوا الى مكة

---

(١٤) تتكون هذه الآلة من جفنة صغيرة من الخشب مغطاة بجلد جمل ، عليها من أحد طرفيها بمسافة ٢ ديسيمتر (حوالى ٧ بوصات) حديدة مسطحة عرضها من ١٢ — ١٥ مم وطولها ٣ ديسيمتر (١١ — ١٢ بوصة) . ويرفع طرف الجفنة السميك الذى يبلغ طوله ٢ ديسيمتر (٧ بوصات) على الأرض .

وهناك فى الطرف الآخر عصا ذات ذراع يبلغ طولها ٤ الى ٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) ويوجد فى أحد طرفيها ثلاثة ملاوى أو أوتاد تستخدم فى شد ثلاثة أحبال مكونة من اتحاد شعيرات عديدة مثبتة فى الطرف الآخر بعد أن تمر على مشط .

أما القوس المصنوع من قطعة من الخشب الخام يبلغ طولها ٤—٥ ديسيمتر (١٨ بوصة) فيحمل حزمة من الشعيرات مثبتة من أحد طرفيه ومشدودة الى الطرف الآخر بواسطة أصبع .

وعندما يزوج شيخ ما ولده يحضر له كل شيخ من شيوخ القبائل الأخرى عنزة ثم ينتهى بما يلى :

أولادى كثيرون ، ويأكلون كثيرا ، وذراعاى قصيرتان

(أى أنه تلبل الحبلة) فلا أستطيع أن احصل لهم على الخبز .

وبعد أن انتهى الطعام (١٥) ، استرحنا تحت سقف خيمتنا التى اقمناها فى مواجهة خيمة الشيخ .

ولقد وجدنا نفس كرم الضيافة عند القبائل الأخرى ، ومع ذلك فلا يمكن لأى من شيوخ هذه القبائل أن يكون ندا لهذا الشيخ فى صفاته الكريمة ، فتقاطيعه بالغة التمايز وروحه بالغة التوقد على الرغم مما يبدو عليه من شرود . ولقد كانت له علاقات مع التجار والأغراب كما سبق أن قام برحلة مكة (الحج) مرتين ، ويؤدى فريضة الصلاة بشكل بالغ الانتظام (١٦) .

اليوم الخامس عشر

لم نكن قد قابلنا حتى اليوم سوى أشجار السنط وبعض الأثل (الطرفاء أو المن) وبعض غابات من الأعشاب الجافة ، بالاضافة الى جبال الجرانيت والسماق المورقة (أى التى تتشكل من طبقة فوق طبقة) ولم نكن نلقى المياه الا فيما ندر وبكميات بالغة الصفاء تجرى فى واد الكيد بين كتل ضخمة من الحجارة الجرانيتية ، وها نحن نرى كذلك أجزاء من الأرض تكسوها الخضرة ويغطيها النعناع لمسافة يبلغ طولها حوالى الميل ويبلغ عرضها من ست قامات الى خمسين قامة . وتنمو فى هذا الوادى أشجار النخيل والنبق ، وهناك بعض الأسوار من الحجارة الصلبة تستخدم كمأوى وأماكن اقامة ومستودعات للعرب الملاك الذين

---

(١٥) وصفت مائدة الطعام فى مقال عن عادات وتقاليد العربان (فى آخر الدراسة) .

(١٦) بعد أن عدنا الى القاهرة ، ظهرت على هذا الشيخ كثير من علامات الجنون . ومن المؤكد أن مقبرته (بعد موته) ستكون موضع التقديس .

يأتون ليحصدوا ثمارها ، ومع ذلك فان أحدا لا يقيم فى هذا الوادى الا فى فترة الحصاد ، وفضلا عن ذلك فاننا لم نجد به على الاطلاق استراحات مناسبة .

اليوم السادس عشر

لم نكن فى هـذا اليوم محظوظين كما كنا فى اليوم السابق ، فقد قضينا النهار والليل فى وديان قاحلة جرداء دون أن نقابل ظلا لنبات أخضر .

اليوم السابع عشر

وأخيرا ، فى هذا اليوم ، وبعد أن عبرنا مع جمالنا جبالا كنا نجد فى معظم الأحيان مشقة بالغة فى تسلقها بأقدامنا ، وصلنا الى دير سانت كاترين .

كان أحد الأخوين اللذين اصطحبانا حتى الطور قد سلك الطريق الأقصر حتى يلتقى بنا ، وكان ينتظرنا بقدر كبير من اللهفة والقلق .

يؤدى الى هذا المكان المنعزل منفذ صغير يعلو الجدران التى يبلغ ارتفاعها من عشرة إلى اثني عشر مترا . وهـذا المنفـد هو المدخل الوحيد الى هذا المكان المنعزل (١٧) ، وتغطى هذا المنفذ بكره يمر فوقها حبل ضخم يلتف حول اسطوانة مثبتة فى شبه ردهة وينزل الحبل الذى ينتهى بحلقة من الحبال يدخل فيها الشخص الذى يراد رفعه وتدار الاسطوانة بواسطة روافع متشابكة ، تشبه تلك التى تستخدم فى الموانى لانزال الأحجار من فوق السفن .

وعندما جاء الآباء لاستقبالنا ، رأينا ترحيبا حارا يكاد يبلغ مرتبة الملق واقتادونا الى رواق الأغراب ، ومكثنا هناك خمسة أيام زرنا خلالها الدير والأماكن المقدسة المحيطة به .

---

(١٧) ومع ذلك فيوجد باب للعربات ولكنه مسور ومغطى جزئيا بالأتربة ، كما أنه لا يفتح الا لاستقبال زيارة البطريرك .

ويقع هــذا الدير ، الذى تشكل جدران ســوره ، المبنية بكتل من الجرانيت يبلغ ارتفاع الكتلة الواحدة منها حوالى نصف المتر (١٨بوصة) وعرضها أكبر من ذلك بقليل ، مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ مترا (اى ٨٤ قامة والقامة تساوى ياردتين) — يقع هذا الدير عند سفح جبل حوريب أو خوريب .

وتشعر وأنت بداخل الدير بعــدم انتظام سطح الأرض التى اقيم فوقها ، وهو يتكون من عدد كبير من المبانى غير المنتظمــة المقــامة على مستويات مختلفة ، ويضم كنيسة مكرسة لسانت كاترين ، و٢٦ كنيســة أخرى لها نفس العدد من المشرفين ، ومسجدا (١٨) ومسارب بسيطة تتصل بدهاليز خارجية ومغطاة بالخشب وبعض مصــانع يدوية لصنع الأشــياء الضرورية لحياة رجال الدين ولصيانة الدير .

ويقيم فى هذا « السجن المقدس » ستة من رجال الدين واثنــان وعشرون راهبا . وتتكون الكنيسة من أجنحة ثلاثة تفصلها عن بعضــها البعض عواميد من الجرانيت تحمل سقفا خشبيا مطليــا بلون ازرق بالغ الجمال تتناثر فيه النجوم الذهبية اللون وتغلق المحراب قطع من الخشب جميلة ، محفورة ومذهبة . أما المذبح فمن زخارف حرشــفية تشبه جلد السمك ، مطعمة بالصدف ، ومشغولة بشــكل بالغ الجودة ، أما المنبر فمن الرخام لكن كرسى المطران مصنوع من الخشب المنقوش والمذهب ، ويزدان التاج بلوحة منقوشة على الخشب نرى فيها فى منظور (١٩) سيىء التنفيذ تفاصيل بالغة الدقة للدير ، وتغطى الجدران لوحات سيئة لحد ما مرسومة فوق الخشب ، أما البلاط فمن الرخام والجرانيت ويتخذ السلم شكلا حلزونيــا (٢٠) .

وجــدران الســـور مسننـــة ، بها استحكامات بارزة ذات زوايا

---

(١٨) أخبرنا رجال الدين ان هذا المسجد قد بنى فى الفترة التى كان العرب يعملون فيها فى خدمة الدير .

(١٩) انظر اللوحة ١٠٣ ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى .

(٢٠) لا يوجد بالدير جرس ، وينادون هنــاك على الصلاة وكذلك لبقية الممارسات الدينية بالطرق بواسطة بيزر (مطرقة ذات رأسين) على لوحة طويلة من الزان مغلقة أفقيا من الطرفين .

اربع تحمل كوات تغطى قطعا صغيرة من السلاح تطلق قذائف من زنة الرطلين ، لكن هذه المدافع لم تنطلق أبدا الا لكى تحدث ضجيجا فى الجبل (أى لم يحدث أمر جدى يستدعى انطلاقها) .

وتشتمل ترسانة الدير على عدد صغير من البنادق ذات المحاور ، اضطر الرهبان لاستخدامها فى بعض الأحيان ضد العربان الذين كانوا يأتون بقصد انتهاب حديقة الدير الخارجية التى تحيط بها جدران أكثر انخفاضا وأقل صلابة من جدران الدير . ويصل سكان الدير الى الحديقة عن طريق ممر سفلى يغلقه باب مزدوج من الحديد ، وهذه الحديقة واسعة بعض الشىء لكنها مزروعة بشكل غير جيد ، ومع ذلك فهى تنتج الخضروات التى تشبه بعضها ماننتجه نحن من خضار ولكنها اقل جودة ، كما تنبت فيها الكروم واشجار اللوز والبرتقال والليمون والمشمش والتفاح والبرقوق والزيتون. أما العربان، أولئك الذين لايعتنون بزراعتهم، ولا يقلمون اشجارهم بشكل دقيق ونادرا مايلجأون الى تطعيمها فينتجون فواكه ضئيلة الحجم لكنك تجدها لذيذة الطعم حيث أنت فى مكان تندر فيه الفاكهة الى هذا الحد . ولا يعرف رجال الدين التطعيم عن طريق شق القشرة ، وقد علمتهم طريقة التطعيم بالبراعم وكيفية تكاثر اشجار الكروم عن طريق ترقيد العقل (العقلة) .

والمياه فى الدير وفيرة ، ويخترق الحديقة جدول تسيل فيه المياه وبعمق يبلغ أكثر من ثلاث بوصات حتى ولو لم تكن قد سقطت أمطار منذ عام كامل ، وعلى الرغم من أن معظم العيون عندئذ تكون قد نضبت .

وحياة رجال الدين شديدة الزهد ، ويقتصر عمل الرهبان على القيام بأعمال بالغة الضآلة فيصنعون الزيت وقليلا من النبيذ من عنب كرومهم، كما يصنعون الخمور من البلح والتين والعنب المجفف ، ولا عمل لهم بعد ذلك الا ان يأكلوا ويحصل الدير من القاهرة على كل احتياجاته من المؤن التى تجلبها اليه القوافل والتى يرسلها الدير الرئيسى هناك . ويثرى هذا الدير عن طريق صدقات المسيحيين الذين يطمحون فى أن يحصلوا بهذه الوسيلة على هبات السماء عن طريق دعوات رجال الدين فى جبل سيناء . واذا ما استثنينا قداس الصباح ، وبعض الصلوات التى تتلى فى السماء ، فان هؤلاء الرهبان الورعين يقضون كل وقتهم فى انجاز لا شىء .

وهنــاك مكتبة جميلة لحد لا بأس به ، تضم عددا كبيرا من المجلدات اليونانية ، ومع ذلك فقد بدا لنــا أن أحدا لايتردد عليها . ويتحدث الجميع باليونانيــة وليس ثمة الا عــدد صــغير من الرهبــان يفهمون العربيــة ويتحــدثون بها . وهؤلاء هم الذين يقــومون بالســفر الى القــاهرة لتدبير شئون الدير .

اليومان الثامن عشر والتاسع عشر

يشكل جبل خوريب أو حوريب ، الذى يقع الدير فى سفحه ، ربوة تقع الى الشمال ، يمر فوقها الناس وهم ذاهبون الى جبل سيناء (٢١) .

وعلى مسافة حوالى ٥٠ قامة (١٠٠ ياردة) الى الجنوب من الدير تقابل عين ميــاه تسمى بئر الاسكافى تهيىء طيلة العــام كمية صــغيرة من المياه بالغة الجودة ، وعند نقطة الالتقاء توجد كنيسة صغيرة يطلق عليها اسم كنيسة مارى أو كنيسة المفوض . وفوق هذا الجبل يوجد خزان مياه مبنى وكذلك شىء يشبه حوضــا كبيرا للسمك يمتلىء بمياه الأمطار . كان كلاهما ـــ الخزان والحوض ـــ جافين منذ زمان طويل ، وفوق الربوة توجد شجرة سرو تمتاز بجمالها ، وعلى ارتفاع متر ونصــف المتر (٤ اقدام) يبلغ محيط هذه الربوة مايقرب من مترين وثلاثة أرباع المتر (٨١/٢ اقدام) مع ارتفاع مناسب (٢٢) . وعلى جزء أكثر ارتفاعا على نحو طفيف من نفس الهضبة توجد كنيستان صغيرتان تحملان اسمى : أيلى ، ايليزيه ، وجدرانهما مغطاة بأسماء أولئك الذين قدموا لزيارة جبل سيناء الذى يبلغ المرء قمته بعد مسيرته ساعتين صعودا فوق سلم يتكون من درجات من الصخور وكتل الجرانيت التى جلبت الى هذا المكان . ويغلق الممر المؤدى اليه بعض الأحيان ويقوم بحراســة الأبواب رجل لايسمح بمرور احــد الا من كان مسيحيا مزودا بكتاب من بطريرك سوريا . ويرى المرء أيضا من فوق هذا الجبل أطلال كنيسة صغيرة مبنية بالجرانيت ، كما يرى مسجدا يرتفع فوق مايشبه قبوا صغيرا يبلغ ارتفاعه مايقرب من متر ونصف المتر (٤ اقدام

---

(٢١) عادة ما نضع على الخريطة كلا من جبل حوريب وجبل سيناء باعتبارهما كتلتين تنفصل بينهما مسافة قصيرة ، وهذا خطأ ، فجبل حوريب ربوة من جبل سيناء ، أما تلك الكتلة التى تنفصل عنه فهى قمة جبل سانت كاترين ، وهذه أكثر منه رتفاعا بنحو طفيف .

(٢٢) يلاحظ وجود ربوة مشابهة داخل الدير .

و٧ بوصات) فوق مايماثلها من العرض والعمق . وينظر الى هذا المكان باعتباره المكان الذى أمضى فيه موسى أربعين يوما . ويوجد فى مقابل هذا المكان كهف بالغ الضيق هو ذلك الكهف الذى اختبأ فيه موسى — كما يقال — عندما تجلى له ربه . ويرى المرء بالمثل أطلال كنيسة ثانية خربها العربان لأنها كما يزعمون كانت تمنع المطر من السقوط . وهناك كثير من الآبار المحفورة فى الجرانيت ، لكنها جافة .

كان العرب ينتظروننا عند سفح الجبل ، وهنا وقع حادث ،طبيعى فى هذا الفصل ، لكنه نادر ، يتلهف الناس لحدوثه منذ زمن طويل ، جاء ليضيف الى الاحترام الذى يكنه هؤلاء العرب للفرنسيين ولتقديرهم لنا ، لم تكن قد سقطت أمطار منذ عام ، وكانت القطعان تعانى ، وكانت مصادر المياه تتناقص . وسمعنا ونحن فوق الجبل الرعد يزمجر عن بعد، وبدأ المطر يتساقط بينما كنا نهبط ، لم نكن قد شاهدنا مطرا يسقط منذ زمن طويل . فتمتعنا بلذة أن نحس بأنفسنا مبللين ، ولم يكن يخطر على بالنا مطلقا أن ننسب لأنفسنا فيما يحدث فضلا حين سمعنا العرب يهتفون، وعندما حاذيناهم هبوا جميعا واقفين يهللون : « ماشاء الله ! ماشاء الله ! عظيم غفار ! أيها الفرنسيون الطيبون . لقد صليتم من أجلنا فوق جبل سيناء ! لقد ساعدتم (بذلك) فى أن يهطل المطر علينا ، وهو أثمن علينا من الذهب » كانوا يقبلون أكمامنا وذيل ملابسنا ويبتهلون الى السماء وهم يرددون : أيها الفرنسيون الطيبون ! أيها الفرنسيون الطيبون ! كان الجو مشبعا للغاية . وكان لون السماء يماثل لونها فى أوربا قبل هطول ثلج كثير . وأبديت هذه الملحوظة لزميلى ثم أجبتهم . « اننا مسرورون منكم ، لقد صلينا على الجبل ودعونا الله من اجلكم ، وسيستجيب على الفور لأمنياتنا وأمنياتكم » . وبالكاد ، كان لدينا الوقت الذى يكفى لأن نحتمى تحت سقف مبنى ردىء من مبانى الرهبان ، تدخله الرياح من كل اتجاه ، وظل المطر يسقط بغزارة شديدة ، واستمر بنفس القوة لفترة طويلة من الليل .

رحلنا فى اليوم التالى عند انبلاج النهار لكى نذهب لزيارة جبل سانت كاترين ، وأمضينا أربع ساعات لكى نبلغ القمة بادئين من عند السفح ، نسير احيانا فوق قمم حادة مدببة واحيانا فوق صخور من السماق المورقة أو المفتتة بشكل تام . وفى كل لحظة كانت مساقط المياه،

والأخوار . والتسعاب التى شكلتها الثلوج التى سقطت فى العشية عند ذوبانها والتى كانت لاتزال تغطى الثلث الأخير من الجبل .. كان كل ذلك يجعل عبور بعض الممرات امرا بالغ الصعوبة . وكانت الرياح تهب من جهة الشمال ، وعلى الرغم من ان الترمومتر لم يكن يشير الى درجة التجمد ، فقد كان الجو جد قارس بالنسبة لنا ، نحن الذين لم نعد نعرف منذ زمن طويل لا البرد ولا المطر . ولا الجليد ، كانت السماء صافية فوق رءوسنا ، لكن بخر المياه التى سقطت فوق الصخور الدائمة على الدوام قد شكل من حولنا ، ومن تحت أقدامنا سحابا كثيفا ، كأننا كنا فى داخل جزيرة ، وكأنما قمم الجبال العالية من حولنا تشكل عددا مماثلا من صخور البحر ، وسط هذا البحر من البخار . وفوق هضبة الجبل شديدة الضيق ، ينهض كوخ متهدم بشكل جزئى ، ويغطى صخرة من الجرانيت، هى موضع تقديس من جانب المسيحيين . وقد شرح لنا الأخ الذى كان يصحبنا والرهبان الذين كانوا معنا ، فى أثناء عودتنا الى الدير سر هذا التقديس .

لقد استشهدت سانت كاترين ، عذراء الاسكندرية ، حسبما يذكر مؤرخو القرن التاسع فى مدينتها الاسكندرية . فى عهد ماكسيمانوس الثانى ، الامبراطور الرومانى فى ذلك الوقت . وفى هذه اللحظة ، وجد الناس على صخرة سانت كاترين هذه جثة لفتاة . واخبر بعض المسيحيين احد الرهبان بالأمر ، وذهب الجميع للتعرف على الجثمان . واقروا بأنه جثمان لشهيدة . وانه لابد ان يكون جثمان سانت كاترين . التى نقلت بالتأكيد ، حسب المعتقد الراسخ فى الدير . من الاسكندريه الى هنا بواسطة الملائكة الذين انزلوا الجثمان عند سفح جبل حوريب (٢٣)

وسرعان ماذاع صيت هذه المعجزة ، وتزايد عدد الحجاج القادمين من سوريا ومن القاهرة (كذا) ، وسرعان ما امد هؤلاء الرهبان بوسائل لاقامة كنيسة صغيرة كانت هى اصل منشأ هذا الدير .

وبعد ذلك وضع الجثمان فى صندوق له نافذة من الرخام الأبيض

---

(٢٣) يحدد رجال الدين المحطات التى استراح فيها حاملو الجثمان، وهم يقدمون كذلك الصخور الأفقية التى وضع الجثمان فوقها .

وحفظ بالطريقة التى يقضى بها الدين ، وفى أيام العيـــد تعرض الرأس واليد اليمنى أمام النافذة وتنال تقديس النـــاس ، اما النافـــذة الموازية فلا تدع احدا يلمح الا أجزاء من الهيكل (٢٤) .

رجونا رئيس الدير ان يسمح لنـــا بالمشاركة فى هذه الحفلةالدينية، فوافق على تحقيق هذا الرجاء فى الغد ، وعندئذ زينت الكنيسة كما فى ايام الأعياد الكبرى ، واضيئت كافة الشموع والمصابيح ، وبعـــد أن خر رئيس الدير والرهبـــان ساجدين ابتـــداء من أسفل الـــكنيسة حتى بلغوا المحراب ، جاء هؤلاء ليقبلوا جبهة القديسة والخاتم الـــذى يحيط بأحـــد اصـــابعها .

ولقد لفت هؤلاء انظارنا عند هبوطنـــا من الجبل الى زهور نسرين بالغـــة الازدهار والتفتح ، يطلق عليها الرهبان اسم شـــوك النـــار ، وقـــد أعجبنا عند مرورنا بالوادى الواقع بين جبل سيناء وجبل ســـانت كاترين ، بكتل رائعة من الخزف الهولندى تحيط بحوض أسـماك واسع كانت الأمطار قد ملأته اثناء الليل .

وعلى بعد مسافة قصيرة من ذلك ، عند منتصف الوادى ، لفتهؤلاء انظارنا الى الصخرة التى خرج عندها موسى من الماء (٢٥) .

---

(٢٤) أسترعى رجالالدين انتباهىالى أنه اذا كانالملائكة لم يعرضوا الجسد كله ، فقد كان ذلك من جانبهم تقديرا لاعتبارات العفة والفضيلة.

(٢٥) تتشكل الأمطار بسقوطها فوق الجبال أخوارا ، تحمل معها ، بينما هى تتبع نفس الاتجـــاه لوقت طويل ، الطين والأحجـــار ، والزلط المستدير ، وتتشكل بهذه الطريقة صخورا تستعصى على حركة التنقل.هذه، كما تحفر جداول يزداد عمقها بقدر ماتزيد رخاوة الحجر وبقدر ما يحدث المزيد من الأخوار ، حتى يحدث أن تندفع هذه الصخور من تلقاء نفسها ، بعد ان تفقد القاعدة التى كانت تنهض عليها بفعل انحـــراف الأرض من تحتها ، الى الوادى ، ولقد اندفعت كتلة من الجرانيت تبلغ مساحةسطحها ٤ر٥ أمتار مربعة ، (حوالى ١٤ قدما مربعا) الى وسط الوادى ، وترى اليوم على سطحها جدولا صغيرا يبلغ عرضـــه ٢ر٥ ديسيمتر ، وعمقـــه ديسيمترا واحدا ، وتقطعه من ١٠ ــ ١٢ قطعا يبلغ عمق القطع منهـــا ٣ــ٤ سم (١ر٥ــ٢ بوصة) ، وقد تشكلت هذه بفعل بقـــاء الميـــاه فى الأجزاء الأكثر رخاوة من هذه الـــكتلة ، التى يسميها الرهبـــان والعرب صخرة موسى . ويضع الأخـــيرون العشب فى هـــذه الأفواه المزعومة ، ويطعمونها جمالهم ، عندما تكون مريضة .

وعلى مسافة عدة أميال من هذا المكان ، تتلاقى عدة وديان وتشكل باتحادها هضـــبة واسعة مليئة بالرمال وكتـــل الجرانيت والزلط وتحمل اسم سهل الاسرائبليين . وهنـــاك وسط هذه الصحراء تل قليل الارتفاع يسمى جبل هارون ؛ وقـــد اكد لنـــا مرافقونا أن بعض العرب يذهبون الى هناك لذبح العنزات ؛ وبمواصلة طريقنا ، رأينـــا صخرة مجوفـــة ؛ يزعم الرهبان بأن العجل الذهبي قد صب (صيغ) فيها .

كانت القافلة هي نقطة البدء لعودتنـــا الى القاهرة ، وكان علينـــا أن نحرص على انتهاز هذه الفرصـــة والا فاننـــا سوف نخاطر بالبقاء فى الصحراء حتى يحين موعد سفر القـــافلة التالية اى لمدة اكثر من ســـتة اسابيع اذا مافترضـــنا – فوق ذلك – أن حـــدثا طـــارئا لن يأتى ليعطل مسيرتها . اذن فقد عدنا الى الدير . وفى اليوم التـــالى فارقنـــا هؤلاء الرهبـــان لكى نعود الى القاهرة عن طريق الجبـــال . كان شيوخنا فى انتظارنا عند سفح الـــكهف . وكانت القبائل الأكثر بعدا قـــد بدأت بالفعل مسيرتها لكى يلتقى الجميع عند مدخل الوادى لعبور صحراء السويس ؛ لكى يتبادلوا الحماية ضد القبائل المعادية التى قد يصادفونها .

وبينما كنا نشرف على تحميل جمالنـــا ، جاء احد مترجمينا وأخبرنى ان عربيا قد ابلغه أن الأتراك قد سيطروا على القاهرة وقتلوا الفرنسيين . كان بمكننى استدعاء هذا الأعرابى وسؤاله حول صحة هـــذا الخبر وأن افحمه لو كان الخبر مختلقا لاثارة العربان ضدنا . لكن مثل هذه المناقشة سوف تكون لها مساوئها . فقد كان بعضهم حانقا لأن رحلتنا قـــد عادت ببعض الفوائد على عدد قليـــل منهم . واعطيت امرى للمترجم أن يذهب ليقول لراوى الخـــبر ان الفرنسيين اصـــدقاء للاتراك ، وأنه ــــ هو ــــ لايعرفنـــا حق المعرفة . ان كان يظن انه بذلك سيخيفنا ؛ واننى أرسل له حفنة من البارات باعتباره منشدا وراوى قصص . وبعـــد ان ركبنا جمالنا (الهجين) ؛ وزعنا البارات على الفقراء ، والقينا بها الى الأطفال

كما كانت عادتنا ان نفعل عندما كنا نغادر احدى القبائل ، ورحلنا بينما ادميات وبركات الرهبان الطيبين ، تنهال علينا (٢٦) .

اليوم العشرون

بعد مسيرة ست ساعات من وادى الراحة وبعد مسيرة ساعتين فى وادى الشيخ صالح عسكرنا بالقرب من اولاد سعيد الذين لقينا فى كنفهم افضل استقبال . قادنا الشيخ الى خيمته ، ودار حوار عنيف اثناءالطعام بينه وبين جار له كان يود أن يستضيفنا . وفقنا بينهما واعدين الأخير أن نذهب لنأكل عنزة معه فى الغد قبل رحيلنا .

اليوم الحادى والعشرون

لم يعد امامنا سوى مسيرة ساعتين لكى نصل الى وادى فيران الخصيب والذى تحتله قبيلة القرارشة ، وهى اكبر القبائل عددا ، ويعد شيخها فى نفس الوقت أقدم المشايخ ويحمل لقب الشيخ الكبير . ويبلغ طول هذا الوادى ، المزروع بأشجار النخيل وبعض اشجار النبق حوالى ثلاثة أميال وعرضه حوالى ٢٠٠ الى ٣٠٠ متر (١٠٠ — ١٥٠ قامة). ويحتوى على أسوار كثيرة جدرانها من الحجارة الصلبة ، تشكل عددا مماثلا لعددها من الملكيات التابعة لأكثر ابناء القبائل المجاورة ، ميسرة ، والذين يأتون ليجنوا هناك بلحهم ، وهناك شخص بعينه يأخذ على عاتقه الحفاظ على هذه الحدائق التى تحظى بحماية الشيخ الكبير .

وهذا المعسكر كبير فى مساحته واهميته ، فهو يتكون من حوالى اربعين خيمة تنهض بين اشجار الطرفاء (المن) ، وهى تضم الجزءالأكبر من أبناء القبيلة ، ويجد المرء هناك آبارا عديدة تهيىء المياه بوفرة كافية ، وهم ينزحونها من عمق عشرين قدما ، وقت أن كنا فى رحلتنا هذه .

---

(٢٦) كانت قطعة من جوار السور قد تهدمت ، ولم تكن لديهم وسيلة لترميمها ، فوعدناهم بأن نرسل اليهم بنائين سافروا بالفعل مع اول قافلة تبعا لاتفاق عقدناه مع العربان . وبعد ذلك بسنوات وجد أحد الرحالة الروس ، الذى سافر برا من سوريا الى جبل سيناء ، اسمنا مدونا فى حجرة الأغراب ، دليلا على عرفانهم بالجميل .

Extrait du Journal du Monde élégant, Berlin, 1806.

وكان الطعام الذى قدم لنا هناك هو نفس ذلك الطعام الذى قدمته الينا القبائل الأخرى ، لكن تجمعهم الكبير العدد كان يضم من ٤٥ الى ٥٠ شخصا ، أى كل رجال واطفال القبيلة .

ثمة ما يجعلنا نلمس واقعة هامة . كان بوكوك Pococke وبصفة خاصة نيبور Niebhur قد وجدا على بعد مسيرة يوم من وادى فيران أحجارا تغطيها النقوش الهيروغليفية يبدو انها تشير الى وجود مقابر مصرية ، وقد تحدث الناس اليهما كذلك عن وجود مدينة قديمة ، الأمر الذى يتفق لحد كبير مع ما واتتنا الفرصة مرات عديدة للتعرف عليه فى صعيد مصر، اذ من المعروف انك عندما تجد خرائب مدينة فانك على يقين من انك ستلقى مقابر غير بعيدة من هذا المكان ، والعكس صحيح . ولما كنا نعيش منذ قرابة شهر مع رجالنا العربان ، ولما كانوا يبدون شديدى الثقة بنا للحد الذى لا يقدر احد أن يحصل عليه من هذه الشعوب المرتابة ، فقد كان لدينا من الأسباب مايكفى لأن نأمل بمساعدتهم فى العثور على الآثار القديمة التى رسمها ووصفها نيبور ، وعليه ، فقد سألنا رجال الدين الذين قاموا بالسفر الى هناك عدة مرات ، كما سألنا الرجال الطاعنين فى السن ، وأولئك الذين لبس لديهم مايخفونه حيث لايمتلكون شيئا يخشون من فقده ، ووافق الجميع على ان يدلونا على أطلال مدينة قديمة تقع فى نفس المكان ، وعلى بقايا أحجار منقوشة فى مكان آخر ، هو بالتأكيد المكان الذى اشار اليه نيبور ، لكن ، لقد خدعتنا امانينا ، سواء كان ذلك بدافع من الجهل أو بدافع من سوء الطوية والظن من جانب مرشدينا ، فانا لم نذهب الى المكان الذى توجد به الأنقاض القديمة ، التى كنا نتلهف على زيارتها .

اليوم الثانى والعشرون

بعد ساعة من خروجنا من وادى فيران ، اكتشفنا فوق تل يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين مترا (١٥ قامة) وجود هضبة تحيط بها جبال عالية . وقد رايت وسطها كذلك انقاض مساكن قديمة تفتقد الذوق فى بنائها . وقد بنيت هذه بكتل من الحجارة غير المشذبة ، كما بنى جزء منها بالطوب النيىء . ويوجد فى اسفل الجبل بقايا جدار سميك يبدو انه كان

قد بنى بقصد دعم التربة ، أو لاستخدامه كسور ، كما توجد ثمة مغارات محفورة فى الصخور ، لكن مداخلها ظلت ناتئة غير مشذبة .

ويؤكد العربان والرهبان أن المبانى الموجودة فوق التل وسط الهضبة هى أطلال مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون ، وخربها العربان الذين طردوهم منها ، ويزعم آخرون أن هذه المدينة قد انهارت فوق سكانها الذين وجدت جثثهم تحت أنقاضها .

وعلى قمم شديدة الارتفاع تسمى رأس الطاحونة توجد أساسات كنيسة قديمة تعود الى نفس الزمن الذى تعود اليه المبانى الموجودة فى أسفل ، وكل ماهناك ينبىء ببؤس وجهالة السكان القدامى لهذه المبانى التى تهدمت حيث لاشىء منه شبيه بالمبانى المصرية فى شكلها ومتانتها .

وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر ميلا (مسيرة يوم) مررنا كذلك بسفح جبل تغطيه النقوش مع الأرقام العربية ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٠ ، ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، وبجوار أكبر هذه الأرقام يوجد عدد ضئيل من الحروف لدرجة لا يمكن منها أن تكون شيئا آخر سوى أسماء يسبق الكثير منها — أو يتبعها — رسم الصليب . وقد رأينا هناك خيولا وجمالا منقوشة ، ورجالا على ظهر حصان وهناك رجل بين آخرين ، يحمل رمحا تشبه قمته رأس السهم .

وتوضع هذه النقوش أحيانا فوق أحجار أفقية ، وأحيانا أخرى فوق أحجار رأسية ، وكان الكثير من هذه الحجارة **مقلوب** لأنهـا انفصلت عن الجبل منذ نقشها ، ولا يزيد ارتفاعها مطلقا على مايزيد على ثلاثة أمتار ونصف المتر (١٠ — ١٢ قدما) بل انها نادرا ما تبلغ هـذا الحـد من الارتفاع . وفى هذه السلسلة من الجبال ، التى يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال ، والتى تقطعها فى أماكن عديدة شعاب أو وديان صغيرة ، لا يجد المرء مطلقا أحجارا منقوشة وان كان ذلك قد يحدث أحيانا عند زوايا الممر .

ولا تنبىء أى من هذه النقوش لا عن موهبة — بل ولا حتى عن عادة — النقش فوق الأحجار . وقد حفرت كلها بواسطة أحجار مدببة صلبة أو بقادوم ، فيما عدا عدد ضئيل منها تم حفره بواسطة أزميل .

ومن الصعب الا يدرك المرء الغاية من هذه الكتابات ، بل ومن الصعب أكثر أن نتردد حول التفسير الذى ينبغى أن يعطى لها ، اذ هى لا يمكن أن تكون قد تمت الا على أيدى مسيحيين كانوا يذهبون للحج (الزيارة) الى جبل سيناء . ويوجد أكبر عدد من هذه النقوش فى مكان استراحة الليل، وهناك القليل منها فى مكان استراحة النهار فى الوقت الذى لانجد فيه أى نقش على الاطلاق فى أى مكان آخر على الطريق .

وقد نسخنا العديد من هذه النقوش ، ثم دخلنا بعد ذلك الى الشرق فى واد ضيق حيث نصبنا خيامنا بعد أن قطعنا ثلاثة أميال فى سفح جبل جرانيتى وسط قبيلة الموارمة .

اليوم الثالث والعشرون

وفى هذا اليوم ، لم نقطع سوى أحد عشر ميلا فى واد ضيق ، بين جبلين رمليين ليس بهما أثر لخضرة من أى نوع ، لكى نصل الى هضبة مرتفعة تسمى وادى الخميلة ، حيث قضينا الليل .

اليوم الرابع والعشرون

باتباعنا الوادى . مع الانحراف قليلا الى الغرب ، عبرنا عدة شعاب مغطاة بصخور رملية وجرانيتية وسماقية (رخامية) ، ثم توقفنا فى وادى النصيب على بعد عشرة أميال من وادى الخميلة ، فى سفح جبل من الجرانيت تغطيه النقوش .وعلى الرغم من أن هذا المكان ليس سوى استراحة نهارية ، فإنه ينبغى عليك أن ترسل الجمال الى مسافة عدة أميال من هناك اذا كنت تريد الحصول على الماء .

كنا وسط قبائل العليقات ، وقادنا شيخها . الذى كان قد هرع الينا من مخيمه حيث نمنا بعد أن أكلنا العنزة تحت سقف خيمته .

اليوم الخـــامس والعشرون

فى هذا اليوم ، وجدنا آخر النقوش (٢٧) فى واد يسمى وادى الحمور بعد مسيرة نحو خمس ساعات وبعد أن اجتزنا واديا عميقا ورطبا مليئـــا بالبوص ، وبه بعض اشجار النخيل ، ويغطيه فى جزء منه الملح والبارود الأبيض بطول يبلغ ثمانية أميال ، وصلنا الى واد عسل ، حيث قضـــينا الليـــل .

اليوم الســـادس والعشرون

وباتباع الوادى ، الى الشمال الغربى ، استرحنا للحظات فى مكان يقع الى الجنوب من وادى الغرندل لكى نذهب لنقيم خيامنا فى خور فرق

---

(٢٧) لمعرفة كل النقوش أنظر اللوحات A , E المجلد الخامس ، كما يمكنك أن تجد جزءا منها فى Voyage de Niebuhr en Arabie المجلد **الأول**.

ومن المرجح أننا ابتعدنا لمسافة قصيرة من الجبل الذى نسخ عنـــه هذا الرحالة الممتاز الكتابة الهيروغليفية المنقوشة فى مؤلفه ، ولكن سواء كان ذلك عن جهالة أو عن سوء طوية فأن عرباننا قد اكدوا لنـــا أنهم لايعرفون أحجارا أخرى منقوشة . وقد واصلنا طريقنا **ونحن** واثقون من اننا سنعثر على النقوش الهيروغليفية ، لأنهم عندما أخبرناهم أنه لاتزال توجد أحجار أخرى ، دلونا على مكان أكثر بعـــدا لنبحث عنهـــا هنـــاك ، ولم ندرك أننا قد خدعنا الا عندما وجدنا النقوش الأخيرة . كانت القافلة تسير ولم يعد ذلك هو الوقت الملائم لكى نواصل البحث ، بل لـــكى نعود أدارجنـــا لنلحق بالركب .

وفى أثناء عبورنا الصحراء ، سببت لنا الـــكثير من القلق ، احدى القوافل التى كانت تسير على مسافة بعيدة منـــا ، ثم تعرفنـــا فيها على قبيلة صديقة .

وعلى مسيرة يومين من القـــاهرة ، عندما كنا معسكرين ، فوجئت غزالات ثلاث بأنفسها سجينة داخل المعسكر ، وبدأت تطاردها صـــيحات العربان ، وكلما فرت قابلتها نفس العقبة (الصياح) وقد اجتازت احداهن الشباك ، وافلتت الأخرى على الرغم من جراحها ، وأسرت الثالثة .كان العربان من قبل قد ذبحوا لنـــا غزالة كنا قد اشتريناها عشية وصـــولنا الى دير سانت كاترين، ويماثل لحمها كثيرا لحم اليحمور (نوع من الأيائل) البـــالغ اللذة .

على بعد عشرة أميال من الحوزية **وذلك** بعد ان بلغنا هضـــبة شـــديدة الارتفاع وجدنا فيها مياها بالغة الرداءه داخل مايشـــبه كهفا مكونا من الأحجـــار الجيرية . اجتزنا وادى الغرندل الذى يغطيه أشجار الطرفاء (المن)حيث يأتى عرب العليقات يصنعون الفحم .

اليوم السابع والعشرون

كنا بعد على بعد أكثر من عشرين ميلا من عيون موسى . وكنا منذ نهاية اليوم الثانى قد تركنا الجبال لكى ندخل صحراء قاحلة قطعنا فيهـــا سته عشر ميلا ثم نصبنا خيامنا فى وادى الحلزا .

اليوم الثامن والعشرون

فى هذا اليوم وصلنا فى ساعة مبكرة الى عيون موسى . كان المـــد قـــد بدأ يهبط وعبرنا ذراع البحر (الخليج) تجاه السويس ، وفى أماكن كثيرة كانت الميـــاه من حولنا تبلغ عمقا يقدر بأكثر من اربعة اقدام . وفى اليوم التالى لحقنا بالقافلة فى العجرود . وكانت القافلة تتكون من ١٢٠٠ جمل ومن ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل وفى اليوم الحادى والاربعين منذ رحلينا ، وصلنا الى القاهرة .

تقاليد وعادات عرب الطور

يسمى سكان شبه جزيرة سيناء الطورة أو عرب الطور . وهؤلاء ــ شأن كل العربان . ذوو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر الى متر و٧٣٢ مم (٤ اقدام وست بوصات) . ولون بشرتهم حائل، شديد السمرة ، بل يكاد يكون اسود تمـــاما ، وعيونهم حادة ســـوداء ، تغطيها الجفون بعض الشىء . وهم فى العـــادة نحيفو الأجسام ، جادو التقاطيع دون أن يوحوا بالكآبة ، وهم على دين محمد ، لكنهم لا يعرفون من محمد سوى اسمه ، ولا يعرفون عن القرآن سوى شهادة لا اله الا الله ، محمد رسول الله . ولم نقابل من بينهم سوى رجل واحد يؤدى الصلاة بانتظام ، كما قام بالسفر الى مكة (الحج) مرتين .

وعلى الرغم من أن الاقامة الاعتيادية لهؤلاء العربان فى جبال صخرية ووسط أرض قاحلة لايمكن أن تغرى أحدا على الاطلاق على انتزاع هـــذه

البلاد منهم ، فقد منحتهم هذه الحيـــاة ــ كما منحت كل العربان البدو ــ روحا من الحرية أساءوا استخدامها فى معظم الأحيان . وعلى الرغم من أن الضرورة تفرض عليهم أن يكونوا على الدوام مسلحين لحماية تجارتهم وللدفاع عن أنفسهم ، وعلى الرغم من أن حوادث الانتقام (٢٨) التى قــد يكون عليهم أن يمارسوها ضد قبيلة معادية قد دعمت لديهم الميل الى السلب حين يكونون منتصرين فان المرء مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أنه يجد ــ رغم ذلك ــ فى كل القبائل العربية بقايا ثمينة من تلك التقاليــد الأبدية التى نقلها الينــا سفر التكوين فى قصــة ابراهام ، وكما وصفها المسيو فولنى Volney بقدر كبير من الدقة والعذوبة فى مؤلفه الهام الحالة السياســية لسوريا Etat Politiqu de la Syrie ان ما نستطيع أن نؤكده هو أننا فى خلال الواحد والأربعين يوما التى أمضيناها مع عــرب الطور لم نستشعر من جانبهم أى نوع من القلق أو أن نتوجس منهم خيفة ، كانت خيمتنــا على الدوام مفتوحة بل وكثيرا ماكنا نغادرها ، وكانت أسلحتنا ملقاة كيفما اتفق، ومع ذلك فلم نفقد شيئا على الاطلاق مهما يكن ضئيلا .

ولقد وجدناهم شديدى التحفظ تجاه الفرنسيين ،ولكى ندعم مواقفهم الطيبــة هذه معنا ، فاننــا لم نعدهم بشىء على الاطلاق دون ان نــكون عند وعودنا ، كما لم نطلب اليهم ما يستحيل عليهم أن يفعلوه . ومع ذلك فقد كنا نفرض مانريد بقدر من الحزم كنا نبدو معه وكأن لدينــا من القوة مايجعل الغير يستجيب لارادتنا .

« كلمة الفرنسيين واحدة » ، هكذا كانوا يقولون على الدوام . وقد سألنى كثيرون منهم ، وهم دهشون لرؤيتنا نركب جمال الهجين ونســير بينهم ، نتحمل نفس المتاعب ونفس صنوف الحرمان التى يعانون منها ، سألونى : ان كان كل الفرنسيين أقوياء مثلى . وكنت أقول لــكل سائل انك ذاهب الى القاهرة ، وسوف ترى بنفسك أننى لست واحدا من أكثر الفرنسيين فتوة كما أنى لست واحدا من أكثرهم قوة فكانوا يجيبون : لقد خلقتم معشر الفرنسيين للاسفار .

---

(٢٨) هناك قانون عام عند العرب يقضى بأن دم كل قتيــل لابد من الانتقام له بدم قاتله وهو يسمى بالثأر أو القصاص .

كل مايرتديه عرب الطور كملبس هو قميص من الصوف الأبيض ينزل الى منتصف الساق ، وأكمامه قصيرة ، وكذلك جلباب من الصـــوف المقلم بالأبيض والغامق ، مفتوح من الأمام ، وليست له أكمام ، ومشقوق من الجنبين لمرور الذراعين ، وسروال من التيل .

ولا يرتدى الأطفـــال سوى الجلبـــاب ، وكثيرون منهم عراة ، وفى الصيف لا يرتدى الرجال سوى القميص مع حزام من الجلد أو من قماش صوفى . أما الشيوخ ، وهؤلاء هم أكثرهم ميسرة ، فيرتدون ملابسهم على طريقة المصريين وقد تلقى كثير منهم عبـــاءات (خلعات) من حكام البلاد.

ويرتدى البعض منهم نعلا تربطه الى قدمه سيور من الجلد أو خيوط من الصوف ، لكن سيقان الجميع عارية حسب عادة المصريين ، ويرتدون غطاء للرأس ، قلنسوة تحت عمامة رديئة من الصوف الأحمر أو الأبيض، وتكاد تكون رءوس كل الأطفال عارية .

ويحمل هؤلاء العرب كسلاح بندقية ذات سير جلدى وخنجرا مقوسا طوله ٥١ ديسيمتر (حوالى ٢١ بوصة) وهو ذو حدين ومزخرف بالفضة فى معظم الأحيان وهم يحصلون على هذا السلاح المصنوع فى فارس عن طريق جدة وهو يوضع فى مقدمة الحزام من الشمال الى اليمين .

وهناك ما يشبه جعبة من الجلد تعلق بالمثل فى الحزام من الأمام ، وتمتلئ بعلب من البوص أو الخشب ليوضع بها البـــارود ، وبالاضافة الى ذلك ثمة جراب يتكون من سيور صغيرة من الجلد المجدول ، تنتهى بأهداب مزدانة فى بعض الأحيان بقطع صغيرة من الرصاص ، ومزود به حقيبـــة من الجلد للصوفان (مادة اسفنجية للجراحة) وفتائل مطلية بالكبريت ، وحقيبة اخرى للاحجار . وتعلق به قداحة لها سلسلة صغيرة ، وهنـــاك حقيبة ثالثة صغيرة توضع بها المقذوفات وعلبة كبيرة من الخشـــب على شكل مخروط تمتلىء كذلك بالبارود ، بالاضـــافة الى جعب كثيرة مشابهة تعلق بهذا الجراب .

وتشبه ملابس النساء ملابس نساء القاهرة ، سروال ضـــيق من قماش فاتح ، وفستان طويل من التيل الأزرق ، مفتوح عند الصدر ، وله

أكمام واسعة مشقوقة حتى منتصف طولها ، برقع أو رباط من القمـــاش الأسود يبلغ عرضه ٢ ديسيمتر (٨ــ٩ بوصات) وطوله ٥ــ٦ ديسيمترات (١٨ ـــ ٢٠ بوصة) ، معقود من جانبى الرأس فوق العينين وعند منتصف الجبهه بشريط صغير تغطيه البارات (قطع النقد الفضـــية) فى بعض الأحيان ، على هذا النحو تتكون ملابسهن ، وفى نفس الوقت ينبغى أن نضيف الى ذلك قناعا من التيل الأزرق وعقودا وأساور من الحلى الزجاجية ، ولبعضهن حلقان كبيرة من الفضة فى أسفل الساق العـــارية (خلخال) والتى لايغطيها جراب (شراب) .

الأثاث

تشتمل اثاثات عرب الطور على خيمة من قماش من الصوف الغامق يصنعونه بأنفسهم ، ورحى من الحجارة لطحن القمح ، وغلاى أو غلايين للقهوة من النحاس ، وقدر معينة ، وأطباق من الخشب وملعقة من الحديد لتحميص البن وهاون من الخشب ليصحن فيه البن بواسطة عصا ـــ هذا هو أثاث الميسورين من هؤلاء العرب والذين يمتلـــكون زيادة على ذلك ، حقائب من الصوف لنقل الفحم .

المخـــــيم

نادرا مايضم المخيم القبيلة بأكملها ، ولا يتجاوز عدد الخيام الخاصة بكل قبيلة والتى توزع هنـــا وهناك تبعا لوجود الأعشـــاب والشجر التى يعثرون عليها فى الوديان ، ١٢ أو ١٥ خيمـــة ، وينبغى اســـتثناء عرب القرارشة الذين يمتلكون ٣٥ الى ٤٠ خيمة لأنهم يقيمون فى وادى فيران الخصيب .

وتنهض الخيام ، وهى مفتوحة من الأمام ، فوق عارضة من الخشب يحملها وتدان يبلغ ارتفاعهما المترين (حوالى ٦ أقـــدام) ، وتنزل بشكل منحدر لمسافة يتفاوت طولها فوق عارضة أخرى يبلغ ارتفاعها نصف المتر (١٨ ـــ ٢٠ بوصة) وهى من الطين ، وتنهض فوق العارضـــة الأخرى بشكل عمودى . وتقفل الجوانب بنفس القماش أو بقطع عديدة مختلفـــة الألوان . وفى معظم الأحيان تنقسم هذه الخيام بشريط من القماش يمتد الى الأمام قليلا ويستخدم فى عزل المكان المخصص للنساء .

الممتلكات

اذا استثنينا بعض الأراضى فى وديان الكيد وفيران ، وهى المحاطة بأسوار متهدمة ومزروعة بأشجار النخيل والنبق ، واذا ما استثنينا كذلك الدير وحديقة الرهبان ، فيمكن القول بأنه ليست هناك ملكيات فى شبه جزيرة سيناء ، فجمل أو عدة جمال ، بالاضافة الى بعض العنزات هى ثروة العربى ، وتنتشر كل قبيلة فوق منطقة محددة من الأرض ترعى فوقها قطعانها وتصنع فحمها ، وتقدر الثروة هناك بعدد الجمال ، ويعد فقيرا من لا يملك جمالا : أبو فقير ، مفيش جمل ، اى انه فقير لا يملك جمالا مطلقا ، فليرعه وليعطه المالك .

الصناعة

تتناسب صناعة عربان الطور مع احتياجاتهم بالغة البساطة ، فهم يصنعون ملابسهم ، ويصنعون بأنفسهم اقمشة خيامهم من الصوف ووبر الماعز الذى يغزلونه دون ازالة الشحم منه (٢٩) .

وعلى الرغم من أن بيع الفحم هو مصدر دخلهم الأساسى ، فليست لديهم الوسائل اللازمة لقطع الخشب ، وهم يضعون النار عند جذر الشجرة ، ويكسرونها بقطع ضخمة من الأحجار . واذا كانت لدى البعض

---

(٢٩) تحمل الخيوط التى تشكل سداة القماش ، عصوان موضوعتان بشكل افقى . ومثبتتان بالأرض من كل من طرفيهما ، وتبتعد كل منهما عن الأخرى بمسافة تزيد او تنقص (حسب الغرض المطلوب) ، وهناك جزء من غزل صوفى مماثل ، ملفوف حول عصا طولها ٣ ديسيمترات (حوالى ١ قدم) تستخدم كمكوك ، وتصنع لحمة القماش بتمرير هذا المكوك باليد بالتبادل خيطا فوق خيط من تحت ، ويكون الصانع فى هذه الحالة راقدا ، ثم يسحب المكوك ويمرر من جديد حتى يبلغ الطرف الآخر من خيوط السداة ويضمون خيوط اللحمة الى بعضها بضربها بمشط له ١٠ الى ١٢ من الأسنان . وعندما يضم الخيط بأكمله يعودوا المكوك الى الجانب الآخر بنفس الوسيلة . وأعتقد أن الخيط الواحد لاينسج ولا يضم فى اقل من ١٠ دقائق أو ربع الساعة وتقوم النسوة بهذا العمل ، بينما يصنع ازواجهن الفحم ويحملونه الى القاهرة .

بلطات صغيرة (قادوم) فهى ضعيفة وبالغة السوء لدرجة لا يمكن معها أن يستخدموها الا لقطع الأغصان ، وعندما سألتهم لماذا لايجلبون من القاهرة بلطات أحدث أجابونى : هكذا كان يصنع آباؤنا . وهؤلاء العرب لايولون أى اهتمام لما يضيع بددا من خشب ماداموا سيظلون يعثرون على الدوام على خشب يستعملونه فهم لايفكرون مطلقا ان كانوا سيظلون يجدون الكثير منه ولوقت أطول لو أنهم استخدموا وسائل أفضل « ربك يدبرها » ، وهم يصنعون الفحم بوضع الخشب بشكل افقى وتغطيته بالتراب ، ويكتمونه دون أن يرطبوه . ويمكن أن يكون هذا الفحم بالغ الجودة لو انه كان اكثر سمكا بقليل مما هو عليه . لكنه مع ذلك يكفى لأعمال المطبخ وكذلك فى العدد الأكبر من محلات الحدادة فى القاهرة .

ولكى لايبذل جهد لا جدوى منه . فان أحدا لا يصنع من الفحم الا الكمية التى تستطيع جماله أن تحملها . ويصنع العرب الفحم فى نفس المكان الذى أسقطت فيه الشجرة . **ويملؤون** منه حقائبهم ويتركون هذه الحقائب على الأرض أو يحملونها الى طريق القافلة لكى تأخذها عند مرورها .

التجـــارة

تشتمل تجارة عربان الطور على الفحم الذى يحملونه الى القاهرة، وعلى نقل البن والسلع الأخرى التى تصل الى السويس عن طريق البحر الأحمر .

ويباع الفحم بالقاهرة بسعر ٦ **بوطاقات** أو ١٨ فرنكا للحمولة الكبيرة اذا كان منفحم السنط (أو السيال) و بـ ٤١/٢ **بوطاقات** أو خمس **بوطاقات** اذا كان من خشب الطرفاء (الاثل او المن) .

ولا يحمل العدد الأكبر من الجمال سوى نصف أو ثلثى الحمولة . مما يعطى ثمنا يبلغ ٩ ، ١٢ فرنكا .

وعن طريق بيع الفحم يدبر العرب عيشهم وعيش عائلاتهم وجمالهم لمدة ستة أسابيع تستغرقها الرحلة الى القاهرة ، وعن طريق هذا المبلغ المواضع أيضا يشترون البن والدقيق أو القمح والتبغ **والنارجيلات** التى

تمثل احتياجا كبيرا بالنسبة لهم ، كما يمكنهم أن يتزودوا بقطع الملابس ومعدات الجمال التى لايمكنهم صنعها .

وقد يصعب على المرء أن يتصور كيف يمكن بمقدور هؤلاء ان يعيشوا بمثل هذا الدخل الهزيل ، وقد يصعب عليه بدرجة اقل مما سبق ان يتصور أيضا كيف يمكن أن توجد بينهم بعض العائلات الميسورة ـ اى التى تمتلك جمالا كثيرة ـ اذا لم يكن لها مصدر آخر للثروة ، أو على الأقل ، اذا لم تكن تلجأ الى استخدام اكثر ادرارا للربح لهذه الحيوانات (٣٠) .

ويقوم العرب عادة بعمليات النقل من السويس الى القاهرة ويقوم التجار باخطار شيخ أو عدة شيوخ ، عند مرورهم بالطور ويتعاقدون معهم على نقل حمولتهم التى قد تتطلب من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جمل . ويذهب اولئك الذين تعاقدوا الى الجبل ليبرموا صفقات خاصة يحققون من ورائها بعض الأرباح ويدفع للحمولة (حمولة الجمل) الكاملة ٨ بوطاقات او ٢٥ بارة مع جزء من البن .

وبخلاف هذه المنافع ، كان عرب الطور يتولون أمر القوافل الذاهبة الى مكة والتى كانوا يمدونها بثمانين جملا تذهب من القاهرة الى العجرود ، وكانوا يتلقون من البكوات ٢٤ الف بارة أى ٨٠٠ فرنك وفردا من البن (قنطار يساوى ١٠٨ اقة) و١٢ أردبا من القمح وثلاثة أطقم ملابس .

الطعـــام

يتمثل طعام العربان فى بعض البصل ، والروجة أو الفطير ، وهى نوع من الأقراص المصنوعة من الدقيق المعجون بالماء بدون خميرة او ملح ، ويصنعونها مرتين كل يوم ، ويضيف اليها الميسورون الفول أو العدس المطبوخ بالبصل وقليل من الزيت ويكتفى الفقراء بأكل الروجة

---

(٣٠) تحدد الثروة بعدد الجمال ، واذا سألت ان كان عربى ما غنيا او فقيرا فانك تحصل على هذه الاجابة . ان لديه جملا ، أو ان لديه عدة جمال ، ومن يمتلك من بينهم اربعة جمال يعد أكثر ثراء بأربع مرات ممن لا يملك سوى جمل واحد .

ولا يذبح عربان الطور العنزات الا ايام الأعياد أو عندما يستضيفون اغرابا ، وعندئذ ياكلون الارز والبلح ان كان قد تم جنيه .

وقد عوملنا على النحو التالى عند كل القبائل فيما عدا قبيلة مزينة : تبسط امام مدخل الخيمة قطعة من السجاد أو بعض جلود الماعز ،ويجلس الشيخ أولا ثم قدامى القوم وشيوخهم بترتيب السن ، ويشكل كل أبناء القبيلة دائرة كبيرة وتوضع النار فى الوسط ، وعندما يكون آخر من يصل ، كانت القبيلة بأكملها تنهض واقفة ويجلسوننا بجوار الشيخ ، ويصبون على يدنا الماء بعد ذلك لنغتسل . وكانوا يدفئون الماء عندما يكون الطقس باردا ، وتقدم القهوة ، ثم يحضرون أمام الأغراب وكبار السن طبقا كبيرا من الخشب مليئا بالبلح ، ويمرر هذا الطبق بالتوالى فى نقاط كثيرة من الدائرة الكبيرة حتى يستطيع كل امرىء أن يأخذ منه ، ويظل شيخ القبيلة واقفا بالقرب من الفاصل الذى يشكل عازلا للحريم اللاتى يمرر اليهن الطبق بعد انتهاء الطعام .

وتغسل الأيدى مرة اخرى ، ثم نسلم النسوة الى الشيخ قطعة نقطعة من العنزة المسلوقة فى ماء بدون ملح فوق قطعة من الفطير ، ويسلم الشيخ هذه القطع بادئا بالاكبر سنا ، ثم الى الشبان والى الأطفال. وزيادة فى اكرامنا كانوا يرسلون الينا فى طبق من الخشب قطعا كثيرة من العنزة مع عدد مماثل من قطع الفطير .

ويعيد الشيخ بقايا الطعام التى ترد اليه . بعد ان ياكل هو نفسه. ويظل هذا الرجل واقفا طيلة تناول الطعام ليكون على اتصال بالحريم ولكى يخدم المجموع .

ونغسل ايدينا للمرة الثالثة مع تمرير قطعة الصابون من يد لأخرى. وفى الفترات الفاصلة أثناء الاكل نتناول القهوة ، واخيرا يصل الأرز المطبوخ بالدقيق وقطع من الفطير وقليل من الزيت وبعض البصلات ،ويقدم هذا كله فى طبق كبير من الخشب يحمله شخصان فوق قطعة من السجاد او بالاحرى فوق جلباب . ويوضع الطبق امام أوائل الجمع .ويأكلون هذا النوع من العجين شأنه شأن غيره بالأيدى ، ويمرر الطبق على التوالى حول الدائرة . ويحصل الأطفال الذين لم يستطيعوا ان يعثروا لأنفسهم على مكان قوقفوا الى الخلف جزءا من هذا الطعام فى أيديهم ، ويعود

الطبق امام الشيخ الذى يمرره بعد ذلك الى النسوة . ولا توجه الى اى واحد من هؤلاء الآكلين دعوة الى الطعام ، فكل جائع يأكل ، ويبتعد عن المائدة فور شعوره بالشبع. وفى اثناء الطعام يتحدث كبار القوم(شيوخهم) وحدهم ويتناقشون ، وهو أمر نادرا مايحدث من قبل الشبان، كما لايصدر مطلقا عن الأطفال ، وفى كل القبائل كان العرب يشعرون نحونا بالامتنان الشديد لأننا نعيش ونأكل على طريقتهم دون أى تمييز سوى أننا كنا نتصدر المكان فى مدخل الخيمة حيث كنا نجلس على جلد عنزة أو فوق قطعة من القماش .

الــرقص

لا يستسلم العربان فى أيام الأعياد لمرح يكون اكثر صخبا مما اعتادوا ، ويقوم الشبان وحدهم ، وفى يدهم سيف أو خنجر ، بعمل بعض حركات الجسم والأعضاء التى تقلد شكل معركة بطريقة منفرة وخشنة . ولا يشبه رقص النساء فى شىء رقص العوالم (عالمة) فى مصر . ولا يحدث هذا الرقص الا فى الليل .

يتجمع رجال كثيرون فى شكل نصف دائرة متماسكين باليد وهم يهتزون ؛ أو يغنون بعض العبارات التى تتفق مع المناسبة (٣١) والتى يصحبونها من وقت لآخر بتصفيق منغم بالأيدى .

وفى اثناء الغناء تتبل امراتان كل واحدة منهما من احد طرفى الدائرة، ويبسطان الذراعين ؛ ويمران بالتبادل قدما امام الأخرى ، ويقومان ببعض الانحناءات للتحية والتبجيل ، وهما يهزان جسميهما حتى تبلغا وسط نصف الدائرة وعند كل انحناءة احترام ينحنى المنشدون ثم يغادران نصف الدائرة وهما يصنعان نفس الحركات ، وتمثل مكانهما اثنتان أخريان ، وعندانحناءة الاحترام الأخيرة ينحنين ، وهم يطلقون صيحة من الحنجرة ، هى تلك التى

---

(٣١) اليكم بعض هذه الجمل : شكرا لله وللرسول لأن رجالنا قد وصلوا ـــ كل القبيلة فى فرح منذ وصول مسالم مع صحبه ـــ مسالم يترك خيمته مفتوحة لكل النـــاس ـــ الذين طردوا المماليك كتبوا الى مسالم لكى يحظر ـــ نرجو الله ورسوله ان يظل الذين يحكمون مصر الآن ، فهيا الى الأبد ـــ كنا فى انتظار عودة مسالم لكى نحز راس الخروف .

تستخدم فى اناخة الجمال ، وكان احد شـــيوخنا ويسمى كريبزات داخل الدائرة فغنين له :

كريبزات يحسن تحميل جماله .

وقد ارسلنا الى الراقصـــات بعض قطع من الـــذهب وبعض البن فغنين لنـــا :

قدم الينا الفرنسيون البن مع السكر فى فناجين جميلة .

العــــادات

عندما يموت شيخ يحل ابنه محله طالما كان هذا الابن شهما وطالمـــا كان لبق الحديث وكانت خيمته مفتوحة امام كل الناس . وفى الحالة التى لايكون للشيخ المتوفى فيها ابن ، يعين أقرب أقربائه اليه أو الشخص الذى تتوفر فيه هذه الشروط ، ويجمع النـــاس عليه ، ويعترف به دون أدنى اعتراض .

وتتشابه بعض وظائف الشيخ مع وظائف قاضى السلام Juge de Paix عندنا . وفى حالات المنازعات يأتى الناس لالتماس حكمه ، ونسلم اليه كل الأطراف المتنازعة وكذلك الشهود خناجرهم فيرشقها فى الأرض أمامه ، وعندما يتحدث اليهم يمسك بيده عدة خناجر يلوح بها . ويتحدث الجميع، أو عدد كبير منهم ، فى وقت واحد ، فيحـــدثون بذلك ضجة كبيرة ، واذا لم يتفقوا فان الشيخ يصدر حكمه ، ويعيد اليهم أسلحتهم ، وتهدأ الضجة فى لحظة ثم ينسحبون .

اما الجرائم ، مثل القتل ، فيقتص لها بالدم ، أو تفتدى مقابل مبلغ كبير ، وتدفع دية الجرح بحسب حجمه ، ويقاس ذلك بحبات القمح .

واذا ما تشاجر رجل ميسور مع آخر فقير، ترجح كفة الرجل الفقير.

وحيث تختلط القطعان ، وحيث الخيام مفتوحـــة ، فان العرب فى حاجة شديدة لكى يجعلوا من السرقة فيما بينهم أمرا يوحى بالذعر الشديد. ويقصون فى هذا الصدد ، وهم يمتدحون ، حكاية أب سرقت ابنته احدى

عنزاته ، فقد تابع الأب المذنبة فى الجبال ، ووجدها تشوى قطعة من لحم العنزة ، فقيد قدميها ويديها والقى بها فى النار .

وتعاقب بنفس العقوبة الزوجة الخائنة والبنت التى تفقد شرفها ، ويتم التنفيـذ علنا ، اذ يقود الأب ومعـه الـكثيرون من الأهل المخطئـة الى الجبل .

ولا ينفذ الأب اى شىء كتابة ، اذ ليس من بينهم احد يقرأ أو يكتب، ولديهم قوانين وقواعد انتقلت اليهم عن طريق التقاليد ويتعلمونها بالممارسة (أى من وقائع الحياة) .

وترغم البنت على الزواج من الزوج الذى يقدمه لها اهلوها . لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للولد ، وعادة يفضل العرب انيتزوجوا من نفس عائلتهم .

ويمكن للولد ان يتزوج من ابنة عمه او خاله لـكنه لايستطيع ان يتزوج اخت زوجته ولا أخت ابيه . ويدفع عند الزواج ١٠ بوطاقات على الأقل من ذات التسعين بارة (حوالى ٣٢ فرنكا) الى أهل البنت ولا يعطى شىء للبنت نفسها ، ولكن اذا طلق الزوج زوجته فانه يعطيها مائة قطعة من ذات الثلاثين بارة ، (حوالى ١٠٦ فرنك) أما اذا كانت هى التى طلبت الطلاق فانها لاتستطيع ان تطلب شيئا .

واذا مامات أب وترك ابنـا وابنـة ، يحصل الابن على ثلاثة أرباع القطيع ، أما اذا ترك ابنا وعدة بنات ، فيحصل الابن فى هذه الحالة على النصف فقط .

واذا ترك الزوج زوجة لا ابنـاء لها ، يكون لأهله الآخرين فىميراثه نفس الحقوق التى كانت ستؤول الى ابنائه ، وتؤول الاسلحة التى كانت للاخ الاكبر (المتوفى) الى اخيه او ابن أخيه او ابن عمه .

واذا ترك هذا الزوج زوجة ثانية لا ابناء لها ، وله ابناء من الزوجة الأولى فان الزوجة الثانية هذه لاتستطيع أن تفرض كحق لها الا ما أعطاه الزوج لها بموجب وصية أوصى بها أمام شهود .

ويتكفل باليتامى أحد الاقارب من الميسورين . ويتكفل كذلك بالقطعان التى سيقدم عنها الحساب عندما يكبر الأطفال .

واذا كان الأطفال بلا قطيع فان الله يرعاهم ، ومن لديه يعطيهم .

والأمراض الشائعه عند العرب قليلة للغاية ، على الرغم من أن غالبيتهم ينامون عراة ، وقد لاحظت أن عددا كبيرا من بينهم يصابون بالسعال فى نهاية نوفمبر وأن أطفالا كثيرين هناك يصابون بما يشبه السعال الديكى .

ويستخدم العرب الكى فى حالات كثيرة ، ويجلب بعضهم من القاهرة أدوية يبيعها لهم المشعوذون بسعر رخيص . وهم يشربون الماء المغلى فوق بعرات الحمير كعلاج لأوجاع الراس .

عن شبه جزيرة سيناء

السكان

يبلغ تعداد عرب الطور حوالى ٩٠٠ الى ١٠٠٠ رجل يستطيعون حمل السلاح ويدخل فى هذا العدد سكان منطقة الطور ورجال الدين .

وللبعض من هؤلاء أكثر من زوجة تسكن كل واحدة منهن فى خيمة مستقلة . وثلثا عدد السكان على الأقل متزوجون ، وهم يسكنون الجبل على النحو التالى :

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
العليقات	١٥٠
العوارمة	١٢٠
القرارشة	١٠٠
أولاد سعيد	١٣٠
مزينة	٢٥٠

وبالاضافة الى ذلك هناك خمس قبائل صغيرة اخرى أو عائلات ، تنتمى الى تلك القبائل ، وهى الرزيدات ، العتايمة ، الجريزات ، الدزامة ، الحمادى .

واخيرا ، يشكل الجبالية ، الذين كانوا فى الماضى يقومون بخدمة دير سانت كاترين الواقع بالقرب منهم ، خمس قبائل صغيرة لكل واحد منها شيخ . ويبدو انهم كانوا مسيحيين فيما مضى وأنهم كانوا يدخلون الدير ، ولكنهم منذ اعتنقوا الاسلام أو منذ حل محلهم العربان ، لم يعودوا يترددون على الدير أو يقومون بخدمة رجال الدين بأفضل مما تفعل بقية القبائل . وهؤلاء الجبالية هم أكثر هذه القبائل بؤسا ، وهذه هى أسماؤهم :

اسم القبيلة	عدد الرجال القادرين على حمل السلاح
السلايمة	٣٠
الحمايدة	٢٠
الوعيبات	١٥
أولاد جندى	٣٠
أولاد رزين	٤٠
المجموع	١٣٥

وعلى الرغم من ان الوقت والظروف لم تسمح لنا برسم خريطة ومسار الطريق فإننى دونت مذكرة دقيقة بكل نقاط هذا الطريق . وقد قست المسافات عن طريق الوقت الذى كنا ننفقه للذهاب من نقطة الى أخرى مع تقدير ميلين لكل ساعة للمسافة التى تقطعها الجمال محملة أو التى تسير فى قافلة دون ان يسرع بها قائدوها . وقد تبين لى انك لكى تذهب من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء مرورا من جهة البحر بالنقاط التى توجد بها المياه ، ولكى تعود من خلال الجبال فإن عليك أن تنفق مثلنا ٢٣٦ ساعة ، واننا نستطيع على هذا النحو ان نفترض أن هذا الطريق يبلغ ٤٧٢ ميلا أو ٢٣٦ فرسخا بالقياس الفرنسى .

واليكم واقعة تؤيد هذا التقرير .

وجد العالم الفلكى المسيو نويه Nouet عن طريق عمليـــة حساب مثلثات ان السويس تبعد عن القاهرة بـــ ٢٨ فرسخا مقـــدارها ٢٢٨٢ قامة (القامة = ٢ ياردة) أى ٦٣ ميلا و٨٩٦ قامة . وقد قطعنا هـــذا الطريق مرتين مع نفس القافلة ، وانفقنا فى كل مرة ٤٢ ساعة (مع فارق بضع دقائق زيادة أو نقصانا) ، الأمر الذى بعطينا تبعا للتقدير السابق ٦٤ الف قامة أو ٣٢ فرسخا ، طول الفرسخ الفا قامة .

ومن هنـــا نرى انه ليس هنـــاك ســـوى فارق بين النتيجتين يبلغ ١٠٤ قامة .

الطريق من القاهرة الى طرف شبه جزيرة سيناء عن طريق السويس
مع اشارة الى الأماكن التى توجد بها ميـاه

ترتيب أيام المشى	أسماء الأماكن والاستراحات	المسافة بالميل	نوع
الأول	من القاهرة، فى الصحراء	١٢	بدون ماء
الثانى	«	٢٠	شرحه
الثالث	إلى العجرود	٢٤	شرحه
الرابع	إلى بير السويس	٦	مياه ملحية
	إلى السويس	٤	بدون ماء
الخامس	إلى عيون موسى	٦	مياه كبريتية وجبسية
	العين	٥	بدون ماء
السادس	أبو صويرة	١٥	مياه جبسية
السابع	وادى الغرندل	٢٠	بدون ماء
الثامن	وادى الحوزية	٤	مياه جبسية
	وادى إثل	٢٤	« «
التاسع	وادى المغارة	٢٦	مياه جيدة
العاشر	الطور	٢	« «
الحادى والثانى عشر	فى الجبال	٣٢	بدون ماء
الثالث عشر	شرم (الشيخ)	٦	جيدة
	قبيلة مزينة	—	بدون ماء
الرابع عشر	وادى نصيب	٢٠	شرحه
	وادى المندار	٢	مياه جيدة
الخامس عشر	وادى الكيد	١٨	« «
السادس عشر	فى الجبال	١٤	بدون ماء

ترتيب أيام المشى	أسماء الاماكن والاسمراحات	المسافة بالميل	نوع المياه
السابع عشر	إلى دير سانت كاترين	٦	مياه جيدة
الثامن والتاسع عشر	فى جبال سيناء وسانت	١٢	جيدة
	كاترين وسهل الإسرائيليين	٨	—
	والعودة إلى الدير		
العشرون	وادى الشيخ صالح	١٥	جيدة، تنضب فى الصيف
الحادى والعشرون	وادى فيران	٤	جيدة
الثانى والعشرون	فى واد ضيق	٦	بدون ماء
الثالث والعشرون	وادى الخيلة	١١	شرحه
الرابع والعشرون	وادى نصيب	١٠	جيدة
الخامس والعشرون	وادى عسل	١٦	بدون ماء
السادس والعشرون	الحوزية	٨	—
	خور فرق	١٠	كلسية
السابع والعشرون	وادى الحلزا	٦	بدون ماء
الثامن والعشرون	عيون موسى	٤	—
التاسع والعشرون والثلاثون والحادى والثلاثون	إلى القاهرة	٧٢	—
	مجموع المسافة	٤٧٩	

الدراسة الخامسة :

رحلة الى بنى سويف والفيوم

ب.م. مارتان

* العنوان الأصلى للدراسة هو :

وصـــف هيــدروجرافى لولايتى بنى سويف والفيوم .

(والهيدروجرافيا هى علم وصف المياه أو طبوغرافيا البحار . أما الكوروجرافيا فهى علم وصف البلدان . المترجم)

تثير ولايتا الفيوم وبنى سويف ، الواقعتان فى ذلك الجزء من مصر ، الذى كان يشار اليه فيما مضى باسم هبتانوميد ، والذى يعرف اليوم باسم الوسطانى ، أو مصر الوسطى . اهتماما كبيرا من ناحية كوروجرافيتهما ، التى لاتزال حتى يومنا هذا موضوعا لجدل ، لم تلتق حوله الآراء ، بين اكبر وأشهر جغرافيينا . ذلك أن الأوصاف التى خلفها لنا الأقدمون لهذين الاقليمين ، تختلف أشد الاختلاف عن تلك التى يقدمها لنا . عنها ، الرحالة ، واشهر النقاد المحدثين ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وحين نريد التوفيق . بين هذه الاختلافات ، نجد انفسنا فى كثير من الأحيان . عرضه للوقوع فى اشد الأخطاء خطوره .

وعند وصولنا الى مصر ، كان لابد أن تهدف لجنة العلوم والفنون الى العمل على ازالة كل هذه الشكوك ، والى أن نؤكد فى النهاية ، وبطريقة لاتقبل الجدل ، ذلك الرأى الذى لابد لكل امرىء أن يتوصل اليه ، بخصوص عظمة وعبقرية قدماء المصريين ، كما توضحهما مؤلفات تحظى بدرجة عالية من الاحترام ، مثل مؤلفات هيرودوت وسترابون ، وديودور (الصقلى) ، وبطليموس .. الخ ، وهى مؤلفات يستحيل على المرء مطلقا أن ينحيها جانبا او حتى ان ينظر اليها نظرة استخفاف ، ونتيجة لذلك ، فقد توجه عديد من اعضاء هذه اللجنة الى بنى سويف والفيوم ، فى كل مرة كانت تسنح فيها الفرصة لأى منهم للقيام بمثل هذه الجولات ، وقد ابدى الأستاذان : جومار Jomard ، وجيرار Girard حماسة لا تعرف الكلل فى ابحاثهما التى قدمت نتائجها الى مجمع القاهرة .

لقد اخذ اولهما على عاتقه ان يتأكد من حقيقة الأوصاف التى قدمها كل من هيرودوت ، وديودور ، وسترابون لبحيرة موريس ، وبرهن بشكل شديد الوضوح على أن هؤلاء المؤرخين ، يعنون فيما دونوه فى مؤلفاتهم ، تلك البحيرة التى تعرف اليوم باسم بركة قارون ، اذ هى البحيرة الوحيدة التى تنطبق عليها الأحوال التى أوردها كل من هؤلاء (١) .

---

(١) انظر دراسة حول بحيرة موريس ، تأليف جومار ، العصور القديمة ، دراسات المجلد السادس . وصف مصر (الطبعة الثانية) .

أما المسيو جيرار ، فقد اهتم بشكل خاص بوصف الفيوم بوضعها الحالى ، بينما هو يعالج أمور الزراعة والتجارة ، لكنه ، على الرغم من ذلك النفاذ المعروف عنه ، والمعارف العميقة والغزيرة التى تميز كل مؤلفاته ، قد ظل عند مناقشته لهذه الموضوعات بعيدا عن مناقشة الطبوغرافية القديمة لهذا الاقليم .

وفى الواقع ، فان الدراسة العميقة التى قام بها المسيو جومار قد ازالت كل لبس ، فقد أصبحنا الآن على ثقة من الموقع الصحيح لبحيرة موريس ، واللابرنت ، واقليم أرسينويه . لقد كنا نعرف ضعف الأسس التى تنهض عليها افتراضات دانفيل d' Anville وجيبير Gibert ، ولم يعد بمقدور أحد أن يرى بحيرة موريس لا فى تلك الحقول المزروعة على الدوام ، مثل حقول الباطن (أى الداخل) ، ولا فى هذا الفرع المتعرج للنيل والذى يحمل اسم بحر يوسف ، ذلك الذى يكفى بالكاد لملاحة بعض القوارب الخفيفة ، ومع ذلك فان المسيو جومار لم يكن قد استطاع حتى الآن أن يدحض دانفيل وجيبير ، الا ببراهين من شأنها أن تقدم بعض افتراضات ، تشى بعدم قدرتها على الاقناع ، اذ كان دانفيل قد أنشأ ، دعما لرأيه ، وبينما هو يعبر عن فكرته بخصوص حقول الباطن تبعا لما زعمه الأب سيكار P. sicard ، خريطة ترك الأمر فيها معلقا ، حين يطلق على هذه الحقول اسم بحيرة موريس تبعا لما يذكره هيرودوت وريودور ، ثم يعود فيطلق فى الوقت نفسه اسم بحيرة موريس على بركة قارون تبعا لما يورده سترابون وبطليموس . وللوصول الى يقين حول هذه النقطة ، كان من الضرورى عبور الجزء الشمالى من البركة ، والا نظل نحدد اتجاهها واتساعها تبعا لأوصاف مبسطة الى هذا الحد ، وغير دقيقة ، ولقد كان لسوء الحظ ، مستحيلا على السيدين جومار وجيرار أن يقوما بهذا الاستطلاع . ففى الفترة التى عبرا فيها هذا الاقليم . لم تكن مصر ، غير الواثقة حتى ذلك الحين من مصيرها ، لتسمح للفرنسيين الدارسين أن يتجولوا فى ربوعها ، الا فى أعقاب فرق من الجيش ، أوكلت اليها مهمة تأكيد السلطة الجديدة . ولأنهما ، والحال كذلك ، لم يستطيعا أن يديرا حركتهما بالحرية اللازمة لعمليات تتسنع على هذا النحو ، فانهما لم يشغلا نفسيهما فى هذا الوقت ، الا بالجغرافيا الفلكية ، فى دراسة المنشآت وطبوغرافيتها . وفى النهاية ، فلقد أدى الانتصار الباهر ، فى معركة

هليوبوليس ، واستعادة القاهرة عام ١٨٠٠ ، الى اعادة الهدوء الى مصر ، ويبدو أن السهولة التى امكن بها تحطيم جهود العثمانيين ، الذين ينظر اليهم فى هذه البلاد ، باعتبارهم الأعداء الوحيدين الذين يخشى بأسهم (بالنسبة لنا) ، قد جعلت المصريين يألفون فكرة أن ينظروا الى الفرنسيين منذ الآن ، باعتبارهم حكاما يستحيل ردهم على أعقابهم ، فتأقلموا منذ ذلك الوقت معنا بتقاليدهم اللطيفة وطباعهم الودودة ، وكظموا أمانيهم ، وازالوا العقبات التى كانت تعترض سبيل الفرنسيين ، وبدأ هؤلاء يجوبون أنحاء مصر ، وحدهم ، فى أمان .

وقد سارع أعضاء لجنة العلوم والفنون باقتناص هذه الظروف المواتية ، فانتشروا فى الأماكن غير المأهولة وغير المعروفة كى يضيفوا جديدا الى اكتشافاتهم ، ولكى يطابقوا نتائج أبحاثهم السابقة على الواقع ، عندئذ حدث أن قامت رحلات الى جبل سيناء ، ووادى التيه ، وبرج العرب ، وأقر مشروع لزيارة الواحات ، والذهاب الى الحبشة ، وأمكن باختصار أن نعمل بنجاح بالتفاصيل الكوروجرافية لمصر .

أما مهندسو الطرق والكبارى ، الذين أوكل اليهم بشكل خاص كل مايتصل بنظام الرى ، الذى ينهض عليه وجود مصر ، فقد شغلوا معظم أوقاتهم بدارسة نظام النيل ، وترع الملاحة ، والرى ، والتجفيف ، وكان من نصيبى ولايتا البهنسا والفيوم ، وتوجهت الى بنى سويف . قرب نهاية شهر ميسيدور من العام الثامن (منتصف يوليه ١٨٠٠) .

كنت أعى تماما كم ستكون مهمتى ضخمة وعسيرة بالنسبة لقدراتى ، لكننى تدفعنى ، أهمية نتائج هذا العمل ، قد افترضت أن الحماسة المتأججة والشجاعة ستعوضان عدم كفايتى ، واتخذت قرارى الحازم باجتياز هاتين الولايتين من كل أجزائهما ، وأن أنشىء لهما الخرائط التفصيلية على قدر استطاعتى ، وعزمت على وجه الخصوص أن أقوم بدورة حول بحيرة موريس هذه ، وهو عمل لم يقم به حتى اليوم رحالة قديم ولا رحالة محدث ، وأن أصل بذلك الى فكرة محددة حول شكلها ، وامتدادها ، وحقيقة الأغراض التى كانت تستخدم فيها فى العصور القديمة .

ويذكر التاريخ باعجاب ، العصور والرجال الذين نفذت بمقتضى أوامرهم ، تلك الأعمال التى ازدهرت بفضلها الزراعة فى مصر . ان ثراء

هذه البلاد لمدين لاسماء هؤلاء بالعرفان والمديح الواجبين . وكنت اقــول لنفسى : يا لها من ميزة ستتحقق لوطنى ، فرنسا ، اذا ما اصبحت مصر، بعد تحقيق اعمال كهذى ، مستعمرة فرنسية ! واى مجـد يمكن أن يكون للفرنسيين اذا خصصوا أعمالهم لخير البشرية .

واقدم هنا تفاصيل أبحاثى ومجهوداتى كى اتوصل الى تحقيق الهدف الذى وضعته نصب عينى ، وسوف تستخدم هذه التفاصيل كنص لتفسير الخرائط التى رسمتها ، والتى تشكل جزءا من الأطلس الجغرافى (٢) .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين :

فى القسم الأول ، قدمت وصفا لولاية بنى سويف ؛

وفى القسم الثانى ، قدمت وصفا لولاية الفيوم .

---

(٢) انظر الخرائط أرقام ١٨و١٩و٢٠و٢١ فى الأطلس الجغرافى .

القسم الأول

ولاية بنى سويف

بدأت بعد بضعة أيام من وصولى الى بنى سويف ، حيث وجدت فى شخص الجنرال زيونشيك قائد الولاية ، صديقا متحمسا للعلوم ، سارع فوضع تحت تصرفى كل الوسائل اللازمة لتسهيل عملياتى — بدأت باقامة عدة مثلثات كبيرة ربطت فيها — تبعا لقواعد علم حساب المثلثات — قرى بنى سويف وبوش (*) بأعلى قمة لجبل المقطم ، الذى ينهض على الضفة الشرقية للنيل ، وكذلك بالهرم الذى يرى عند مدخل الفيوم ، وبعد ذلك وباستخدام الوسائل الطبوغرافية المعتادة عينت تفاصيل شمال الولاية ، وربطتها بهذه البنية المثلثية ، التى يمكن رؤيتها من كافة الجهات على وجه التقريب .

يجرى النيل ، كما يحدث فى كل بلاد الصعيد تقريبا ، عند سفح الجبل الغربى بطول ولاية بنى سويف ، وينقسم الشط الغربى من هذه الولاية ، من ناحية عرضه ، وهو الشط الوحيد القابل للزراعة ، الى قسمين متمايزين وذلك بخصوص الرى . والقسم الأول ، وهو يبدأ من عند حافة النيل ، أكثر ارتفاعا عن المياه العالية باتساع يبلغ حوالى الكيلومترين ، وترويه عدة ترع صغيرة ، تختص كل ترعة منها بقرية واحدة ، ويلجأ الناس الى الأذرع (الشواديف) ، والماكينات (السواقى) لرفع المياه حتى تغمر الأرض . أما القسم الثانى ، وهو الذى يمتد بعد ذلك الى سفح الجبال الصحراوية التى تفصل مصر (الوادى) عن الفيوم ، فهو يشكل ، تبعا لانحداره ، فى نمطين ، يصنع اتجاه كل منهما مع الآخر شكلا شبه عمودى ، أما النمط الأول فيتجه نحو الغرب أما الثانى فيتجه نحو الشمال وفق اتجاه مياه النهر . ولن آخذ على عاتقى مطلقا أن أفسر سبب هذا التباين فى ارتفاع هذين الجزئين من أرض الوادى ، فقد عولجت

(*) احدى قرى بنى سويف [المترجم] .

هذه النقطة بما فيــه الــكفاية فى دراسة المسيو جيرار عن الزراعة فى مصر العليا (٣) .

وهذان الانحناءان محسوسان لدرجة أن المياه العاليــة تظل تغمر الأرض بارتفاع يبلغ المترين ، ويبدو الريف فى هذه الفترة من الفيضان فى شكل بحر مترامى الأطراف ، ومثل هذا الموقع المواتى يغنى تماما عن الأعمال الميكانيكية فى الرى ، لكنه مع ذلك يتطلب أعمالا ضخمة للاحتفاظ بالمياه أثناء الوقت اللازم للزراعة ، لأن الانحدار الى الشمال ، ذلك الذى يسحب الميــاه بنفس سرعة النهر أثناء تناقص الأخير ، يحول دون بقـــاء المياه فترة طويلة كافية فوق الأراضى .

ولعلاج هذه السوءة ، أقامت السلطات المحلية باتساع هذا الجزء من أرض مصر ، وعلى مسافات محددة ، جسورا تلامس الجبال ثم يظل ارتفاع هذه الجسور يتضاءل ليبلغ مرتبة الصفر عند الأراضى المرتفعـــة على ضفاف النيل ، وتسبب هذه الجسور انحسار الميـــاه حتى مستوى الأجزاء العليا ، وتظل على هذا النحو حتى تسمح لهـــا الأراضى ، وقـــد تشبعت بالمياه ، أن تنصرف بواسطة قطوع أعدت فى هذه الجسور .

وهذه الأعمال كما نرى ، ذات أهمية قصوى فى نظام الرى ، ولابد أن وجودها الذى بدأ مع بدء وجود الترع على مر العصور ، قـــد أثار اهتمام الحكام ، ونميز من بين هذه الجسور : الجسور الكبيرة ،والوسطى والصغيرة . أما الجسور الكبرى فقد بنيت باتساع الوادى كله ، ويوجد منها احد عشر جسرا فى كل ولاية بنى سويف ، أكبرها وأكثرها أهميـــة هو ذلك الجسر الذى يحمل اسم الوكشيشى ، ويقع على بعد حوالى ٢ ميريامتر (٢٠٫٠٠٠م) شمال بنى سويف ، وهو يبـــدأ عند النيل ، الى الجنوب من قريتى الزاوية والمصـــلوب ثم يمضى الى شـــمال قريتى قمن العروس وابجيج ثم يمضى جنوب الصحراء مارا بالقرب من قريتى أبويط، وكوم أبو راضى ، أما السهل الذى بنى من أجله فينتهى عند قرى بهبشين، ودلاص ، والزيتون .. الخ ، ويشمل مساحة حوالى ١٠٫٠٠٠ هكتار ، تناثرت عليها ١٨ قرية .

---

(٣) Decade egyptienne ، المجلد ، ص ٣٠ ، ٣١ .

اما الجسور الكبرى الاخرى فهى جسور : بهبشين ، صفانية ، صفط ، راشين ، النويرة ، الشوبك ، اهوة ، تدهل أو الشسنطور ، سمالوط ، منبال ، بردنوها .

اما الجسور المتوسطة ، والتى لاتخدم الا بعض الاراضى ، فيبدأ بعضها من ضفاف النيل ، ويبدأ بعضها الاخر من الجسور الكبرى نفسها ، وينتهى كلاهما بالالتحام بأحد المرتفعات التى بنيت القرى فوقها .

ومن جهة ثالثة واخيرة ، فان الجسور الصغرى جسور محلية ، تنشأ لصالح عدة قراريط او اجزاء من القرية .

وقد اقتضى نفس وضع الانحدارات العرضية للوادى وجود نوعين من الترع .. الترع الكبرى ، وتحمل المياه الى أعلى ، اى الى الجزء الواقع الى اقصى الغرب حتى سفح الجبل ، والصغرى ، التى تبدأ اما من النيل نفسه ، وأما تشكل فروعا من الترع الكبرى ، وتنتهى عند سفح المرتفعات المتناثرة فوق رقعة الأرض العالية ، الشديدة الاقتراب من النهر .

وقد يظن البعض ، نتيجة لذلك ، أن الأراضى الواقعة بالقرب من الجبال يمكن على الدوام أن تروى بشكل طبيعى بواسطة الترع الكبرى . مهما يكن ارتفاع فيضان النهر ، حيث أن منسوبها أدنى من منسوب اقل الفيضانات علوا ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو ، اذ لايكفى لكى تروى هذه الأراضى ان يبلغ الفيضان نفس مستوى ارتفاعها ، بل لابد أن يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع التى ينبغى أن تحمل المياه الى هذه الحقول الشاسعة . ولايمكن أن يتحقق هذا الشرط الا بالعناية المستمرة من جانب حاكم عاقل مستنير ، وتلك ميزة لم يعرفها المصريون منذ قرون طويلة ؛ فهذه الأراضى الواقعة الى الغرب ، والتى حبتها الطبيعة الى هذا الحد ، والتى ينبغى أن تنهض عليها دوما آمال بقية مصر ، هى اكثر المناطق بؤسا ؛ فالمياه تنقصها كلية اثناء الفيضانات الضعيفة ، ولا تصل اليها الا بكميات ضئيلة اثناء الفيضانات العالية اذ يتسبب ارتفاع قاع هذه الترع نتيجة للاهمال الطويل فى الحيلولة دون تدفق المياه الى هذه الأجزاء المنخفضة ، ويحدث فقط عندما يتجاوز الفيضان ارتفاع قاع الترع ان تنزل المياه كشلال هادر ، لتغطى الأرض فى لمح البصر ، ولقد شاهدت هذه الأراضى جافة

فى ٢٤ ميسيدور من العام الثامن (١٢ أغسطس ١٨٠٠) ، وفى العاشر من فريكتيدور الذى يليه (٢٨ أغسطس) وجدت المياه تعلو بنحو مترين ونصف المتر ، الى ثلاثة أمتار ، عند سفح الصحراء فى حين لم يبلغ الفيضان الفعلى فى ذلك الوقت الا مترا واحدا و٢٥ سم .

وقد أدى ارتفاع فيضان العام السابع (١٧٩٩) ، الذى لم يستطع أن يتجاوز ارتفاع قاع العدد الأكبر من هذه الترع ، الى ترك مايقرب من ثلاثة أرباع الأراضى دون زراعة ، مما جلب الشقاء والأسى لعدد لاحصر له من العائلات فى حين كان ارتفاع منسوب المياه ، مع ذلك ، أعلى بدرجة كبيرة من ارتفاع هذه الأراضى التى كان يمكن أن تنتشر فوقها الحياة والرخاء ، لو أنهما قد وجدا للوصول اليها سبيلا .

ينبغى اذن الا ننظر الى ترع الرى الكبرى فى مصر باعتبارها مجرد خزانات للمياه ، حفرت لنفسها بطول مجراها فروعا لها ، فهى وسائل أو قل « خراطيم » تجلب المياه الى المناطق النائية : وعلى هذا ، فياله من أمر بالغ الأهمية الا تسد هذه الطرق ، وان تستطيع المياه أن تجتازها دون عوائق ما أن تبلغ واحدا من اطرافها ، وهكذا فالهدف الذى يجب العمل فى سبيل بلوغه عند اعداد الترع فى مصر ، هو أن تحرص على أن تكون اطراف هذه الترع عند النهر على أدنى درجة ممكنة من الارتفاع ، وأن يكون هذا الارتفاع على مستوى أقل المناطق الداخلية ارتفاعا ، وهذا على وجه التقريب هو ما توصل اليه بطليموس ابيفان وحرص على تنفيذه ، فى الأعمال الكثيرة التى قام بانجازها ، ومن أجل هذا بالتحديد ، سجل حجر رشيد ذو النقوش الثلاثة اسمه كواحد من أبرز الذين قدموا لمصر الكثير من الأعمال النافعة .

أما أولئك الحكام الهمج والجشعون الذين تعاقبوا على مصر منذ ذلك الوقت ، ونحن لانستثنى من ذلك الرومان ، فقد أهملوا هذا الفرع الهام من فروع الاقتصاد السياسى ، وأى حظ ذلك الذى سيكون للفرنسيين ، لو أمكنهم ، كما كانت لديهم النية ، أن يضعوا فى سجلات التاريخ ، ذكراهم الى جانب ذكرى ذلك الحاكم الخير ، الذى ذكرته للتو .

تقطع شمال ولاية بنى سويف عديد من الترع الصغيرة التى تتفرع عن النيل ، والتى لا نجد من بينها سوى ترعة واحدة كبيرة تسمى ترعة

بنى عدى ، باسم القرية التى تجرى هذه الترعة بالقرب منهــا ، ويبلغ اتساع هذه الترعة فى العادة ٢٥ مترا ، وقد لمست ان ارتفاع المياه بها، فى الحادى والعشرين من ترميدور من العام الثامن (٩ أغسطس ١٨٠٠)، وبعد اليوم الذى اجتزناها فيــه ، يبلغ المترين و٥٠ سم ، وتنبع هــذه الترعة من النيل مباشرة ، على بعد ١٥٠ ك.م من بنى سويف وتستطيع القوارب أن تعمل بها لمدة تقرب من ستين يوما ابتــداء من ١٥ أغسطس حتى ١٥ أكتوبر ، ويتفرع من جانبى هذه الترعة عديد من القنوات الصغيرة لرى اول جزء مرتفع من ارض الوادى ، وبالقرب من طنسا تنقسم الترعة الى فرعين : يمضى أولهما الى هذه القرية حيث توجد قنطرة من القرميد لها ثلاثة اقواس ، تشكل الحد الذى تنتهى عنده الملاحة ، وبعد ذلك تمضى المياه لتفترش الأراضى الواقعة عند سفح الجبل : أما القسم الثانى فيقوم ببعض الالتفافات ، ويمر بالقرب من قرى الحافر ، أبو صير ، انفسط ، أبويط ، قمن العروس ، وبعد أن يغطى بمياهه كل السهل الواقع بين جسر وكشيش فى الشمال ، وجسر بهبشين فى الجنوب، يذهب مايفيض من مياهه ، عن طريق قناة تقع بالقرب من قرية معصرة الخليل (*)، الى منخفض غير مزروع ، بين جبلين فاصلين وصحراويين ، تجرى منه المياه نحو بحر يوسف ، لتمضى بعــد ذلك ، حيث تصب فى الفيوم ، مارة تحت قنـــاطر هوارة .

ويوجد بالجزء الجنوبى من الولاية ، عدد اقل من الترع المتفرعة عن النيل ، وذلك بالمقارنة مع العدد الموجود بالجزء الشمالى ، لــكن الجزء الجنوبى ، يحصل على حاجته من المياه بنفس السهولة التى يحصل عليها بها الجزء الشمالى ، حيث تشقه باتجاه عرضه عديد من الترع الــكبرى المتوازية مع مجرى النهر ، فتغطى حتى فى حالات الفيضانات الضــعيفة شرائح الأرض الواقعــة بينها . واهم هذه الترع : ترعتان يشير اليهما الجغرافيون باسمى : بحر يوسف ، وبحر الباطن . وقد ضللنا الأكاديميين

(*) يورد القاموس الجغرافى للاستاذ محمد رمزى أسماء عدة قرى فى هذه النواحى تحمل اسم معصرة ليس من بينها اسم معصرة الخليل . ولابد انه يقصد واحدة من هذه القرى . [المترجم]

دانفيل ، وجبير Gibert اللذين نظرا اليهمـــا باعتبارهمـــا نفس بحيرة موريس .

اما بحر يوسف ، الذى ترسمه على الدوام الخرائط الحديثة لمصر ، وهو ترعة تسير فى خطوط مستقيمة لمسافة تصل الى حوالى ٣٦ فرسخا ، ابتـــداء من ملوى حتى دخوله الى الفيوم ، فليس سوى فرع قـــديم من فروع النيل ، متعرج بقدر مايتعرج النيل نفسه ، ويبلغ اتســـاعه اليوم حوالى المـــائة متر ، ويبلغ اقصى اتساع له فيما بين قريتى Hezè (*) ومنقطتين ، وقـــد قسته بنفسى ، ١٤٠ مترا . ويحاذى هـــذا الفرع من فروع النيل سفح الهضـــبة الليبيـــة (الغربية) كما يحاذى النيل نفسه سفح الهضبة العربيـــة (الشرقية) ، وينقل بحر يوسف مياه النيل الى الفيوم ، ومجراه على الدوام ادنى من مستوى السهل الذى يعـــد ، كما ذكرت من قبل ، ادنى من منسوب مياه النهر ، ومع ذلك فان بحر يوسف يتصل وقت الفيضان ، بالترع المتوازية معه ، فتغطى المياه الأراضى التى تقع بينه وبين النيل .

اما اسم الباطن ، الذى اطلق على سبيل الخطأ على احدى الترع ، فليس على الاطلاق اسم علم ، ذلك انه تسمية تطلق بشـــكل عام على معظم الترع التى تعبر الأراضى الداخلية باتجاه من الجنوب الى الشمـال(٤) ويطلق اسم باطن كذلك على ذلك الجزء من الأراضى الواقعـــة بين النيل والهضبة الليبيـــة . وتشتق هذه الـــكلمة فى العربيـــة من بطن بمعنى وسط ، أو البطن نفسها ، وعلى هذا النحو أطلق العرب اسم بطن البقرة على قمة الدلتا التى ينفصل عندها فرعا دمياط ورشيد .

وهناك اسم آخر اكثر خصوصية ، على الرغم من ان عـــديدا من الترع تحمله ، هو : فيـــاض : ويميز هـــذا الاسم البواطن الـــكبرى عن البواطن الصغرى . وأكبر هذه الفياضات الباطنيـــة ، وهو الوحيد الذى

(*) لم استـطع التحقق من هذا الاسم فآثرت ان اورده بحروفه اللاتينية كما ورد بوصف مصر . [المترجم]

(٤) انظر دراسة عن بحيرة موريس ، تأليف جـــومار ، العصـــور القديمة ، دراسات ، المجلد السادس .

امكنه أن يضلل كلا من جرانجية Granger والأب سيكار ودانفيل ويوقعهم فى الخطأ ، لا يزيد طوله عن ستة فراسخ ، ويتفرع من النيل عند قرية الشيخ زياد ، على بعد حوالى ١٢ فرسخا الى الجنوب من بنى سويف، ثم يواصل بعد ذلك مجراه ، باتجاه الشمال الغربى ، ليمر على بعد فرسخ واحد الى الشمال من الفشن ، جنوب قرية بنى صالح ومن هناك يمضى لتفيض مياهه فى الأراضى حتى يحجزها جسر صفط راشين . وفى خلال الفيضان ، يتم اتصاله مع بحر يوسف ، الى الشمال قليلا من قرية مزورة ، ويبلغ اقصى عمق له ٣٦مترا ، وعندما قمت بعمل مجسات له فى العشرين من فريمير من العام التاسع (ديسمبر ١٨٠٠) لم يكن عمق مياهه لتبلغ اكثر من ١٥٠ سم وكان اتساعه يبلغ ٢٦٠ سم تحت مستوى سطح السهل .

والى الجنوب ، لأبعد من ذلك ، يوجد فيساض باطنى آخر ، ينبع من النيل بين قريتى النزلة وقلوصنا ثم يمضى بالقرب من قرية مطاى حيث يتفرع الى قسمين ، يصبح احدهما ، وهو الواقع الى الشرق ، باطنا صغيراً ينتهى على بعد فرسخين من هناك ، فى أراضى ابو جرج ، أما الآخر ، الواقع الى الغرب فيتصل اثناء الفيضان ببحر يوسف عند قرية اهوة . لكن طوله لا يبلغ اكثر من ثلاثة فراسخ .

وهكذا فان رى أراضى ولاية بنى سويف ، يتم ، كما يتم فى كافة انحاء مصر العليا عن طريق كل من الرى الطبيعى ، والرى الصناعى، مع فارق واحد هو أن الرى الطبيعى يتم حتى سفح السلسلة الليبية فى الجزء الشمالى للولاية ، حيث يستمر الانحدار حتى هناك ، فى حين يشكل المقطع الطولى للوادى ، فى الجزء الجنوبى من هذه الولاية ، شكل منحدرين ، أولهما يبدأ من ضفاف النيل ، ويبدأ الثانى من شط الفرع المسمى بحر يوسف ، بحيث يشكل هذان الانحداران عند التقائهما داخل الأراضى منخفضا او ترعة صغيرة تحمل اسم البحر الباطن اى النهر الداخلى بسبب احتفاظها بالمياه وقتا اطول مما تحتفظ بها الاجزاء الأخرى، وبسبب هذا الوضع كذلك فان الرى الصناعى لا يتم فى الجزء الشمالى الا فى شريط الأرض القريب من النيل فى الوقت الذى يتم فيه فى جميع انحاء الجزء الجنوبى على شواطىء كل من النيل وبحر يوسف .

والطرق التى تتبع فى هــذا الرى الصناعى بسيطة للغـــاية ، ولا تختلف الا حين يستوجب الأمر رفع الميـــاه بعلو يتفـــاوت قدره . وهذه الطرق ، هى على وجه التقريب نفس الوسائل المستخدمة فى كل انحاء مصر ، والتى وصفها عديد من زملائى . لــكننى أجريت بنفسى تجـــارب لا ارى بأسا من ان اورد هنـــا نتائجها .

ان ابسط كل هذه الوســـائل ، هى تلك التى رسمت فى الصورة رقم ٤ من اللوحة ٦ ــ الدولة الحديثة ، المجلد الأول . وتمثل هــذه الصورة رجلين ينكفئان فوق أكمة من الأرض يحملان ويؤرجحان ، بواسطة اربعة حبال ، سلة من اغصان الصفصاف ، مصنوعة على شكل قلنسوة كروية ومغطاة بالجلد . ويغترف هــذان الرجلان المـــاء ، بواسطة هذه السلة « على الطائر » ويفرغانها بنفس السرعـــة على الأرض ، وتنتظم حركة تشغيل السلة ، وعب المـــاء وصبه **بأغنية** خاصـــة ، يمكن ان نجد نصها فى دراسة المسيو فيوتو Villoteau عن الحالة الراهنة لفن الموسيقى فى مصر (٥) ، وتكاد لاتستخدم هذه الطريقـــة فى مصر العليـــا لأنهـــا لا تفترض سوى فرق طفيف فى مستوى ارتفاع الأرض عن سطح المياه. ولهذا السبب فهى اكثر ملاءمة لمصر السفلى حيث تستخدم بكثرة ، وفضلا عن ذلك فاننـــا نرى انها هى نفس الطريقة المستحدثة فى أوربا تحتاسم baquetage التى يلجأ اليها الناس فى عملية نزح المياه .

اما الوسيلة الثانية ، والتى تتطلب فرقا أكبر فى مستوى ارتفـــاع الأرض عن سطح الماء ، فهى الشائعة فى كل انحاء مصر العليا : وهى عبارة عن اداة تسمى « دلو » ، رسمت فى الصور رقم ١ ، ٢ ، ٣ ــ اللوحة السادسة ، الدولة الحديثة . المجلد الأول ، وهذه عبـــارة عن رافعة من الخشب ، طولها ثلاثة أمتار وتبعد نقطة ارتكازها بمسافة متر عن أحد طرفيها . وتعلو مستوى الأرض بـــ ١٢٠ سم ، ويتصل بالطرف الأطول قضيب متحرك طوله ٢٦٥ سم . تتعلق بطرفه ، كما فى الوسيلة الأولى ، سلة من أغصان الصفصـــاف مغطـــاة بالجلد ، وتتحرك حول محورها ، وفوق الطرف الآخر من الرافعة يثبت ثقل (المقاومة) من الطين

---

(٥) انظر الدولة الحديثـــة ، الدراســـات ، المجـــلد الرابع عشر (الطبعة الثانية) .

الجاف الهدف منه تسهيل حركة صعود السلة . ويقوم الشخص المكلف بادارة هـذه الرافعة باغتراف الميـاه ، وصـبها على الأرض ، أو فى قنـاة تحملها الى الأراضى التى يراد ريها . ويبلغ قطر السلة ٤٠ سم، ويبلغ عمقها ٢٥ سم ، وترفع حوالى ١/١٠٠ من المتر المكعب من المياه . وقد تابعت عدة مرات ، حركة اثنين من هذه الدلاء : كانت المياه فى حالة الدلو الأول تبعد عن الأرض بنحو ٢٣٠ سم ، وكان العامل يرفع الدلو ٦٤ مرة كل ٦ دقائق : أما فى الحالة الثانيـة ، فـكانت الميـاه تبعـد عن سطح الأرض بـ ٢١٠ سم ، لـكن العـامل لم يكن يرفع الدلو الا ٥٠ مرة كل ٦ دقائق . ولا يستطيع العـامل أن يعمل لأكثر من ساعتين فى اليوم الواحد ، ثم يستبدل به آخر ، ليعمل لنفس المـدة ، وهكذا ، فاذا ما افترضنا وجود رجلين يعملان بشكل منتظم منـذ شروق الشمس حتى غروبها ، فانه يلزم لرى الفـدان الواحد أن يعملا لمـدة خمسـة أيام : وتبلغ مساحة الفدان ٥٧٢٤ مترا مربعا .

ويستخدم الدلو للرى بالنسبة للأراضى التى تزرع بالشـعير والذرة والحنطة وبقية البقول والحبوب الزيتية ، وان كان قد يصعب استخدامه فى زراعة الأرز وقصب السكر وحبوب صـبغة النيـلة ، وغيرهـا من المحصولات التى تتطلب كميات كبيرة من المياه .

وتروى الأراضى التى تزرع بهذه المحاصيل بوسيلة ثالثة ، عبـارة عن دولاب ذى تواديس (الساقية) ورسمها مبين فى اللوحتين الرابعـة والخامسة ، الدولة الحديثة ، المجلد الثانى ، الفنون والحرف .

وفى هذه الآلة ، يعلق ثوران فى طرف رافعة يبلغ طولها ٢٩٠سم، تدار بواسطتها شجرة موضوعة بشكل راسى ، تحمل بشكل افقى مدارا مسننا يبلغ طول نصف قطره ٨٠ سم ، ومزود بـ ٣٦ سـنة يبلغ طول الواحدة منها ٢٠ سم ، وتحمل تلك الشجرة التى تدور حول نفسها ، والتى يبلغ طولها ٢٧٠ سم ، فى طرفها الآخر ، دولابا آخر يبلغ طول نصـف قطره ١٢٠ سم ، تتحرك حوله ، بفعل دورانه سلسلة من الحبـال تحمل ١٨ قادوسـا من الطين (الفخـار) دائرية الشكل ، يبعد كل واحد عن الآخر بـ ٥٠ سم ، وهذه القواديس تحمل الميـاه الى أعلى الـدولاب

بارتفاع يبلغ ٣٢٠ سم فوق مستوى سطح النهر ، ثم تصبه فى حوض، نمضى منه الى الأراضى المراد ريها عن طريق مسقاة صغيرة .

ويبلغ محيط الطريق (المدار) الذى تدور فوقنه التيران ١٨ مترا و٨٦ سم ، وتدور التيران ١٥٠ دورة فى الساعة الواحدة . وبشكل متواصل يعمل ثوران لمدة ثلاث ساعات ، وفى نهاية هذه المدة يستبدل بهما غيرهما ليعملا ثلاث ساعات أخرى ، وهكذا يعمل بالساقية أربعة ثيران ، يبلغ اجمالى المدة التى يعمل خلالها كل اثنين منهم ست ساعات فى اليوم الواحد ، اى أن الدولاب يعمل لمدة ١٢ ساعة يدور خلالها ١٨٠٠ دورة ، وحيث تبلغ الأسنان الخشبية للمدار الأفقى (القنفذ) ٥٦سنة، حيث تبلغ اسنان الدولاب الراسى الصغير ٣٦ سنة فقط فان الدولاب الأخير يقوم بدورة كاملة و ٥/٩ الدورة كلما أكمل القنفذ الأفقى دورة واحدة ، وهكذا فان الدولاب الراسى الصغير يكمل ٢٨٠٠ دورة فى مقابل ١٨٠٠ دورة التى يدورها القنفذ فى اليوم (١٢ساعة) . وحيث يبلغ قطر الدولاب الذى يحمل القواديس ٢٤٠ سم ويبلغ محيطه ٧٥٤ سم فى حين أن محيط الحزام الحامل للقواديس ٩أمتار فان عدد دورات الأخير يكون عكس محيطه. اى أن حبل القواديس يعمل ٨٣٧ ٧/٩ دورة كلما قام الدولاب بـ ١٠٠٠ دورة : وقد سبق أن رأينا أن الدولاب الرأسى الصغير . يقوم بـ ٢٨٠٠ دورة فى اليوم ولهذا فان الحزام الحامل للقواديس يتم ٢٣٤٦ دورة خلال نفس المدة . ويبلغ قطر القادوس حوالى ١٦ سم بعمق يبلغ ٢٦سم، وهكذا تبلغ سعته ١/٢٠٠ من المتر المكعب (اى ٥٠٠٠ سم٣) مما يبلغ بسعة الـ ١٨ قادوسا الى ٩/١٠٠ من المتر المكعب (اى ٩٠٫٠٠٠ سم٣) فى كل دورة ، اى ٢١١ مترا مكعبا و١٤ سم٣ من المياه خلال ١٢ ساعة من عمق يبلغ ٣٢٠ سم .

واذا اردنا أن نعقد مقارنة بين الدلو والدولاب ذى القواديس حسب التجارب التى انتهيت من ذكرها فسنرى اذا أخذنا الدلاء اساسا ، أن العامل الذى رفع بواسطة الدلو ٦٤ سلة مليئة بالمياه خلال ٦ دقائق على ارتفاع يبلغ ٢٣٠ سم لم يكن ليرفع سوى ٤٦ سلة على ارتفاع ٣٢٠ سم وخلال نفس المدة . وحيث أن سعة السلة تبلغ ١/١٠٠ من المتر المكعب (١٠٫٠٠٠ سم٣) ، فان بمقدور هذا العامل أن يرفع ٤ ٦٠/١٠٠ من الأمتار المكعبة فى الساعة الواحدة ، اى : ٥٥٠ م٣ و ٢٠ سم٣ من المياه

خلال ١٢ ساعة . وهكذا فان انتاج الدلو بالنسبة لانتــاج الدولاب ذى القواديس بالأرقام ٥٥٢٠ الى ٢١١١٤ ، وعلى هذا النحو يمكن أن نضع أربعــة دلاء فى مقابل دولاب واحـــد لــكن الســهولة القصــوى فى استخدام الماكينة الأولى بالاضـــافة الى سهولة انشائها ونقلها والحصول عليها فى كل مكان ، تجعلنا نفضل استخدام الدلو ، الذى نراه منتشراً على ضفاف النيل وترع الرى ، فى كل أنحاء مصر .

وفى هذا الوصـــف الهيدروليكى الذى انتهيت من تقديمه لولاية بنى سويف ، لم نر شيئا على الاطلاق يمكننا منطقيــا من ان نظن أن بحيرة موريس وملحقاتها تستطيع أن تجـد لنفسها مكانا ، فى هــذه الولاية ، والآن ، سندخل الى ولاية الفيوم ، وهنـــاك سنرى كل الصعوبات قـــد اختفت دون جهد ودون عوائق ، وسوف نعرف فى النهاية ، أن التفاصيل التى قـــدمها القـــدماء ، تنطبق تمام الانطبـــاق على هذه الولاية ، حتى أنها لتغرينا على الدوام ، وفى كل خطوة ، أن نطلق على الأماكن الحالية، نفس الاسماء القديمة ، التى وصلتنا عنها .

القسم الثانى

ولاية الفيـــوم

على الرغم من ان الأبحاث التى أخذت على عاتقى القيـــام بها فى الفيوم ، كانت هى الهـــدف الأساسى من وراء رحلتى الى هذه المناطق، فاننى لم أتمكن من النفاذ الى هنـــاك الا فى الأيام الأولى من شهر نيفوز من العـــام التاسع (نهاية ديسمبر ١٨٠٠) ، ذلك أننى وجـــدت نفسى، بعد أن انشغلت فى بداية رحلتى برسم خريطة مساحة لبنى سويف التى كان على أن الحق بها خريطة لولاية الفيوم ، غير قادر على القيام بالذهاب الى هذه المنـــاطق ، وبأية وسيلة ، بسبب فيضـــان للنهر غير عادى ، اوقف كل اعمـــالى لأكثر من ثلاثة شهور . كان فيض بحر يوسف قد أوقف بشكل تام ، الاتصـــال بين بنى ســـويف والفيوم ، وتتسبب عزلة الولاية الأخيرة فى كل كارثة كبيرة تصـــيبها ، ذلك أن العرب الغرباء لا يترددون مطلقا فى اغتنام هذه الفرصة كى يأتوا لينتهبوا السكان . وقد حدث ذلك خلال الفترة التى تحدثت عنها ، وحين قام قائد بنى سويف بانفاذ قوات النجدة التى ارسلها الى المدينـــة (*) ، فقد اختفى العربان ، الذين تلقوا تحذيرا بالأمر فى الوقت المنـــاسب ، ومعهم اســـلابهم ، قبل أن تصـــل الفرق الفرنسية . وقـــد يكون من الضرورى للغـــاية ، كما ســـبق أن أوضحت رأيى ، أن ينشأ طريق من بنى ســـويف الى قريتى هوارة (**) واللاهون ، اللتين تقعان عند مدخل الفيوم .

وقـــد رحلت أخيرا فى الثالث من نيفوز من العـــام التاسع (٢٤

(*) يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموســـة الجغرافى : « وذكر صاحب كتاب الفيوم وبلاده ، أن اسمها المدينة ، وهو اسم يطلق فى الفيوم على مدينة الفيوم تمييزا لها عن الاقليم المسمى باسمها » ، ومنـــذ الآن سنشير اليها فى الترجمة العربية باسم مدينة الفيوم فى حين يعنى الفيوم الاقليم بأكمله . [المترجم] .

(**) هناك أكثر من قرية تحمل هذا الاسم ، ولعله يقصـــد هوارة عدلان ، حيث يذكر القاموس الجغرافى للبلدان المصرية ، للاستاذ محمد رمزى عن هذه القرية انها « من القرى القديمة ، وكانت تسمى قـــديما دموه اللاهون لأنها واقعة بجوار قناطر اللاهون » . [المترجم]

ديسمبر ١٨٠٠) مع رفيقى ، المسيو كاريستى Caristie ، وذهبنا لننام فى هوارة الكبيرة وهى قرية كبيرة تقع على الشط الأيسر لبحر يوسف عند الفتحة التى يأخذ منها هذا الفرع من النيل مياهه، وقبالتنا على الشط الأيمن ، رأينا قرية اللاهون الصغيرة ، ويتم الاتصال بين هاتين القريتين عن طرق قنطرة مبنية بالحجارة ، وتتكون من ثلاثة أقواس ، تبلغ فتحة كل منها ، فيما بين قوائمها السحتية المستقيمة ، ٢٨٠ سم ، ولا تهدف هذه القنطرة الى مجرد تحقيق الاتصال بين هاتين القريتين ، لأن كلا من هذه الاقواس الثلاثة ينتهى بقناة تستخدم فى تنظيم كمية المياه التى ينبغى أن تحصل عليها ولاية الفيوم . بحيث لا تسيل المياه اليها ، أثناء الفيضانات الضعيفة بوفرة أكثر مما ينبغى ، أما فى حالة الفيضانات العالية ، فتفتح امام المياه فتحة أكثر اتساعا وتتخلص منها بذلك أرض مصر ، التى قد يصبح مكث المياه فوقها ، لمدة أطول من اللازم ، مجحفا وضارا .

وعند الحاجز الشرقى رأينا اثرا لثلاثة أحجار منتزعة اكد لى المملوك كاشف سليمان ، الذى كان يرافقنا ، انه قد رأى عليها كتابات عربية تبين أن هذه القنطرة قد شيدها السلطان سليمان بن محمد ، فى القرن السادس الهجرى ، ومما تجدر ملاحظته أن هذه الفترة هى نفس فترة حكم الأسرة الفاطمية ، التى أصبحت مصر من جديد تحت سيطرتها، مملكة مستقلة (كذا !) ، وفى هذه الفترة كان السلاطين الحاكمون ، نتيجة لذلك ، يعملون لصالح مصر ، ولتحقيق منافعها الخاصة .

وفيما بين قنطرة وقرية اللاهون ثمة قنطرة تحتجز المياه التى تجلبها ترعة بنى عدى الكبرى ، والتى تمضى بعد سقوطها ، عن طريق قناة المعصرة ، فى ذلك المنخفض الواقع عند سفح جبل أبى صير ، لتروى بعض الأراضى حول ترعة اللاهون ، ثم تذهب بعد ذلك ، عن طريق بحر يوسف الى الترعة التى تصل إلى طامية .

وتشيع بين أهالى الفيوم فكرة متواترة عن الحالة القديمة لهذه الولاية ، أعتقد أن ليس خروجا على الموضوع أن نوردها ، وقد علمت هذه الفكرة عن طريق رجلين وجدت فيهما درجة عالية من الذكاء ،

بالنسبة لمواطنيهما ، احدهمـــا هو سيد احمد الشيخ الأكبر لمدينة الفيوم، أما الآخر فهو المملوك الكاشف سليمان ، الذى سبق أن تحدثت عنـــه ، والذى كان يقطن الفيوم منذ مدة طويلة . وقـــد أكد لى هـــذان الرجلان: أن ولاية الفيوم تبعـــا للحكايات المـــأثورة ، والموانرة من زمن الى آخر، لم تكن قبل عهد يوسف بن يعقوب ، الذى يعودون به الى عصر ضـــارب فى القـــدم ، سوى بحر واسع ، جاءت مياهـــه عن طريق النيل ، وان يوسف قـــد امر ببنـــاء جسر فى اللاهون كى لا يتـــدفق المزيد من المياه الى هذا الخليج ، وان المياه التى بقيت قـــد انصرفت الى البحر ، ممـــا ادى لحدوث عمليـــة جفاف كبير للأراضى ، وعندما بلغ ارتفـــاع الميـــاه (فى هذا الخليج) الى مستوى السرير الذى تجرى فيـــه ، ظلت المياه الزائدة فى المناطق الواطئـــة ، وكونت بركة قارون وبركة الغرق اللتين أصبحتا مستودعين لمياه الاقليم ، وبدأ يقل ارتفاع مياههما بفعل البخر .

ان هذا الرأى ، الذى يبدو بشكل واضح ، فوق مستوى المصريين المحـــدثين لحد كبير ، لا يمكن أن يكون نتيجة لخيالهم ، لـــكنه يحمل ملحما من رواية مأثورة قديمة ، ولعلنا لو تفحصناه عن قرب لوجدنا فيه تفسيرا لهذا الاتساع الـــكبير للغاية والذى أعطاه الأقـــدمون لبحيرة موريس ، وكذلك على وجه الخصوص ، لتلك المنـــافع التى يقـــولون ان المصريين كانوا يحصلون عليها من هـــذه البحيرة ، حين كانوا يستخدمونها ، المرة بعد المرة بمثابة وعاء وحوض وخزان . وتتفق هذه الرواية مع ماشاهدته حول بحيرة قارون ، كما أنّ النتائج التى سوف أحصل عليها ، ســـوف تفضى كذلك الى نفس معطيات هذه الرواية ، وربما بمزيد من الدعم .

وعندما نجتاز الفتحة التى يتركها الجبل بين هوارة وبين اللاهـــون نرى سهلا واسعا يشكل ولاية الفيوم ، وليس لهـــذا السهل من مستوى واحد ، وانما هو يشكل تكوينين ينحدران على نحو خفيف ، يتجه احدهما الى الشمال ، ويتجه الثانى الى الجنوب ، وفوق الخط الفاصل بين هذين المنحدرين توجد ترعة تبـــدأ من قنطـــرة هوارة ، لتمر بعد ذلك بمدينـــة الفيوم ثم تعبر المـــدينة وتنقسم عند الطرف الغربى الى تسع قنـــوات صغيرة ، تمضين حاملات للميـــاه لأراضى القرى المختلفة ، وتحدد فتحة الميـــاه الخاصة بكل واحدة من هذه القنوات بواســـطة قنطرة روعى أن

يكون مستواها أعلى من مستوى سطح الأراضى التى تمر بها وأعلى كذلك من منسوب الأرض التى ستورويها .

وتسمى أول هذه القنوات ، أى تلك التى توجد الى أقصى الشرق ، بحر نقاليفة ، وتمر بقريتى نقاليفة ، وسيلة .

أما الثانية فتحمل اسم بنهور وتصل الى قرية تحمل هذا الاسم .

ويطلق على الثالثة اسم سينيرو وتتجه الى قرية فيديمين .

وتعبر الرابعة قرى العجميين ، ابشواى ، أبو جنشو ، أبو كساه .

وتسمى الخامسة ترعة تلات . وتذهب الى قرية تسمى بهذا الاسم .

وتمر السادسة بقرية السنباط .

وتحمل السابعة اسم بحر دسيا ، وتنقل المياه الى أراضى قرى : دسيا ، جردو ، طبهار ، المناشى (مناشى الخطيب حاليا) .

وتروى الثامنة أراضى : موتود ، وريد ، أبو دلشى (*) .

وأخيرا فان القناة التاسعة التى تبدأ من أحد أقواس قنطرة جامع الحاج حسن ، تروى أراضى قرية الزاوية .

ومن جهة ثانية ، فثمة ترع أخرى عند الطرف الشرقى للمدينة ، تحصل على مياهها ، شأنها فى ذلك شأن الترع التى انتهينا من ذكرها ، من القناطر والخزانات : وتتجه أولى هذه الترع — وهى تقع تقريبا من باب النويرة — الى قرية ترسا وذلك بعد أن تدور حول خرائب أرسنويه .

أما الترعة الثانية وهى تحمل اسم بحر سنورس فتمر بقرى : الكعابى ، بيهمو ، خنفشة ، أبويط ...

وتحمل الترعة الثالثة والأخيرة اسم بحر المعصرة وتروى قرى الزربى ، كفر فزارة ، منشأة الأمير ، سرسنا ، أنترتارس (**) .

(*) لم أتمكن من التحقق من صحة هذه الأسماء .
[المترجم] .

(**) لم أجد فى القاموس الجغرافى قرية بهذا الاسم ويحتمل أن تكون هى قرية مطرطارس . (**المترجم**)

وكما سبق لى أن ذكرت ، فمن الملاحظ أن الترعة التى تنقل الميـــاه من هوارة الى مدينة الفيوم ، والتى تحمل طيلة هــذه المسافة اسم بحر يوسف ، هى أكثر ارتفاعا عن أرض الولاية ، كما أن مجـــراها ذو قاع صخرى فى كل المناطق الجبلية التى تخترقها هــذه الترعة .

ونجّد على بعـــد حوالى ثمانيـــة آلاف متر من جسر هوارة الكبير ، على الشاطىء الأيمن قرية هوارة الصغير ، التى شيد بالقرب منها ، وبكثير من الحذق جدار لتقوية الشاطىء ، يشكل خزانا صغيرا ويصنع فى الوقت نفسه مسقط مياه يبلغ حوالى سبعة أمتار .

وحين تعلو الميـــاه فى بحر يوسف ، فوق هذا الخزان ، فانها تسقط فى رشاح واسع ، لتمضى من ثم الى طامية ، ومن هناك الى بركة قارون، بل ان هـــذا الخزان ، فيما يبدو ، لم يكن كافيا على الدوام لاستيعاب الزيادة الشديدة فى الميـــاه ، حيث نرى أبعـــد من ذلك بثلاثة آلاف متر ، خزانا آخر يصب المياه كذلك من جديد داخل الرشاح الذى سبقت الاشارة اليـــه عن طريق قناة صغيرة تفضى بها الى هناك .

وتشكل تفاصيل هذا الشط الأيمن لبحر يوسف ، ابتداء من اللاهون حتى هـــذا الخزان الثانى اهمية قصوى ؛ فبالقرب من قرية اللاهون نقابل أول هرم ، قاعدته من الحجر الجيرى ، أما بقيته فمن القرميد ، ثم نرى أبعد من ذلك بثمانية آلاف متر هرما آخر من القرميد من نفس نوع الهرم الأول ، تمر عند سفحه قناة صغيرة تنبع من بحر يوسف قبل الخزان الأول الذى سبق أن تحدثت عنه . وتتجه هـــذه القناة الى طامية باتجاه مواز لاتجاه الرشاح الكبير ، الذى يظل جافا طول السنة تقريبا ، أذ هو لا يتلقى الا الميـــاه الزائدة عن حلجة الولاية ، ويطلق عليه لهذا السبب اسم بحر بلا ماء (أو النهر الفارغ) .

وتغطى الأرض حول هـــذا الهرم الثانى أكوام من الأحجار الجيرية وأنقاض منشآت تدل بوضـــوح على المكان الذى كان ينهض فيـــه قصر اللابرنت الشهير ، الذى كان مقرا لاثنى عشر ملكا ، والذى يتفق معظم المؤرخين فى أن يضعوه الى الجنوب قليـــلا من بحيرة موريس ، غير بعيد عن كروكوديلوبوليس Crocodilopolis (أى مدينة التمســـاح) وفى الواقع ، فاننـــا ما نزال نرى هنـــاك بقية من حجرة ، لكنها مطموسة

تماما ، بالاضافة الى قطع من الأعمدة المصنوعة من الجرانيت الصـوانى، مقطوعة على النحو الذى قطعت به أعمدة معابد مصر العليا ، على شكل حزمة من النباتات البصيلية لقباب مصرية ضخمة من الجرانيت كذلك ، ويؤكد بلين Pline أن اللابرنت هو الوحيد من بين كل آثار مصر العليا الذى وضعت فيـه اعمـدة شكلت على هـذا النحو .

وقـد انتقلت الى هـذا المكان ، فى العاشر من نيفوز من العـام التاسع (٣١ ديسمبر ١٨٠٠) ، وقد ربطت ببعض العمليات المثلثية هرم اللاهون بهذا الهرم الثانى ، الذى اسميته هرم اللابرنت ، وكذلك بمئذنة جامع الروبى الواقـع الى أقصى الغرب من مدينة الفيوم ، وبهذه الطريقة، استنبطت خطى طول وعرض هذه المدينة ـ ولم يكن المسيو نوية Nouet قد دونهما ، وقـد وجـدت ان خط عرضها هو ٤٨ ، ٢٨ ، ٢٩° شمالا، فى حين انها تقع على خط طول ٩ ، ٤١ ، ٢٨° الى الشرق بالنسـبة لخط زوال باريس .

وقد تبين لى أن طول الخط الواصـل بين الهرمين يبلغ ٨١١٦ مترا و ٥٧/١٠٠ من الأمتار ، وانه يشـكل مع خط الزوال المغنـاطيسى زاوية مقدارها ١٠ً ، ٤٩° الى الغرب .

وقاعدة هرم اللابرنت مربعـة الشكل ، ويبلغ طول كل ضـلع من اضلاعها ١١٠ من الأمتار . ومع ذلك فمن الواضح ان كانت ثمة تكسية لجدرانه لم نستطع تقدير سمكها ، ويرى المرء قبيل زاويته الشرقية فتحة مبنية ، وهى واسـعة مستديرة تنتهى الى ممر تحت الأرض ويتجه نحو الجزء السفلى من الهرم ، ولقد نزلت من هـذه الفتحة كى اتوغل فى هذا الممر تحت الأرض ، لكن سرعان ما أوقفتنى هناك كومة من الانقاض يغص بها الممر . ويحتوى قاع هـذه الفتحة على مياه تبينت انها شديدة الملوحة . ويجد المرء اذا ما نزل عنـد نحو منتصف الرشاح ، تجاه هرم اللابرنت ، بقايا حائط كبير من الحجارة ، وقـد استخلصت من ذلك أن هذا الحائط قد كان فيما مضى جسرا يحتجز الميـاه التىكانت تتسرب من أعلى الخزانات التى كانت متامة على الترعة الكبيرة .

وليست للشط الأيسر لبحر يوسف نفس الأهمية التى للشط الأيمن

وتشهد نتوءات الصخر المتناثرة عليــه ، والتى تشكل زوائد جبلية (إى مقدمات لظهور الجبل) بأن هذا الشط لم يكن عامرا من قبل قط ! وان كنا مع ذلك نجــد عليه اليوم قرية دمشقين التى ترتبط اراضى ومصالح اهاليها مع ذلك بأراضى ومصالح قرية هوارة الكبيرة حيث تتجاور هذه مع تلك . بل انك لا تستطيع المضى فوق هــذا الشط اذا كنت تبغى الوصول الى قريه الحصة التى تحدها بعد أن تجتاز الخزان الثانى بقليل ، والذى يقع بدوره على الشط الأيمن وقــد سبق أن تحدثت عنه ، وبالقرب من قرية الحصة هــذه ، الى الشرق منها والى الغرب يتم تخزين مياه بحــر يوسف ، عن طريق ترعتين ، فوق منطقة تنحدر الى الجنوب وهكذا تروى القرى التى تنتشر بين بحر يوسف وبحيرة الغرق .

ويشكل سطح هــذه المنطقة فيما يبدو ، الى جانب انحداره نحــو الجنوب ، منحدرا هائلا نحو الغرب ليبلغ قمة بحيرة قارون . ويشق هذا المنحدر خور واسع يحمل اسم بحــر الوادى . وقــد شيد عليه ســد ضخم رائع يحــد من تدفق مياهه فوق هــذا المنحدر . ويختلف هــذا السد اختلافا بينا عن أمثاله من السدود التى تراها فى وادى مصر ، فهو مبنى من الأحجار والقرميد ، وتدعمه أكتاف سميكة متعددة ، وتمتاز بمتانة لا تهيئها عادة الا مراعاة قواعد فن البناء ويبتدىء هــذا الجسر عنــد قرية دفينو وينتهى عنــد قنــاة صغيرة تشكل حدود الأراضى المزروعة (فى هذه المناطق) ، ويبلغ طول هــذا الجسر حوالى ٨٥٠٠ متر .

ولا يستطيع المرء أن يكتم دهشته البالغة حين يرى عمــلا بهــذه الضخامة لخدمة مثل هــذه المنطقة الصغيرة من الأرض والتى تنحصر بين بحيرة الغرق وبين الجبال التى تفصل الفيوم عن مصر وبحر يوسف والسد، فى حين أن هنـــاك مناطق شاسعة للغاية من الأرض ، ولكنها مهملة فى وادى مصر كليــة ، اذا ما صرفنا النظر من بعض المصاريف الزهيدة التى تنفق على الجسور والترع التى تغذى أو تحمى هــذه الأراضى . وهنـــاك ما يدفعنى على الاعتقـــاد بأن المنشأة التى تحدثت عنها ، مثلها فى ذلك مثل قنطرة هوارة ، هى من عمــل واحــد من ســلاطين (الخلفـــاء) الفاطميين القدماء .

كان هدفى ان أجتاز كل منطقة البحر بلا ماء لكى ابلغ طامية وبركة

قارون وقـــد كنت أوشك أن ابدأ عمل مسح لها لكن الظروف التى صاحبت بعض التحركات العسكرية للفرقة المعسكرة في الاقليم ، قد حرمتنى من الجنود الذين وضعوا تحت امرتى . وقـــد كنت شديد الحاجة اليهم لاتمام عملياتى . لذلك فقد اضطررت ، آسفا ، ان اعود ادراجي الى مدينـــة الفيوم — حيث اتخذت على الفور استعداداتى لبدء جولتى حـــول بركة قارون ، وهى الجولة التى كنت ارغب فى القيام بها منذ وقت طـــويل ، كما قـــد انتهزت بعض الفراغ الذى هيأه لى بطء الاستعدادات كى ازور موقع كركوديلوبوليس (اى مدينة التمساح) القديمة والتى تحول اسمها فى عهد البطالمـــة الى أرسينويه .

حين يخرج المرء من مدينة الفيوم عن طريق القنطرة الواقعة تجـــاه جامع الروبى ، فانه يجتاز ، بينما هو يتوجه الى الشمال ، فراغا كبيرا تتناثر فيـــه مقابر المسلمين ، ليجد بعدها باتجاه يمتد من الجنـــوب الى الشمال عديدا من المرتفعات التى تكونت من انقاض من الاحجار الجيرية والطوب والفخار مبعثرة هنـــا وهنـــاك لمسافة تبلغ حوالى ٥٠٠ر٣ متر نحو الشمال ، و ٥٠٠ر٢ متر من الشرق الى الغـــرب . وقـــد عبرنا ، المسيو كاريستى Caristi وانا ، وزرنا ونقبنا فى كل واحـــد من هـــذه المرتفعات كى نتعرف فيها على اثر لبعض المنشآت ، لكننا لم نجد سوى انقاض شائهة لم نستطع ان نتوصل منها الى نتيجة سوى انها تنبىء بسبب اتساعها وضخامة حجمها عن موقع مدينة (قديمـــة) ، وحيث لا توجـــد انقاض اخرى بهذه الضخامة فى كل الاقليم ، فقد استنتجنا ان هذه المدينة هى كروكو ديلوبوليس التى سميت فيما بعد : أرسينويه .

وسرعان ما تأكدت لنـــا هـــذه الظنون ، فقد وجدنا بفضـــل بعض العمليات المثلثية (اى باستخدام مبادىء حساب المثلثات) التى قمنا بهـــا على هـــذه المرتفعات ان المسافة التى تفصل بينها وبين هـــرم اللابرنت تبلغ ٩٨/١٠٠ ٨٧٠٢ منها ١٢٥٠ مترا تمتد حتى منتصف الخرائب . ويقول سترابون بطريقة موضوعية ان المسافة فيما بين ارسينويه وهذا الهرم ، تبلغ ١٠٠ غلوة ، اما دانفيل فيرى ان من المحتم ان نطرح من اطوال هذه الأبعـــاد مقـــدار الثمن (فى مقابل التعرجات) لكى تتفق مع الخطوط المستقيمة ، وتبعا لحساب الأميال الرومانية ، التى يضع دانفيل كل أربعة منها مساوية لشونة مصرية واحـــدة ، وبذلك يبلغ طول الشونة المصرية

٣.٢٤ قامة ، فان طول الغلوة يساوى ٥٠ قامة، و٦ بوصات أو ٩٨.٣٦/١٠٠ مترا ، وبذا فان كل ٦٠ غلوة تساوى شونة واحـدة . وهكذا فان المسافة غلوة تساوى ٥٠٤٠ قامة ، وقدما واحـدا ، وثمانى بوصات ، أو ٩٨٢٦ مترا ، يحصم منها الثمن فيتبقى ٨٥٨٩ متر ، وهو ما يتفق لحـد كبير مع المسافة التى توصلنا اليها باستخدام اساليب المساحة وحساب المثلثاته .

سبق أن عرفنا فى مدينة الفيوم ، ان كانت توجـد أطلال هامة الى الغرب من هـذه المدينة ، وقد انتقلنا الى هناك ، لكننا لم نجـد سـوى منطقة يطلق عليها اسم العمود ، شاهدنا بها مسلة واحـدة من الجرانيت على بعد حوالى ١٫٠٠٠ متر من قرية أبجيج وحوالى ٤٫٠٠٠ متر من مدينة الفيوم نفسها ، وقـد اخـذ المسيو كاريستى على عاتقه أن يقدم الرسوم وبعض التفاصيل الخاصة بهذه المسلة .

وما ان انتهت الاستعدادات لرحلتى حول بركة قارون حتى تمكنت من بدء طريق كى أتمم هـذه الجولة الاستطلاعية . كنت قـد استطلعت مبدئيا رأى كل من الشيخ احمد وسليمان كاشف حول هـذه الرحلة ، وكنت اخبرتهما بأننى — وقد علمت المصاعب التى سوف الاقيها مع جنودى الفرنسيين ، وهى المصاعب التى يعانى منها أى انسان يقيم فى الصحراء لأيام كثيرة — قـد عزمت على أن أصحب معى بعض العربان ، وقد سعيا كلاهما كى يثنيانى عن عزمى ، مؤكدين لى أن كل القبائل التى تجوب هذه البقاع تتحارب ، وأننى لا أستطيع أن أضـع ثقتى فى أى منها دون أن اجازف بمخاطر كثيرة ، وقد اكد لى صحة ذلك شيخ العرب الذى تعهـد بأن يصحبنى مع ثلاثين من أتباعه لو أننى اصطحبت معى عددا مماثلا من الجنود الفرنسيين ، هنـا طلبت ثلاثين جنديا من الكولونيل ابلير Eppler قائد الولاية ، لكنه اجاب بأنه يرحب بأن يضع تحت امرتى أى عدد اطلبه من الجنود لاجتياز القرى والأراضى المزروعة ، لكنه لن يجازف ويعطينى جنديا واحدا لمثل تلك الرحلة التى عزمت على القيام بها .

لكن الرغبـة المتأججـة التى كانت تدفعنى للقيـام بهـذه الجولة الاستطلاعية ، جعلتنى احادث من جديد شيخ العربان ، وانضم الكولونيل ابلير لدحض الاعتراضات العديدة ، والتى تتولد بلا انقطاع ، والتى يقيمها

ردا على كل اقتراح لنـــا ، ومع ذلك فقد اقنعناه فى النهاية بان يصحبنى، ومعه ثلاثون من أتباعه من راكبى الخيول .

كان هـــذا العربى ، واسمه على ، شابا لمـــا يتجاوز الثلاثين من عمره ، وهو ابن صالح ، الشيخ الأكبر لقبيلة السمالو ، التى اتخـــذت لنفسها مقر اقامة ثابت ، فى قرية مبنية تقع على شط بحر الوادى .

ويطلق اسم السمالو على هـــذا التجمع العـــام للقبائل التى تحيط باقليم الفيوم ، وكان لصالح هـــذا ثلاثة ابناء وابن اخ واحـــد ، يتولى كل منهم زعامة قسم من اقسام القبيلة ، وكان اولهم ، وهو الشيخ على يقيم فى مدينة الفيوم ، أما الثانى ، جروبة فكان قريبا منه فى المنيا ، أما الثالث فهو عثمان ، ويسكن أبو جندير ، وبالقرب منه يقيم بعض ابناء له آخرين أنجبهم من امائة ، وكان هؤلاء زينة وبهجة شيخوخته، أما ابن اخيه ، على ابو بكر ، فكان يشغل النزلة ، وسوف اقدم فى نهاية هـــذه المذكرة جدولا مفصلا بكل القبـــائل الخاصـــة بولاية الفيوم وكذلك بقبائل بنى سويف .

والسمالو ، هم العربان الوحيدون الذين اتخذوا لأنفسهم مقر اقامة ثابت فى الفيوم ، وهم يقيمون هناك منذ زمان ضارب فى القدم كما أنهم قوم ذوو باس شديد لكنهم على الدوام فى حالة حرب مع القبائل المغربية التى تأتى لتشن غاراتها داخل الاقليم ، ونقصد هنا عرب الضعفا ، من بنى سويف ، والذين يدخـــلون عن طـــريق قرى طامية انفسط وابويط حيث يتخذونها مقر اقامة لهم ما ان تصل الى أراضيها مياه الفيضان ، كما ينطبق الحال على عرب الفرجان الذين يسكنون صحراوات الاسكندرية والبحيرة، أولئك الذين يتجمعون فى الفيوم بعـــد مجيبهم عن طريق قصر قارون كى يشنوا غاراتهم العديدة التى يسلبون خلالها قرى السمالو .

وهكذا ، لم تكن مخاوف الشيخ على لتنهض على غير أساس ، ومع ذلك فقد اعتقدت باننـــا مادمنا قـــد هزمناهم مرة ، فاننا الآن بمنأى عن الأخطار ، ولم أعد أفكر الا فى مشروع رحلتى .

وضعت البرنس على ظهـــرى ، وغطيت راسى بطربوش يعممـــه شال ، هكذا رحلت ، فرنسيا وحيدا ، يحوطه ثلاثون بدويا تسلحوا بشكل

جيد ، وعرفوا ، كما اخبرونى ، كيف لا يمكنوا احدا من أن يلحق بهم العار أو الفزع ، وحيث اراد الشيخ ـــ دون شـــك ـــ أن يعطينى فـــكرة طيبة عن قبيلته ، فقد بدأ يظهر ضروبا من شجاعة فياضة لم أكن أعهدها فيـــه حتى هذه اللحظة ، وانتقلت هذه الشجاعة دون مشقة الى تابعيه .

غادرنا مدينة الفيوم فى السادس عشر من نيفوز من العام التاسع (٦ يناير ١٨٠١) فى منتصف النهار تماما ، وواصلنـــا طريقنـــا باتجاه الشمال بدقة بين عدة ترع ، وكانت تقع على شمالنا ترعة ، شاهـــدت على شاطئها خزانا مبنيا ، وسرعان ما مررنا بالقرب من قرية الأعلام التى كانت تقع يمينا ، ودخلنا فى دغل يغمره الضوء ، ويغص بأشجار النخيل ، ووصلنا بعد ذلك الى قرية الكعابى الجديدة ، وكان اقصر الطرق بالنسبة لنـــا أن نسير باتجاه شمال الشرق نحو المعصرة وطامية ، ولـــكنا عندما قيل انه يوجد بالقرب من هنا مبنى سبق أن تحدث عنه بوكوك Pococke ، يعرف باسم اقـــدام فرعون ، فقـــد واصلنا طريقنا الى الشمال مجتازين الترعة التى تمر بقرية الكعابى ، فوصلنا الى سهل رملى واسع تقع به قرية بيهمو ، حيث يعلو بالقرب منها اقـــدام فرعون المزعـــومة : وليست هذه الأقدام سوى كتلتين كبيرتين ، تتكونان من احجار جيرية ضـــخمة ، ويبلغ طول كل منهما حوالى ستة امتار بعرض يبلغ مترا واحـــدا وثلاثين سنتيمترا ، كما يبلغ ارتفـــاعهما نحو المتر وهمـــا مثبتتان ، كلتاهمـــا ، بدون أسمنت أو مونة من أى نوع ، وتبعد كل منهما عن الأخرى بحوالى ١٢٠ مترا ، كما أنهما محاطتان بكتل صغيرة شكلت بنفس الطريقة .

وقد شاهدنا بالمثل أحجارا ضخمة متناثرة ، مما يدل على أن هاتين الكتلتين كانتا فيما مضى أكثر ارتفـــاعا مما نراها عليه الآن ، اذ هى لاتبلغ الآن اكثر من عشرة ارهاصات (مدماكات) ، ويقدر ارتفاعهما معا بعشرة أمتار ، أما سطحهما الداخلى فمربع يبلغطول ضلعه حوالى ثمانية أمتار . كنت قـــد لاحظت أن انحدار الأرض ، الذى بدأ منذ حوالى ٤٠٠ متر الى الجنوب ، قـــد بدأ يصبح محسوسا بشكل طفيف ، مما قـــد يحمل على الاعتقاد بأن البحيرة تمتد حتى تبلغ هذه النقطة ، وكانت مسيرتنـــا قـــد انتظمت منذ غادرنا مدينـــة الفيوم ، وكنا نقطع حوالى ٣٣٫٥٠٠ متر فى الساعة ، ومع هذا فلابد أن الساعة الآن قـــد بلغت الثانية الا الربع ، ومن هنا ، من خلال هذه الأطلال ، كنت ألمح وسط دغل كبير من أشجار

النخيل ، الى الشمال ، قرية سنورس ، التى وصلنا اليها فى الساعة الثالثة وكنا قد غادرنا أقدام فرعون فى الثانية تماما .

سنورس قرية كبيرة بعض الشىء ، وهى مبنية فوق مرتفع ، هو أعلى المرتفعات التى شهدتها فى مصر ، ويقدر ارتفاعه بحوالى ٥٠ مترا، ويحتمل أن كان يشكل فيما مضى واحدة من جزر البحيرة التى يبدأ المرء يرى مياهها بمجرد بلوغه أعلى المرتفع ، ومن جهة أخرى فسنورس هى مستودع للأملاح التى تستخرج من البحيرة .

وقد نزلت عند الشيخ الحبشى الذى استقبلنى بمودة بالغة ، واشتريت من القرية الشعير والفول اللازمين للخيول فى الصحراوات ، ثم رحلت فى الساعة الخامسة متوجها نحو الشمال ، واستمرت مسيرتنا نهارا حتى السادسة والنصف بالرغم من أننا فى انقلاب الشتاء ، ووصلنا الى رشاح صغير يسمى البطش ، يجرى من الشرق الى الغرب ،وينقل المياه من طامية حتى بركة قارون ، وتصل المياه الى طامية عن طريق ترعة قادمة من الروضة عن طريق ترعة تمر عند سطح هرم اللابرنت ، وعن طريق رشوحات البحر بلا ماء .

وكان بالامكان عند النقطة التى وصلنا اليها ، أن نعبر الرشاح فاتساعه هنا يبلغ حوالى ثمانية أمتار فى حين لا يزيد عمقه عن ٣٢سم، بعد أن كنت قد لاحظت انه كان محفورا على شكل ترعة بعمق يبلغحوالى عشرة أمتار ، وباتساع يبلغ ثمانين مترا . كنا لانزال على بعد يبلغ مسافة فرسخين الى الغرب من طامية وكانت المياه لما تزل بالغة الجودة ، مما يدل على أنها لم تتأثر مطلقا من قربها من البحيرة . وهناك تزودنا بما نحتاج من المئونة والمياه ، وملأنا قربنا بكمية تكفى فترة جولتنا بالصحراء .

اخبرنى الشيخ على أن هذه النقطة هى تلك التى تمر بها القوافل التى تمضى مباشرة من الجيزة الى سنورس . بل أن الفيضان نفسه لا يتسبب فى توقف مسيرة القوافل التى تمضى عندئذ صاعدة الى سيلة .

لاحظت أن الانحدار نحو البحيرة ، ابتداء من سنورس ، كان لايزال محسوسا حتى بيهمو ، وان سطح الأرض يتبع انحدارا آخر من

الشرق نحو الغرب ، وهذان الانحداران واضحان تماما ، حتى اننى لم أعد أرى ذروة رشاح البطش فى الجنوب الا كشريط عام يلتقى بشكل حاد مع الأفق .

كان الظلام تاما حين انتهينا من ملء قربنا ، فمن المعروف أن مدة الغسق فى هذا المناخ اقل بكثير من المدة التى يمكثها الغسق فى أوربا، لذا فقد عزمنا على أن نمضى ليلتنا فى هذا المكان ، وذهبنا لكى نقيم خيامنا على قمة الشط الشمالى ، على مسافة تبلغ مسيرة نصف ساعة الى الغرب من النقطة التى عبرنا عندها رشاح البطش .

منذ رحيلنا من مدينة الفيوم ، حذا رفاقى فى السفر فى سلوكهم نحوى حذو الشيخ على فى سلوكه ازائى . وكان هذا الرجل لا يفارقنى أبدا . وعلى الرغم من الصعوبة التى كنت أستشعرها فى التعبير عن نفسى وافكارى بلغته ، فانه لم يكن يحادث سواى . كان يقص على بقصد تسليتى وارضائى دون ريب ، حكايات كنت اجد — وهذا اعتراف منى — مشقة كبيرة فى تتبع تسلسلها ، وان كانت تشتت انتباهى لدرجة اكبر مما كنت اود ، اذ كنت غارقا تماما فى ملاحظاتى ، وفى بعض الأحيان كنت الحظ عن بعد ، بينما هو يقص حكايته ، أمرا يستنفر فضولى فكنت أجرى اليه ، ومع ذلك فقد كان حصانه يتعقب على الفور ، وباقصى سرعة آثار حصانى ، وكذلك فقد كان العربان ، كى يدخلوا البهجة على نفسى يتصنعون فيما بينهم معارك ومبارزات ، وذلك بأن يجروا على التوالى ، فريقا فى اثر فريق ، ثم يأتى احد الفريقين القريب منى لينشدنى اغنيات البطولة الخاصة بقبيلته . وكان مظهر السرور الذى ابديه ، هو بمثابة مكافأة اقدمها لهم ، فيعاودون من جديد العابهم التى لم تقلل برغم ذلك من جدية وانتظام مسيرتنا .

ما ان أعطيت اشارة التوقف لاقامة معسكر المبيت حتى نصبت خيمتى وكنت قد أحضرت مرتبتين صغيرتين : احداهما للشيخ على والأخرى لى ، لكننى لم انجح مطلقا فى ان احمله على تقبل المرتبة التى خصصتها له ، بل لقد استطعت بعناء شديد أن اقنعه على ان ينام داخل خيمتى ، حيث اكتفى بحصيرة بسطها فوق الرمال . وخلال بضع دقائق أعدت القهوة ، وقدمت ، وبدأت استعدادات العشاء .

وبانتظار ذلك ، أبديت رغبتى فى أن ارى كل رفاقى ، فأتوا يقبلون يدى، وينحنون مصطفين حول فراشى . وشساء احدهم ، وهو الذى قدمه الى الشيخ على بوصفه منشدا ، أن يعطينى فكرة عن امجاد وسمو قبيلته ، فقص واحدة من هذه القصص التى تحكى اعظم انجازات السمالو والتى يتداولونها استلهاما للشجاعة ، كان المستمعون فى كل لحظة يطلقون « يا الله » دليلا على الاعجاب ولارضاء المنشد ، وعلى الرغم من أننى لم اكن أدرك معنى سوى القليل مما كان يقول ، فاننى لم اكن الأخير فى اظهار سرورى . كانوا جميعا مسرورين . وفى النهاية أحضر الدجاج والبيلاف (طعام شرقى من أرز ولحم وتوابل) أكلنا بنهم . وبعد الطعام صرف الشيخ على كل رجاله واوقد شعلتين حول خيمتى كى يبعد الضباع — حسبما يقول — وهى التى تتجول هنا وتكثر فى هذه المناطق ، وتدثر كل من الباقين فى برنسه وقضى الليل على مقربة من حصانه .

فى السابع عشر من نيفوز (٧ ينساير) أزلنا خيامنا فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين من الصباح ، وكان الاتجاه الرئيسى لطريقنا يتجه من الشرق الى الغرب ، لكننا انعطفنا لحظة الى اليمين نحو الجبل العالى ، تاركين البحيرة عن يسارنا ، على بعد حوالى فرسخ ، وارتفع الانحدار بهدوء وبشكل غير محسوس ليختفى بعد ذلك فى واد واسع ينبسط نحو الشمال ، أخبرنى الشيخ على انه هو الطريق المؤدى من مدينة الفيوم الى الجيزة ، والى الاسكندرية عن طريق البحر بلا ماء الذى يمر بالقرب من بحيرات النطرون ويتفق مايقول الشيخ على هنا ، مع رأى الجنرال أندريوسى (١) وسوف نرى فيما بعد النتائج التى استنتجتها حول طريقة استغلال البحيرة فيما مضى .

كان العربان شديدى اليقظة ، يجدون فى التعرف فى الرمال التى تغطى هذه الصحراء ، على ما ان كان قد مر من هنا منذ مدة قريبة عربان آخرون وبعد مسيرة نحو الساعة تعرفوا خلال الكثبان على آثار

---

(١) أنظر ملاحظات حول بحيرة موريس المدونة فى الاخطار الخامس بالثالث عشر من بروميير من العام التاسع .

عربان الضعفا الذين سبق للسمالو ان طردوهم من الفيوم قبل ذلك بنحو عشرين يوما كما قيل لى .

وقد وجدنا بين البحيرة والجبل كمية كبيرة من الأشــجار التى جفت وهى بعد واقفـــة ، وهى تشبه منسغة (*) صغيرة جافة ، ويبـــدو أن أحدا لا يفيد من هذه الغـــابة الصغيرة فى شىء فى حين أن من المستطاع أن تكون ذات نفع كبير لمدينة الفيوم .

وصلنا فى العاشرة الا الربع الى ضـــفاف البحيرة وهنـــاك شاهدنا أكمتين كبيرتين تنعزل احداهمـــا عن الأخرى ، ويبلغ ارتفـــاع كل منهمـــا ٥٠ مترا، ويصل قطر اولاهما وهى مستديرة مائتى متر أما الأخرى فقاعدتها ذات أركان اربعة ، ويبلغ طولها ٥٠٠ متر بعرض يبلغ ثمانين مترا .وهذه الأخيرة هى الأدنى الى البحيرة ، وتغطى كليهما أحجار شـــديدة الصلابة من الحجر الجيرى مقطوعة بشكل خشن ، وقـــد رأينـــا هناك كذلك بعض انقاض من القرميد ، لـــكننا لم نلمح عليها لا نحتا ولا آثارا لمنشـــآت ، كانت الـــكتلتان نصف مطموستين فى الرمال ، وتقع احداهما بالنســـبة للأخرى فى خط يسير من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى بطول يبلغ حوالى الألف متر . فى هذه المنطقة يبتعد الجبل عن البحيرة بحوالى ثلاثة فراسخ على الأقل ، لـــكنه يميل بعد ذلك الى الاقتراب منها وتتناثر فى كل هذا الفراغ أكوام صغيرة من الأحجار الحمراء تتكون من نوع من الحجر الطباشيرى يشبه الى حـــد ما ، مانطلق عليـــه نحن الحجر الدموى أو الطبـــاشير الأحمر Sanguine وقـــد نزل العربان جميعا من فوق خيولهم واكبوا على جمع هذه الأحجار بهمة شـــديدة ، واخـــبرونى بأن النـــاس يشترون منهم هذه الأحجار لاستخدامها فى صـــباغة المنسوجات ولطـــلاء الأخشـــاب .

ترجلت عند شاطىء البحيرة التى بدت لى مياهها الرائقـــة للغـــاية وكأنها تميل الى الملوحة ، وان كانت هى غير ملحية ، فسقينا منها جميعا خيولنا وتناولنـــا هنـــاك وجبة خفيفة ، وقد أكد لى العربان أن البحيرة

(*) المنسغة : احراش نبتت أشـــجارها الصـــغيرة على أرومات أشجار قديمة مقطوعة .

تحتوى على أســماك بالغــة الجمال ولذيذة الطعم وان كان سكان الفيوم لا يصيدونها على الاطلاق ، وان صيادين من وادى النيل هم الذين يأتون الى هنــاك لهذا الغرض ابتداء من نهاية مارس وحتى ابتــداء فيضــان النيل . وتزدحم البحيرة كذلك بالطيور المائية . وكان عرض البحيرة عند النقطة التى نزلنا عندها يبلغ — فيما يبدو لى — حوالى الفرسخ .

وحين اجتزنا الهضبتين لاحظت أن الأرض ترتفع بطريقــة شــبه فجائية ، وان كان فى شكل مرتقى غير وعر ، ثم يصل المرء بعد ذلك الى هضبة واسعة صــخرية السطح ، عارية من الخضرة ، تمضى لتتصــل بالجبل الذى يبعد عن النقطة التى نحن عليها بحوالى الفرسخ جهة اليمين، كما يتوغل سطح الهضبة حتى ضفاف البحيرة على بعــد ١٠٠ متر جهة الشمال ، وقــد رأينــا فى الفراغ الذى يفصل صخرتى الهضبة طبقات من أرض قابلة للزراعة تغطيها طبقة خفيفة من الرمال ، كما رأينا هناك أيضا بعض آثار لملاحات قديمة .

وقد وجدت فوق هذه الهضــبة التى وصلت اليها بعد الظهر بعشر دقائق ، أطلال مدينة ، او ربما اطلال قصر واســع أخبرنى العربان انه يسمى قصر « طفشارة » او مدينة النمرود ، كما رأيت هنــاك حائطــا سميكا بالغ الارتفاع ، تعرفنــا فيــه على عدة مبــان مختلفة ، تشــهد حالها على قدمها ، وقد كنت اود لو استطعت ان أرسم الأسطح التفصيلية لهــذه الخرائب ، لــكن لم تتيسر لى لا المساعدات اللازمة ولا الوسائل، ولا الوقت اللازم . لذلك فقد اكتفيت برسم كروكى لها يشــير اليها على خريطتى . وكانت الجــدران مبنيــة بنوع من القرميد طوله ٢٠ ســم وعرضه ١٠ سم وسمكه ٧ سم ، مصنوع من الجير الأبيض المخلوط بالقش المهروس مع قليل من الصلصال ثم جفف بعــد عجنه بتعريضه لأشــعة الشمس . وهــذا الخليط هش للغــاية ، ويتحول بسهولة بالدقــة بين الأصــابع الى تراب .

وتمتد هذه الخرائب حتى شاطىء البحيرة ، بعرض يبلغ مائتى متر، وبطول يصل الى نحو ستمائة متر ، ويتجه من الشــمال الى الجنوب ، وقــد شاهدنا هنــاك كميــة من القرميد المحروق والفخــاريات وأوانى المومياء .. الخ . وحين تبين لى عجزى التــام عن انشاء خريطة لهــذا

المـكان بسبب نقص الامكانيات ، ابديت للعربان رغبتى فى أن أقوم بعمل بعض الحفائر ، فبدأوا جميعا البحث ، واحضر لى واحـد منهم نصـلا مستقيما ذا حدين صنع مقبضه من القرون ، ويبلغ طوله ٩٠ سم وعرضه ٥٠ سم ، ويحمل فى اعلاه ، أسفل القبضة نقشا عربيا محفورا ، كما انه مطعم بسلك من الفضة ، وقد حملته الى فرنسـا ، وان كان سرق منى فى مارسيليا ، فى نفس اللحظة التى كنت أتهيـأ فيهـا للرحيل الى باريس .

نزلت من المرتفع الصغير الذى توجد هذه الأطلال فوقه ، وواصلت طريقى قريبا لحـد كاف بين شـواطىء البحيرة باتجاه غرب الجنـوب الغربى . وظلت التربة هى نفس تلك الهضبة الصخرية التى وجدتها قبل قصر النمرود . وكان الجبل الواقع عن يمينى على بعد فرسخ صغير من البحيرة يواصل ميله على الدوام نحو الاقتراب منها ، وعند حوالى الثالثة كان طريقنا ، المتوازى على وجه التقريب مع الاتجاه الرئيسى للبحيرة ، يمضى بشكل ثابت نحو الجنوب الغربى ، وفى تلك اللحظـة نزلنـا فى منخفض ظننتـه فى البـداية خليجا قـديما ، لـكننى رايته بعـد ذلك يتوغل نحو الجبل مواصلا اتجاهه نحو الغرب. وعند مدخل هذا المنخفض، على شـاطىء البحيرة ، لمحت مرتفعا صغيرا على هيئة هرم فذهبت الى هنـاك على الفور وسرعان ماتبينت انه ليس سـوى صخرة تغطيها اتربة تختلط بالرمال وتنمو عليها نباتات كثيفـة .. وفى مواجهتها رايت جزيرة منخفضة السطح وسط البحيرة .

فى كل هذا المنخفض تتنـاثر عدد كبير من الأكمات على شكل قمم، تغطيها فى معظمها ارض قابلة للزراعة ، وبقايا احجار جيرية شبيهة بتلك التى سبق ان رأيتها فى الصباح . وهكذا ، فاذا أخذنا بالافتراض المرجح القائل بأن البحيرة كانت تمتد حتى الجبل — وهو افتراض تدعمه الطبقات التى نراها ، والأكمات التى تحدثت منها ، والتى تآكلت بشكل أفقى بفعل الميـاه ، وكذا القواقع التى كانت لاتزال على نفس حالها حين جمعتها من تحت قدمى — فان هنـاك مايدعو الى الظن بأن كل هـذه الأكمات قـد كانت بالمثل جزرا ماهولة ، اما الهرمان اللذان تحدث عنهما هيرودوت ، فلابد أنهما كانا يقفان فوق واحدة من هذه الجزر العديدة ، وان كان قد

يصعب علينا أن نعرف فوق أى واحدة من هذه الجزر كان ينهض هذان الهرمان اذا ما استثنينا الجزيرتين الأوليين اللتين تقعان عند منتصف البحيرة طولا وعرضا ، على افتراض انها كانت تبدأ عند طامية وتمتد من بيهمو حتى الهضبة الليبية ، ذلك اننا اذا استبعدنا هذا الموقع الأوسط الذى يبدو هيرودوت وهو يشير اليه كما لو كان يستند الى شىء ثابت، فسوف نجد عددا كبيرا من الجزر يصلح اى منها لوجود هذين الهرمين تبعا لكمية واحجام الأحجار الجيرية التى تغطيها .

أما وقد ظللنا نواصل طريقنا على الدوام باتجاه الجنوب الغربى فقد وصلنا فى الساعة الرابعة والدقيقة ٣٥ بعد أن أسرعنا فى السير قليلا ، الى موقع غابة ، تغطيه اشجار جافة تشبه ما كنت **شاهدته** فى الصباح ، بل لقد كان امتداد الغابة الأخيرة يبدو أكبر بكثير ، كما كانت جذوع الأشجار تبدو اقوى ، وكان الكثير منها له سمك ذراع الانسان، كما كان سمك البعض الآخر يماثل سمك الفخذ . من هناك كنا نرى باتجاه الغرب قصر قارون . وكان قد خطر ببالى أن اذهب الى هناك لقضاء الليل حين لحق بنا أحد العربان ، أرسله الشيخ صالح ، والد الشيخ على . وكان قد بلغه منذ قليل أن ثمانية من رجاله قد انتهبوا بواسطة جماعة تتكون من ٣٠٠ من فرجان البحيرة (عرب الفرجان بولاية البحيرة) . لقد كلف الشيخ صالح هذا العربى بأنه يخبرنا بأنه يلزم حراسنا اليقظة ، كما طلب الينا بشكل خاص الا نغامر على الاطلاق بالدخول فى معركة ، نظرا لقلة عددنا ، ومع ذلك فقد أخبرنا أن نظل على هدوئنا (الا نفزع) وبأنه على صلة بمجريات الأمور لكى يعرف ما آل اليه حال أعدائه الفرجان ، وبأنه اذا مابلغه أنهم لايزالون على مقربة منا ، فسيأتى للقائهم على الفور وفى صحبته ٥٠ من السمالو ، هنا لفت الشيخ نظرى ، دون أن ترهبه هذه الأخبار ، أن ليس من حسن الفطن أن نصل الى قصر قارون مع قدوم الليل ، اذ يعد هذا المكان الملتقى المفضل للقوافل الجوابة وانه ، اذا مافترضنا أن فريقا من بينهم قد يقضى الليل فى المناطق المجاورة ، فسوف يعاود سفره مع بزوغ النهار ويترك لنا الميدان خاليا . ادركت صواب رايه ، وفضلا عن ذلك ، فلم نكن قد نلنا ـــ حتى ذلك الوقت ـــ اى قسط من الراحة منذ السادسة صباحا ، اى أننا قد سرنا بشكل متصل لمدة عشر ساعات لذلك

فقد اخترنا من الغابة مكانا دنيـا وحصيناه تحيط به المرتفعـات ، حيث يتردد على الطريق الذى كنا سلكناه عرب الفرجان فى معظم الأوقات ، وأنام الشيخ عليه حراسة ، وقضينا الليل فى هذا المـكان .

كنا بالفعل على ضفاف البحيرة ، كما كنا فى نفس الوقت جد قريبين من الجبل . تذوقت المياه مرة أخرى فوجدتها تماثل تلك التى تذوقتها فى الصـباح . وقـد شربت منها كل خيولنا بل وكثير من خدمنـا ، الأمر الذى يعـارض بعض الشىء مع تأكيدات بوكوك Pococke الذى وجدها كما يقول اكثر ملوحة من ماء البحر . وفى الحقيقـة ، فقـد جاء هو الى هنـاك بعد مثل الفصـل الذى جئت فيـه بشـهر ونصـف ، ولعـل الفيضـان الذى سبق رحلته كان بالغ الضـعف ، فى حين كان الفيضان الذى سبق رحلتى بالغ الوفرة .

وفى اليوم التالى ، ١٨ نيفوز (٨ ينـاير) واصـلنا طريقنـا فى الخامسة والربع صـباحا ، لـكننا لم نستطع أن نحاذى ضفاف البحيرة بسبب ادغال الأشجار التى تغطيها . لذلك فقد اضـطررنا أن نقترب من الجبل ، الذى كانت المسافة التى تفصله عن البحيرة تضيق شيئا فشيئا، كما قـد أصبحت طبقـة الأرض القابلة للزراعـة يزيد سمكها اكثر فأكثر دون أن تخالطها الرمال، ولهذا فلعل من المؤكد أن يكون هذا الجزء الشمالى من البحيرة قابلا للزراعة حتى سفح الجبل اذا أمكن رى أراضيه بميـاه الفيضـان العذبة .

وصلنا اخيرا حوالى الساعة السابعة والربع ، بعد مسـيرة أبطأ بعض الشىء من مسيرة البشـارحة ، الى الطرف الغربى للبحيرة ، وهـو يغرق كلية سطح الجبل وكنت اظن أننى هنـا بصـدد ذلك الجبل الذى يقطعه منذ مبدئه ، البحر بلا ماء ، والذى يسميه دانفيل فى مؤلفـه مصر القـديمة Aegyptus antiqua باسـم Lycus Fluvius ، ولـكننى وجدت ، بدلا من هـذه الفتحـة ، أن السلسلة تتابع حتى مدى البصر باتجاه الجنوب الغربى ، وعرفت من العربان انه لا يوجـد فى هـذه المناطق لا البحر بلا ماء ، ولا منخفض من اى نوع يستطيع أن يقوم ادعاء على وجوده .

أما لسان الأرض الضيق ، والذى يسمح بالمرور بين طرف البحيرة وسفح الجبل ، فقد كانت تطمسه كومة من الأحجار الجيرية الضخمة التى لا يبدو عليها اى اثر لعمل الانسان والتى أعتقد أنها ببساطة قد سقطت من الطبقات العليا للجبل ، وفضلا عن ذلك فقد كان هذا الممر وعرا لان شواطىء البحيرة هناك مغطاة بقشرة ملحية تخور بسهولة تحت الأقدام وتوجد تحتها مياه عميقة لحد كبير فى بعض الأحيان . وتمكنت جمالنا بعد جهد بالغ المشقة من عبور هذا الممر .

وحيث كنت قد نفد صبرى شغفا لرؤية قصر قارون الذى كنت اراه منذ الصباح بشكل بالغ الوضوح : فقد تركت القافلة تواصل طريقها ، ورحلت وحيدا الى الأمام متخذا اتجاه جنوب الشرق نحو هذا المبنى الذى وصلت اليه فى الثامنة والربع . وهكذا أمضيت ساعة ، سار فيها حصانى بأقصى سرعته كى اقطع المسافة التى تفصل القصر عن طرف البحيرة ، إذ أن المنحدر لم يكن وعرا بل كان كبيرا . وفى نفس الوقت فان القصر مبنى فوق مرتفع صغير مما يسمح بالظن بأن مياه البحيرة كانت فيما مضى أكثر ارتفاعا ، وبأنها فى تلك الأزمنة التى كانت تمتد فيها لتبلغ الجبل ، كانت تأتى كذلك كى تبلل سفح هذا المبنى .

لن اقدم هنا مطلقا وصفا لقصر قارون ، فقد سبق أن قدم المسيو جومار Jomard الرسوم والخرائط الدقيقة لهذا المبنى (٦) . لكننى فقط اسمح لنفسى بأن اقرر أننى لست أعتقد أن مبناه قديم بنفس قدم معابد مصر العليا ، فأطلاله ، أولا ، لا تبدو حاملة لآثار تخريب الزمن لكنها تحمل آثار تدمير قامت به يد البشر . وثانيا فنحن نرى عند مدخله أحجاراً منحوتة بشكل خشن على طريقة الاغريق ، فوق الدعامات الأمامية ، وان كان من الممكن الافتراض بأنها قد أضيفت فى ازمنة لاحقة . وقد حفر دكتور بوكوك اسمه على انقاض عضادات باب الدخول الأول الواقع الى اليسار ، كما حفر بول لوكاس Paul Lucas اسمه على أنقاض العضادات الواقعة الى اليمين .

---

(٦) انظر اللوحتين ٦٩ ، ٧٠ ، العصور القديمة ، المجلد الرابع .

كان هذا بمثـابة اكتشاف له أهمية قصوى بالنسبة لى . هنا لم أستطع أن اقاوم نزوة أن ألمسها ، فكتبت هذه الـكلمات على المضادة الواقعة الى اليسار فوق اسم بوكوك .

عـــبر ب. م. مارتان ، المهنـــدس الفـــرنسى
الجزء الشمالى من بركة قارون ، فى السابع عشر
من نيفوز من العـــام التـاسع لقيـــام الجمهورية
الفرنســية (الموافق ١٧ ينــاير ١٠٨١)

وقد تفحصت باهتمام ، من أعلى المبنى ، وبمنظار جديد ، امتـداد الجبل الذى تركته عند شـــاطىء البحيرة ، فلم أجــد على مدى البصر مايمكن ان يدعم افتراض وجود الفتحة التى يتحـدث عنها كل من ليكاس ودانفيل ؛ بل وجدت الأرض تمضى صـاعدة فى مرتقى لطيف يبتدىء عند البحيرة وينتهى ببلوغ قمـة الجبل . ويرى المرء عن بعد كبير تلك الحلمة (القمة) التى حـددها هـذا الجغرافى فى خريطته عن مصر الحديثـة تحت اســم Haram Medalé el - Hebjad ولا تزال بعض جدران قصر قارون تنهض واقفــة سواء من ناحيـة الشرق أو من ناحيـة الغرب ، بل ويوجد كذلك مبنى صــغير أمام مدخله ، ومع ذلك فلا توجد مطلقـا قطعـة واحدة من الجرانيت . وتقع حجرات القصر ، المربعة الشكل ، على خط يمتد بشكل تقريبى من الجنوب الى الشمال ، أما خط الواجهة الرئيسية أو المـدخل فيمتد من الجنوب الشرقى ، واذا ما رنا الانسان ببصره نحو الأفق فسوف يلاحظ عن قرب ، والى الجنوب ، قمة عالية من الأرض تدل بوضوح على الحد القديم للبحيرة .

غادرت قصر قارون عند الظهر تماما ، واتخذت طريقى مباشرة نحو الجنوب الشرقى ، كانت الأرض التى نطؤها صخرية خالصة تغطيها رمال خفيفة ، وتتنـاثر عليها اكداس صـــغيرة من الأحجار والقرميد ، ولـكن بكميات بالغـة الضآلة ، وهـذا ما جعلنى اظن أننـا نتوصل الى نتيجة مبتسرة حين نطلق على هذه الأطلال اســم بلدة قارون ، ذلك أننى مقتنع بأنه اذا كانت توجـد بعض مبـان فوق هذه الصخرة فانها لابد أن تعود الى فترة جد قريبـة ، جاءت بعد انحسار مياه البحيرة بزمن طويل ، كما

ان هذه المبـــانى ، من جهة اخرى ، ضئيلة الأهميـــة للغاية ، ولا يمكنها بأية حال أن تدلل على وجود مدينـــة قديمة ، وسيكون موقع مثل هـــذه المدينة ، فضلا عن ذلك بالغ السوء ، اذ يظل هذا المكا ن، على الدوام، عاريا من اية خضرة .

كنا نسير بخطو حثيث ، اذ كانت جمالنا قـــد سبقتنا بنحو نصـــف الساعة ، ووجدنا انفسنا عند حوالى الساعة الثانية فوق قمة بناء صغير يقع الى اليسار على شـــاطىء البحيرة ، ولاحظت أن قمة عاليـــة بعض الشىء تمتد بدءا من هذه النقطة ، على نحو مواز لهذا الشاطىء .

وبعد مسيرة نصف ساعة شاهدت مبنى آخر فوق نفس القمـــة ، وتلك على وجه التقـــريب هى الأماكن التى يطلق عليهـــا بوكوك اسمى قصر كوفو Couphou وقصر كوبال Copal ، وأخبرنى العـــربان انه يشار الى هـــذه المبانى فى عمومها باسم قصر البنـــات ، وتوجـــد على شواطىء البحيرة ، عند سفح الجبل الواقع الى يميننا فى ذلك الوقت ، ونحن باتجاه بحيرة الغرق ملاحات كان يستغلها أهالى النزلة . ولـــكى يتم لهم ذلك ، قاموا بحفر آبار تسحب اليها المياه المالحة ، وتترك لتتبخر فوق الأرض ، لتنتج ملحا لذيذ الطعم ، بالغ الجودة .

ويصبح الانحدار ، ابتداء من قصر قارون ، غير محسوس ، لكننى احسست فى الساعة الثالثة أن الانحدار قـــد عاد ليصبح بالغ الشدة. وعند الثالثة والربع وصلنا الى القمة التى تشكل نهاية الصحراء . هناك احسست بلذة يصعب وصفها فمنذ ثمانى واربعين ساعة ، لم تكن عينى النهمة للاكتشاف ، والتى كانت تحدق بلا انقطاع فى كل مايحيط بى ، لم تكن تقع الا على احجار ورمال . كانت صورة الموت وحدها ترتسم بخيالى دون أن تعطينى مع ذلك اى احساس بالحزن أو الانقبـــاض . كنت أبعد ما اكون عن الاحساس بالحرمان أو الاجهاد ، ذلك الاحساس العـــادى الذى ينتـــاب المسافر فى الصحراوات ، فلقد قمت بهذه الرحلة برغبتى بل وبترحاب كامل من جانبى ، بل انى لاشك أن أوربيـــا آخر يستطيع مهما تكن الظروف التى تحيط به ، أن يجد رحلة شبيهة برحلتى ، فلقـــد كانت روحى على الدوام فى توق لعملياتى ، كما انى لم أعان مطلقا من

حرارة الجو التى كانت ترتفع ، على الرغم من أننــا كنا فى يناير ، من ٢٢ الى ٢٤ درجة فيما بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . لم يحدث ان فتحت قربتى ولو مرة واحدة كى أشرب اثناء الطريق بين لحظة وأخرى. ومع ذلك فان السرور الذىتملكنى عند أول رؤية للخضرة ، رؤية الطبيعة فى حالة حركة وحيــاة ، جعلنى احس برجفة تسرى فى جسدى ، وبأننى دون أن ادرى فى حالة من انفعال مستمر .

كنا نلمح عن بعد قرية النزلة ، فى نفس اتجاه جنوب الشرق الذى اتبعناه بدءا من قصر قارون ، وقام العربان الذين كانوا قد أوقفوا سباقهم اثنـــاء فترة اجتيــازنا للصحراء ، بترقيص خيــولهم من حولى ، مرهقين اياى بالتحيــات والتمنيات وعبــارات الصــداقة . فــكانوا يصــيحون خلال فرحتهم بأنهم قــد أعادوا ، سليما ، معافى ، مدبر السمالو ، وهى كلمة تعنى منظم ، ويستخدمونها فى مقابل كلمة مهنــدس عندنا ، ولقــد قدموا لى شهادة كبيرة على تقديرهم ، حين أضافوا الى هــذا اللقب اسم قبيلتهم، واعترفبأننى لم اكن متبلد الاحساس أمام هذه الدلالات؛ فلقد جعلونى واحدا منهم ، وكان وجهى الذى لوحته الشمس ، كما كان شاربى الكث وردائى البــدوى كان كل ذلك يتحــدى أمهر خبير فى تمييز الملامح (أن يتعرف على) ، لذلك فقد لاحظت أن احدا من كل الأهالى الذين قابلناهم بعد ذلك ، لم يحدس وجود رجل فرنسى ، بين هذه الكوكبة من العربان .

وصلنا الى النزلة فى الساعة الخامســة . وتقع هــذه القرية ، الــكبيرة بعض الشىء على بعد حوالى ثلاثة فراسخ من شواطىءالبحيرة، وعلى الشط الأيسر لترعة واسعة تعتبر امتدادا لبحر الوادى الذى سبق لى أن أشرت اليه . وفيما مضى ، كانت النزلة تحصــل على حاجتها من الميــاه عن طريق رشاح يأتى من مدينــة الفيوم ، لــكن المياه ، منذ ان قطع سد المنيا، ظلتتغمر الأرض، لدرجة أننى كنتارى فىذلك الوقت بركا كبيرة الحجم ، على مقربة من القرية ، على الرغم من أن انخفاض المياه التى كانت تتدفق منذ مايزيد على ثلاثة أشهر ، ربما يكون قد ترك الأرض مكشوفة (أى معرضة للجفاف) فى كل مكان .

قضيت الليل فى النزلة ، ودعوت الى العشــاء معى شيخ هــذه القرية ، وكذلك الشيخ على أبى بكر ، ابن أخى الشيخ صــالح ، الذى

كان قــد قــدم على عجل لزيارتى . وقــد افدت من هذا اللقــاء ، اذ حصلت من كل منهما بشكل خاص على كافة المعلومات التى يمكن لمثليهما ان يقدماها لى عن الصحراوات المحيطة بالفيوم ، ولابد انيستنتج القارىء اننى لم اهمل ما يتصــل بالواحات . وقــد سررت سرورا جمــا حين لاحظت أن اجاباتهما تتطابق بشكل تام مع التفاصيل التى حصلت عليهــا قبل ذلك بعدة أيام ، من سليمان الكاشف ، ومن اثنين من أهالى الواحة الصــغيرة ، كنت لقيتهما فى مدينــة الفيوم ، وســأقدم فيما بعد نتائج هذه اللقاءات .

غادرنا النزلة فى التاسع عشر من نيفوز (٩ ينــاير) ، فى الساعة التاسعة والربع صــباحا ، واتخذنا طريقنــا ، بشكل مستمر ، باتجاه الجنوب الشرقى ، وسط الأراضى المزروعة ، والتى كانت متشققة فى ذلك الوقت ، مما جعل ســيرنا عســيرا ، الى ان وصلنــا بحر الوادى فى الحادية عشرة والربع ، تجاه قرية (العرين) الواقعة على الشط الأيمن. وهنــاك ، كان عمق الرشــاح لا يقل عن ١٦ الى ١٧ مترا بعرض يصل الى نحو مائتى متر ، نزلنــا نخوض فى ميــاه الرشاح ، وكان الســير فوق قاعه أقل مشقة من السير فوق حافته .كانت مياهه تجرى فى الجانب الأيمن من سريره ، وقــد صعدنا متجهين نحو الجنوب حتى بلغنــا فتحة ترعة صــغيرة ، كانت تأتى من قبل ، كما قيل لى ، من مدينة الفيوم ، مارة بالمنيا ، متجهة الى بركة قارون بعد ان تسقى أراضى القرى الواقعة على مجرأها ، وقــد اكد لى العربان أن بحر الوادى الذى كنت أراه بالغ الاتساع قــد تكون نتيجــة لفيض مفــاجىء للميــاه التى تسربت فى ذلك الوقت ، حين تصــدع جسر المنيــا ؛ لــكننا سنرى فيما بعد أن هــذا الافتراض بعيد الاحتمال ؛ ولم تبد لى الجبــال الواقعــة الى الغــرب سوى انحدار طفيف تضيع ذروتها فى الأفق البعيد .

وفى الساعة الحادية عشرة والربع ، وصلنا الى أبى جندير ،وهى قرية بالغة الارتفاع ، تقع الى جنوب الجنوب الغربى من النزلة . ومن فوق المرتفع الذى بنيت فوقه هــذه القرية ، كنت أرى بوضوح مدينــة الفيوم والنزلة ، وكل المنطقة الوسطى من ولاية الفيوم ، وعبر فرع من الرشاح القــادم من مدينــة الفيوم بالقرب من أبى جندير ؛ وحيث تظل

تصل الميـــاه حتى هذه المنطقـــة فى مستوى سطح الأرض ، فانها تشكل عند تدفقها الى الوادى مسقط مياه يبلغ انحداره نحو عشرة أمتار ، وهذه ظاهرة غير معروفة فى بقية انحاء مصر .

وهكذا فان اقامة آلات تحركها مساقط المياه ستعود بنفع كبير للرى. وكان دليلى ، الشيخ على قـــد لقى فى ابى جنـــدير اخاه الشيخ عثمان، شيخ القبـــائل المقيمة حول هذه القرية ، فلم نمكث فى خيمة الأخير سوى ربع الساعة تناولنا خلالها القهوة ، ثم واصلنا طريقنا باتجـــاه الجنوب الغربى ، مصطحبين معنا هذا الشيخ عثمان .

وعند الثانية عشرة والربع ظهرا ، عـــدنا الى الصحراء ، التى تشكل ارضها ــ وهى اعلى من الأرض المنزرعة ــ احجارا رسوبية تختلط بالرمال ، فوقها قطع من الأحجار الجيرية . لقد كنافوق ما يشبه هضبة، عند بدء انحدارها غير المحسوس نزولا ، جهة الشمال الغربى نحو قصر قارون ، وبدء انحدارها كذلك الى الجنوب الشرقى عند قرية ورشاح الغرق، حيث يتحول الانحدار الى مرتقى يمتد صاعدا بشـــكل غير محسوس الى مدى البصر .

وفى الساعة الواحـــدة الا خمس دقائق ، وصلنا الى مرتفع منعزل يسمونه « كوم الغرق بتـــاع الملط » وهنـــاك تعرفت على اطلال هائلة تمتد من جهاتها الأربع الى داخل السهل . صـــعدت المـــرتقى ، فرايت بحيرة الغرق ، فى أسفل ، وهى تمتد الى الجنوب لبعد يبلغ حوالى نصف الفرسخ، واسترعى مرافقى انتباهى الى وجود جبلين يقعان عن بعد باتجاه جنوب الجنوب الغربى ، ويوجد بينهما ريان (بئر) وكذلك الطريق المؤدى الى الواحة الصغيرة التى سأتناولها فيما بعد ؛ ويرى المرء الى الجنوب الغربى تلك القرية التى تحمل اسم مدينـــة الغرق ، اما ظهر الجبل الـــذى يفصل وادى الغرق عن وادى مصر ، فيشكل منحدرا لطيفا سهلا .

تركنا اطلال مدينة (معدى) فى الساعة الواحدة والنصف ، ونزلنا فى منخفض من أرض صـــالحة للزراعة ، تغطيها رمال غير كثيفة . ومن السهولة بمكان زراعة هـــذه الأرض رغم كونها مهجورة ، اذ تتكاثر فيها دون أية مجهودات أو عناية تذكر ، مجموعات كبيرة من الأشجار والنباتات المتنوعـــة .

وتجرى فى هذا السهل ترعة تزرع شطآنها ، وتمضى جنوبا لتصب مياهها فى البحيرة وقد صعدنا باتجاه هذه الترعة حتى مدينة الغرق فوصلنا الى هناك فى الساعة الثالثة بعد الظهر . ثمة سور يحيط بهذه القرية الدفاع عنها ، لكنها ، فى داخلها ، تشكل مظهرا بالغ البؤس ، وهناك منزل لأحد المماليك قد تحطم عن آخره ، وليست ضواحى القرية بأحسن من داخلها حالا : وبخلاف كل قرى مصر ، تلك التى يتعرف عليها المرء عن بعد بأشجار النخيل الكثيفة التى تحيط بها ، فان مدينة الغرق لاتحيط بها ولو شجرة واحدة ، فهى لا تمثل الا مظهر عرى بالغ الوحشية لحد يبعث بالرجفة الى القلب . وقد بقيت هناك لقضاء الليل ، وكنت أريد ان ارى « كوام الوزازى » وهم عربان تابعون للسمالو ، سمعت انهم لصوص ذوو حيلة ، ونصحنى كثيرون بأن اتجنبهم ، ولست أدرى ما ان كان ظهور الشيخ على والشيخ عثمان هو الذى كبح جماحهم ،ومهما يكن من أمر فقد خرجت من قبضتهم دون ان يكون لدى ما اشكو منه ، ولقد حدثونى بسرور بالغ عن المدبر جيرار ، وكانوا قد صحبوه فى جولته قبل ذلك بعامين . وقد عرض على شيخهم كرامتى خدماته بأن يصحبنى الى البحيرة التى يسمونها الغرق بتاع الغرق ، وهى تبعد عن القرية بمسيرة ساعتين نحو الجنوب .وقد قبلت صحبتهم ، لكننى اجلت الزيارة الى الفترة التى قد ازور فيها الجزيرة الصغيرة ، وهى زيارة كنت عزمت على القيام بها منذ عرفت تفاصيل موقع هذه الجزيرة الصحراوية . وان كنت مع ذلك قد صحبته معى لزيارة الأنقاض الواسعة التى تحمل اسم دير زخاوة بتاع الغرق والذى يبعد موقعه عن القرية بنحو فرسخ واحد باتجاه جنوب الجنوب الشرقى .

رحلنا من الغرق فى العشرين من نيفوز (١٠ يناير) فى الثامنة الا الربع صباحا فوصلنا الى قرية سنورس ، وهى قرية صغيرة تحيط بها الجدران ، وتعسكر حولها قبيلة المعربين ، على الشط الأيمن للترعة تجاه الغرق مباشرة ، وحين توجهنا بعد ذلك — على نفس طريقنا — الى الشمال الشرقى ، وجدنا السنة صحراوية كثيرة تعترضها اجزاء قابلة للزراعة ، وفى الساعة التاسعة والنصف عبرنا الترعة الصغيرة

التى تمضى فتصب مياهها فى الوادى شمال ابو جنـــدير ، ووصلنا الشط الآخر عند بداية الجسر الرائع الذى سبق ان تحـــدثت عنه والذى بينت فوائده عند شرح الحركة العامة للمياه فى الولاية ، واقدم الان التفاصيل التى حصلت عليها حول هذا الجسر .

يقدم لنـــا هذا الجسر ـــ وهو مبنى باكمله من الترميد او الأحجار المتماسكة بشكل متين بفعل ملاط من الجير والأسمنت ـــ نمطا لواحد من تلك الأعمـــال العظيمة التى نتجت عن رعاية حكومة عاقلة تضـــع فى اعتبارها العمل لصـــالح البشر،ويبلغ سمك هـــذا الجسر ستة أمتار عند ارتفاعه ، كما يبلغ ارتفاعه ابتـــداء من أدنى نقطة فيـــه ســـتة امتـــار كذلك ، وتدعم الجسر وتقويه دعامات ومصدات مياه ، ولكن على الرغم من هذه الاحتيـــاطات فقد تصـــدع عند المنتصف بالقرب من قرية شدموه لمسافة تبلغ ٦٠ مترا . ويبـــدو أن هذا التصـــدع لا يعود الا لقوة اندفاع الميـــاه ، بمعنى أنه لم يحدث نتيجة لتخريب من اى نوع على يد الانسان فنحن لا نزال نرى هنـــاك كتل البنـــاء الضخمة التى حملتها الميـــاه معها الى بعيد فى قاع الترعة . وربما يقال تفسيرا لذلك ، وانا نفسى اشارك فى هذا الرأى ، بان تصـــدعا كبيرا كهذا لا يمكن ان يتم الا بفعل الاهمال فى اصـــلاح أول تلف احدثتـــه الميـــاه ، فلقد كان كافيا أن يحدث تسرب للميـــاه ولو ضئيل لـــكى يحدث على المـــدى البعيد كل هـــذا الدمار ، ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد للجسر من فائدة او معنى ، فلقد اصبحت حقول وادى الغرق غير مزروعة ، واخذت المياه تذهب عن طريق بحر الوادى، لتغرق ـــ مشكلة بذلك خسارة تامة ـــ تلك الأراضى التى تقع فيمـــا بين النزلة وبحيرة قارون .

وتقطع اعلى هـــذا الجسر على الدوام قنـــاطر صغيرة ، نفذت فى فتحاتها خزانات مخصصة ولا ريب لتنظيم ارتفاع الميـــاه حين تغطى وادى الغرق . ومن شأن هذا أن يدحض زعم العربان الذين يدعون بأن الوادى لم يكن يوجد مطلقا قبل قطع الجسر . لقـــد كان على المياه التى تعبر هذه الخزانات أن تتجه بالضرورة وعن طريق ترعة ما الى بركة قارون . وان كان يمكن ـــ فقط ـــ أن تكون مثل هذه الترعة اقل اتساعا مما هى عليه اليوم ؛ ومن جهة أخرى فان الجسر يقوم بدورات عديدة تبعـــا لانثناءات

و نعطافات الأرض ، ويتوغل نحو الشرق بطول يبلغ حوالى ٥٠٠ر٨ متر حتى قربة دفنو ، حيث ينتهى الجسر .

اقتربنا من قرية المنيـا (*) حيث يقيم الشيخ الاكبر أبو صـالح ، والد على وعثمان ، رفيق سـفرى ، وسرى النبأ فى القرية ، فشاهدنا على الفور ظهور أخيهما الثالث جوربة ، الذى أرسله أبوه ليهنئنا بسلامة الوصول .

ثم جاء هـذا الشيخ (المسن) نفسه للقـائنا ، وما أن اقترب منا بنحو مائة خطوة حتى ترجل ، واتجه نحوى سائرا علَى قدميه ، بادلتـه على الفور نفس تحيته ، وتقدمنا ، وحدنا ، كل منا تجاه الآخر ، وكل منا على رأس جماعته ، وحتى هذه اللحظة ، كان الشيخ على يضع نفسه رهن اشارتى ، اللهم الا فى تلك اللحظات التى تركته خلالها عند طرف بحيرة قارون لأهرع وحدى الى قصر قارون . أما الآن ، فانه لم يتبعنى مطلقا، لقد منعه من ذلك ، الاحترام الذى يكنه لوالده ،ولقد ابديت لأبيـه من جانبى كل رضـائى لأنه قـد أتاح لى ان أصحب رفيقا مثل ولده ، وعربا مخلصين ذوى شهامة مثل اتبـاعه الشجعان من ابناء السمالو . لاحظت انه تأثر لاطرائى ، ومنذ هذه اللحظة نشأت بيننا الثقة . امتطينا حصاننا من جديد ، وسار أبو صـالح عن يمينى ، أما ابنـاؤه الثلاثة فقد ساروا من خلفنا ، فشكلنا على هذا النحو ما يشبه الدخول المظفر الى المنيا . كان الوقت قـد بلغ العاشرة والربع وكان السكان جميعا قـد اصطفوا على جانبى طريقنا واسمعتنا النسوة زغاريدهن ، تلك العلامة المعتـادة عند حلول الأفراح الـكبرى .

يقطن ابو صـالح فى المنيـا بيتـا واسعا بعض الشىء ، سرعان ما امتلأ بعدد كبير من المـدعوين من كل الطبقات والأعمار ؛ وما ان جلسنا على الأرائـك حتى تـقدم الى الشيخ صـالح كل ابنـائه ؛ لاحظت من بينهم واحدا لـما يتجاوز التاسعة أو العـاشرة من العمر ، يكن له أبوه عاطفـة خاصـة وكان هـذا الصبى ، وله وجه بالغ الجمال ، يركب الخيل ، ويستعمل الأسلحة بقـدر ما قد يفعل ذلك اكثر البـدو تمرسا،

(*) احدى قرى مركز أطسا . [المترجم]

ويبدى من حيوية الطبع ما يسر والده بشكل بالغ ، وقلت لأبى صـــالح اننى كنت قـــد لاحظت وانا فى السهل رشاقة ومهارة هذا الصبى ومظهره الحسن ، دون ان أعرفه وكيعقوب جـــديد ، عبر لى أبو صـــالح ، وقد هزه المـــدبح الذى انهـــال به على ولده المحبوب ، عن عرفانه بطريقة قـــد تبدو غير معقولة فى تقاليـــدنا ، لـــكنها ولا شك نتيجة افكارهم عن الرق ، فلقد قـــدم الى هذا الطفل قائلا ان بامكانى أن أصطحبه وان الحقه فى خدمتى ؛ فأجبته باننى قـــد تأثرت للغاية بهذا العرض ، لـــكن ولده لن يكون مطلقا على خير مايرام ، بل انه قـــد يتلف بلا جدال لو انه نشأ بين قوم غير قومه ، وأن لى فضلا عن ذلك ، فى فرنسا ، طفلا كطفله ، تتعلق به كل آمالى ؛ واننى معرفة منى بقدر صنيع السماء ســـوف الوم نفسى أذ حرمت من خدمات رجل اود ان انظر اليه منذ الآن وان احبـــه كوالدى ، فرفع عينيه الى السماء شاكرا الله اذ جعله يجد فى شخصى صـــديقا حقا .

قد يدور بخلد البعض انه قد لذ لى هنـــا ان اصور مشهدا من صنع الخيال ، أو اننى على الأقل قـــد جهدت فى أن أمنح هـــذا المشهد بعض مذاق الخيال ، لـــكن الحقيقـــة هى اننى انقل بدقة ما قد حدث ، واننى اكاد اقـــدم احاديثنـــا كلمة بكلمة كما وجدتها فى مذكراتى ، التى دونتها فى مساء نفس اليوم ، ومع ذلك فينبغى على أن اقول كذلك ، تفســـيرا لمشاعر الصداقة هذه ، انه يبـــدو أن أبا صـــالح كان يريدنى أن أستشف أنه يرعانى بسبب صفتى مدبرا ، شخصية بالغـــة الأهمية ، وانه يريد أن يحملنى على العزم على اعادة ترميم الجسر وخزاناته وقد حدثته عن الحالة الراهنة لهذا المبنى باعتبارها تقارب حد الكارثة ، وان الفرنسيين كانوا ينتوون ترميمه فى أقرب فرصـــة ممكنة ، واكد لى هو من جانبه ، وقـــد تدفقت عواطفه وزاد عرفانه بأن بامكانى الاعتماد عليه ، وعلى كل قبيلة البيمالو ، الذين سيصحبوننى فى كل مكان اريد الذهاب اليه ، وانهم يمتثلون لأمرى فى الحياة وفى الممات ، وانتهزت انا هذه اللحظة لكى اعد لرحلتى الى الواحة ، وقـــد اكد لى دقة المعلومات التى حصلت عليها فى مدينـــة الفيوم وفى النزلة ، كما اكد باننى ، عندما اخبره بيوم رحيلى ، سأجد كل شىء معدا للقيـــام بهذه الرحلة فى تمام واتقان . وهـــذه هى

التفاصيل التى جمعتها حول هذه الواحة ، وحول الطريقـة التى اتفقنـا عليها للقيام بالرحلة .

تبعد الواحة التى تقع على مرتفعات الفيوم ، والتى يشار اليها فى كل الخرائط القديمة باسم واحة برفا Oas's Parvs بنحو مسيرة ثلاثة أيام ونصف اليوم الى الجنوب الغربى للمدينـة ، وهى عبـارة عن واد صغير يوجد به عديد من ينـابيع المياه الحارة والباردة ويتوزع سكانها على اربعة قرى ، تضم كل منها من ١٥٠ — ٢٠٠ نسمة ، يزرعون الكثير من اشجار النخيل وهى التى تشكل تجارتهم الرئيسية ، كمـا يزرعون الأرز والذرة وبعض أشجار الفاكهة ، مثل اشـجار التين والموز والبرتقـال والرمـان ، لـكنهم لا يزرعون القمح ، وهم ينقلون أو يعملون على نقل ما يفيض عن حاجتهم من المواد الغذائية عن طريق عرب الكومى من البحيرة الى الفيوم والقـاهرة ويقايضونها بالأقمشة والحديد والقمح ، ولاتوجد فى هذه الواحة خيول ولا خراف ، وذلك بسبب عـدم وجود المراعى بلا جدال ، والطقس هنـاك غير صحى على الاطلاق ، اذ تحمل اليها رياح الجنوب والشرق والغرب ، وهى تجتاز مساحة شاسـعة من الرمال ، هبـات حارة ومسممة ، من نوع رياح الخماسين التى تهب على مصر ، لذلك فالنـاس هناك ذوو قامة قصيرة . وهم على الدوام مرضى ، ويبدو عليهم لأول وهلة ان صحتهم بالغة السوء .

وينبغى على المرء ، كى يتوجه من مدينـة الفيوم الى الواحة ، أن يمر ببحيرة الغرق ، ويجد على مسيرة سـاعتين ، الى الجنوب ، بئرين تسميان ريان الـكبير وريان الصغير ، ويرى بالقرب منهما مبنى يشبه قصر قارون ثم يجتاز بعد ذلك ، وباتجاه الجنوب الغربى ، ولـمدة يومين ونصف اليوم ، صحراوات جرداء لا أثر فيها لمياه أو خضرة .

كان على أن أقوم بهذه الرحلة مع خمسين من العرب ، يقلهم خمسة وعشرون هجينا ، يحمل كل هجين منها من الطعام والشراب مايكفى راكبيه وما يكفيه هو نفسه، وهو الذى يعبر كل الصحراء دون أن يشرب ، ابتداء من بئر الريان الأخير حتى الواحة ، وقـد شرب الرجال من البحيرة . وعند بئرى الريان ، حيث لم يملئوا الا قربة بالغـة الصـغر لكى يخففوا من حمولة الجمال ، ولذلك فقد كانوا يكتفون بشربة واحـدة فى اليوم ،

وكان علينا ،الشيخ علي وانا ، ان يمتطي كل منا حصانه ، وكان ثمة جملان يحملان لنا الأمتعة والمؤن ، وثلاث قرب من المياه ، لكل حصان قربة فى حين خصصت لنا نحن الاثنين ، القربة الثالثة .

أما بخصوص واحة آمون ، والتى تعرف باسم واحة سيوة ، فان الطريق اليها تقع الى الغرب منقصر قارون ويقتضى الأمر من المرء أنيصعد الجبل الى اليسار ثم ينجه على الدوام باتجاه الغرب ؛ وتفصل بين هاتين الواحتين مسيرة سبعة أيام ونصف اليوم ، لكن الأمر لايستغرق أكثر من عشرة أيام اذا بدأت الرحلة من مدينة الفيوم ، ويعثر المرء بعد مسيرة أربعة أيام على بحيرة من المياه العذبة تسمى مجرارة ، وتقع هذه البحيرة فى مكان متوسط بين الواحة ومدينة الفيوم ؛ وقد نستطيع أن نستخلص أن هذه البحيرة تقع داخل منخفض يتصل بمنخفض الواحة ؛ وبعد ثلاثة أيام تصل الى بئر من المياه المالحة تسمى هيجة ؛ وبعد ذلك بيومين نلتقى ببعض الأكواخ المأهولة . ثم يصل المرء فى النهاية ، فى اليوم التالى : الى سيوة .

وخلال هذه الرحلة ، تكفى قربة رجلين لمدة أربعة أيام ، وتكفىقربة واحدة فى اليوم لكل حصان ، فى حين تشرب الجمال عند البحيرة، ثم عند بئر الهيجة ، ثم سيوة ، لكنها لا تشرب مطلقا فى المسافة التى تفصل بين محطة واخرى .

قمت بتقدير المسافات فى هذه التفاصيل بعدد أيام السير . وقد حاولت فى بعض الأحيان أن أتبينها بطريقة أكثر تحديدا ، لكن الأمر على الدوام كان مستحيلا ، واذا سألت كم فرسخا يقطعها المرء منذ بئر الريان حتى الواحة ؟ كان العرب يردون على دائما : فرسخ واحد فقط . وحين اطلب التفسير يقولون : ان الناس فى الصحراء لايقيسون المسافات على نحو ما يفعلون فى البلدان المزروعة ، حيث الفراسخ المعدودة هى على الدوام المسافة بين محطة واخرى ، لكننا فى الصحراء نحسبها بالزمن، ومع ذلك فلو اننى سألتهم : « اذن فكم ساعة تنقضى .. » لأجابوا : « يتوقف هذا على طول اليوم » ، ذلك أنهم يقدرون المسافة الزمنية بين شروق الشمس وغروبها باثنتي عشره ساعة ، مهما يكن الفصل من العام

مما يجعل المسافة التى يقطعونها فى الساعة أمرا يصعب تحديده بشكل مطلق .

قدم العشاء ، فوضع نهاية لهذه المناقشات الطريفة التى دارت بينى وبين أبى صالح وعربانه وابنائه لأكثر من ساعتين ، وبعد ذلك افترقنا ونحن راضون تماما ، كل منا عن الاخر ، مع وعد متبادل من كلينا بأن نلتقى عما قريب . لكن هذا الوعد لم يقدر له ، للأسف ، أن يتحقق على الاطلاق ، فقد قطعت الأحداث كل مشروعاتى ، ولم أر بعد ذلك ابدا هذا الشيخ الطيب الذى كنت أكن له — كشىء طبيعى — عاطفة قوية .

رحلنا من جديد ، الشيخ على وأنا ، من المنيا فى الساعة الواحدة، متجهين نحو مدينة الفيوم باتجاه الشمال الشرقى ، ومررنا بقرية الجعافرة، على مسيرة نصف ساعة ، تاركين دفنو عن يميننا ، وبعد ربع الساعة وصلنا الى العتامنة ثم الى اطسا ، وهى قرى متقاربة فيما بينها ، وهناك اتخذنا الطريق بين أبى صير عن يميننا والمعصرة عن شمالنا ، واجتزنا الصوافنة ، ومررنا من جديد بالقرب من ابجيج ، فدخلنا المدينة فى الساعة الثالثة والنصف بعد أن راعينا أن تسير الخيل بأقصى سرعتها ابتداء من المنيا .

لقد أمكن للجولة الاستطلاعية التى قمت بها للتو ان تدعم فكرتى حول نظام الرى فى الفيوم ، ومع ذلك ، فلكى نشرح جيدا هذا النظام ، ولكى نوضح كيفية ارتباطه بما يذكره ، كل المؤلفين القدماء ، فقد كان من اللازم وجود معطيات دقيقة ومحددة حول علاقة كل مناطق الولاية بنظام النيل وبتربة وادى مصر : وكنت فى هذا الصدد انتوى أن أقوم بعملية مسح ابتداء من النيل حتى قرية هوارة الكبيرة ، وأن اقيس مسقط تناطر هذه القرية ، وأن أواصل عملية المسح بعد ذلك حتى بركة قارون ، من جهة ، الى بحيرة الغرق من جهة أخرى ، لكننى تلقيت بعد عدة أيام الأوامر بأن اتوجه الى القاهرة ، ومن هناك الى دمياط، للقيام بمشروع شق طريق بين الصالحية والاسكندرية ولقد حدثت رغم ذلك عراقيل مناخية اعاقت تنفيذ هذا المشروع ، مما سمح لى أن آمل بان أواصل من جديد عملياتى بالفيوم ؛ بل لقد حصلت بالفعل على تفويض بالعودة الى هناك ، وأوشكت على الرحيل عند حوالى منتصف شهر

منتور (أول مارس ١٨٠١) فى صحبة الجنرال دماس Damas الذى عين قائدا للولايتين (بنى سويف والفيوم) ، لـكن قدوم الانجليز ، ثم ما تلى ذلك من رحيلنا عن مصر ، قد وضع نهاية لكل أعمالنا فى هذه البلاد .

خاتمـــة

على الرغم من كل ذلك ، فان ما شاهدته يكفى لالقاء ضوء كبير على موضـــوع الموقع الحقيقى لبحـــيرة موريس ، وشـــكلها ، وامتـــدادها ، واستعمالها ، ويتفق النـــاس جميعا حول نقطة واحـــدة ، هى أن بحيرة موريس كان لها شكل البحر الواسع ، وانها كانت لوقت طويل ذات نفع كبير فى استيعاب مياه الفيضانات بالغة العلو ، وفى رى وادى مصر عند انخفاض مستوى النهر ، لـكنهم يختلفون فقط حول وضع هذه البحيرة، كما انهم يتشككون فى كون هذه البحيرة من صنع الانسان نظرا لمساحتها الهـــائلة .

وقد انفق البعض جهده ، تبعا لهذا النص من هيرودوت . « وتوجد بحـــيرة طويلة تتجـــه من الشمال الى الجنوب » فى البحث عن بحـــيرة موريس هـــذه فى ترعة تتجه نفس الاتجاه ، وحيث شاءوا لها أن يبلغ محيطها ٣٦٠٠ غلوة ، نفس المســـافة التى يحددها هـــذا المؤرخ ، وحيث لايستطيع احد ان يعثر على ترعة بهذا الطول فى ولاية الفيـــوم ، فقـــد اتجهوا ببحـــوثهم الى ولاية بنى ســـويف حيث ظنوا انهم قـــد عثـــروا عليها هنـــاك .

وعلى العكس من ذلك ، فان آخرين أوقفوا جهودهم فى البحث عن بحيرة موريس على بركة قارون ، مستندين فى ذلك الى الوصف المفصـــل لهذه البحيرة ، والذى نجده عند سترابون ، « ان المساحة المائية الشهيرة باسم موريس ، انما هى بحيرة باهرة ، لها اتساع وشكل البحر ، كما أن لها شواطىء تماثل شواطىء البحار » .

اما انا من جانبى ، فلن ادخل طرفا فى هـــذا النقاش الذى اصبح اليوم أمرا لا جدوى منه ، والذى حسم بشكل علمى تام ودقيـــق ، كمـــا سبق أن ذكرت ، بعد تلك الدراسة التى قام بها المسيو جوماز Jomard

فبركة قارون اليوم هى بالتأكيد بحيرة موريس الأمس ، لـكنها ، كذلك ليست ســوى قاعها ، بمعنى كلمة قاع ، والذى بلغ عمقه اقصاه بفضل التوازن القائم بين البحر وبين الميـاه التى نصب فيها كل عام ، وينتج عن ذلك أنه لا ينبغي لنـا أن نقـارن محيطها الحالى بذلك المحيط الذى ينسبه لها هيرودوت ، فقد كانت البحيرة فى هـذه الفترة ، وكـذلك فى عصر سترابون ، تغطى كلية اقليم ارسينويت ، ويقرر هـذا الجغـرافى ذلك بنص العبـارة ، وبأنها كانت تبـدأ عند الانحـدار الذى وجدته ـأنا ـ محسوسا عند قرية بيهمو ثم تمضى ـ البحيرة ـ لتلامس الجبل من الجهة الشمالية ، وقـد تأكدنا من صحة ذلك بفعل الارتفـاع الـكبير لقـرية سنورس ، التى كانت تقع فوق جزيرة ، وبسبب طبقات الأرض القـابلة للزراعة والتى خلفتها الترسيبات فوق كل الامتـداد الواقع الى شـمال البحيرة ، وتأكدنا من ذلك أخيرا بفعـل الخطوط الأفقيـة التى يرى المرء آثارها فوق طبقـات الجبل ، وبارتفاعه كله ، ويرى المرء وسـط هـذا الاتساع ، الجزر التى كان ينهض فوقها الهـرمان اللذان تحـدث عنهما هيرودوت .

كانت البحيرة تمتد بطول الجبل ، الى الغرب ، وحتى مسافة كبيرة للغاية ، ثم تعود بعد ذلك لتتجه نحو الجنوب ثم تمضى لتبلغ ذروتها عند النزلة حيث كانت تلامس الجبل الفاصل بين الفيوم ومصر .

واذا أخذنا فى الاعتبار الآن ، الامتداد الواسع لهذا التكوين فقـد لانتردد فى تأكيد مسافه الـ ٣٦٠٠ غلوة التى يوردهـا هيرودوت أو فى تأكيد مقياس مقارب على الأقل ، حيث لاينبغى علينا ان ننظر للأطوال التى يغطيها هذا المؤرخ باعتبارها دقيقة من الناحية الرياضية ، بل لقد انذرنا هو نفسه بأنه لايستطيع أن يؤكد كأمر صحيح ، امرا لم يره ، ومن جانب آخر فان علينا الا نلتزم بكل ماينقـله هو عن الآخرين ، بل ان نثق فى صـدق تفاصيل الطريقة التى يؤكد انها استعملت لرفع ركامات وانقاض الأراضى التابعة للبحيرة ، لأمر يجعلنا نلزم جانب التحفظ ، وان نضع فى اعتبارنا انه قد حصل على كل ما يقول به عن طريق الكهنة المصريين . أما سترابون ، الذى راعى اكبر قـدر من الدقة والذى لم يكن يدون الا ماهو بالغ الثقة من صحته ، فى مؤلفه الجغرافى البحت ، فقد لزم الصمت حول طول هذا المحيط الذى لم يستطع لا أن يراه ، ولا أن يقدره بدقة ،

وقد اكتفى بأن قال انها (أى البحيرة) تستحوذ على الاعجاب بحجمها ، حتى انها تشبه البحر .

أما الجزء الذى ربما تكون قد صنعته يد الانسان ، فهو الترعة التى تحمل اليوم اسم بحر بلا ماء الذى يربط مابين بحر يوسف وبركة قارون ، وهو الذى كان يقصده هيرودوت حين قال « انها تمتد من الجنوب الى الشمال » (٧) .

ولقد وجدت أن اللابرنت يقع بالضبط فى نفس المكان الذى سبق لى أن توصلت اليه ، أى على بعد مائة غلوة من ارسينويه — وهى نفس المسافة التى حددها سترابون حينما قال : « وعلى بعد مائة غلوة توجد بلدة اسمها ارسينويه » — وعند منشأ الترعة ، أعلى البحيرة بقليل ،أو كما يقول هيرودوت « على بعد ضئيل من بحيرة موريس » . وأخيرا ،فان الموروث الشعبى ، الذى شاء أن تكون ولاية الفيوم ، فيما مضى ، خليجا تكونه مياه النيل ، ثم جف واستزرع ، وأصبح يستخدم فى رى الأجزاء الواطئة من أرض مصر بفضل عناية أمير عظيم .. كل ذلك يبرهن أن ليس ثمة مطلقا اى تناقض بين القدماء ، وانهم جميعا قد وصفوا الأماكن كما نراها اليوم، أو على الاقل كما لازلنا نتعرف فيها على حالتها القديمة. ومع ذلك ، فقد يقال : كيف أمكن لبحيرة موريس أن تستخدم كوعاء يحتوى مياه الفيضان ، وخزان اثناء انخفاض مياه النيل ؟ وأجيب بأنه قد يكون من العسير ، وربما من المستحيل أن نقدم تبريرا أو تأصيلا لهذه الفكرة اذا ظللنا نحرص على الا نرى مدخل ومخرج المياه الا عن طريق نفس المنفذ ، لكن سترابون يتحدث بشكل موضوعى عن وجود فتحتين: تدخل المياه من احداهما وتخرج عن طريق الأخرى .

وعلينا أن نتذكر ان المياه تسقط فى الفيوم عن طريق هويس اقيم تحت قناطر هوارة الكبيرة ؛ وأن سرير الترعة التى تتلقى هذه المياه حجرى صرف ، ولهذا فان ارتفاعها ثابت لا يتغير . وفى فترة المد الأقصى لبحيرة موريس ، أى تلك الفترة التى اعقبت جفاف الخليج . كان مستوى

---

(٧) انظر دراسة موجزة حول بحيرة موريس ، العصور القديمة ، المجلد السادس .

الميـــاه أدنى بوضوح من مستوى أرض الاقليم . ومن جهة أخرى ، فقد شاهدنا كيف أن الترعة تتحكم فى سطح الأرض لأنها تقع على خط الذروة الذى يشكله التباعد بين منحدرين ، اذن فقد كانت المياه لا تستطيع العودة من جديد الى أرض مصر عن طريق فتحـــة هوارة الـــكبيرة ؛ فهـــذه لم تستخدم مطلقا كما يقول الأثر ، الا كخزان لتخليص مصر العليا من الكمية الكبيرة للغاية من المياه التى تضر بالأرض .

وقد رأينا فيما سبق أن الجزء الشمالى من البحيرة يشـــكل فتحـــة لوادى النيل تصـــل الى الجيزة ، فـــلابد اذن أن هـــذا الوادى قد شكل بالضرورة الفتحة الثانية كما كان يقدم للمياه ممرا فى أثناء انخفاض النيل، لكى تذهب وتروى أراضى مصر السفلى ، التى تعد أراضيها أدنى بكثير من أرض مصر العليا .

وبهذا تبين بشكل طبيعى تلك الطريقة التى كانت المياه تدخل بهـــا الى بحيرة موريس ، والتى كانت تخرج بها ، وكانت المياه بعد أن تتعرج، تتصل بفرع النيل مكونة جزيرة هرقل Hercleotique من ناحية الهضبة الليبيـــة ، وعن طريق بحر يوسف ، تروى أولا اقليم أرســـينويت ، ثم تمضى لتصب فى البحيرة الواسعة التى كانت تغطى هذا الاقليم عن طريق الترعة التى تتجه من الجنوب الى الشمال مارة أسفل اللابرنت . كانت هذه البحيرة تحتجز مياه الفيضانات الـــكبرى ؛ أما فى أثنـــاء انخفاض النهر ، فـــكانت الميـــاه تتجه بالمثل جنوبا وشمالا نحو ممفيس عن طريق ترعة أخرى ، لتروى أراضى مصر السفلى ، التى يسمح انخفاض سطحها بأن تتجه المياه اليها .

تلك هى نتـــائج أعمـــالى التى حصلت عليها من البحث عن الأماكن أثنـــاء الوقت الضئيل الذى قضيته فى ولاية الفيوم ، واننى لشديد الثقة بأن العمليات التى كنت أنتوى القيـــام بها بعـــد ذلك كان بمقـــدورها أن تمدنى ببراهين رياضـــية للرأى الذى أقدمه ، واننى لآسف اننى لم أستطع أن أتمها ، وأتمنى أن يحظى أحد الأوربيين ذات يوم بثقـــة أكبر من حكام وسكان هذه البلاد ، علّه يستطيع القيام بها بنجاح .

وحيث أن التفاصيل التى وعدت بايرادها فى ثنايا هذا الوصف عن عرب الفيوم وبنى سويف ، يمكن أن تصـــبح ، فى حالة تحقق افتراض كهذا ، ذات نفع كبير ، فقد اخذت على عاتقى ـــ كواجب ـــ أن أقـــدمها حتى احقق كافة ما كنت اتمنى من معرفة تدور حول هذه المناطق الهامة .

قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية الفيوم

أسماء القبائل: الاسم العام	أسماء القبائل: الأسماء الخاصة (الفروع)	أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال: خيالة	عدد الرجال: مشاة	عدد: [illegible]	عدد: [illegible]
السمالو (أبو صالح هو الشيخ الأكبر للقبيلة)	كوم الوزازى	كرامنى	شرق التوتون	٧٠	١٠٠	١٦٥	١٠٠٠
	المناسى	سالم جوربة	أبو جندير	٤٠	٧٠	١٦٥	١٠٠٠
	المعربين	حوت، الحاج محمد	سنورس	٦٠	١٠٠	١٤٠	١٠٠٠
	الروملة	محمد عبد الله	دفنو	٣٠	٧٠	٥٥	٤٠٠
	كامل الجودات	رحيم	التوتون	٧٠	١٥٠	١٥٠	١٠٠٠
	حواطة	تقى الدين حسين سليمان سيده داود نصر يوسف	هلية العدوة المعصرة المصلوب	١٢٠	٢٠٠	٢٢٠	١٥٠٠
	الفرجان	سيد ديله جندودة أبو القاسم جبلى عبد الله أبوزيد عبدالله مبارك	سرسنا جبلة مطرطارس باهى ـ آمون ترسا الزاونى	١٠٠	٢٠٠	١٧٠	١٠٠٠
		. . . . . .	الروضة	١٥	٢٠	٢٠	١٥٠
			المجموع	٥٠٥	٩١٠	١٠٨٥	٧٠٥٠

قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل		أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال		عدد	
الاسم العام	الاسم الخاص			فرسان	مشاة	جمال	[illegible]
الضعفا	أولاد حميدة	عبد الأمير سالم أبو ديار	أبو صير العواونة	١٠٠	٢٠	٥٠٠	١و٠٠٠
	الوطنات	متيرد محمد جريب بليدى	قمن العروس إفوة ميدوم	١٠٠	٣٠	٦٠٠	١و٥٠٠
	أولات سعيد	موسى عيسى عباس عمر الحباني	الحمام	٦٢	١٥	١٠٠	٣٠٠
	السيدرات	أبو بكر	الحافر	١٨	١٥	٦٠	١٥٠
	القاضى	يوسف أبو ذيل عبد معيط	الميمون	٤٢	٠٠٠	٦٠	١٥٠
	نولات يزيد	ابراهيم زعيطة لطفى	صفط ميدوم	١٣٠	٣٠	٤٠٠	٨٠٠
			المجموع ...	٤٥٢	١١٠	١٧٢٠	٣و٩٠٠

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل: الاسم العام	أسماء القبائل: الاسم الخاص	أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال: فرسان	عدد الرجال: المشاة	عدد: الجمال	عدد: الخراف
السعدى	السعدنى	يوسف حماط	دنديل				
		عواد	البرج				
		عبد القادر	الدوالطة				
		عبدالله صروف	دلاصن				
		عبد الرحمن	السبسى				
		على	بنى عدى	١٠٢	٠٠٠	٨٧	٤٠٠
		الندرك	أبو صير				
		رايد	منفسط				
		حسن على الصويلى	قمن المروس				
		على رستن	كوم أدريجة				
		أحمد منصور	باها				
		وسط جيومع	الميمون				
	الفرايات	جبرة	منهرا	٥٠	١٥	٥٠	٣٠٠
	كسادوة	يوسف أبو صوين	اهناسيا المدينة	٦٠	١٠	٢٠٠	٥٠٠
	يانين	عبد ربه	الزرابى	١٧	٨	٤٠	١٠٠
	المحاليف	اسماعيل جياصى محمد ماعونى	منهر منشية الحاج	٣٥	٥	٤٠	١٠٠
الكولى	كمسى	محمد عبد المجيد كسوم عمر	ميانة	١٢٠	٤٠	٢٠٠	٥٠٠
		محمد صقيرة موكر	نسا الدويك	٩٠	١٢	١٠٠	٤٠٠
	العلم	يوبيط على ابراهيم عيد مختار	مزورة	٤٠	—	١٠٠	٥٠٠
	السنانجة	—	صفط رامشين	٣٥	—	٦٠	٢٠٠
	أبويه	سليمان أبو ناى	سمسطا	٣٠	—	٦٠	١٠٠
			المجموع	٤٤٧	٩٠	٨٥٠	٢٧٠٠

(تابع) قائمة بالقبائل العربية التى تقطن ولاية بنى سويف

أسماء القبائل: الاسم العام	أسماء القبائل: الاسم الخاص	أسماء شيوخ القبائل	القرى والمناطق التى يقيمون بها	عدد الرجال: الفرسان	عدد الرجال: المشاة	عدد: الجمال	عدد: المواشى
المسارجة	المسارجة	أحمد أبو دياب محمود جيومع حسن أخميط	زاوية الوالى أبو شربان الشوبك	٨٠	٣٠٠	٥٠	٢٠٠
المحاريث	فرجان	أحمد حمزة	—	٣٠	٤٠	٣٠	١٠٠
	أولاد حيينة	سفع عمر	طورفة	٦٠	١٠٠	١٠٠	١و٥٠٠
	الجمور	محمد	شرشة	٢٠	٦٠	٣٠	٥٠٠
	الحزاى	زيد	العزبة	١٠٠	٣٠	٢٠٠	٢و٥٠٠
	أولاد جيادر	أزيصة	—	٣٠	٢٥	٣٠	٨٠
	زعونة	عبد الله	جوادة	٣٠	٢٠	١٥	٦٠
	الجمايدة	إبراهيم يوسف حسن تركى	داقوف	٢٥	٨٠	٤٠	٢٠٠
	المرج	منصور أحمد سليمان خضرى	كوم والى	٣٠	٦٠	٣٠	١٠٠
	الأسمار	عمر شاكر عبد الله حسن	مرزوق	١٥	٣٠	٢٠	١٥٠
	الدهامسة	ابن حسن أبو موسى سليمان أبو سيجر	برماشة صفانية	٣٠	٦٠	٤٠	٦٠٠
	الجمود	حسن	كوم السعل	٢٠	٥٠	٣٠	١٠٠
	تيبناط	الحاج بركة	الشيخ مسعود	٣٠	١٠٠	٦٠	٦٠٠
			المجموع	٤٢٠	٦٥٥	٦٢٥	٦٤٩٠

الدراسة السادسة :

العرب والعربان في مصر الوسطى

إ. جومار

● العنوان الأصلى للدراسة هو :

ملاحظات حول العرب فى مصر الوسطى

مكنتني الرحلات التي قمت بها ، وكذلك تلك الفترة التي قضيتها في ولايات مصر الوسطى (١) ، من ملاحظة طباع وعادات العربان ودراسة النظام الداخلي للقبائل ، سواء منها تلك التي اقبلت على احتراف الزراعة منذ وقت طويل او فقط منذ اجيال عدة ، وسواء تلك التي لاتزرع الأرض أو حتى تستزرعها ، والتي لاتعمل ، عندما لاتكون في حالة حرب، الا في قيادة القوافل ورعى الماشية والجمال والماعز . وينبطق هذا التقسيم للعربان الى طبقتين كبيرتين على كل أولئك الذين يقطنون مصر منهم أو يترددون عليها . وسوف أستخدم هذا التقسيم في مذكرتي هذه للتعريف بالقبائل التي قمت بزيارتها ، واننى بهذه المناسبة لأحذر من أن هذه الملاحظات ، على الرغم من كونها ذات طابع عام ، انما هي بالغة الخصوصية بالاقاليم التي تتحدث عنها .

ولست أدعى اننى اقدم هنا لوحة كاملة لتقاليد العربان ، اذ يقتصر عملى على ان اقدم تقريرا بالملاحظات التي أضمن صحتها اذ قمت بها ودونتها في نفس أماكنها حيث توفر لى الوقت والأمن الكافيان ، أكدهما

---

(١) تتكون مصر الوسطى من ولايات الجيزة ، والبهنسا ، والفيوم، واطفيح ، والأشمونين ، وقد اخذت الثانية والأخيرة اثناء الادارة الفرنسية اسمى : بنى سويف ، والمنيا ، على اسم مدينتين رئيسيتين كان يغرقهما الفيضان ، بينما كانت الأماكن الداخلية في منأى عن هذا الفيضان لوجودها في الداخل بعيدا عن مجرى النيل . ويتفق موقع هذه الولايات الخمس مع موقع اقليم هبتانوميد Heptanomide الذي كان يضم مدن : ممفيس Memphis اكسيرينشيس Oxyrynchus وهيراكليوبوليس Heracléopolis وافروديتو بوليس Aphroditopolis وانتينوى Antinoé وكينوبولبس Cynopolis وهرموبولس الكبرى Hermopolis magna

وفي أثناء السنوات ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، عبرت هذه البلاد وجمعت هذه المذكرات التي تنطبق اكثر ما تنطبق وبوجه خاص على ولايتى أطفيح والأشمونين .

ومن الضرورى أن نتذكر ذلك ، للاحاطة بالظروف التي كتبت فيها هذه المذكرة .

اننى كنت مصحوبا فى جولاتى على الدوام بفرسان من نفس هذه القبائل، او اننى كت اقيم بينهم . وســـوف أولى اهتمامى بشكل اساسى ،بالعربان فى علاقاتهم المعتـــادة مع البلاد ، وعلى ذلك ، فان هذه الملاحظات — مع انها قـــد تبدو للوهلة الأولى منعزلة — سوف تساهم فى تقـــديم ملامح لهذه الأمة الفريدة ، وفى خدمة تاريخها .

وحيث يمارس العرب المزارعون فى مصر نفوذا كبيرا ، وحيث أن طباعهم وعاداتهم ليست معروفة لنـــا جيدا ، فسأبدأ بما يوضح احوالهم، ثم أعرض بعد ذلك ملاحظاتى عن العرب البدو الرحل وهم فى وقت معا محاربون ورعاة . وينبغى أن تنقسم الطبقة الأولى الى طبقتين اخريين : الاولى وهى التى استقرت فى مصر منذ مدة طويلة وهى من اصل آسيوى، ويزرع هؤلاء الأرض بأنفسهم ، ويسكنون المدن التى تقع فى غالب الأحيان على شواطىء النيل ، أما الأخرى فلم تعمل بالزراعة الا منذ فترة قريبـــة فتتكون بصفة اساسية من عرب قدموا من شمال افريقيا ، وهؤلاءالأخيرون يشغلون جزءا من ارض الشـــاطىء الأيسر « الغربى » وهم فى غالبيتهم يقيمون تحت الخيام ويستزرعون أرضهم بواسطة الفلاحين اى ابناء مصر، ولهؤلاء وأولئك مقر ثابت ويخضعون للضرائب .

الفصل الأول

العرب المزارعون

١ ـ القبائل التى استقرت فى مصر منذ زمن بعيد :

هناك عائلات عربية بدأت الزراعة فى مصر منذ دخول الاسلام ، وهناك اخرى أقبلت على احتراف الزراعة فقط منذ دخول الأتراك ، وقد زاد تعداد هذه العائلات بشكل كبير . ولقد طور هؤلاء الزراعة والصناعات الزراعية بأكثر بكثير مما صنع الفلاحون ، الا تدار أرضهم بعناية اكبر ، وهى كذلك افضل ريا ، كما أن قراهم أكثر ازدحاما بالسكان وبشكل عام فانه يكاد يعود الى العرب فضل زراعة وصناعة السكر فى مصر الوسطى . وحيث انهم يكادون يسكنون جميعا شاطىء النيل الأيمن « الشرقى » وهو ضيق الاتساع بعض الشيء حيث يحدق به الجبل ،فانهم لم يدعوا نقطة واحدة لم يزرعوها بدءا من مجرى النيل وانتهاء بسفح الصخور . ولهذا نجد لهذه القرى ملمحا خاصا يميزها بسهولة على القرى الأخرى ، ويمتلك السكان الخيل والجمال بأعداد كبيرة ، كما كان يفعل آباؤهم من قبل أن يقبلوا القيام بأعمال الزراعة وقبل امتلاكهم بالتالى لمراع وفيرة ، ومع ذلك فعند اول اشارة للحرب يرى المرء هؤلاء المزارعين وقد تحولوا على الفور الى فرسان يتسلحون بالحراب شأن البدو ، بل ويعسكرون فى السهول الى جوار مساكنهم الخاصة .

ومن السهل أن نميز هؤلاء عن الفلاحين عن طريق تقاطيع وجههم وطباعهم وكل خصالهم ، فلقد استمر الدم العربى يتدفق فى عروقهم دون اى اختلاط حتى أنك لا تستطيع أن نميز ملامحهم عن ملامح العربان

المحاربين ، فما أن يمتطوا الخيول ويتلفعوا بالبرنس (٢) حتى نعـــدم كل وسيلة للتعرف عليهم . فقد احتفظوا بخطوط الوجه ، وبخاصـــة بالعينين الصغيرتين اللامعتين اللتين تميزان هذا الجنس ، وان كانوا قد احتفظوا فوق كل شيء بروح الجشع والضراوة والشجار والمماحكة .

وجيرة كهذه لا يمكن أن تكون بالنسبة للفلاحين سوى كارثة ، فهم يجورون باستمرار على اراضى الأخيرين ، مرة تحت الادعاء بأن النيل قد اكل جزءا من أراضيهم وأن عليهم ان يسعيضوا عنهـــا من أراضى الشط الآخر من النهر ، ومرة اخرى بادعاء حقوق قـــديمة مزعومة قـــد تعـــود حسب اقوالهم الى عشرة اجيال ، واخيرا فانهم عندما لايجدون ذريعة يمكن أن تسعفهم فى جورهم هـــذا ، فانهم يركبون خيـــولهم ويســـتولون بقوة السلاح على الأراضى التى تناسبهم . وليس ثمة مثال واحد على أن محاولة من هذه المحاولات لم تلق نجاحا ، واذا حدث أن اســـتنفرت بعض القرى أبنـــاءها لمقاومتهم بالقوة فانها تدفع ثمن ذلك باهظا ، ويجد العربان أفضل دعم لادعاءاتهم فى قوة سلاحهم وكثرة تعـــدادهم عن الآخرين .. وهكذا يعيش الناس فى مجاورتهم فى خوف لاينقطع وعلى مر الأيام يتناقص سكان القرى المحيطة بهم حتى تهجر تماما .

وتبنى الأخصاص التى يسكنونها بشكل ردىء . واذا ماأردنا الدقة فاننـــا نقول بأن هذه ليست فى غالب الأحيـــان سوى أكواخ ، فى حين يجد المرء فى قرى الفـــلاحين على الدوام بيوتا مناسبة وجيدة البناء (٣). ولا يرى فى قرى العربان بيوت للمماليك ؛ فهؤلاء لا يذهبون مطلقا للاقامة بين العرب وهم لا يحصلون الضرائب من هناك الا بمشقة بالغة مع ترك تقديرها على الدوام لادعاءات مشايخ هذه القرى ، لذلك يمكن القول بثقة بأن المماليك لم يكونوا يحصلون على ضريبـــة عن كل مصر ، ولنفس هذه

---

(٢) رداء أبيض اللون ، مزود بغطاء للرأس ، ومصنوع من صـــوف تتفاوت درجة نعـــومته يغطى به العربان كل جسمهم فيما عـــدا الوجـــه والأطراف .

(٣) ومع ذلك فهناك قرى عربية مثل بنى حسن وبرشة وقرى أخرى مبنية على نحو طيب .

الأسباب لاقى الفرنسيون كبير عناء فى تحصيل الضريبة من كثير من هـذه القرى ، التى لم تكن تدفع ضرائب على الاطلاق لأى شخص .

ويكاد يكون سكان كل قرى الشط الأيمن للنيـل فى ولايات أطفيح واشمونين ومنفلوط من العرب القدامى الذين ينتمون الى قبيـلة تسمى المعطيات : وكثير من هؤلاء لم ينخرطوا فى الزراعة الا منذ عهد على بك ، كما انهم لم يستقروا فى وادى الطير وطهينة الا منذ عشر سنوات . وتستمد القرى المعروفة باسم العمارنة اسمها من اسم جدها ، وهو عربى قـديم يسمى عمران ، قـدم من بلاد الحجاز الى مصر ، فخرب تلك المدينة الكبيرة الواقعة بين الحواطة والتل وبنى من حولها بعض المساكن . ولقد تصارع أبنـاؤه لسنوات طويلة على امتلاك الأراضى الواقعة على شاطىء النهر ، ولا يزال أحفـاد هؤلاء حتى اليوم متنازعين حول الأمر نفسـه . وقـد شاهدت بنفسى شجارا قام بين سكان بنى عمران وسـكان نزلة سـعيد بسبب اختطاف احدى السيدات على يد واحد من افراد احـد الفريقين : وقد قتل مدبر هذا الشجار ، ووضع موته حدا للمعركة ، فقليل من الدم المسفوح يهـدىء فى العـادة كل هذه الحروب العائلية لفترة من الزمن على الأقل .

وليس ثمة قرية عربية الا وبها عديد من المشـايخ ، ويعيش هؤلاء الشيوخ عادة فى شقاق فيما بينهم ، وبذلك تبدو قراهم منقسمة الى اجزاء عديدة متميزة وسرعان ما تؤدى العداوة التى تسود بينهم الى الاقتتال ، وينساق الى خوض هذه المعـارك الأهل والأصـدقاء ، ويحدث أن يموت احـدهم بعد وقت يطول أو يقصر ، وتضطر اسرة القتيل الى الفرار مع جزء كبير من السكان ، ولكن الى اين وقـد انتزعت عنهم كل اراضـيهم ومنشآتهم وعقاراتهم ؟ لـكن لا تظنن بهم الحيرة ، فلسوف يتجهون الى مسافة فرسخين من ارض المعركة ، ويقيمون فوق اراضى الفـلاحين اما باستخدام القوة الصريحة عندما يكون المهزومون بعد اكثر قوة ممـا يلزم لصـدهم عن هذه الأراضى ، وإما عن طريق المخاتلة عندما يعدون بهزيمة خصومهم وتعويض الفـلاحين عن اراضيهم ، بتلك التى سيستولون عليها . وهكذا رأينـا مصر ، عاما بعد عام ، تغص بهذه القرى الصـغيرة التى ليست سوى اكداس من الأكواخ ليس بها نخلة واحدة ، وتحمل كل منها

اسم الشيخ العربي الذى أسسها ، ومن اللافت للنظر انها تسمى نزلة أو نزل وهى كلمة نعنى النزول . انها اذن نوع من المستوطنات تدين بنشأتها ككثير غيرها الى الغزو واستخدام العنف ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد اسماء نزل ابو جانوب فى ولاية اشمونين أو المنيا ونزل المطاهرة فى اطفيح ونزل بنى حسن (٤) وثلاثين نزلا آخر ، وهكذا تستمر مشاحنات القرى العربية خلال الأجيال حيث هناك ماينبغى الحصول عليه ، سواء كان ذلك لصالح الحزب المنتصر ، أو كان ذلك لصالح الحزب المهزوم .

ومعظم الجزر ذات الأهمية مملوكة للعرب . ولكن اذا ماعدنا الى اصل هذه الملكية فسنجدها قد قامت على الاستبداد والظلم ، اى انه تحت الادعاء بأن النهر قد أكل أراضيهم وأن من حقهم الحصول على شواطىء الجزر المقابلة متذرعين بذلك المثل المصرى القائل بأن النهر يرد من جهة ما اخذه من جهة اخرى ، ثم بعد ذلك يتوغلون باطراد فى داخل هذه الجزر ثم ينتهى بهم الأمر بطرد سكانها القدامى ، واعرف على ذلك امثلة عديدة، ولكن اكثرها اهمية بلا جدال هو مثال جزيرة الزعفرانة الكبرى التى كانت ملكا لقرية منشية دعبس (٥) والتى انتزعها سكان قرية الشيخ تمى وسكان قرية بنى حسن ، وهما قريتان عربيتان تقعان فى مواجهتها ، وانتزعوها حديثا من فلاحيها دون مراعاة لأبسط قواعد الشكلية ، وحيث كان الأمر سوف يستغرق كثيرا فى تبين الحدود القديمة التى نماها الفيضان وتنظم حقوق كل طرف بالتالى ، فقد سلك العربان الطريق الأقصر وهو طريق العنف ،فقطعوا النخل المزروع بالجزيرة وخربوا بيوت القرية وقتلوا شيخ المنشية وجرحوا ابنه ومعه كثير من الفلاحين ؛ ويعيش فيها العرب اليوم ملاكا آمنين بينما هى تعد واحدة من اجمل جزر النهر .

وتضع القرى العربية أيضا يدها على الأراضى التى تتاخم الشاطىء الأيسر للنهر ، وقد حصلت على هذه الأراضى بنفس الطريقة التى حصلت

---

(٤) عقب المعارك التى نشبت فجأة فى بنى حسن ، والتى جعلت اهاليها يتركونها منذ خمسين عاما ، كون الأهالى اثنين من هذه النزل او القرى التابعة تحت قيادة أبو عمر . وقد انفرط عقد هذين النزلين من تلقاء نفسيهما اذ اتجه سكانهما الى الشط الأيسر ليكونوا هناك قرية تسمى كرم أبو عمر .

(٥) تقع على بعد حوالى اربعة فراسخ الى الجنوب من مدينة المنيا.

بها على اراضى الجزر بلا جدال ، وتمتد هذه الملكيات الى ربع الفرسخ داخل الأرض ، وهناك فوق هذه الأراضى الرملية ، التى يغرقها النيل ثم ينحسر عنها على التوالى يزرع العرب التبغ والبطيخ وصبغة النيلة كما يزرعون قصب السكر ، كل ذلك بقصد تدعيم حقوقهم فى هذه الأراضى. هكذا يرى المرء اطراد زيادة ممتلكاتهم فى مصر ، ولست اشك فى انهم سوف يستولون بطريقة غير محسوسة على اكبر مساحة من الأرض اذا لم تضع الحكومة (٦) حدا لغزواتهم ، واذا لم تسن قوانين محددة بالنسبة لحدود الأراضى ، وفى الواقع فاننا نرى ان هذا السلوك الاستبدادى للعرب المزارعين سيؤدى بهم أن يصبحوا سادة لمجرى النيل ، اى لتلك القطعة الأكثر اهمية من ارض مصر بالنسبة للتجارة ولشئون الدفاع عن البلاد ، بل لقد اصبحوا كذلك بالفعل مع بعض التحفظ حيث يوجد فى قراهم اكبر عدد من النوتية « المراكبية » والعدد الأكبر من الصنادل والقوارب من كل نوع ، ومع ذلك فنحن لم نر الا فى عدد قليل من هذه القرى قوارب مبنية ، وقد يكون علينا ان نضيف بهذا الصدد بأن بقية انواع القوارب التى لديهم تأتيهم عن طريق السلب .

وفى بعض الأحيان يستولى سكان الشاطىء الايمن على قطعة من الأرض تقع على الشاطىء الآخر ويزرعونها دون أن تكون لهم هناك قرى، وفى أحيان اخرى يبتنون هناك لأنفسهم دون أن يكون ثمة ارض لهم، وفى هذه الأحوال يزرعون أراضى القرى المجاورة ، لكنهم على الدوام لا يحصلون لأنفسهم على هذه المساكن الا باستخدام العنف ، ويحدث هذا عندما تجرد أسرة أو اكثر من أسرة من ارضها وفى هذه الحالة يعبر هؤلاء النهر بلا تردد ويبتنون لأنفسهم فى عجلة اكواخا تتحول شيئا فشيئا الى قرى ، ويستأجرون من جيرانهم بالقوة بعض أراضيهم مع احتفاظهم بحق املاء الشروط .. وهكذا .. ففى الوقت الذى يدفع فيه الناس فى بلاد اخرى ثمن اقامتهم ، فان العرب هنا يبتزون أولئك الذين يستضيفونهم .

---

(٦) اقصد بكلمة حكومة هنا حكام مصر الذين يحكمونها حسب انظمة أو مؤسسات البلاد كما سلك الفرنسيون اثناء حملتهم ، وكماسلك المماليك انفسهم ، ويستطيع القارىء الذى قد يرغب فى الحصول على معلومات خاصة حول حكومة مصر ان يعود الى الدراسات الخاصة بهذه المادة .

وقد قابلت من شيوخ القرى العربية بعض الرجال لا يشاركون قومهم هذا الميل نحو السرقة والعنف ، على سبيل المثال فى قرى وادى الطير وزاوية الميتين بالقرب من المنيا ونزلة نوير وأماكن أخرى . وقــد قدمت بعض هذه القرى خدمات للجيش الفرنسى حيث يمتلك سكانها وسائل أوفر مما يملك الفلاحون سواء فى الخيول والجمال أو سواء فى العلف ، وفى نفس الوقت فبالعناد الآخرين واصرارهم على رفض اداء الضريبة ، وكم قتل هؤلاء من جنودنا !

وحيث اننــا لا نعرف جيدا الـكيفية التى تغيرت بها ملــكية أراضى مصر عند دخول العرب ، فقد يجوز لنــا أن نستنتج ان الجزء الأكبر من الجيش العربى بعد الاحتلال الكامل للبلاد قــد عاد الى آسيا وان جزءا منه بعد أن سرح ـــ قد انتشر كثير من افراده فى مصر وعاشوا على السلب والسطو ، ولأن هؤلاء كانوا اضعف من أن يسيطروا على الوادى الكبير فقد استقر بهم المقام على الشاطىء الأيمن حيث تحدق الصخور فى غالب الأحيان بالنهر ، وهناك أخذوا يتقدمون خطوة بعد خطوة من الرمال حتى بلغوا الأراضى المزروعة ، وبعد ذلك اصبحوا مزارعين ، ثم بشكل غـــير محسوس ، ملاكا لقرى هذا الشاطىء بعد أن طردوا سكانها بفعل الخوف والرهبة من العدو والسلاح .

قلت ان هؤلاء المزارعين « العــرب » هم الأحسن تسليحــا . وفى الواقع فان قراهم تهيىء وفرة كبيرة فى البنـــادق والطبنجات والمسدسات والسيوف .. الخ .. لــكن مهارتهم كبيرة فى اخفائها ، وهناك ســـلاح نادرا مايتركونه ، وهـــوماينقص فــلاحيهم ـــ اقصـــد بذلك تلك الحربة القصيرة ، يضعها على الدوام الى جانبهم الفلاحون البسطاء بل واكثرهم فقرا ، وهم الذين يعملون فى ري الأراضى ، وعندما يتجمع هؤلاء بأعداد كبيرة للقيام بعملهم ، الأمر الذى يحدث غالبا فى الشتاء ، يرى المرء على راس الترع غابات من الحراب المرشوقة بالأرض ولا يمكن تصور أن هذا السلوك يقصد من ورائه الذود عن املاكهم ، اذ ان هؤلاء لايكادون يملكون شيئا ، بل ولا يمكن تصور أن ذلك يتم بقصد حماية ملابسهم لأنهم يذهبون الى عملهم شبه عراة ؛ لكن عادة أن تــكون مسلحــا هى عادة مطبوعـــة عند العرب .

وعندما تكون لك مصالح ينبغى ان تسويها معهم ، سـواء كان ذلك مع كبارهم أو مع أبنـاء الطبقات الدنيـا منهم فستلمس فى اسـتقبالهم فى البداية شيئا من الفتور والاستخفاف والصمت المتصـنع ـ أما اذا حـدث أن ابتسموا لك ، فلابد أنهم بذلك يقصدون خـداعك ، فالـكذب عادة متأصلة فيهم ، وبخاصة فى علاقتهم مع الفلاحين والأوربيين ، ومهما يكن كذبهم هـذا مطبوعا ، فانهم لا يمارسونه طواعية ، وبهذا القدر من الطبيعية والنجاح ، الا اذا كانوا بصـدد التعامل مع هؤلاء الآخـرين . ويتحدث الناس كثيرا عن فضـائل العرب ، وعن صراحتهم ، وعن العقيدة الدينية التى تدعم كلمتهم ، وعن ميلهم الى اكرام الضيف .. لكن أيا يكن الأمر من هذه المزايا ، فان عليك أن تبحث عنها فى مكان آخـر ، وليس عند هؤلاء العرب الذين يقطنون مصر ، فهـذه الفضـائل ، عنـد هؤلاء لاتكون مطلقا على حساب مصالحهم الخاصة ؛ فالزيف والرياء والكذب ، هى أسلحتهم المعتادة ، وليس ثمة مايفوق مالديهم من تصنع وعنف ،حين يريدون تنفيذ مآربهم ، وبصفة خاصـة عندما يتعاملون مع آخرين ، من غير العرب .

ووقت تصنيع السكر ، يتعرف المرء من بعيد على القرى التىتحدثت عنها عن طريق صوت الطواحين ورائحة ثفل القصب ودخان المداخن ، أما عن قرب فانك تستطيع تمييزها على الدوام وفى كل الفصول ..وكأمر مؤكد ، عن طريق ملامح السكان وتقاطيعهم . ففى الواقع ، فانك ستجد فى أول رجل تقابله هذه العيون اليقظة التى ليست الا للعرب . وعندما يبرز فى قراهم رجال لا يعرفونهم فان تماسكهم يضطرب كما يحدثللصوص اخذوا على غرة ، ومع ذلك فان حيطتهم تبلغ درجة لا يمكن تصـديقها ، وعندما يبلغهم نبـأ اعتزام بعض الفرق « العسكرية » المرور بقريتهم فانهم يخبئون دوابهم وخيولهم أو يرسلون بها الى الصحراء ، وعنـدما تصـل الفرق بينهم ، يحتفظون بهدوئهم ويظلون بـلا حراك ، فيما عـدا نأمات ملامحهم ، وتلك النظرات الكئيبة والحزينة التى تقذف بها أعينهم ، ولكن ينبغى أن يكون مفهوما أن هذا السلوك يحدث فقط من أبنـاء الطبقـات الدنيـا وان كنت قـد شاهدت شيوخا يمكن أن ينطبق هذا الوصفعليهم . وختاما ، فاننـا اذا نحينا جانبـا هذا المظهر الخارجى وهـذا الاستقبال

المعيب ، فلابد أن نتفق على اننا كنا فى معظم الأحيان نجد فى هذه القرى مئونة اكثر بل وتعاونا أفضل مما كنا نجده فىقرى الفلاحين، وان كان الأمر فى ذلك يعود الى أسباب كثيرة منها انه يوجد فى القرية العربية مشايخ عديدون لابد أن يكون من بينهم ولو واحد علىالأقل، يتقدم الصفوف ويتعهد بتقديم المئونة المطلوبة شريطة ان يحصل على ثمنها ، ومنها كذلك أنه مع تساوى درجة مقت الفلاحين والعرب للأوربيين ، الا أن ما لدى العرب من ثروات غذائية ودواب يفوق ما لدى الأولين ، كما أن ما لديهم من وسائل فى كل ضرب أكبر بكثير مما لدى اولئك ، ومنها أخيرا أن الشيوخ فىالقرى العربيــة يبدون اكثر سطوة على مزارعيهم ، من ذلك النفوذ الذى يحوزه الشيوخ فى القرى الأخرى .

والمحصولان الرئيسيان عند العرب همــا قصب السكر ومحاصــيل الاعلاف مثل الحلبــة والبرسيم .. لأن ما لديهم من جمال وخيل وماشية اكثر مما لدىالآخرين ، ويأتى بعد ذلكالذرة والشعير والقمح والخضروات، وحيث تلقى الزراعة عندهم عنــاية أكبر ، فاننا نجد لديهم من الشواديف اكثر مما نجــد فى أى مكان آخر ، ويبــدو الرجال الذين يديرونها وكأنما يستعصون على التعب ، وهم يقتنون هذه الآلات من أجل زراعات القصب والقمح والشعير الشتوى ، وكما يولون بالمثل عناية فائقة بخيولهم .

وكثيرا ما يستخدم العرب فى زراعات الــذرة وكذا القمح نوعا من السماد يعرف بالسباخ ، وهو عبــارة عن الرماد والأتربة التى تستخرج من أنقاض المساكن القــديمة ، وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من نترات الصــوديوم . وهم ينخلون هــذا السباخ لاستخراج قطع العملة والمــداليات والأنتيكات من كل نوع والتى تحتويها عادة ، وحيث أن القرى العربية اكثر سكانا من غيرها فان من يعملون بها بهذا العمل ، اكثر ممن يفعلون نفس الشىء فى قرىالفلاحين الذين يستخدمون بالمثل هذا السماد.

ويزرع سكان القرى العربية بوفرة أشجار النخيل كما رأينا فى بنى حسن وكذلك بالقرب من انتنوى ويزرعون كذلك الكثير من أشجار الأكاسيا والنبــق . لكنى لم أر مطلقــا حــدائق فى القرى ، فالعرب لا يفعلون مالا ضرورة له حتى ولو كان بقصد المتعة ، وهم يبتنون مســاكنهم على

الدوام تقريبا على حافة الأراضى الزراعية ، أو فوق أرض لا تزال تغطيها الرمال رغبة فى الاقتصاد فى الأرض القابلة للزراعة .

وفى تلك المساحة الضيقة من الأرض الواقعة على الشط الأيمن ، حفر العرب المزارعون كثيرا من الترع والقنوات التى تأخذ ميـــاهها من النيل ، ولقد حفروها بعناية كبيرة ؛ ولا تروى أى من هذه الترع الا اراضى القريه التى حفرتها ،وهذا أمر ضرورى بالنظر الى قلة عرض الأرض هناك، لكننى لم اشاهد جسورا بين ارض واخرى واقصد بذلك جسورا كبيرة لانه نوجد جسور لا مفر منها فى حقول الذرة ، واظن ان غيبة هـــذه الجسور كانت أمرا لابد منه حتى يكون من الميسور تماما انشاء ترعة أو ترعتين بكل قرية ، دون أن يتكلف الأمر مصاريف باهظة ، ولرى الأراضى دون انتظار للمياه التى يمكن أن تجىء من القرى العليا « الجنوبية » ، وهناك سبب ثان لذلك ، وهو أن صـــيانة هذه الجسور — حالة وجودها — وقطعها واعادتها سوف تكون موضوعات مستمرة للشجار .

والصـــناعات الرئيســـية لعرب هـــذه القـــرى هى تلك التى ترتبط بمحاصيلهم أى صناعة السكر (٧) وصناعة صبغة النيلة . وتغزل نساؤهم الصوف ، ويصنعون منه فى قراهم عن طريق بعض المسيحيين ، أو بعض الفـــلاحين الذين يرى أولئك أن يسمحوا لهم بذلك ، اثوابا خشنة تسمى بشت ، وهو قمـــاش غامق اللون يستخدمه الفلاحون رجالا ونســـاء فى صنع ملابسهم ،أما الاكثر ثراء من بين هؤلاء فيشترون أثوابهم وطربوشهم(٨) من المـــدن .

واكبر تجارة لدى العرب هى تجارة السكر والبلح .. وهم يذهبون لبيعها فى مصر العتيقة ، لكنهم يحتفظون بالقمح والشعير لاستهلاكهم أو من أجل استهلاك خيولهم . أما فى الأسواق فيبيعون الماشية ودواب الحمل كما يبيعون الصوف وكميات قليلة من فحم السنط .

---

(٧) يصنع العرب السكر بكميات كافية بحيث قلما يتجاوز ثمن القنطار ٤ ريالات (بوطاقات) وبـــذلك يكون ثمـــن الرطل زنة مارك (marc) ٥ — ٦ سو (sous)

(٨) نوع من غطاء الرأس . أحمر اللون . ومصنوع من الصوف ، يلف من حوله العمامة .

ولدى الشيوخ معلومات دقيقة عن أعماق الوديان فى الصحراء ، ولكنهم يدينون بمعرفتهم تلك للبدو الذين يتصلون بهم على الدوام للتزود بالأشياء الضرورية لحياتهم ، وعن طريق هؤلاء يعرفون مخارج الوديان واتجاهات الاخوار او مياه الأمطار وبذلك يعرفون كل المناطق التى يمكن لهم ان يجدوا بها الماء ، وهم يستطيعون تمييز الطرق القابلة للاستعمال من تلك التى لا تصلح لهذا الغرض ، وهكذا يستطيعون حسب مشيئتهم أن يقدموا خدماتهم او يمنعوها عن الفرق « العسكرية » التى تحتاج الى التوغل فى الجبال ، وبذلك يكون فى مقدورهم ان يسلموهم الى العطش ، وان يضللوهم وأن يجعلوهم يهلكون فى الصحراء . ولقد انحاز كثير من هؤلاء الشيوخ الى المماليك ثم الى الفرنسيين ، كل بدوره ، فى تلك الحرب الأخيرة ، ودائما أبدا من أجل الحصول على المال . وفى معظم الأحيان كانوا يرشدون الفرق الفرنسية الى طرق عكسية لتلك التى كان عليهم أن يسلكوها للحاق بالمماليك ، لذلك فنادرا ما استطاع الفرنسيون أن يأخذوا هؤلاء على غرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الكثير من العربان نافعين لنا ، وكم ارشدونا الى الطرق التى تصلح لمرور المدافع وتلك التى يستطاع فيها سقاية القوافل .

وليس هناك ما يمكن قوله حول طعام العربان دون أن يكون الأمر منطبقا على طعام الفلاحين ، فطعامهم يضم بالدرجة الأولى خبز الذرة واللبن والبيلاف « طعام شرقى يتكون من أرز ولحم وتوابل » . أما طبقهم الكبير المشتمل على الخروف والدجاج المسلوقين معا فشهى ولذيذ الطعم ، وبصفة عامة فانهم يتغذون على نحو ما بشكل افضل من بقية السكان ، ويفعل أولئك مثلما يفعل هؤلاء حين يقيمون الكثير من أبراج الحمام .

وهناك فرق ملحوظ بين هؤلاء العرب وبين غيرهم من العرب الآخرين ، ذلك هو أنهم لاينطقون اللغة مثلهم لكنهم ينطقونها مثل الفلاحين، فهم على سبيل المثال لا يعطشون الجيم فيقولون جسر وجامع بدون تعطيش للجيم كما يفعل الفلاحون وليس بتعطيشها كما يفعل العرب المحاربون « البدو » . وبالمثل فهم لا يقولون ثلاثة « بالثاء » وانما تلاتة « بالتاء » . وهذه الملحوظة تشمل أكبر عدد منهم ، ومع ذلك فكثيرون منهم ينطقون اللغة على طريقة البدو .

ولسكان هـذه القرى ملامح اخـرى مشتركة مع الفـلاحين ، فهم يشاركون هؤلاء فى تلك اللامبالاة بل فى ذلك النوع من الازدراء الـذى ينظرون به نحو الآثار القديمة المصرية والرومانية ، وهم لايقدرونها الا من اجل ما يعود عليهم منها من نفع عندما يحصلون منها على مواد تصـلح لاحتيـاجاتهم اليومية .. وفضـلا عن ذلك فهؤلاء ليسوا اقل من اولئك جهلا وخرافة بخصوص الأصل الذى ينسبونه لهذه المبانى ، فهم يعتقدون ان الجن هم الذين حفروا المحـاجر والمغارات وشيدوا القصور والمعابد، بل ويدعون أنهم يعرفون أسماء وتاريخ هؤلاء الجان .

وهناك شكوى لا تنقطع من هؤلاء اللصوص المرعبين الذين يسكنون شواطىء النيل فى الصعيد ، وانه لمن الخطأ ان نتهم ابنـاء البلاد ،فليس هؤلاء اللصوص سوى سكان هذه القرى العربية ، ومهـارتهم فى ذلك تفوق التصور ، وهى شائعة ومعروفة لحد سيكون مضيعة للوقت أن نضرب هنـا الـكثير من الأمثلة . ولقد كانت فرقنا فى الصعيد شهودا على الوف الأساليب الجسورة والوقحة ، والتى تبعث على الدهشة دائما ، ويجـد المرء صعوبة فى تصـديقها على الرغم من كونها وقائع . فـكم من مرة اخفوا الخيول وهى على مقربة من فرسانها ، او اخذوا الأسلحة من موقع او داورية استطلاع او من الحراس أنفسهم ! ولقد كنا نرى هؤلاء الرجال يختبئون فى النهار بين أكداس العليـق « العلف » ، ويخرجون بالليـل ليمارسوا السرقة ، وكنا نجدهم عراة يكادون يقطعون النفس بين هـذه الاكوام ، ومعهم الأسلحة التى اخذوها .. بل لقد انتزعوا حقائب وبنادق من تحت رءوس الجنود ، وسرقوا السـيوف وهى الى جانب حقـائب الضـباط !.

وهناك من هذه القرى ، من يمارس كل سكانها ـــ بما فيهم شيوخها انفسهم ـــ مهنة اللصوصية . فهم يقطعون الطريق ويسلبون الصـنادل مهما تكن حمولتها ، كما ينهبون الأسواق والمسافرين ، ولدى البعض منهم قوارب يستخدمونها فى الهجوم على الصنادل الملاحية ، وبعض هؤلاء يأتى سابحا لينتزع بمهارة كل مايستطيع الامساك به . ويمكن أن نـذكر نزلة النوايل ، وهى قرية تقع على الشط الأيمن الى الشمال قليلا من منفلوط، كمثال لقرية كل سكانها لصوص محترفون ، ولقد قيل لى أن المماليك قـد

قتلوا من سكان هذه القرية ستين رجلا دفعة واحدة منذ عدة سنوات . لابد ان تكون بلاد كهذه بائسة لحد كبير ، لا حماية فيهـا ولا أمن ، حتى تحدث فيها كل هذه السرقات واعمال قطع الطريق دون ان تقمع ، وفي الواقع فان هؤلاء يرتكبون هذه الجرائم دون أن يلقوا أدنى عقاب ثم يعودون بعد ذلك الى اعمالهم . بل انهم يدفعون الضرائب . وهنـاك سكان قرية اخرى مثل بنى حسن لا يجرؤون على الاقامة فى بيوتهم المبنيـة بشـكل جيد ، ويفضلون الاقامة فى اكواخ من البوص وسط اشجار النخيل حتى ينفذوا مشروعاتهم بشكل افضل ولكى لا يكونوا فى متناول يد البحث « عن اللصوص » وما أن تصل قراهم حتى يستولى عليهم الفزع ، وذلك الشعور الملازم للجريمة ، مما يجعلهم يجرون أمامك فارين فتجد المنازل مهجورة ، وتكاد لا تعثر فيها على عجوز تعطيك جرعة ماء .

والجانب الأكبر من القرى السبع التى يطلق عليها فى مجموعها اسم العمارنة واهمها قرية بنى عمران قد احترف هـذه المهنة المزرية ، وقـد شاهدت عرب هذه القرى يوقفون بلا حياء ، وفى وضح النهار قاربا كان يتجه الى الجنوب لينتزعوا منه النسـاء على الرغم من صـيحاتهن ومن مقاومة الملاحين . وثمة واحد من اكثر المشاهد التى رايتها فى حياتى تهورا ووقاحة ، قـد رأيتـه عند ركوبى النهر . كان ريس أو ملاح صـندلى واقفا ممسكا بالمجداف فى يد ، وفجاة خرج واحد من سكان العمارنة ، وصعد الدفة ، وانتزع من فوق رأس الريس العمامة والطربوش وسـارع بالقاء نفسه فى النيل ، واختفى تحت الماء ، وظل غاطسـا لوقت طويل ليخرج بعد ذلك على بعد ٤٠٠ قامة من هناك ، على الشاطىء المقابل للنيل .

٢ ــ القبـائل التى استقرت حديثا :

لقد جاءت كثير من القبائل العربية القادمة من شمال أفريقيا لتستقر فى مصر منذ حوالى قرن . وقد حصل هؤلاء العرب على اراضى عدة قرى وزرعوها أو استزرعوها فى غالب الأحيان : وهم يزرعونها عادة بمحاصيل العلف ، ويرعون فيها خيولهم ودوابهم لمدة تسعة اشهر فى العام ، ومن بين هؤلاء ، تلك القبـائل التى تعرف بأسماء : بنى وافى ، أبو كرايم ، محارب ، الطحيوى ، وهنـاك قبائل اخرى قد تفرعت عن هذه القبـائل الأساسية .. ولا تزال القبيلتان الأوليان وتلك القبائل التى تفرعت عنهما

مثل الجهمة والطراهونة يسكنون تحت الخيام ، لكنهم لا ينصبون هـذه الخيام الا فوق ارضهم او فوق الأرض التى يستأجرونها ويدفعون عنهـا الضرائب . ومع ذلك فانهم لا يستسلمون مطلقا للهزيمـة اذا ما هاجمهم عربان الخيش ، فلديهم هم ايضـا خيـامهم ورماحهم ، وجمالهم وخيولهم معدة على الدوام للجوء الى الصحراء اذا ماحدث أن جردوا من الأراضى التى تملكوها .والمعارك والمشاحنات كثيرة بين هذين الفريقين من العرب. وقد شهدت كثيرا من المعارك الدامية ورايت عند هذا الفريق وعند ذاك شجاعة حقة او بالأحرى سلوكا مليئا بالشراسة والبغض والأحقاد .

ويشكل العرب « المزارعون » الذين لا يزالون يستخدمون الخيـام حدا فاصلا بين العرب المزارعين الذين تحدثت عنهم فيما سبق وبين العرب المقاتلين أو الرعاة . فهم يتميزون عن الأولين بأنهم لا يشـكلون جزءا من سكان القرى وبأنهم لا يزرعون مطلقـا بأيديهم ، ويتميزون على الآخرين « البدو » بأنهم لا يغيرون من أماكن اقامتهم أو على الأقل المنطقـة التى يقيمون فيها . وهنـاك شيخ معين من بينهم يمتلك اراضى ثلاث أو اربع قرى بحكم كونه ملتزما « ملتزم » ، وهو اغنى شيخ فى كل الولاية .لذلك فهؤلاء العرب مرهبون من جانب الفلاحين ، وبحرص هؤلاء على ارضائهم اذ يرون على أبواب قراهم مايصل الى ستمائة فارس مسـتعدين لانزال العقاب عند ظهور ادنى مقاومة (من جانبهم ضد العرب) .

بل يمكن القول بأن الفلاحين يحترمونهم كسادة لهم ، ويستقبل اقل واحد من هؤلاء العربان شـأنا ، سواء كان مسافرا على ظهر جمله ، او سائرا على قدميه ، باحتفال فى الريف فيهرع اليه الناس حاملين المـاء ان كان عطشانا ، والبلح والخبز ان كان جائعا ، او على الأقل ، فان أى فلاح هناك يستجيب لتقديم هذه الأشياء عند اول طلب . ويسير العرب على الدوام مسلحين ببنـدقية ذات حمالة ، وعندما يركبون الخيول ، فانهم يتسلحون بالاضـافة الى ذلك ، بحربة ورمح قصـير فى اليد . اية مقاومة يمكن أن تبديها هذه القرى ، ضـد جماعات الفرسان هذه ، والتى تتهاون معهم الحكومة ، فى حين أن رؤساءهم أنفسهم من كبار الملاك؟ انك لاتستطيع أن تحصر عدد الجرائم والمظالم والأعمال الجائرة التى يرتكبها هؤلاء الفرسان ، ففى

أسواق القرى على سبيل المثـال حيث يتجمع الناس فى شكل جمهور ليبيعوا الماشية والبلح والذرة والدخان .. الخ ، يكون كل الغنم فىجانب العرب ، اذ هم يفرضون بسهولة سطوتهم على الحشد ، فليس هنـاك من فلاح واحد يكون بمقدوره ان يجادلهم فى ثمن اى شىء يعرضونه ، والا يعطيهم سلعته بالثمن الذى يحددونه هم ، وتبـدو الحربة التى يغرسها العربى ، فى صلف وتحة ، الى جانبـه ، فى عرض السوق وكأنها تقول « اننى هنـا ، صانعة القانون » ونستطيع أن نميز هؤلاء عن بعـد فى تجمعاتهم الـكثيفة ، ومن ملابسهم البيضاء ، وصـوتهم الحـاد ، وهم يستولون — بمعنى كلمة يستولون — على السوق ، وينتهى بهم الأمر أن يبيعوا وأن يشتروا لصالحهم كل ما يريدون ، وفى واقع الأمـر ، فانهم يعملون فى خدمتهم سـلاحا ليس باقل اثرا من رماحهم وحرابهم ، ذلك هو دهاؤهم الشديد ، والذى لا يمكن مقارنته الا بجسارتهم .

واليكم الملابس التى يرتديها العربان وهم فى السوق : على الرأس طربوش احمر ، بلا عمامة فى معظم الأحيـان . وعلى الجسم برنس أو معطف أبيض من صوف تتفـاوت درجة نعومته يغطون به عادة أعلىالوجه وتحت الذقن ، وهو يغطيهم من الرأس حتى القدمين . ويلبسون تحت هذا المعطف قميصا من الصوف وحزاما ، ويرتدى الميسورون منهم صديريا فوق القميص ، وفى القدمين ينتعلون خفا احمر اللون ، ويراهم المرء فى هذه الأسواق حاملين مسدساتهم ، وسيوفهم ، ومطارقهم ، وحرابهم ، وبنادقهم ذات السونكى (٩) ، ويعرضون بضائعهم وهم مسلحون على هذا النحو على الفلاحين ، كما انهم متعودون على حمل قرابينـهم خلف ظهورهم ولا يخلعونها مطلقا حتى عندما يلقى القبض عليهم . ولشـيوخ القبـائل والأثرياء الفرسان مهاميز جميلة ، مذهبة ، واسرجة فخمة لا تختلف عما لدى المماليك الا فى أن ظهر السرج مقوس واكثر انخفاضا مما يجعـله بالنسبة لهم بمثابة كرسى مريح . فهل مع اناس يحتشـدون على هـذا

---

(٩) توضع المظاريف بعناية فى جيب من الجلد ، ويوضع صـندوق البارود الى جانب البندقية .

النحو ، ويتسلحون الى هذا الحد ، يستطيع الفلاح الأعزل ان ينازع فى شىء ؟ (١٠) .

وعلى الرغم من القوانين التى تحرم استخدام العنف ضد الفلاحين، فانه من المعتاد ان ترى فى المساء ، عند عودة الناس من سوق من الأسواق ، اثنين او ثلاثة من الفرسان « العرب » ينقضون فجأة على الفلاحين (*) وهم عائدون بمواشيهم ، لينتزعوها منهم ، فان ابدى هؤلاء شكلا من اشكال المقاومة ، فان الفرسان يجرحونهم او يقتلونهم ، واذا ماذهب الناس لشكواهم الى رئيس القبيلة ، فهو — كما يقول — لايدرى شيئا عن الأمر ، أو هو ينكر أن هؤلاء الفرسان ينتمون الى قبيلته .. وهكذا تظل الجريمة بلا عقاب . ولقد رايت كثيرا من هذه المشاهد فى صنبو والقوصية . بل ان شيوخ القرى انفسهم لم يكونوا اقل من هؤلاء الفلاحين البسطاء تعرضا للرعب من جانب هؤلاء العربان ، وسيكون حادث العنف الذى ساتصه الآن دليلا كافيا على ذلك ، وهو أمر يتكرر بلا انقطاع فى الوف من الأشكال المختلفة .

ذهب بعض العربان من قبيلة ابى كرايم لينصبوا خيامهم فى أراضى قرب « ببلاو » واتفقوا مع شيخها على مبلغ محدد بالغ الاعتدال فى مقابل أن ترعى ماشيتهم فى حقل « حلبة » . وذات ليلة وجدت بندقيتان وزوج من المسدسات ضائعة من خيامهم . وعندما حل النهار ، ذهب العرب على خيولهم الى القرية مطالبين باستعادة سلاحهم ، وهم ينعتون الفلاحين بأنهم لصوص وقطاع طريق لكن الشيخ الذى لم يكن لديه ادنى علم بهذه السرقة الصحيحة أو المزعومة ، لم يستطع ان يجيبهم بشىء مقنع . فهددوا

---

(١٠) كنت عدة مرات شاهدا على الجراة المندفعة التى يبدونها فى اسواق القرى . ولم يكن هؤلاء العرب بأقل من ذلك زهوا واعتدادا بازاء جنودنا الفرنسيين ؛ بل لقد واتت أحدهم جراة وقحة لحد أنه عرض على احد جنودنا شراء نجوم ضابط فرنسى كان قد قتله . وهم لايبدأون مطلقا بالتحية كما لا يردونها مطلقا . وأكثر مايجذب أنتباههم فى الشخص الذى يلوح لهم هو السلاح الذى معه أو الملابس الذى يرتديها أو الحصان الذى يمتطيه . وعندئذ يبدأون فى تصور الطريقة التى تمكنهم من الاستيلاء عليها .

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف . (المترجم) .

باطلاق النـــار على الأهالى اذا لم ترد اليهم اسلحتهم ، فلم يجـد هؤلاء مفرا من ان يركبوا هم ايضـــا الخيول الى جانب شيوخهم . وحيث كان عدد العرب فى ذلك الوقت قليلا فان الحظ لم يحالفهم وقتل من بينهم رجل كان ينتمى الى قبيلة الفوايد وهى قبيلة قدمت الى مصر حديثا كما قتـل فى نفس الوقت سيدة وفرس .. واضطر هؤلاء الى الانسحاب وفى اليوم التالى غادر شيخ القبيلة بنفسه ، الشيخ على أبو كرايم ، مقر اقامته فى ساو وجاء على راس سبعمائة فارس وحاصر ببلاو وطالب بقاتل العربى، وكان هذا مختبئا ولم يستطع احد اكتشاف مخبئه . عندئذ امر الشيخ على بالقبض على اربعة من اكبر شيوخ القرية سنا ، واصطحبهم الى خيمته ، وهناك فرض مبلغا كبيرا من المال على سبيل «الدية» ، اى ثمنا للدم . وهى عادة يعاد بمقتضاها شراء دم كل قتيل بمبلغ محدد من المال ثم امر بضرب هؤلاء الشيوخ التعساء بالعصى ويكاد يكون الأمر قـد تم كله أمام ناظـرى ، ولقد تركت « ببلاو » دون أن أعرف ما ان كان الشيخ على قد أطلق سراح الشيوخ ، وما هو المبلغ الذى تقاضاه ثمنا لذلك (١١) .

تلك هى المساوىء والمظـالم التى يرتكبها العرب الملاك كل يوم . وهؤلاء الرجال بالغو الثراء، ولهم نفوذ كبير فى البلاد، وان كانوا يستمدون مكانتهم تلك من الفزع الذى يحدثونه فى النفوس . ليكن العربى محقا أو مخطئا ، ليكن معتديا أو عكس ذلك . فشيخ قبيلته فى كل الأحوال يدافع عن شجاره على الدوام بنفس الحرارة التى يدافع بها النـاس عن اعدل القضايا ، ويكرس كل الوسائل للانتقام او للانتصار له .

وثمة ضرب من العنف من جانب هؤلاء ، لا يستطيع الفـلاحون ان يضعوا له حدا ، وذلك هو ماترتكبه قبيلة عندما تأتى لتستأجر اراضى بينهم . فى البداية يأتى فريق من القبيلة ليضرب خيـامه فى منطقة كثيفة المرعى، وما أن يحس هؤلاء ان الأرض مناسبة لهم وما أن يسـتقروا هنـاك حتى يبـدأوا يسـاومون الفـلاحين على ثمن المـكان . ولـكن ماذا ؟ فلقـد أكلت الخيول والجمـال بالفعل جزءا كبيرا من المرعى وانتشرت الخيـام

---

(١١) ارتكب عبد الله بن وافى مثل هذا العنف حين احتجز شـيوخ القصير وبنى عمران لأنهم لم يقروا على حصوله ، أو بالأحرى على استيلائه بالقـوة على الأراضى التى تقع على الشـط الشرقى وهى تعد مواتيـة بالنسبة له .

فى كل مكان . ما العمل اذن ؟ عندئذ يقترح شيخ العرب ثمنـا للأرض لا يبلغ فى معظم الاحيان سوى جزء واحد من عشرة اجـزاء من القيمـة الحقيقية ولا يكون امام الفلاح من نصرف آخر سوى ان يقبـل . ولقـد رايت فى كل مكان حوادث مماثلة ، وشهدت السهل يغص بهذه المخيمات المتناثرة. الا يعطينا ذلك ابلغ دليل على بؤس الفلاحين وعبوديتهم الخانقة؟ انهم يئنون فى مناعبهم ويتصبب منهم العرق لكى يطعموا هؤلاء السـادة المتعالين . وينتقصهم الملبس والخبز ليتوفر كل شيء عند العـرب الذين ينهبونهم. ونادرا مايسمح اولئك المساكين لانفسهم بان يهمسوا بالشكوى، واذا ماحدث الأمر فانه يتم بصوت خفيض خفيض . انه لأمر يبعث على الأسى حقا ان نري اقاليم بأكملها نكاد نكون قد ضربت فيها من اقصـاها لأقصاها مخيمات العربان. وفى الواقع فان عدد هذه المخيمات يماثل عدد القرى ، ويفد اليها على الدوام فرسان جدد ، ليسوا من أفراد القبيلة ، وانما وفدوا الى هنـاك ليحصلوا على اذن بالسطو لأن شيوخ هذه القبيلة هم هنا أصحاب الأمر . لذلك فكم هناك من أراضى مهجورة وغير مزروعة فى « ميدان » الخيام والمنـاطق المجاورة له . وكم من منـاطق اختفت فيهـا الحبوب وقت البـذار : أما حين يستزرع العرب ارضا تروق لهم فانهم على الدوام واجدون كل الوسائل لاغراقها بالميـاه على حسـاب جيرانهم ، ومخالفين لـكل العادات والأصـول المرعيـة . فهم يتوجهون والسلاح معلق بأيديهم الى احد السدود ودون ان ينتظروا حتى تحصـل الأرض العالية على مايكفيها من الميـاه ، يقطعون السد بأنفسهم فتجرى المياه لتسقى اراضيهم هم، ثم يحتفظون بالمياه بالقدر وبالمدى اللذين يروقان لهم ، دون أن يشغل بالهم مطلقا ان تروى او لا تروى الأراضى التى تقع الى شمالهم . واذا مااحتاجوا لمياه احدى الترع فانهم يحدثون فيها قطوعات بالعدد الذى يرونه مناسبا دون ادنى تفويض او استئذان . وباختصـار فهم يسدون ويفتحون ، ويطيلون مدى الترع كما يتراءى لهم ، ويقيمون السدود أن يهدمونها بحسب مصالحهم هم، ويتم الأمر دون أدنى معارضة، لأنهم اقوى من القانون ، ومن أجل خاطرهم وحدهم تغيب الشرطة ، وليس من الضرورى أن أضيف هنا أنهم لا يساهمون مطلقا فى مصـاريف تطهير الترع أو بنـاء الجسور ، بل ولا فى اية مصروفات مشابهة على الرغم

من ان هذه الأعمـــال تعود بجل نفعها عليهم هم وبأكثر بكثير مما تعـــوذ على الآخرين .

ان المرء ليتملكه غضب شديد وهو يرى قطاع الطرق النبـــلاء هؤلاء يجوسون بوقاحة خلال الديار التى خربوها أو يعسكرون من حول القرى التى افرغوها من سكانها . وعنـــدما يراهم المرء يجتازون الوادى من كل اتجاه وهم راكبون خيولهم فانه سيوقن بأنهم سادة البـــلاد . وأى بلاء سببوه للصناعة عندما طردوا شيئا فشيئا من القرى المعلمين «والأسطوات» من أبنـــاء البلاد (*) والمثال على ذلك واضح فى ساو والعرين وعلى وجه التقريب فى كل القرى التى يرويها بحر يوسف ، فبســـبب ظهور هؤلاء الطغـــاة ، فان قرى بأكملها حيث يسيطرون ، قـــد هجرها أهلوهـــا بل تكاد تكون قد خربت لأن هؤلاء العربان لا يزرعون ولا يبنون ، واذا كانت اراضى بعض هذه القرى لاتزال تزرع فالسبب فى ذلك أن مياه النهر تفيض فترويها تلقائيا كل عام ، وبذلك لا يلزم أى عمل سوى البذار والحصاد . وعلى الرغم من كل ذلك ، فالفلاحون مرغمون على العودة من بعيد ،ومن جميع الجهات ليزرعوا أراضيهم التى أصبحت ملكا للعرب .. وتلك هى اللوحة الحزينة التى يقدمها لنـــا هذا الجزء من مصر العليا . أما فى مصر السفلى فان العرب هناك أقل سطوة ونفوذا .

ويمكن للمرء أن يسأل : ماذا تفعل كل هذه القبائل العديدة؟ وللاجابة على ذلك ينبغى ان نضع فى الاعتبار أن الجزء الأكبر من كل قبيلة يشكل مخيما كبيرا يقطن فيه الشيخ : لكن كثيرا من العائلات تنتشر فى الوقت نفسه بشكل منعزل فى مناطق مختلفة ، وتشكل مخيمات تتكون من خمس الى ست خيمات . وهنـــاك ترعى هذه العائلات جمالها وحميرها وخيولها ودوابها . وأكثر من نصف رجال هذه العائلات لم يركبوا الخيـــل « أى ليسوا فرسانا » ويشتغلون كما قلنا للتو باصطحاب القطعان الى المراعى، أما الفرسان فيقضون وقتهم فى القيـــام بجولات فى السهل وهم يبحثون على الدوام عن شىء يسلبونه . وفى أيام الأسواق العامة يتوجهون الى هنـــاك مسلحين ويصحبون معهم جمالهم وماشيتهم ليستبدلوا بهـــا الذرة

(*) الترجمة هنا بتصرف طفيف للغاية (المترجم) .

والشعير والبلح والدخان واشـــياء اخرى من مواد الاستهلاك اليومى . اما عن البلح (١٢) ، فانهم يبيعونه بأنفسهم عندما يأتون من الواحات حيث يجلبون منه كميات كبيرة (١٣) كما يجلبون معه فى قوافلهم المشمش الجاف والأرز الذى يعد من مرتبة أدنى من أرز الدلتا ، كما يحضرون معهم مؤنا متنوعة . وتشغلهم هذه القوافل لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فى العام ، وهم يبدأون رحلتهم عادة من الواحة الصغيرة التى تقع على مسيرة ثلاثة أيام من دلجا ، كما يلجأون على الدوام الى هذه الواحة عندما يطاردون فى مصر ، وكذلك فى أوقات الفيضـــان فى أغلب الأحيان ، لـــكنهم فى هذه الحالة يكتفون بأن يضربوا خيامهم على حافة الصحراء . وعنـــدما يصبح القش « التبن » نادرا فى مصر ، فانهم يذهبـــون الى الواحات لتتغـــذى خيولهم على قش الأرز ، ويقوم عرب الفيوم كذلك بهـــذه الرحلة ، وهم يجلبون بخلاف البضائع التى تحدثنا عنها ملح المناجم الذى يستخرجونه من الجبال المجاورة لهذا الاقليم (١٤) .

ويربى العربان فى مخيماتهم كثيرا من الخيول والجمال ، وهذا مالا يفعله الفلاحون مطلقا ، وسيظل هذا الأمر دافعا على الدوام لعـــدم دفع العرب الى خارج البلاد ، اذ ليس ثمة ســـواهم الآن من يستطيعون أن يمدوا البلاد بالخيول والجمال ، ولابد ان عدد هـــذه الدواب سيكون بالغ الضآلة الآن فى البلاد لو ان كل الحيوانات التىاستخدمها الجيش الفرنسى قـــد أخذت كلها من الريف ومعروف ذلك التقدير الذى يكنـــه الفرســـان العرب للفرسات . وقد سألت البدو الذين كنت أسافر معهم عن السبب لـــكنهم لم يخبرونى ، وعادة مايظن المرء ان الأمر يعود الى أن الفرسان

---

(١٢) هـــذا البلح جاف ولـــكنه طيب المذاق لحـــد كبير ، ويساوى القنطار ثمنه ٣ـــ٤ بوطاقات (ريالات) .

(١٣) يبدأ طريق الواحات من خلف نزلة الشيخ عباس الى الشمال من سرتنـــا . وينبغى التزود بمياه تكفى ثلاثة ايام . وتوجد فى البـــلدة نفسها مصـــادر للمياه ، وهى تقدم الشعير والبلح بالاضـــافة الى الأرز والبلح ، ويواصل الطريق ارتفاعه حتى يبلغ جبل بهاية . وهنـــاك طرق عدة أخرى تؤدى الى الواحات ، احدها فى مواجهة التونة ، وثمة طريق آخر أمام بنى خالد ، ومن هذين الطريقين تخرج فروع تؤدى الى البهنسا والى الفيوم .

(١٤) انظر دراسات عن العصور القديمة ، المجلد السادس .

يتجنبون صهيل الجيـــاد التى نعلن عن وجودهم ، وبذلك لايمكنهم اخـــذ فريستهم على غرة ، لـــكن الحقيقة فى الأمر هى أن الفرس تتحمل العطش بشكل افضل من الحصان ، كما أن احتياجاتها اقل بالاضافة الى انها أقل طيشا واكثر ملاءمة لرجال يظلون فى غالب الأحيـــان عدة أيام متتاليـــة ، راكبين خيولهم دون أن يكادوا ينزلون عنها .

والفرس العربية نحيفة عجفاء لكن ذلك لايقلل من سرعتها فهى لاتقل فى ذلك عن أفضل خيولنا تغذية . ويكاد يكون لكل فرس شرابة بيضـــاء أو زرقاء أو حمراء تحت الرقبة وأحيـــانا فوق الأذنين . ولا تقل عاطفـــة العربى نحو فرسه عن العاطفة التى يكنها عاشق لعشيقته . وعلى الرغم من أن العربى يظل قلقا تجاه فرسته ، حريصا على الا ينقصها من الرفاهية شىء ، الا أنه لا يكلف نفسه عناء القيام بأى جهد لتوفير طعـــام جيد لها الا اذا تم الأمر على حساب الغير . وكم من مرة رايت فرسان العرب ، بينما كنت أسافر الى جانبهم يترجلون على الـــدوام ـــ يكاد يتم ذلك كل خطوة ـــ ويتمهلون بها فى حقول البرسيم والشعير بل حتى لو كان القمح أخضر أو ذا سنابل ! كانوا يجعلونها تأكل على الـــدوام حتى ظننت أن السبب لايعود الى الرغبة فى اشباع جوعها بقدر ماهو اللذة فى اطعامها من حقول الآخرين ، فليس هناك عند العرب لحظة أحلى من تلك اللحظة التى يلوح له فيها شىء يمكن له أن يسلبه !

والقبيلة العربية التى لا تمتلك او تستأجر الا بعض الأراضى ، تمارس مع ذلك نفوذا ونوعا من السيطرة فى دائرة هى أكبر بكثير من هذه الأراضى نفسها . وهذه الدائرة محددة ومميزة عن دوائر القبـــائل الأخرى المجاورة، فالقبيلة لا تخرج مطلقا ، أو لا تخرج فى معظم الأحيـــان عن حدودها لكى تجور على دوائر القبـــائل الأخرى . انه نوع من الاتفاق الضمنى وضعت قواعده نتيجة للمشاحنات والمعارك والحـــروب التى دارت بسبب هـــذا الموضـــوع .

ودوائر النفوذ هذه متلاصقة وتشتمل فى مجموعها على أراضى هذه البلاد ؛ وليس ثمة ماهو أكثر غرابة من رؤية هؤلاء السادة المزعومين لمصر، وهم يمسحون أراضيها على هـــذا النحو ، ويحددون الحدود التى تضمن

حقوق كل فريق منهم . وهم لا ينظرون الى الاراضى التى تقع داخل كل دائرة الا على انها أرضهم وبلدهم ، ويعنى هذا بالنسبة لحماة دائرة ما أن ليس من حق أحد من العرب الآخرين أن يسلبوا أو يرتكبوا احداث عنف داخل دائرة تقع فى حمايتهم ، وقد بلغ الأمر الى حد أننى لم استطع مطلقا أن اصطحب معى الى ما وراء دائرة عرب وافى الفرسان العرب الذين كانوا معى كحراس ، ولا أن اصحب الى ما وراء ملوى الفرسان الذين ارسلهم الى الشيخ على ابو كريم ، ونفس الأمر بالنسبة لعرب محارب ، والسبب من وراء ذلك ان العرب ، الى جانب أنه لا يسمح لهم بالمرور فى أراضى قبيلة أخرى ، لا يحبون أن يسيروا على ضفاف النيل او يمروا بالقرب من المدن الكبرى مثل ملوى والمنيا عندما يكون عددهم صغيرا ، فعندما يكون العربى بمفرده ، فى مكان منعزل فانه يستشعر الرهبة من المشاعر التى يكنها نحو العرب شيوخ القرى ، لذلك فهو بالغ الحذر لا يريد أن يعلن عن وجوده ، وفى واقع الأمر فان الناس يعاقبون فى بعض الأحيان أول عربى يلقونه على شر ارتكبه عربى آخر . فكل راكب حصان ، يرتدى الزى الأبيض ويتسلح بالبندقية انما هو فى نظر الفلاحين نهاب قاطع طريق ، وهم فى ذلك ليسوا مخطئين على الاطلاق .

واليكم كيف قسمت الأراضى بين مختلف القبائل التى ذكرتها :

تعسكر قبيلة بنى وافى — وهى قبيلة بالغة الثراء بخيولها من منتصف ترعة تسمى ترعة العسل وحتى صنبو فى الشمال . ومكان اقامتها الرئيسى فى تتالية وهى قرية تقع الى شمال منفلوط ، يوجد بالقرب منها دير بالغ الأهمية ، وهذه القرية هى مقر الشيخ عبد الله بن محمود بن وافى ويمتد زمام الدائرة حتى ضواحى الأصفر ، المير ، القوصية ، صنبو .

اما دائرة قبيلة ابى كرايم التابعة للشيخ على فتشمل المسافة بين صنبو وملوى . اما مقر اقامة الشيخ فيوجد فى قرية ساو . وقد عسكر هؤلاء العرب بالقرب من ببلاو ، ودشلوط ، وساو ، وديروط الشريف ، ودلجا ، ودير مواس ، والبدرمان ، وباويط ، وامشول ، وابو الهدر ، واسمو ، بنى حرام ، وسرقنا ، بل وكذلك تندة وطوخ .

وينتمى عرب التراهونة الى هذه القبيلة ، وهؤلاء قد اقاموا خيامهم

فى تندة أما الجهمة فيرابطون على الشط الأيسر « الغربى » لبحر يوسف بين دجلة ، وديروط أم نخلة حتى صفط خمار أمام مدينة المنيا . ولهؤلاء خيام متناثرة فى اماكن شديدة التباعد فيما بينها ، بل ويوجد بعض منها وسط قبيلتى ابن وافى وأبى كرايم .

أما عرب محارب فيقيمون كلهم على وجه التقريب فى بيوت ، وقد كفوا عن حياة الخيام منذ حوالى خمسة عشر عاما .. ودائرتهم بالغة الأهمية فهى تمتد على الشط الأيمن من بحر يوسف ابتداء من النقطة الواقعة تجاه التونة حتى جبل البهنسا على بعد عشرين فرسخا من ملوى . وأهم مواطن هذه القبيلة هو قرية العرين حيث يقيم الشيخ أبو زيد « شيخ القبيلة » ، اما الشيخ زيد فيقيم فى ديروط أم نخلة ويقيم الحاج عبد الله فى ابشادة ، ويشغل عرب هذه القبيلة قرى المحرص ، ديروط ، ابشادة ، اشمنت .. وقرى كثيرة أخرى .

ويتفرع من قبيلة محارب عرب جبار او الجبابرة ، وعرب غزالة ، والدرابسة والشوادى ، وهم ينتمون اليها كما أنهم جميعا مزارعون ويقيمون فى قرى .. ويشغل **الأولون** طوخ الخيل ، أما **عرب غزالة** فيقيمون فى ديروط أم نخلة وكذلك الى الشمال ، فى العزبة فى اقليم بنى سويف ، اما الدرابسة والشوادى فيشغلون ضواحى بنى سمرج وطهطا ويوجة ، ولا يزال للدرابسة بعض الخيام .

اما العرب المسمون بالخوين والغريب فيشغلون ضواحى سمالوط اما عرب الطحيوى أو المصراتى أو بالأحرى عرب طه فسنتناولهم فيما بعد .

وتمتلك قبيلة أبى كرايم الف حصان وعددا كبيرا جدا من الجمال ، واهم شيوخها هما الشيخان على وسليمان ، أما الجهمة فيمتلكون اكثر من خمسمائة حصان . وتذهب القبائل الأربع : ابن وافى ، أبو كرايم ، الجهمة ، محارب الى الواحة الصغيرة ويعودون من هناك ليبيعوا بضائعهم فى الأسواق الكبرى فى دشلوط ودلجا وصنبو والقوصية .

وتعمل النسوة فى المخيمات العربية فى غزل الصوف الذى يصنع فى القرى ، ويتخذ اكثر الناس بؤسا ملابسهم من هذه الأقمشة الخشنة ، أما الآخرون فيشترون من المدن البرنس المصنوع من أقمشة فاخرة .

ويوكل الى النساء ايضا طحن الذرة وصنع الخبز وتجهيز البيلاف « طعام شرقى من لحم وارز وتوابل » وكذلك كل اعمال المنزل ، والخبز عندهم عبارة عن قرص مسطح يجففونه فى الخيمة ثم ينضجونه على وقود من روث الجمال يخرج من خلال « بوز » وهو فتحة صغيرة مصنوعة من الطين على هيئة فرن ، وهكذا يجد العربان فى متناول ايديهم الخبز والوقود . وما انتحصل اسرة ما على مئونتها من الذرة حتى يصبح بامكانها انتستغنى عن كل ماتقدمه مصر لها من عون ، ولا يعود يعنيها الا ان تضرب خيامها بالقرب من مكان توجد به مياه ، وهذا امر يعرف العربان اكثر من اى قوم آخرين كيف يحققونه . ونحتوى خيام العربان على مخزون من البلح والأرز والذرة وعلى قليل من الشعير والقمح والفول ، ويودع كل شيء بحذاء جدران الخيمة وبطريقة تدع المكان بالغ الاتساع ، وفى منتصف الخيمة يوجد النساء والأطفال ويكاد لا يكون هناك فرق يذكر بين ملابس السيدات وملابس الرجال ، فهن يرتدين مثل الرجال حذاء نصفيا « خفا » وينفطين بقطعة من قماش صوفى أبيض اللون من القدمين حتى الرأس ، ولم ارهن يتحجبن كما تفعل المصريات ، وهن فى نفس الوقت ، ولحد ما ، أكثر بياضا من زوجات الفلاحين ، وعند بقائهن هكذا سافرات الوجه أمام الأوربيين ، فقد كن يظهرن لى على شيء من القحة والمجون اللذين هما طابع العربان ، والذى يميزهم عن المصريين . ولا يحتم الرجال على نسائهم ــ اما لانهم اقل غيرة او لأنهم اكثر ثقة بهن ــ ارتداء الحجاب الذى قد لا يكون له من غاية الا تفادى نظرات الفضول عن طريق هذا القناع الشائه الذى لا يبعث على البهجة ، لكنه وسيلة اقل فاعلية من غيابه هو نفسه ، فأى شيء يمكنه أن يصد الفضول ويقتل الرغبة اكثر من وجه شوهته هذه الرسوم السوداء والزرقاء « الوشم والكحل » (١٥) .

ويبدو الرجال فى خيامهم ، او على الأقل راكبو الخيل منهم ، وكأن ليس لديهم ما يشغلهم ، فتراهم ، وطربوشهم فوق أذنهم ، يتجولون من

(١٥) من المعروف أن النسوة فى مصر يرسمن بشكل حاد رموشهن وجفونهن باللون الأسود (الكحل) وأنهن يضعن بقعا زرقاء على الذقن وبقية أجزاء الوجه (الوشم) .

خيمة لأخرى ، يتطوحون فى مشيتهم وأيديهم خلف ظهورهم . يرتسم المرح على وجوههم ، وهم فى عمومهم ذوو مظهر طيب ، ويبـدو البيض منهم ، بتقـاطيع وجوههم ، وسمنتهم ، ومشيتهم المتعاظمة وملابسهم الفضفاضة والممتلئة ، يبـدون بمظهر الأثرياء العـاطلين اكثر مما يبـدون بمظهـر الفرسان المحاربين ، وهذا المظهر من الرضا والسعادة هو أكثر ماأدهشنى عند العرب .

ومع ذلك ، فان الأمر الذى لا يقل عن ذلك جـدارة بالملاحظة هو اهمالهم لطقوس الدين ، فلم أرهم مطلقا يتوضأون أو يصلون مثل بقيـه المسلمين ، كما انهم يشربون الخمور فى بعض المناسبات ولا يولون كبـير اهتمام بشهر رمضـان ، وحين يقومون بأداء الحج الى مكة فانما يفعلون ذلك لفائدة سيجنونها من هناك .

وتبعا لما سبق ، فاننا نجد مخيماتهم شبيهة بالقرى الكبرى وسكان تلك المخيمات اكثر بلا جدال من سكان بقية القرى فى مصر ، ناهيـك عن الذهب والفضة اللذين تكتنزهما هذه البيوت المتنقلة . وفى هـذه الخيام يجد المرء كل ماهو ضرورى للحيـاة ، ويحصـل العربان من بيع المواشى والجمـال وبعض المواد الغـذائية على دخول أكبر بكثير مما ينفقون على شراء الأسلحة والسروج والملابس ، وفضلا عن ذلك ، فان من الممكن لنا أن نؤكد أن الغالبية منهم يتسلحون بأسلحة مهربة أو مختطفة تحت آلاف الادعاءات ، بل ان الـكثير منهم يرتدون ملابس سرقوها من الفلاحين .

اما الفضة والأموال التى يكدسها العرب بين أيديهم بهذه الطريقة، فيمكنها أن تسهم فى تثبيت سيطرتهم على مصر بأكثر ممـا يمكن أن تفعل اعدادهم وفروسيتهم . السنت ترى أن هذا النفوذ لابد له — بحكم طبائع الأشياء — أن يتضاعف اكثر فأكثر لحد يضع مصر ذات يوم فى قبضـة العرب .

ولا يحتاج هؤلاء الرجال فى مخيماتهم الا للقليل ، فهم بالغو القناعة، لـكنهم يصبحون بالغى النهم وشديدى الالحاح اذا ما لجأ اليهم مسافرون يحتاجون لحراستهم ، فهم فى هذه الحالة يصرون على طعـام منتقى لابد أن يحتوى على اللحم المشوى والبن والدخان بوفرة ، بحيث يتكلف طعـام

كل واحـد منهم فى اليـوم مالا يقل عن **بوطاقة** (١٦) ويدعى هـؤلاء أن هـذا هو طعـامهم المعتـاد . وفى نفس الوقت فهـؤلاء العـرب لبسوا بدمثى الخلق ولا بالمجـاملين المـلاطفين . هـذا ما شـعرت به وانا بين عـرب بنى وافى وعـرب ابى كرايم وعـرب محـارب الـذين اتخذت من بينهم حراسا اثناء جولاتى . ولقد كان الأولون يبـدون اثنـاء وجودى بينهم اقل قسوة على الفـلاحين ، اما عرب محارب فكانوا ينتهزون فرصـة قدومى ليجتـازوا القرى ، راكبين خيولهم ، ليحصلوا لأنفسهم على آلاف الاشـياء بدعوى أنها للفرنسيين .. وهكذا تتاح لهم فرصـة جديدة لكى ينتهبوا ويسلبوا دون أن يلقوا عقابا ، وتحت اسم الغير (١٧) .

وتشغل قبيلة محارب هذه جزءا كبيرا من اقليم المنيـا كما سبق أن قلت ، وتمتد امتيازاتها الى بعيد ، وتنقسم هذه القبيـلة الى بطون كثيرة تسكن فى قرى عديدة . ومنذ وقت طويل ، لم يعد هؤلاء يقيمون تحت الخيام كما كفوا عن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » ، ولا يمكن لك أن تميزهم للوهلة الأولى عن طريق ملابسهم عن شيوخ الفلاحين ، وأقل هؤلاء العرب شأنا يرتدى ملابس جيدة ، وترى واحداً بهذه الصفة منهم فى وضع افضل من وضع شيخ قرية ذلك انه يرتدى فوق جسده أسلاب اربعة شيوخ .. وتساهم هذه الأبهة فى الزى فى زيادة زهوهم ، واذا ماذهبـوا للسلب وسلكوا الطرق العـامة أو ضفاف النيل فانهم لايرتدون ملابس اقـل من هذه ابهة ، وليس بمقدور احد ان يحصل على اى عون ضدهم لأنه يستحيل عليه أن يجد شخصا يشكو اليه . وفى هذه الحالة الراهنة ، لايستطيع المرء أن يجد الكيفية التى ينظر اليهم من خلالها ، فهم معروفون فى السر لصوصا ، ومع ذلك فليس فى مقدورنا أن نطاردهم ، لأن شيوخهم يسلكون

---

(١٦) قطعة نقدية تساوى ٩٠ بارة (حوالى ٣ جنيهات و٨ سو) .

(١٧) تدل الصغائر المهينة التى يقترفونها بقلب بهيج على قسـاوتهم بقدر ما تدل على ضعف الفلاحين ؛ وقـد شاهدتهم بعينى راسى يستولون عنوة من امراة بائسة اضنتها الشيخوخة على حمـولة كبيرة من اغصـان اشجار التمرهندى ، كانت تحملها بمشقة كبيرة فى الصـحراء ، دون أن يكون لديهم حتى ذريعة ان الخشب ينقصهم ، وحيث كانوا يهللون لسرقتهم هذه ، فقد وجدت مشقة بالغة فى حملهم على رد هذه الأعشاب الجافة مع قيامى بدفع ثمنها لهم .

ظاهريا سلوكا طيبـــا فى قراهم واراضيهم ، حتى انه ليبدوا عليهم انهم لم يشاركوا فى السلب على الرغم من انهم يكونون قـد اقتسموا الاسلاب . . وعندما وصلت اثنـــاء جولى الى دائرة عرب محارب دون أن أدرك ذلك ، سمعت احاديث كثيرة عن الاغتيالات التى كان هؤلاء العرب يقترفونها كل يوم ، ورايت انه قـد حان الوقت لأن أدعم حراستى الضعيفة بعدد من العرب ، فاستأجرت فى ديروط اثنى عشر فارسا مسلحين تسلحا جيدا . وفى الطريق كنت أكثر من سؤالى اياهم حول السرقات وحوادث العنف التى يمارسها العرب فى الوادى وفوق شاطىء النيل وبالقرب من ملوى ، لكننى لم اظفر مطلقـــا باجابة . وعرفت فيما بعــد اننى كنت اتحدث الى نفس الذين يقترفون هذه الفعال ، وتأكدت من ذلك بوسائل مختلفة . كم كان قلقى كبيرا عندئذ ! لقد اسلمت نفسى بنفسى الى قطاع طريق ، وكثيرا ماذهبت معهم لمسافات طويلة داخل الصحراء . . ولكم اثار طمعهم أكثر من مرة أدواتى وخيولى والمال الذى كانوا يظنونه معى . . ومع ذلك فقد اكتفى هؤلاء اللصـــوص الشرفاء بالأجـــر الذى كانوا يحصـــلون عليـــه منـــا وبمـــا كانـــوا يســـتطيعون أن يســـلبوه من القـــرى . ولـــكنهم كانوا سعداء عندما يجدون بمقدورهم أن يتركوا فرسانهم ترعى مجانا فى مراع وفيرة ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الشجعان يرتجفون فرقا عندما استوجب الأمر دخول مدينة المنيا اذ كانوا يخشون الجند الفرنسيين ، لكن ارتباطهم كان يلزمهم بذلك . فمشوا اليها وكأنما هم يستجدون ، كما لم يدخلوهـــا الا اثنـــاء الليل وقد رحلوا على حين فجأة ودون أن يلحظهم أحد .

وكل القرى التى استقر بها عرب محارب فقيرة ومهجورة ونصـــف مهدمة وتخلو من الأشجار (١٨) ويكاد لايوجد بها سوى بعض الفلاحين يقومون بزراعة الأراضى المملوكة لعرب محارب — وليس بزراعة اراضيهم الخاصة ، ذلك أن هؤلاء العرب لا يزرعون بأيديهم على الاطلاق ، فليس ثمة من مهنة أكثر نبلا من وجهة نظرهم من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة ودون عمل ، وليس ثمة أكثر مهانة عندهم من عمل المحراث ، وكلمة فلاح عندهم مرادفة لالفاظ السباب فهى تعنى : رجل الطين ، الذى خلق من أجل الشقاء

---

(١٨) القرى التى تئن تحت وطأة نفوذ العرب محرومة من النخيل ؛ ولها مظهر عار يميزها عن بعد .

والذي ولد خصيصا لانتـــاج طغـــام العربان . ويذهب هؤلاء القوم الى بعيد فى تحقير مهنـــة الفلاح حتى انهم يأنفون من ان يحطوا من قدر البدو فيرفضون أن يطلقوا اسم البـــدو على هؤلاء الذين شاءوا من بنى قومهم ان يحترفوا مهنـــة الزراعة مثل عرب طه والريرمون فيقولون عنهم : انهم فلاحون حقراء واخساء لم تعد تجرى فى عروقهم الدماء العربية . .

اما عرب المصراتة او **الطحيوى** ، أو بمعنى آخر عرب طـــه ، فلهم قرى بالغة الفخامة ، تقع على بعد اربعة فراسخ الى الشمال من المنيا، وهم قـــد استقروا هنـــاك منذ عدة اجيـــال ، ولقد قدم هؤلاء العرب الى الزراعة ، على النقيض من العرب الآخرين ، خـــدمات جليـــلة ، وبذلك حصلت الأرض على مزية مزدوجة . أن تزرع بشكل ممتاز ، وان يدافع عنها فرسان شجعان ضد أعمال العنف التى تصدر عن العرب المجاورين. وهم فى حالة سوء تفاهم على الدوام مع الآخرين لـــكن اليد العليا تكون لهم على الدوام فى كل المعارك التى تدور بين الفريقين .

ولم اشاهد فى مصر فلاحين أكثر سعادة من عرب طـــه ، فهنـــاك تسيطر الحرية ويسود الرخاء تحت سيادة قوانين خيرة وتحت حكم أسرة محبوبة ، ولذلك ازدهرت هنـــاك الصـــناعة والزراعة ، وليست ثمـــة قرى أكثر ثراء من قرى عرب طه فى المواشى وبخاصة فى البقر ، وليس هنـــاك أرض توزع عليها الميـــاه على نحو افضل . والسدود فيها معتنى بها بشكل احسن . من أراضيهم .. هكذا جعل الشيخ على الطحيوى من هذه القرية واحدة من اغنى قرى الاقليم ، وهكذا على الدوام يكون تأثير الشيخ الطيب وعلى هذا النحو يكون اثر المقاومة المدعومة التى تقف ضد الابتزازات والمظالم . وقـــد كان هؤلاء مصدرا لآلاف المعونات ، ولســـد مالا يحصى من احتياجات الفرنسيين وبشكل اكثر يسرا بكثير مما هو فى مقدور عشرين قرية فى جهة اخرى .. منذ وقت طويل كف هؤلاء العرب عن الاقامة تحت الخيـــام ، وعن ارتداء الثوب الأبيض « البرنس » .. وارتدوا نفس رداء الفـــلاحين ، اى ثوبا من الصوف الغامـــق ، وتجد بينهم ، مثلما تجد بين بقيـــة العرب رجالا سود البشرة ، وهؤلاء على الدوام فرسان ممتازون . ولقـــد شاهدت معركة دارت بينهم وبين عرب الشوادى ، تبين لى خلالها انهم — اى عرب طه — لم يفقدوا مطلقا

المزاج المقـــاتل حين اصبحوا فلاحين ، ولربما كنت اخذت على عاتقى أمر تدريبهم لو لم اكن قـــد توصلت الى ايقـــاف نزيف الدم بين القريتين .. وانك لواجد مشقة كبيرة حين تحاول تصور السرعة التى يتهيأ بها عرب الطحيوى للمعركة . .ففى لمح البصر ، يخلع الواحد منهم اكمامه الطويلة، ويصطنع من عمامته حزاما يملؤه بالخرطوشات، ويصرع على الفور غريمه، بينما هذا الطحيوى يقاتل وحده ضد عشرة رجال .

وكل هؤلاء العرب الذين تناولتهم فى هذه الدراسة ، اذا ما استثنينا عرب الطحيوى الذين تحدثت للتو عنهم ، يظهرون نحو الفـــلاحين عجرفة متزايدة يبدو وكأنهم رضعوها مع لبن امهاتهم . وحيث أن هؤلاء لايتصاهرون الا فيما بينهم فانهم يزعمون انهم بذلك قد احتفظوا بدمهم نبيلا نقيا ، خلق خصيصا لحكم مصر . وليس ثمة من بينهم فى مخيماتهم ، حتى الأطفـــال انفسهم الذين التقيت بهم من لايشارك فى هذه العجرفة .

ولابد أن نتخيل أن من خاصية هذه العجرفة أن تمنحهم شعورا بالقوة والسمو فوق المصريين ، وتجعلهم يتقدمون بنجاح على امور بالغـــة الجرأة والجسارة ، فادعاءات كهذه لن تكون وبالا على أناس بهـــذه الدرجة من القوة سواء بفعل عددهم أو بتأثير تقاليدهم واسلحتهم . دخلت ذات يوم فى احد مخيمات عرب ابى كرايم ، وجاء عديد من العرب الفضوليين لبجلسوا الى جوارى وتحدثوا بألفة مع حراسى ، لكن سرعان ما اصطحبهم واحد من رؤساء القبيلة موجها اليهم التعنيف الحاد . لقد الفيتهم اطفـــالا صدمتنى ملابسهم وكان بين هؤلاء ابن الشيخ ، كان يرتدى ثوبا ابيض بالغ النعومة وطربوشا جميلا احمر اللون وخفين ، وما أن اقتربت منه حتى قال على الفور وبلهجة تزدرى سامعه « أنا بدوى ! » ولكنى لقيت عند عرب الجهمة استقبالا افضل ، فقد هرعوا الى ، واستعلموا بفضول عن اخبار القاهرة، ومع ذلك فلابد أن ننسب ذلك الاستقبال لدوافع الخوف والقلق .

ويمكن التعرف على قرى الفلاحين التى تسيطر عليها هذه القبائل، فى أن سكان هذه القرى يبدون اقل خضوعا للسلطة ولقوانين البـــلاد ، كما لو أن حماية العرب تكفى لحمايتهم من العقاب الذى يستوجبه التمرد. ولقد كانت هذه القرى على الدوام هى آخر من يسدد الضرائب وأول من

يبدا العصيان . وهنـــاك تستقبل قوات الحكومة استقبالا مسيئا . وفى الوقت الذى يفرط هؤلاء البؤساء فى نرواتهم للقبـــائل العربية بدرجة كبيرة من عدم التبصر ، فانهم يتجاسرون على رفض تقديم ماهو ضرورى للفرق التى تمر ببلادهم ، ذلك انهم يأملون فى الافلات من سطوة سادة بعيـــدين عنهم ، فى حين يرضخون لطغاة يماثلون نسر بروميتيوس * فهؤلاء الطغاة لا يتركون فريستهم لحظة . وفى اقليم المنيا تخضع قرى كبيرة مثل ديروط الشريف ، ودلجا ، ودشلوط لنفوذ العربان الذين يأتون ليقيموا خيامهم على الأبواب . وحين لايجرؤ شيوخ هـــذه القرى على مقاومة الأوامـــر التى يتلقونها من القاهرة مقاومة صريحة ، فانهم على الأقل يبدون شـــيئا من العجرفة وسوء النيـــة والعدوانية يحثهم عليها العرب ، مما يجعل مثل هذه المشاعر دائمة بينهم . صحيح أن الناس فى اماكن اخـــرى ثرية فى مواشيها ، ومسلحة تسليحا جيدا يسهل الدفاع عنها مثل قـــرية المير ، لا يخشون من اقامة العرب فى السهل ، اذ هم يستطيعون على الأقل أن يعاقبوا هؤلاء على جسارتهم اذا ما تجرأوا على محاولة تجريبها ، وسعداء هؤلاء الفلاحون الأقوياء لحد يسود بينهم هذا الطبع ! فهم يعيشون هادئين ملاكا أحرارا لعقاراتهم وثرواتهم التى لا تلبـــث أن تتضاعف على حساب ضعف الآخرين وخرابهم .

أما القرى التى تحاول بالرغم من ضعف قوتها أن تدافع عن استقلالها، فان العرب يقومون بغزوها بشكل مفاجىء ، فيقتلون المشايخ ، ويستبدلون بهم غيرهم بشكل استبدادى، ويهدمون بيوت هؤلاء الذين يسمونهم اعداءهم، ويستولون على أراضيهم ويتصرفون بمهـــارة حتى أن الأمر ينتهى بهم أن يحصلوا على محبة الآخرين .

اما تلك القرى التى تخضع كأمر حتمى للعرب بسبب ضعفها وموقعها القريب من الصحراء ، فانها تقدم لهم صـــداقتها كأمر طبيعى ، ولكل شىء حســـابه فهذه الصـــداقة تكلف الفلاحين اقل مما كان سيكبدهم الحقـــد المـــكشوف .

---

* من المعروف أن العقاب الذى أنزله جوبتر ببرومثيوس عقابا له على سرقة النار هو أن يصلب فوق جبـــل القوقاز وأن يأتى النسر ليلتهم كبده الى أن خلصه هرقل . (المترجم) .

ومن جهة اخرى فان العائلات العربية ، قليلة العدد ، والتى تمتلك قرى صغيرة شديدة القرب من بعضها البعض ، تظل على الدوام فى حالة نزاع على الحدود وعلى اقامة أو قطع السدود ، وعلى مسيرة واتجاه المياه ، وحيث لا توجد محاكم تحسم قضايا من هذا النوع فان سكان هذه القرى يحسمون هذه الأمور بأيديهم فهم يقتتلون ويلاحقون بعضهم البعض بلا هوادة وبشراسة لا تصدق ، وحتى تفنى فى معظم الأحيان واحدة من العائلات المتشاحنة عن بكرة أبيها ، وعندئذ يستولى المنتصر دون مبالاة بأبسط الشكليات، ودون رسميات أخرى على اراضى المهزومين، ويثبت فيها عائلته أو من يلوذون به . وفى نفس الوقت ، فان الحكومة لا تقوم بأى معارضة لأى من هذه الحروب الأهلية الصغيرة كما لو كان لايهمها فى كثير شخص من سيدفع الضريبة ، بل انها تغبط نفسها على الدوام ، فالضريبة ستؤدى برغم كل شىء مع انها — أى الحكومة — فى كثير من الأحيان لا تحصل منها اى شىء ، ويكون السبب أن قادمين جددا قد هاجموا وخربوا بدورهم ، أولئك الذين سبق لهم أن انتصروا.

وشكل خيام العرب معروف . فهذه مصنوعة من قماش يسمى : خيش . يصنع بشكل اساسى فى ولاية الفيوم . ويشكل العرب منه قطعة يبلغ طولها ٢٠ — ٣٠ قدما وعرضها ١٥ قدما ، ويدعمونها من أركانها الأربعة بأوتاد يبلغ ارتفاع كل منها ٤ اقدام كما يدعمونها من الوسط بوتدين يبلغ ارتفاعهما ستة اقدام مما يعطى للخيمة من أعلى هيكل السقف المسطح ، وهذه الخيام فسيحة مريحة . وحيث انها شديدة الانخفاض ومثبتة بالحبال فهى لاتخشى مطلقا هبوب الرياح . وعندما يسقط المطر فانه لا يمكن الدخول اليها الا من الأمام فهى الجهة الوحيدة المفتوحة .

وقد لاحظت فى هذه الخيام نوعا من المهد « الهودج » المصنوع من اغصان القرانية « شجر زينة » بالغة الجفاف يبلغ سمكها بوصة ،ومصنعة بشكل تتداخل معه فيما بينها وعلى نحو مقبض ، وقاع هذا الهودج بيضاوى الشكل أو مقعر ، ولونه داكن ٪ وهو منتظم من أعلى . ويوضع هذا الهودج فوق جمل ، ويستخدم فى نقل سيدة وطفلها . وخشب الهودج من جهة اخرى أسود اللون بفعل الدخان ويبطن قاعه بالجلد أو يكون كله فى بعض الأحيان من الجلد . فاختطاف النساء هو أخشى مايخشاه العرب من اعدائهم . وبمعنى آخر فان هذه الهوادج المرتفعة قد صنعت لحمايتهن ،

وتستخدم هذه الأسرة الصغرة كذلك فى التنقل كما فى حالة القوافل . وفى اثنـــاء قيامى بجولة بلغت ثلاثين فرسخا فى عرض الصـــحراء كانت الفرصـــة مواتية لــكى ارى على الدوام جمالا محملة بالنساء على هـــذا النحو ، ولابد انــكم تتخيلون هذا القدر من الانتباه والعناية الذى يوليـــه ازواج هؤلاء النساء أو أهلوهن فى حراستهن ، حيث يبعثون على الدوام بفرسان يسبقونهم بمسافة فرسخ كامل ليستكشفوا الطريق لهم .

ومما تجدر ملاحظته كذلك فى مخيمات العرب هو السلوق أو كـــلاب الصيد ، وتلحق هذه بالأرانب والثعـــالب ، وتقدم خدمات جليلة عند صيد الغزلان التى يلذ العربان من اكل لحومها كثيرا ، وهم يطلقون على كلاب السلوق كنية « عدو الغزالة » ، وهذه الكلاب صهباء اللون ، وهى أصغر حجما من كلابنا واكثر منها سرعة ، ويلبسها العربى قطعـــة من الجوخ ويضع فى رقابها عقدا ويمسكها على الدوام من مقودها ، وهم يجلبونها من سيوة حيث توجد منها أعداد هائلة ، ويدفع فيها لأصحابها ثمنـــا كبيرا يبلغ حوالى ٣٠ ــ ٤٠ **بوطاقة** ومن العسير ان تحصل لنفسك على واحـــد منها . ومع ذلك فقد توصل كثر من الفرنسيين الى الحصول على هـــذه الكلاب وبعض منها فى الوقت الحالى فى حوزة بعض الجنرالات (١٩) .

---

(١٩) شاهدت فى مغارات وكهوف مصر الوسطى رسوما مصرية تثير الفضـــول الى حد كبير ، وتمثل بدقة طريقة صيد الغزال هـــذه ، ومن اليسير ان نتعرف فيها على كلب السلوق نفسه ، وتشـــكل رســـوم هذه المغارات وشروحها جزءا من المجلد الرابع للعصور القديمة، اللوحة ٦٦ .

الفصل الثانى

العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحل

اما الطبقة الثانية من العرب فتشمل أولئك الذين يضربون خيامهم فى أعماق الصحراء أو على مشارف مصر ، والذين هم فى حرب مع الحكومة فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى فى سلم معها ، ولا تمتلك هذه الطبقة أرضا ولا تدفع ضريبة على الاطلاق ، وهى الطبقة الأكثر عددا والأكبر قوة سواء فيما تملك من خيول وأسلحة أو فيما لديها من جمال وماشية . وهى التى تمد القوافل بالجمال التى تحتاج اليها لأغراض التجارة .

ولا يسمح لنا تغيير هذه القبائل المستمر لمكان اقامتها ، وان كان يتم فى معظم الأحيان فى اطار نفس المنطقة ، لا يسمح لنا ذلك بمعرفة اسمائها . وفى الفترة التى كنت أتجول فيها فى مصر الوسطى ، كانت قبائل أولاد على هى أكثر هذه القبائل قوه ، وكانت مخيماتها تقع فى ادمو بالقرب من المنيا . وكانت تضم الف حصان . أما قبيلة الفوايد فكان يبلغ عدد أفرادها الألف من بينهم ثلاثمائة فارس ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان ثمة قبائل أخرى فى أبى الهدر والبدرمان ودروط وبالقرب من سمالوط فى اقليم بنى سويف وفى ضواحى الفيوم .

ويغير هؤلاء البدو من منطقة اقامتهم اذا مابدت لهم منطقة اخرى أكثر وفرة فى مراعيها أو فى مياهها أو اكثر مواتاة لمشروعاتهم ولأغراضهم فى السلب وأعمال العنف ، فهؤلاء فى الواقع سواء فى حالة حرب أو فى حالة سلم يمارسون نفس القدر من اعمال السلب والعنف ، مع فارق واحد ، هو أنهم يمارسونها فى حالة السلم بعيدا عن مقر اقامتهم المعروفة وبحيطة أكبر ، فالبدو فى حالة السلم لايرتكبون السرقات ولا

اعمال القتل مطلقـــا بالقرب من مخبمهم . وانما فى أماكن نبعد عن ذلك بفراسخ كثيره .

وحيث انه ليست لـكثير من هذه القبـائل الجوابه من مصالح فى داخل البلاد فانها مرتكب جرائمها دون ان نلقى عقابا ، مادامت نحرص على أن تظل على بعد كاف داخل الصحراء حيث بطعمون ماشيتهم على قــدر مايستطيعون . لــكنهم فى غالب الأحيــان يعسكرون على حافة مصر ، وهنـــاك نوجد كثير من الأراضى التى كانت تزرع فى الماضى ، كما نستدل على ذلك من الآثار التى يحفرها العرب هنـــاك والتى تردمها الرمال كل يوم أكثر فأكثر . وفى غالب الأحيـــان . تصل مياه الفيضـــان لتغمر هذه الأراضى ، وعندئذ ينمو نوع من البرســـدم بالغ القصر له أوراق بالغـــة النعومة تنفتح فى تىواشيه ورود صـــفراء ويسمونه كتة ، وهو علف جيد بالنسبة للمواشى ، فى جودة البرسيم نفسه بل ويتفوق عليه حسبما يذكر أهل البلاد الذين كثيرا مارأينهم يذهبون الى هنـــاك ليحصدوه لخيولهم ، وهو قصـــير لـــكنه بالغ الــكثافة . وبعد الفيضانات الكبرى « كفيضان سنة ١٨٠٠ » ينمو هذا النبـــات بوفرة شديدة حتى أن العـــرب يرعون هنـــاك ماشيتهم وخيولهم وجمـــالهم على نحو واســـع ، ويتراخون فى الذهاب لاتلاف محاصيل علف الفلاحين ، وعام كهذا هو عام مبارك بالنسبة للقبائل العربيـــة التى تأتى لتغطى بخيامها كل حواف الصـــحراء . لذلك شاهدنا فى عام ١٨٠١ مجىء كثير من القبـــائل العربية من أفريقيا بعـــد أن جذبتها أنبـــاء الفيضان الـــكبير . وينمو فى هذه المنـــاطق بالاضافة الى محصول العلف هـــذا ، نبـــاتات عطرية صغيرة الحجم تشكل مرعى ممتازا للخراف والماعز . ونتيجة لذلك تقوم الماشية بتسميد هذه الأراضى، وبهذه الطريقة يكون من السهل اعادة زراعتها لولا فقر وكسل الفلاحين أو بالأحرى لا مبـــالاة الحكام . والأرض التى تنتج هذه النبـــاتات هى فى واقع الامر صلبة لحد تستعصى معه على المحراث المصرى أن يشقها ،ومع ذلك فلماذا الاصرار على استخدام المحاريث لهذا النوع من الأراضى ؟ انها سوداء كالأرض المزروعة لـــكنها أكثر تماسكا ، ويبدو لى أنها ندين بذلك لوجود طمى بالغ النعومة قـــد تكدس على مر السنين وازداد جفافه اكثر فأكثر ، لأن الجزء الأكثر نعومة من الطمى هو الذى يقوم النهر بترسيبه جد بعيد من مجرى النيل ، وتشكل الأراضى من هـــذا النـــوع فى بعض

ألاحيان مراعى شاسعة تمتد حتى الريف ، وتجعل الحدود الحقيقية للأرض المزروعة غير مؤكدة ، ولهذه المراعى المليئة بالورود الحمراء والبنفسجية، شكل ورائحة جذابة ، لذلك فان حواف الصحراء على بعض المناطق مثل المير والأقصار وأماكن اخرى ، تبعث على البهجة أكثر مما يبعث عليها اى مكان آخر فى مصر التى تعرف بأنها لاتنمو بها الأعشاب .

هكذا يضطر العرب الذين يطردون من الأراضى المزروعة اذن على الهروب الى مشارف الصحراء أو الى أبعد من ذلك بقليل ، وبينما يظنهم الناس قد ذهبوا الى بعيد فانهم يكونون شديدى القرب من مصر ، ومن اولئك الذين يطاردونهم ، مختفين وراء تل من الرمال .. وهم يعرفون الآبار وكافة البحيرات والبرك التى يكونها الفيضان فيلجأون اليها عندما يتوغلون داخل الرمال . واذا ماتتبعت آثار جمالهم فستقودك هذه الآثار بالتأكيد الى اماكن توجد بها مياه صالحة . فلا يتخيلن احد أنه يسبب أذى للعربان اذا ماشن عليهم الحرب كما حدث ، فلسوف يعرفون مقدما أن هناك صفا من الجنود المشاة يجدون فى اثرهم ، عندئذ يحملون حبوبهم وخيامهم ويبعثون بها الى الأمام ثم يتجمعون كلهم فوق خيولهم ليتبعوا اشياءهم وبذلك يصبحون بعيدا عن متناولك قبل ان تدرك انت ما صاروا هم اليه ، واذا مالحقت بهم فسيدافعون بسهولة عن انفسهم ضد اناس منهكين قليلى العدد ، وهم يسببون لعدوهم من الأذى اكثر بكثير مما يسببه هو لهم ، وسرعان ما يرهقون مشاة نصف مهزومين بفعل العطش ،واخيرا فاذا كان عدوهم فى حالة تمكنه من دفعهم ، فانهم يهربون ويلحقون بجمالهم فى اعماق الصحراء لدرجة يستحيل مطاردتهم هناك .. وليس هذا هو كل شىء ، فعندما يعرفون ان صف الجنود قد مضى ، فانهم يستعيدون موقعهم بكل ثقة ، عارفين جيدا أن العدو لن يهاجمهم مرة ثانية ، أما اذا حدث ذلك ، فانهم على اتم استعداد للقيام بنفس التاكتيك ، الذى لا يسبب لهم على الاطلاق اى تعب ، ويهربون من المطاردة الثانية ، بسهولة أكبر .

وقد شاهدت كثيرا من القبائل تتصرف على هذا النحو فى مصر العليا ومصر السفلى ، ولم يستطع لا الفرسان ولا المشاة ان يسببوا لهم ادنى أذى ، وليس فى مقدور عدوهم أن يحطم لهم اى شىء اللهم الا هدم بعض

الأكواخ واشعال النار فى بعض اكوام القش . وللعرب مزية لا تقدر بثمن ، هى ان لهم داخل القرى نفسها مستودعات مضمونة للحبوب وللمؤن الأخرى التى قد تسبب لهم الارتباك عند هروبهم ، وهم يحصلون بلا مشقة على هذه الخدمة الجليلة من جانب شيوخ القرى وليس لأحد من سبيل للتعرف على هذه المستودعات .

وعندما طردت قبيلة أولاد على من ضواحى الاسكندرية فى صيف عام ١٨٠٠ فقد انسحبت هذه القبيلة الى الصعيد دون أن يخامر احد الشك فى (امكانية) حدوث ذلك ، اذ بينما كنا نظنها مقيمة فى ليبيا ، قدم أكثر من ألف فارس ليقيموا فى ادمو مع عدد هائل من الجمال ، وأردنا ذات يوم أن نفاجىء فريقا معاديا كبيرا منهم عند مدينة سمالوط ، لكن النبأ بلغهم فى الوقت المناسب فأنقذوا كل شىء على وجه التقريب دون أن يخسروا رجلا واحدا .

هل يستحيل اذن اللحاق بقبيلة معادية ؟

لو حدث أن كان لدينا العديد من فرق الجنود ، موزعة توزيعا جيدا ومسلحة بسلاح جيد ، يركبون الجمال ويحملون معهم مؤنا تموينية ومياها بحيث تهون من عملية مطاردة الفارين منهم لمدة خمسة أو ستة أيام فى الصحراء اذا اقتضى الأمر ، واذا أمكننا زيادة على ذلك أن نعتمد على جواسيس مخلصين ، فليس هناك من شك فى أننا فى النهاية سنلحق بالجمال المحملة ، فأسلاب كهذه هى بالتأكيد أكثر الأمور اغراء للجنود كى يواصلوا هذه الجولات المرهقة .. اذا حدث وتم لنا ذلك فلا يمكن أن تكون ثمة قبيلة عربية على الاطلاق ، ومهما كانت قوتها ، لا يمكنها الا أن تتحطم فى ظرف عدة أيام ، أو على الأقل ، تتبعثر وتحرم من نسائها وأطفالها وخيامها وجمالها ومئونتها بعد مطاردة كهذه تتم على يد خمسمائة فارس — جمال « هجانة » تتوفر لهم قيادة جيدة ، ومعلومات موثوق بها ومعرفة بالطرق الصحيحة التى ينبغى أن يسلكوها (٢٠) .

---

(٢٠) ينبغى أن نحكم على هذا الزعم عن طريق النتائج الأولية التى حصل عليها الفرنسيون عن طريق تنظيم مشابه أقاموه أثناء حملتهم على مصر .

هنـــا يثور سؤال آخر . هل يمكن عقد السلم مع قبيلة جوالة ؟ أم أنه ينبغى علينا أن نعامل كل القبائل من هـــذا النوع باعتبارها معادية ؟ دون أن نستثنى من ذلك حتى العـــرب المزارعين الـــذين يقيمون داخل مصر .

اذا ما وضـــعنا فى اعتبارنا أننا لن نحصل على أى نفع من وجود العرب ، بل وجدنا أنهم بالعكس قادرون على الاضرار بنا فى كل لحظة بدعم حركات التمرد والاسهام فيها ، وبتقويه صفوف جانب مناوىء لنـــا قـــد يظهر فى الأفق ، فسوف يكون لزاما علينا ألا نترك قبيلة واحدة فى حالة سلم ما لم يمنعنا من ذلك خوفنـــا من أن تنقصنا الجمـــال والخيول على الفور فى أسواق مصر . وفى الحقيقه ، فانه من الممكن أن نشجع تربيـــة هـــذه الحيوانات فى الأرياف وأن ننتج منها فى فتره محددة كميه كافيـــة ، لـــكن هذه الفترة لن تأتى الا بعد وقت جـــد طويل ، وهكـــذا سنجازف ـــ لو فعلنـــا ذلك ـــ بأن تنقصنا هذه الحيوانات فجـــأة وعلى الفور . ومع ذلك فان ثمة أسبابا هامة تدعونا بألا نسمح لأية واحدة من هذه القبـــائل الجديدة التى تأتى كل عام الى مصر بأن تثبت أقدامها فوق أرض البـــلاد ، فان أغرابا يعسكرون على ابواب بلد لا يمكنهم فى الواقع الا أن يكونوا أعـــداء مزعجين ، فأية كارثة يكونها أمثال هؤلاء القوم فى واد بمثل ضيق مصر ! وهل هى سياسة سليمة على الاطلاق أن تقاسى داخل البلاد من فرق معادية على هذا النحو وأن نظل « البلاد » راضخة لتجار الخيول هؤلاء ؟ وهل من الحكمة أن ندعهم ينتزعون الجزء الأكبر من أموال البلاد؟ بماذا تنبىء كل هذه الهجرات القادمة من بلاد البربر حتى ولو لم يكن بينهم العائلات التى تخرج من هذه البلاد ولديها هذه الرغبة المتأججة فى الاثراء على حســـاب مصر ، وهـــو الأمر الذى لم يعد بالنسبة لهؤلاء الا أمرا بالغ السهولة بفضـــل تراخى الحكومات ؟ واذا ما حسبنا حساب كل شىء لوجدنا أن من الواجب ألا نتفاوض مع هذه القبائل الجديدة، حيث أنه لا توجد معاهدة على الاطلاق لا تحتوى على منافع متبادلة .

اما عن العرب الملتزمين « أى الذين يقومون بوظيفة ملتزم » ، فاذا ما اعترفنا بأن ممتلكاتهم تعود كلها الى حوادث غزو ، وأن حوادث الغزو هذه تعود الى عهد جد قريب حتى أن الملاك الحقيقيين يستطيعون المطالبة

باستمادتها أو استرجاعها بأنفسهم فقد يكون من المحتم بلا جدال أن يطرد من مصر ، وبلا أى استثناء كل العرب الذين أقاموا فيها أو على الأقل أن نقلص من مكانتهم ليصبحوا مجرد مزارعين بسطاء ، وأن نجعلهم يعدلون عن حمل السلاح وركوب الخيل وان ينفضوا من حول رؤسائهم وأن يتخلوا عن نظــام القبيلة الذى يحكمهم واخيرا أن ندمجهم بالشعب .. ومع ذلك فان الأمر ليس على هــذا النحو ببساطة ، فكثير من القرى انما هى ملك خاص للعرب اذ يوجد فى صعيد مصر منذ وقت لا تعيه الذاكرة عرب ملاك بل ومستقلون ، كانوا على الدوام حكاما خلصا فى مقاطعــاتهم حتى فى زمن المماليك ، بل ان الكثيرين منهم هناك قد نالوا تقدير الناس لمــا لهم على الزراعة من فضل وما بذلوه فى سبيلها من عناية .

اذن فليس بالامكان سوى أن نلغى الابتزازات القديمة والحديثة وأن ندع للعرب الأراضى التى فى حوزتهم بفعل حق الملكية القديمة ، ومع ذلك فان الأمر يقتضى منا فى كل الحالات ان نمنع وأن نستبعد بكل شدة عادات وطباع الخيام ، فما أن يتفرق هؤلاء الفرسان فىالقرى، حتى يجدوا لزاما عليهم بالضرورة أنيهبوا أنفسهم للزراعة، وعندئذ سنرى انقطاع احداث السلب كما سينتهى بخاصة ذلك التمايز المحزن بين العرب والفلاحين ،وقد لايكون من الظلم أن نمنع هؤلاء الرجال من أن يقيموا خيامهم ، أو أن نبعدهم كلية عن البــلاد اذا ما قاوموا ، ذلك أن بلدا متحضرا ، من اليسير على راكبى الخيل أن ينهبوه ، لاينبغى له مطلقا أن يتسامح فى وجود هذا العدد الــكبير من العاطلين ، الذين ليس لهم من مقر ثابت والذين لا يتحملون مسئولية فعــالهم ويضعون أنفسهم فوق القــانون .

ومهما يكن من أمر فان المرء لا يســتطيع ان ينظر باســتخفاف الى التزايد المطرد فى أعداد هؤلاء الفرســان الطموحين ، الذين لا يخضعون لشىء ، والذين يهددون بغزو غير منظور لــكل الأراضى بل والسيطرة على البــلاد . ولربما نصحوا ذات يوم فاذا بالوقت قــد فات ، فلا نســتطيع أن نقاوم مائة قبيلة ، تضم كل منها خمسمائة فارس .. ألن يكون جيش كهذا ، اذا ماحدث أن تجمع ، قويا لحد يمكنه من السيطرة على مصر ؟؟

لنضف الى هــده القوة العسكريه قوة المــال الذى يتكدس دونما انقطاع فى أيديهم بنفس القــدر الذى قلنــاه عن العرب المزارعين . وفى

الواقع فان حصيلة بيع ماشيتهم ، والأجور التى يحصلونها من القوافل، ومنتجــات خيولهم وجمـــالهم وعائد تجـارتهم .. كل ذلك يؤدى لذهاب كميات كبيرة من النقود الى خيامهم ، وهذه تبلغ رقما لا يعود ١/١٠ منـــه الى مصر ثمنا لضرورات حياتهم ، لأن العرب يكادون لا يحتاجون لشيء .

ان النهم للمال والفضة عند العرب هو أولى غرائزهم ، فمجرد رؤية قطعة من الذهب تجعل أساريرهم تنفرج ، وتجعل الابتسامة ترتسم على شفاههم ، وهم لا يقدرون رجــلا الا لمــا يمتلك من المــال أو الا بقـــدر ما يأملون فى الحصـــول عليه منـــه ، واذا ما نقص مال هـــذا الرجل ، فسوف يجد فيهم اناسا لا يمكن الوصول اليهم أو الحصول على شفقتهم . ولـــكم شاهدت أبنــاء الاسكندرية البؤساء الذين عانوا من مجاعة مفزعة وهم يستجدون هؤلاء العرب شبه جاثين على ركبتهم والنقد فى أيديهم أن يبيعوهم بعض مكاييل من القمح لاطعـــام أسرهم التى ظلت على الطوى مدة يومين ، لـــكن العربان كانوا يرفضون البيع بالمدينى ، فقلب البـــدوى قطعة من صخر لا يمكن أن تلين الا على رنين الذهب ، والذهب وحده (٢١)

ويحتفظ العرب الرحل على الدوام ، ســـواء كانوا فى حالة حرب او فى حالة سلم مع حكام البـــلاد ، بعـــلاقات متينة مع بعض شـــيوخ القرى تؤمن لهم المواد والمعونات الخفية ، بمعنى أن هؤلاء الشيوخ يكونون على استعداد لاخفاء أمتعة هؤلاء البـــدو وحبوبهم وأشـــيائهم . ولربما أخفى شيخ عنده ذات نهار ما سرقته العرب منه هو شخصيا ليلة البارحة. ومع ذلك ، فهكذا قدر على الفلاحين أن يقبلوا يد قاتلهم ، فلقد سمعت

---

(٢١) كثيرة هى النقود التى كسبها العرب من الاسكنـــدرية أثنـــاء شهور الحصـــار الستة ، فبعد أن ضيق الانجليز عليها الخناق ، لم يعد بامكانها أن تحصل على أية مئونات من رشيد لاعن طريق البر ولا عن طريق البحر . وفى النهاية أمكن للعرب أن يدخلوا اليها بالحبوب بالطواف حول بحيرة مريوط ، وحيث لم يكن الناس يستهلكون هناك الا المواد الحيوية، وكان العرب وحدهم هم الذين يقدمونها بأسعار متزايدة ، فمن الواضـــح أنهم قد نزحوا من هذا المـــكان أكثر من مليونى قطعـــة ذهبية اذ كان يوجد هناك أكثر من الفى شخص ينفق كل منهم سكينا « عملة ذهبية قديمة » كل يوم ، بالاضافة الى أنهم كانوا يسلمون الينا كل يوم ١٣ الف جراية ، (حصة طعام الجندى فى اليوم) .

ألفلاحين يصفون بالطيبة والشرف هذا الفريق من العرب الذين لا يقتلونهم وانما يكتفون فقط بنهبهم .

وهذا الخطأ الذى يقترفه الشيوخ فى تقبلهم هذه المخازن السرية هو واحد من أهم الأخطاء التى تقود الى الدمار والهلاك . وقد رأيت من هؤلاء الشيوخ ، الذين أصيبوا بعمى البصيرة لحد يجعل منهم شهداء ثمنا لكلمة صدرت منهم ، يحتفظون بثروة العربان على حساب ثروانهم الخاصة ، بل وعلى حساب حريتهم ، بل لقد رأيت من بينهم من يتحملون عقابا مشينا . ويتلقون لوقت طويل عذاب الضرب بالعصى قبل أن يرغموا على الاعتراف على المخازن التى أوكلت اليهم . لكن هذا ليس من البطولة فى شىء فلست أحب هذا الوفاء للوعود التى انتزعت بفعل الرعب . لكننى ألوم هؤلاء « الشيوخ » لرعبهم وضعفهم ، وأعيب عليهم أن يجدوا أنفسهم بفعل وضعهم المزرى قد انساقوا الى العمل ضد الحكومة والى حماية أعدائها . وكم يتألم المرء وهو يرى العقوبات القاسية الى هذا الحد والمهينة الى هذا الحد وهى تطبق على مسنين يحظون بالتقديس بين ذويهم ، على رجال هم قضاة ورجال دين وسادة فى وقت معا وفى نفس المكان الذى يحكمونه . ولما كنت قد وجدت نفسى شاهدا على حوادث مماثلة ، فقد كنت آمل على الأقل أن أمثلة هذه القسوة سوف تخلص الشيوخ من عيوبهم هذه وأن سيكون بمقدورها أن تقود خطاهم نحو مصالحهم الحقيقية ، ولن تكون هذه المصالح مطلقا فى معاونة شذاذ آفاق يتعاقبون عليهم ، ويأتون لينهبوهم كل بدوره .. لكن هذه المصالح ستكون فى الارتباط بالحكومة التى تظل على الدوام هى هى ، ثم يطلب هؤلاء الشيوخ بعد ذلك دعمهم ضد قطاع الطرق هؤلاء فالضرائب التى يدفعونها للحكومة تعطيهم الحق فى هذه الحماية .

ومع ذلك فهكذا تمضى الأمور ، فشيخ البلد يقوم مرة باستقبال طيب للفرق « العسكرية » التى تمر بقريته لمطاردة العربان ، ومرة أخرى لهؤلاء العربان أنفسهم الذين يعاودون المرور بقريته بعد ذلك ، وسوف تكون سعادة هذا البائس مفرطة لو أنه لم يلق المهانة على يد أحد الفريقين عقابا له على استقباله الفريق الآخر وتقديم عونه للفريقين ..

ذات مرة وجـــدت فى اشميت حوالى العشرين من العربان الذين اشتهروا بالسلب ، وعنـــدما شاهدوا مجىء مقـــدمه جنودنا خرجوا من القرية ، وامتطوا خيولهم .. كان الطرفان « جنودنا والعربان » جـــد قريبين من بعضهما البعض لحـــد لا يمكن معه أن يستعد أيهما للمعركة ، فتلاصـــق العربان فيما بينهم واطلقوا بنـــادقهم من خلف ظهـــورهم ثم وضـــعوها مستقيمة فوق الركبة علامة على الحرب ، ثم مضوا فى تحـــد وفى شكل استعراضى ، وحيث كان عدد من تجمع من جنودنا لم يبلغ بعد : سبعة أو ثمانية . وحيث كان هؤلاء مرتبكين بأمتعتهم ، فقد اضطروا ان يتركوا هؤلاء يفلتون دون أن يجـــدوا فى أثرهم ، وأن ينتهزوا فرصـــه أخـــرى لعقاب هؤلاء اللصـــوص النهابين . وعلى الفور هـــرع الينـــا شـــيوخ القرية واستقبلونا بحفـــاوه .. وكان هـــذا الاستقبال الحافل هو نفس الاستقبال الذى قدموه منذ زمن قصـــير للعربان ، ولقد قالوا لنـــا عنهم الـــكثير من السوء ، بنفس القدر الذى قالوه عنا لهم ، دون شك .

رأينـــا من قبل أن العرب الجوابين يطعمون خيولهم ومواشيهم فى أغلب الأحيان على مشارف الصحراء ، من تلك الأعشاب التى تنمو هناك، لـــكن ذلك لا يحدث الا عندما لا يستطيعون ان ينهبوا العلف من الفلاحين، حين لا يكون أولئـــك البـــدو كثيرين للحـــد الذى يكفى للاقامة هنـــاك وعندما يخشون بعض المقـــاومة . أما فى الحـــالة الأخرى فلن ينقصهم العلف مطلقـــا ، ولن يحرموا من جانبهم شيئا على الاطلاق ، فهم يمررون خيولهم على المحاصيل ســـواء كانت ناضجة تمت ثمارها أو مازالت بعـــد عشبا أخضر ، ويجعلونهـــا تأكل القمح أو الشعير وهو لا يزال بعد نباتا صغيرا ، وانه لتناقض فريد أن ترى التلف الذى تحدثه الفرسات الطليقة بين القمح والبرسيم ثم نرى بعد قليل جواد شـــيخ القريه « وصـــاحب الحقل » مقيـــدا الى وتد يرعى الـــكلأ ونبـــات الحلفا ، ويحدث فى بعض الأحيـــان أن يشعر السكان بالمهـــانة من هذا السلوك ، وعندئذ ـــ اذا ما توفر لديهم بعض الفرسان ـــ يطبقون على العـــربان ولا يتردد هؤلاء مطلقا فى الهروب ، ولـــكن اذا ما فقد العرب رجلا فى المعركة ، فسوف تكون معركة لا تلوح لهـــا نهاية ، اذ يأتى أهل القتيل فى أعـــداد كبيرة يطالبون بالقصـــاص ، فلا ينـــالون بغيتهم ، وعندئذ يأتون ليحصلوا على ذلك بأيديهم ، وهنـــا تتبـــادل حـــوادث القتل والاغتيـــال الفردى بين

الفريقين ، فقتل عربي واحد فى قرية يمكن أن يعرض هذه القرية لانتقام قبيلة بأكملها لسنوات طوال ، ولابد من ارضاء هذه القبيلة على وجه السرعة ، اذا شاءت هذه القرية الا ترى نفسها وقد خربت ، وكم شاهدت من قرى لم تعد فى الوقت الحاضر ، وبعد أن مرت بحالة كهذه ، سوى اطلال هجرها سكانها لأنها تجرأت على خوض معركة ، كان العرب فيها هم المعتدين .

وعندما يأتى الفيضان ، ينسحب البدو نهائيا من العمل لمدة ثلاثة اشهر ، وتكون هذه الفترة بالنسبة اليهم هى ابأس شهور السنة واكثرها مدعاة للأسى ، فليس هناك ما يلطف قبظ الصحراء الرهيب ، تلك التى لا يجدون مناصا من البقاء فى اسارها ، ويحتم الأمر أن تقرض خيولهم اغصان التمرهندى ، لكن ذلك ليس بمتوافر على الدوام . عندئذ يضطرون خلال هذه الفترة أن يقدموا الشعير لخيولهم ، وان كان ثمة ما يزيد على ثمانية اشهر من شهور السنة الاثنى عشر لا يحدث فيها ذلك على الاطلاق .

وينتهى الفيضان، ولا يلبث محصول الذرة أن ينضج . . وعندئذ تبدأ جولات الغزو والسلب . وبالسوء حظ تلك القرى التى يبلغ ضعفها حدا لاتستطيع معه ان تذود عن محاصيلها ! ذلك أن الذرة هى خبز العربان ، وهى نفس الوقت خبز الفلاحين لكن الأمر ينتهى بأن **تؤول** الذرة — ولو فى جزء **منها** على الأقل الى الأولين . . الى هؤلاء الأكثر قوة .

ويكون طعام العربان الرحل عادة اكثر سوءا من طعام الآخرين، واغلب هؤلاء غير حسنى الهندام ، ولون ملابسهم حائل كما انهم اكثر استعصاء على التعب ، لذلك فملامحهم اكثر جمودا ، وهى صارمة على الدوام وقاسية . وزى الفرسان على الدوام أبيض اللون ، اما ملابس السيدات وملابس الراجلين منهم فذات لون قاتم . ويرى فى مخيماتهم كثير من الرجال يضعون عصابات على اعينهم كما يحدث فى مدن مصر؛ ذلك انه من الخطأ الاعتقاد بأن هؤلاء البدو لا يصابون بالرمد ، وهم لا يبذلون أى جهد ليحصلوا على الشفاء ، بل يظلون يلزمون خيامهم وينامون فى الظل كما تعودوا . وليس لهؤلاء العربان من عمل ثابت . وان كانوا على الدوام فى حالة حركة وفى حالة زحف ، وهم يذهبون كما

الضوارى الشهباء يبحثون عن فريستهم ، ولا يتوقفون الا حيث تستبقيهم الأســلاب .

وفضلا عن ذلك فان تقاليدهم وعاداتهم هى نفس عادات وتقــاليد العرب الآخرين . فهم راضـــون سعداء بحظهم فى الحياة وبما يملكون ، وكما ينــال الشيخ التقــديس من قبل قبيلته فان رب الأسرة يلقى احترامه من قبــل اسرته ، واذا ما امتلك الرجل منهم حصــانين وجملين واربعــة خراف وبندقيـــة وخيمة ، فلقد نال كل ما يبغى وتحققت كل رغباته وحيث لا توجد لهم فى الغالب من قوانين الا القوانين الأسرية .. وحيث لايدفعون اية ضرائب ولا يلتزمون باى التزامات اخرى فان مخيماتهم تبــدو صــورة مجسمة حقــة لحرية لا يتمتع بمثلها مجتمع آخر على الاطلاق . ولا يهتم بدوى ما الا بنفسه ومكاسبه وشــئون حيــاته هو وبفعاله ، وعندما يتم تجهيز قافلة فانه يؤجر جماله ويقــدر هو الثمن الذى يرتضـــيه دون أن يكون عليه أن يوضح امره لا لشيخه ولا لأحد آخر ، وهو يضخم من ماله الخاص عن طريق بيع الجمــال الصغيرة والفرسان الصــغيرة والبــان ضــأنه وعن طريق عائد التجارة التى يمكنه أن يمارسها . وبهذه الطريقة يبلغ سن الشيخوخة وهو مبجل عزيز على أولاده ويموت بعــد أن يكون قــد استمتع طيــلة حيــاته بأثمن ثروات الرجل : الصــحة والحرية . وعند موته يترك أبنــاءه وهم متزوجون ، بل وآباء ، أغنياء بثروته هو ، وبما يكونون قد كسبوه .

واكثر العرب بؤسا هم اولئــك الذين لا يمتلكون على الاطلاق خيولا ولا جمــالا لأنفسهم ، بل ولا خيــاما وان كانوا يمتلكون بعض الحمير التى يربونها ويبيعونها فى الأســواق ، لــكن هؤلاء الرجال لا يبــدون تعساء، فتعودهم على ضروب الحرمان يجنبهم عــدم التوافق مع الحيــاة ، وهم لا يرغبون فى ثروات يجهلونهــا أو ينظرون اليها على انها ابعد منالا مما قسم لهم ، لــكنهم سرعان ما يفلتون من هــذا القدر ، فحيث ان طموحهم الرئيسى ينحصر فى ان يكونوا ملاكا لفرس فانهم لا يلبثون أن يحصلوا على ثمنها عن طريق بيع بعض الخراف وبعض الحمير . وبعد اقتنــاء الفرس يتزودون فى اقرب وقت ممكن ببنــدقية وسيف . وفى النهاية يرى المرء هؤلاء النــاس ، فى اشــد حالاتهم بؤســا ، لــكنهم يشاركون شــيوخ

اقـــدم العـــائلات فى التبـــاهى بأنهم بدو ، يكنون الاحتقار للأوروبيين ، ولـــكل ماهو غير عربى ..

وعلى العموم ، فاننـــا لا نجد لدى البدو البسطاء الا الاشـــياء التى تعد من ضرورات الضروريات (٢٢) .

ولـــكن ينبغى الا نحكم بما نرى عند هؤلاء على رؤساء القبـــائل ، فمصادر دخل هؤلاء لا تجعلهم فى منزلة اقل من العرب الملاك ، وكبـــار شيوخهم وعائـــلاتهم وكـــذلك شـــيوخهم الشرعيون هم اغنيـــاء بالنسبة للمصريين ، فهم يحصلون على دخول كبيرة من القوافل ، ويتخذون العديد من الزوجات والـــكثير من الخـــدم ، وطعـــامهم بســـيط لـــكنه صـــحى ووفير ، والأسلحة الجميلة والخيول الجميلة ليست أمورا نادرة هناك ، ويشترى هؤلاء فى بعض الأحيان عبيدا سودا ليتخذوا منهم فرسانا .

وقلما تنقص البـــدو الذخيرة التى يطلقونها ، وهم يتزودون بها من قرى تصنع فيهـــا بشكل سرى ، ومع ذلك فهذه الذخيرة من نوع ردىء ، وتمدهم قرية الأشمونين الـــكبيرة بالـــكثير منها ، اذ يوجـــد هنـــاك من البـــارود اكثر مما يوجد فى اى مكان ، بفضل اتساع اطلال هرموبوليس الـــكبرى ، التى بنيت فوقها المدينة (٢٣) .

وعلى الرغم من ان العرب الرحل قلقون متوجسون فانه يحدث مع ذلك ان يؤخـــذوا على غـــرة وعنـــدئذ يكتفون — ما أن يلمحوا الفـــرق العسكرية — بترحيل خيولهم وجمالهم على وجه السرعة ، هـــذا ان لم يسعفهم الوقت باقتـــلاع خيـــامهم ، وعندئذ لا يبقى فى الخيـــام ســـوى النساء والشيوخ والأطفـــال ، ويستقبلك هؤلاء استقبالا طيبـــا ، فتظن نفسك فى معسكر صديقٍ ولست فى معسكر اعداء تجد فى البحث عنهم .

---

(٢٢) من هذه الضرورات التبغ، وان يكن ينقص الكثيرين منهم ، وهم يجدون فى البحث عنه ليتخذوا منه نشوقا وسعوطا ؛ وقـــد رأيت عربانا يدوسون على كبريائهم للحصول عليه ، لدرجة انهم كانوا يتحدثون بمودة مع جنودنا .

(٢٣) تهيىء هـــذه الخرائب ترابا تحدثنا عنه من قبل ، يحتوى على الـــكثير من ملح البارود .

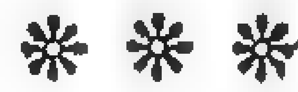
ومع ذلك فقد يكون من الميسور فى بعض الأحيان أن تنتزع قطعان ضخمة من الجمال ، لأن هذه القبائل لا تقيم لأنفسها حرسا على الاطلاق اذا لم تكن تعرف انها ملاحقة وأن ثمة من يجد فى أثرها . فهم فى العادة يعهدون بمئات من هذه الجمال الى ثلاثة رجال أو أربعة ليقودوها الى المرعى ، وفى بعض الأحيان تذهب كل جمال القافلة التى يبلغ عددها ألفين لترعى على بعد فرسخ من المخيم دونما حراسة من أى نوع ..

ولقد استقرت بعض هذه القبائل الجوالة منذ وقت طويل فى مصر ، وظلت على الدوام فى حالة سلم مع الحكومات ، بل تقدم اليها المساعدات ، ولا يمكن لأحد أن يوجه الى سلوكها لوما ، فهو فى مجموعه سلوك طيب لا يتعارض مع مصالحهم ويمكن أن نورد أمثلة على ذلك فى قبائل : طرابين ، الحويطات ، بلى .. وهؤلاء يقومون بكل قوافل السويس ، وسوريا ، ولولاهم لكانت تجارة البحر الأحمر عن طريق السويس بالغة المشقة .

ويختلف نطق اللغة العربية على لسان البدو تماما عنه على لسان الفلاحين .

ولا يمكن لنا أن نعد لهجة البدو جافة ، كما أنها لا تخلو من زخارف . ففيها بعض الرقة ، ويعتريها تناغم فى الصوت اكثر رخاوة، وتتآكل على لسانهم بعض المقاطع ولكن يعيبها أنها مبتورة وأكثر صعوبة . وهم يتحدثون على الدوام تقريبا بصوت خفيض ، وتكون اسنانهم حينذاك مطبقة ، ونبراتهم متنوعة ، وصوتهم منغما وغنائيا فى احاديث البسيطة ، وفى المناقشة الاعتيادية ، ويرفعأغلبهم صوته حتى يصبح ناقما ، ولم أسمع مطلقا حرفا يلفظونه أكثر نقاء من حرف الزاى، وبشكل أكثر جاذبية حرف الزاى اللاثغة « الذال » ويفعلون ذلك دون ان يخلط هذان الحرفان على الاطلاق ، وأخيرا فان كل مخارج الألفاظ الخاصة باللغة العربية ، بل وحرف الخاء والنغمات الحلقية تأخذ فى اقوالهم رقة خاصة تقترب من اللغات الأوربية وتثير الدهشة فى مصر، ويتضح هذا بشكل خاص فى نطق الجيم التى يلفظها الكثيرون ليس غير

معطشه كما يفعل أبنـــاء القاهرة وانما معطشة كما يفعل العرب بشكل عام ، ولـــكن يشوبها نوع من نطق الزاى على طريقة الأطفال أو الرجال المخنثين . وتسمع من اقوالهم حرف الثـــاء بشكل قاطع الرقة فى الكلمات التى يدخل فى تكوينها هذا الحرف . وقـــد سمعتهم مرات كثيرة يغنون أثنـــاء تجوالهم على الخيول فى لحن رتيب يخرج من الأنف ، وليس لكلماته معنى مفهوم ، ويكاد يتم الأمر بدون أن تفتر شفاههم ويلاحظ المرء فى هذا اللحن تكرار المقطع « ديا » على الدوام . ويتميز البـــدو عموما بهـــذه الطريقـــة فى الغنـــاء من بين أسنانهم . وفى النهاية فانهم يظهرون الكثير من الاحتقار للطريقة التى يتحدث بها المصريون ، وينطقون بهـــا اللغـــة العربيـــة .



ولقد تبدو الملاحظات التى كانت موضـــوعا لهذه المـــذكرة ، والتى تمت بشكل مبدئى فى مسرح الأحـــداث بهدف وحيد هو دراســـة العرب وتقاليدهم ، قـــد تبدو بلا هـــدف مالم تكن ترتبط باطار عام ، أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التى تقلق روح القارىء المنصف .

ولكى نكتفى فى هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات اهمية ، فان من الميسور أن نضيف الى ما سبق أن العرب المستقرين فى مصر يتزايدون اكثر فأكثر ســـواء فى أعدادهم أو فى قوتهم وأنهم سيستولون يوما على السلطة اذا لم يوضع حد لوقف غزواتهم . وفى الواقع ، فمهما تكن أصول واقـــدار هؤلاء العرب ســـواء هؤلاء الـــذين يســـكنون الخيـــام منهم أو أولئك الذين يقطنون القرى ، وسواء كانوا يزرعون أو يستزرعون الأراضى أو كانوا لا يشتغلون الا بالقوافل وتجارة المـــاشية ودواب الحمل ، وسواء كانوا ينتمون الى القبائل العربية القادمة من آسيا أو تلك التى قـــدمت من شمال أفريقيا ، وسواء تلك التى تعيش فى حرب أو سلم مع حكام البلاد ، فاننـــا نرى أنه تتوقد فيهم جميعا نفس الروح ، وأنهم يرون أنفسهم أعلى قـــدرا من أبنـــاء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل ، وأنهم ينظرون الى مصر باعتبارها عقارا خاصا بهم . ان خلاص هذه البلاد يكمن

فى الانقسام الحالى بين هذه القبائل ، الأمر الذى يعود بشكل خاص الى غيبة زعيم يتولى قيادتهم ويكون فى ذلك قويا وقادرا للحد الكافى ، واذا كان هناك حدث هام قد جاء ليشتت اهتمام حكام مصر ، فقد تكون الاشارة الأولى كافية لاطلاق الشرارة ، واذا كان يحق لنا ان نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل ، فلابد ان ينظر المرء الى هذا التطور باعتباره واحدا من اكثر التطورات التى تتهدد الشرق احتمالا .

أما عن طباع العرب كما صورتها ، فسوف يرى القارىء أن هذه الصورة ، لا تتفق فى كثير مع ما اشتهر عن هذه الأمة من النزاهة والصراحة ، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة . ومع ذلك فقد اردت أن أنقل الى القارىء باخلاص ، نفس الانطباع الذى تكون لدى وأنا بينهم ، فى مخيماتهم .

لقد كان على أن أقدم العرب كما قد رأيتهم فى مصر ، وليس كما هم فى أماكن أخرى . أما الأفكار التى راودتنى وأنا أراهم يسلكون ، والانطباعات التى إستولت على أثناء تدوينى هذه الأفكار ، فقد احتفظت بها لنفسى ، مقتنعا بأن للرحالة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ ، وأن عليه قبل كل شىء ، أن يولى اعتباره للمشاعر البسيطة التى شعر بها .

ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء ، الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ، وبخاصة ابناء شبه الجزيرة العربية ، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشىء عما قيل ، وانني أميل الى الاقتناع ، بأنهم ليسوا فقط اقل جشعا ، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقة ، ولكن ، فوق ذلك ، بأنهم يمارسون كرم الضيافة ، وبأنهم يصدقون فى ارتباطاتهم ، وفى بقية الأمور ؛ بل ان هؤلاء الذين رأيتهم فى مصر ، انفسهم ، لا تنتقصهم مطلقا الفضائل الأسرية ، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين ، فثراء البلاد التى يترددون عليها ، فى مقابل قحولة الصحراء ، يثير فيهم اكثر فأكثر ، الجشع والنهم والبخل ، أمهات الغدر والخيانة وكل الجرائم .

ومن جهة اخرى ، فان مثـال المصريين والمماليك ، لم يفعل سوى ان اضاف الى عيوبهم ؛ فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلونهـا فى صحروانهم ، واذواقا غريبة على تقاليدهم البسيطة والأبوية ، والتى تشكل الطابع المميز للعرب ، وهو طابع ملحوظ لحد ظل معهم على نفس حاله منذ زمان لا تعيه الذاكرة ، دون أن تعتريه سوى تحورات بالغة الرهافة، على الرغم من أن دين محمد ، قـد بوأ هـذه الأمة عروشا كثيرة ، في آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا .

الدراسة السابعة :

القصير والعبابدة

دى بوا - إيميه

العنوان الأصلى للدراسة : مقالة عن مدينة القصير وضواحيها ، وعن الأقوام التى تسكن هذه المنطقة ، التى كانت ، فى الأزمنة القديمة ، مقرا لسكان الكهوف ..

تقع مدينة القصير على شواطىء البحر الأحمر ، عنــد خط عرض ٥١ ٥٦ شمالا ، وخط طول ١٢ ٤٤ ٣١ ، وهى تنهض بالقرب من الشاطىء ، فوق ساحل رملى ، يبلغ مائتين وخمسين مترا ، أما عرضها فلا يزيد على مائة وخمسين من الأمتار .

وبيوت هذه المدينة منخفضة ، وهى مبنية عادة من الطوب النيىء. واليكم هــذا الوصف الموجز للتقسيم المعتــاد لهــذه البيوت : ثمة فناء كبير ، وفوق البــاب مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى هذا الطابق العلوى بشرفة ، أما الطابق الأرضى ، فيضم حجرة أو حجــرتين بالغتى الضيق ، يلتصق بهما من الخلف جــدار السور . ويستخدم الفناء مخزنا، وان كان هذا أمرا لا يخلو من عيب ، فى بلد لايندر به سقوط الأمطار .

وليس ثمــة بيت غــير مزود بخزان للميــاه . وتأتى الميــاه التى يستخدمها الأثرياء من عين تسمى درفاوة التى تقع على بعــد ثمانيــة أو تسعة فراسخ من المدينة ، ومياه هذه العين طيبــة لحد ما ، وتباع فى القصير بسعر ٢٠ـــ٣٠ بارة للقربة الواحدة (١) ، وتزن هذه حوالى تسعة كيلوجرامات . وعلى بعد أربعة أو خمسة فراسخ ، توجد عين مياه اخرى وان كانت مياهها اقل جودة ، واخيرا ، فقد حفر الفرنسيون على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المدينة بئرا يبلغ عمقها مترا واحــدا فى مجرى جاف لأحد الأخوار ، ومياه هذه البئر ليست مالحة على الاطلاق ، وان كانت ماسخة الطعم بقدر ماهى ثقيلة ، الأمر الذى ينبغى أن ننسبه الى سلفات الجير التى تحتفظ بها الميــاه بعد تحللها . ويمكن لهذه البئر أن تمد بالمياه ما يقرب من ستمائة رجل كل يوم .

ومآذن المساجد هناك أقل ارتفاعا بكثير عن مثيلاتها فى مصر ، مما يعطى ملمحا للقصير مختلفا عن بقية مدن هذه البلاد .

---

(١) بارة أو مديني وهى عملة صغيرة تساوى حوالى ٩ drachmes أى درهم ، وهو نقد رومانى ثم فرنسى ضئيل القيمة .

أما القصر ، فيقع خلف المدينة ، ويتحكم فيها بشكل تام ، فهو مشيد فوق هضبة مرتفعة من الجير الحجرى ، مغطاة بزلط مستدير الشـكل ، يتجمع فى سلسلة من تلال تتكون كلها من هذا الزلط المستدير من مختلف الصخور ، وتعـد هذه التلال التى تنحدر نحو البحر، بمثابة نهاية لسلسلة الجبال العالية التى تحد الأفق من جهة الغرب .

وكان هـذا القصر عند مجىء الفرنسيين ، عبـارة عن معين تعلوه اربعة ابراج ، ويبلغ سمك جدرانه من ٢٦ الى ٣٠ **ديسيمترا** . وهى مبنية بالحجر الجيرى ، ولا يحتوى القصر الا على عدد صغير من الغرف . كما يضم بئرا محفورة بأكملها فى الجص ، مياههـا بالغـة التقـل ومائلة للملوحة وتكاد لاتستخدم الا فى سقاية الماشية . وعلى بعد مائة خطوة من الواجهة الجنوبيـة الغربية خارج القصر ، يوجـد خزان ميـاه قـديم ، مكسو بالطوب يمكنه أن يحتوى على ٤٥ مترا مكعبا من الميـاه ، وينتهى الى قاع الخزان مسارب عديدة ، تهبط من التلال المحيطة والمجـاورة ، بحيث يمتلىء الخزان بشكل طبيعى بالمياه فى فصل الأمطار .

وفى الجهة الأخرى من الحصن (القصر) كان يوجد مسجد وعديد من الأضرحة أو المقابر هدمها الفرنسيون .

ولا يقطن هذه المدينة الا تجار قادمون من مصر ومن الجزيرة العربية، ويتوجه هؤلاء وأولئك اليها لاتمام أعمـالهم ، ومع ذلك فليس لهذه المدينة سكان بمعنى الكلمة : بل ان شيوخ المـدينة أنفسهم هم تجار من ينبع ، اكتروا من الحكومة المصرية جزءا من الضرائب الجمركية (اى حصلوا على التزام الجمارك هناك) .

وضواحى القصير صحراوية تماما ، وفيما عدا بعض نباتات الحنظل، وهى مع ذلـك نادرة ، لا يكاد المرء يرى أى نوع من الخضرة . والأرض هناك رملية ، وان كنا نجد عند الاقتراب من البحر طبقات من الصلصال، على عمق بضعة ديسيمترات تحت الرمال .

والميناء مفتوح تماما أمام رياح الشرق ، أما من جهة الغرب فتحمى الشـاطىء من الشمال هضـبة من الشعاب المرجانية تمتد لمسافة مائتين وخمسين مترا داخل البحر ، وهذه الهضبة تنحدر بشكل رأسى ، وتأتى

السفن لترسو عندها ، فهى على نحو ما مرفأ طبيعى بناه المديخ (*) فى هذا المكان ، لكن المياه تغطيها فى حالات المد العالى بحوالى ثلاثه ديسيمترات ، أما فى حالات المد المنخفض ، فيبدو سطحها خشنا وعرا لحد لا يستطيع المرء معه أن يسير فوقه الا بمشقة بالغة . ومن المدهش حقا أن السكان لم يفكروا فى رفع هذه الهضبة قليلا (عن طريق الردم فوقها) لكى يقيموا فوقها مدينتهم ، ولو أن ذلك قد تم لكان بالامكان تحميل وتنزيل البضائع بسهولة بالغة ، أما فى حالتنا الراهنة، فان الناس مضطرون لنقل البضائع فى قوارب لا يمكنها أن تقترب من الشاطىء الا لمسافة ثمانية أو عشرة أمتار ، حيث يصبح البحر ضحل العمق كلما اقتربنا من المدينة ثم يكون عليهم بعد ذلك أن يخوضوا فى المياه ، حاملين البضائع فوق أكتافهم .

أما قاع الميناء فهو من الرمال ، وهو مستو بعض الشىء ، ومع ذلك فحيث أن قلسات (حبال) غالبية السفن العربية رديئة — اذ تصنع من التيل أو حتى من سعف النخيل (٢) ، مما يجعلها ضعيفة لحد كبير بالنسبة لمثيلاتها المصنوعة من القنب — فانها (أى السفن العربية) تتعرض فى بعض الأحيان لحوادث قد لا تصيب مطلقا غيرها من السفن الأفضل تجهيزا .

ويشكل الميناء عند الغرب منحنى مقعرا ، تحيط به سلسلة من أحجار مرجانية ، وينتهى بصخرة من نفس النوع ، تتوغل داخل البحر بحوالى خمسمائة متر جهة الشرق ، وعلى بعد حوالى الف متر من هذه الصخرة، وبحذاء الساحل ، يقابل المرء صخرة اخرى يبلغ طولها ١٫٢٠٠ متر ، وهى بالمثل من المرجان ، وتغطيها المياه عندما يكون المد عاليا ويبدأ الشاطىء (البلاج) ، الذى يظل شديد الانخفاض حتى هذه النقطة ، فى الارتفاع ، وسرعان مايشكل تلالا من الزلط المستدير .

ويقع ميناء القصير عند مداخل وديان تؤدى كلها الى مصر ، وقد

(*) جنس حيوانات بحرية من المجوفات .

(٢) تصنع هذه الحبال من السعف الذى يغطى أغصان النخيل .

ادى ذلك الى حتمية اختياره على الدوام مستودعا لتجارة مصر العليا مع الجزيرة العربيــة . وترســل مصر الى هنــاك فى الوقت الحــاضر ، القمح والدقيق والفول والشعير والزيوت ومواد غذائية اخرى ، وترسل الجزيرة العربية البن والفلفل والصمغ والموسيلين وبعض الأقمشــة من صناعة الهند (٣) .

واثناء اقامتى فى القصير ، ابتداء من الأول من بريريال من العــام الســابع حتى منتصــف ترميدور (من منتصــف مايو ١٧٩٩ حتى بداية اغسطس) كانت الرياح التى تهب على المينــاء قادمة من شمال الشرق ، وقد دخلت الى الميناء خلال هذه المدة خمستون سفينة ، يبلغ عدد اضخمها تسع أو عشر سفن ، كانت قادمة من جدة ، وكان خمس أو ست من هذه السفن مملوكة لعرب الساحل ، وكانت السفن الأخرى قادمة من ينبع . ولم تكن هذه السفن ذات سطوح على الاطلاق ، وهى تتبع الساحل على الدوام فى رحلاتها ، وعندما تكون الرياح بالغة الشــدة فانها تحتمى فى خلجان الساحل الصغيرة ، فهى لا تمخر عرض البحر الا اذا كانت تريد عبوره

هنــا يسمون البحر الأحمــر بالبحر المــالح ، أما فى الســويس فيسمونه بحر القلزم ، ويبلغ اقوى مد للبحر رأيته فى القصير حوالى ٨ ديسيمترات ، وان كان فى العادة لا يتجاوز ٥ ديسيمترات ، بينما يبلغ مد البحر فى السويس حوالى المترين .

وبطول الساحل ، يجــد المرء كميات كبيرة من الاسفنج والمرجان وقواقع تتنوع الوانها بالغــة الجمال ، ومن جهة اخرى فالســاحل هنــا غزير الأسماك ، وأستطيع أن أقــدم فــكرة عن ذلك ، اذا ماتحدثت عن الطريقة التى كان الجنود الفرنسيون يصيدون بها السمك ، فقــد كانوا يأخذونه أخذا بأيديهم ، بعد أن يقتلوه بضربة من السيف أو العصا .

وتسكن هــذا الساحل قبــائل من صيادى الأسماك ، كان لهــا

---

(٣) لمزيد من التفاصيل ، انظر : دراسة موجزة عن تجاره الصعيد مع الجزيرة العربية ، وصف مصر .

مخيم على شـــاطىء البحر الى الشمال من القصير ، هجره سكانه عنـــد قدومنا ، وكان كل كوخ من اكواخ هـــذا المخيم مغطى بعظام السلاحف . ولا تعيش هذهالشعوب الا على أكل الأسماك وهم يحصلون عليها بالشباك أو على أسنة الرماح ، ويجففون منها كميات كبيرة ، ويأتون الى القصير ليقايضوا بها بعض الأشياء اللازمة لهم . ويستخدم هذا السمك المجفف فى تموين الســـفن . أليس ممـــا يلفت النظر أننـــا قـــرأنا فى حكايات الأقـــدمين (٤) أن الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كانت تسكنه شـــعوب جوابة آكلة للأسماك ، كان من بينهم شعب من آكلى السلاحف (٥) ، وكان افراده يستخدمون صـــدفات هـــذه السلاحف لتغطية اكواخهم ؟ هكـــذا اذن أمكن لهـــذه القبـــائل الضعيفة أن تفلت من حكم الزمن ، وأن تعبر القرون تلو القرون ، محافظة على حريتها وعاداتهـــا ، فى حين تقلبت أحوال أمم كثيرة بالغـــة القوة ، فتغيرت انظمتها وحكوماتها بشـــكل تام ، وتغيرت مع ما تغير عاداتهـــا ، وفى نفس الوقت الذى اندثرت فيـــه أمم أخرى ، فلم يعد هنـــاك ما يدل عليها الا ما نقرؤه عنهـــا فى حوليـــات المؤرخين . ولـــكن دهشتنا ازاء ذلك لابد على الفور أن تتوقف ، فالبؤس فى واقع الأمر لا يثير اطمـــاع الآخرين وحنقهم ، وهكذا سوف تظل البلاد الخصيبة ترى على الدوام ســـادة جددا ، فى حين تبقى رمال الصحراء القاحلة ملكا لآخر احفاد ملاكها الأول .

ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة شعب يستحق ــ بسبب تشـابهه مع سكان الـــكهوف القـــدامى ــ أن ندخل فى بعض التفاصيل حول عاداته وتقاليده ، **هؤلاء** هم العبابدة ، وهم أبنـــاء قبيـــلة جوابة تشغل الجبـــال الواقعـــة الى الشرق من نهر النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم : Troglodytique « اى سكان الكهوف » ،

---

(٤) أنظر بطليموس Patlymouth ، الـــكتاب الرابع ، سترابون Strabon ، الـــكتاب السادس عشر ، بوزاميـــاس Pozamias الـــكتاب الأول ، ديودور الصقلى ، الـــكتاب الثالث والثلاثون ، بلين ، الـــكتاب السادس .

(٥) يضع ديودور الصقلى اكلة السلاحف فى جزر قريبة من سواحل اثيوبيا ، ويذكر بلين أن بعضا منهم يوجدون بالقرب من الخليج الفارسى .

وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن (الشرقى) للنيــل أهمها دراو ، الشيخ عامر ، الرديسية .

ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العبــابدة ٢٣ مدينى عن الجمل المحمل ومكيالا صــغيرا (٦) من القمح أو الفول أو الدقيق أو الشعير حسبما يحمل الجمل ، كما يأخــذ العبــابدة عينا ١/٢٠ من الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى ، من تلك الأنواع التى تصل الى القصــير . وقــد اقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحى هذه المــدينة بقصــد منع أى نوع من التهــرب (من الاتاوة) من جانب التجار ، ومن جهة أخرى فقد كان العبابدة ملزمين — فى مقــابل هــذه الاتاوة — بالسهر على تأمين الطريق وحراسة القوافل ، لكنهم لايتعهدون مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصــة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب عربان الحويطــات الذين ينتشرون فى هــذه الصــحراوات حتى قلزم السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين (العبــابدة والحويطــات) حرب مستمرة منذ زمان لاتعيه الذاكرة .

وفى وقت معين ، عندما يشــكل القمح والمواد الغــذائية الأخرى التى يقدمها التجار أكواما هائلة وســط المخيم ، يتزايد عدد العبابدة ، ويبدأون يمارسون تقسيم هذه الحصيلة فيما بينهم . ولم أتمكن من الحصول على اية معلومات حول الطريقة التى يتم بها هذا التقسيم ، ومع ذلك فمن الممكن الافتراض أن الأمر لا يتم على الدوام وفقــا « للذمة والأمانة » اذ ينتهى بمشاجرات فى معظم الأحيان .

وعدد الخيول لدى العبابدة بالغ القــلة ، فهؤلاء لا يركبون ســوى الهجين (٧) ولا يختلف هــذا الهجين عن الجمل الا فى أن قامة الأول اكثر رشــاقة بكثير ، كما أنه اكثر خفــة وسرعة اثنــاء الجرى ، ولا تشبه السروج التى يستخدمها العبــابدة لجمالهم على الاطلاق تلك التى تستخدم فى مصر ، اذ هى تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة الى بعضها البعض بسيور من الجلد ، كما انها ليست ضخمة الحجم ، ومع ذلك يجد

---

(٦) ١/٢٤ من الأردب .

(7) Dromadaire des Naturalistes.

الانسان نفسه فيها مستريحا بشكل تام لأن الخشب محفور بطريقة تجعل السطح مقعرا مما يمنع الجسم من أن « يحمل » على جانب واحد ، وفى العادة يبسط فوق هذا السطح المقعر جلد خروف ، ومن فوق هذه السروج ، لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا، لكنه يكون جالسا ، وساقاه ممتدتان الى الأمام ، تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الهجين .

ويربى العبابدة عددا هائلا من الجمال ، يؤجرون أو يبيعون جزءا منها للقوافل ، وهذا فيما اعتقد هو مصدر الجزء الأكبر من دخولهم ، وهم يجنون من جبالهم كمية كبيرة من السنامكى والصمغ العربى، كما يستغلون هناك النطرون والشبة وبعض المواد المعدنية الأخرى . فاذا ما أضفنا الى ذلك بعض العبيد الذين يجلبونهم من الحبشة ، فسوف نكون فكرة عن أهم السلع التى يأتى العبابدة ليستبدلوا بها فى أسواق مصر العليا ، الحبوب والمنسوجات والآنية من كل نوع ، وكل مايحتاجون اليه .

والعبابدة مسلمون ، لكن البلاد التى يقطنونها وكذا الحياة النشطة التى يحيونها على الدوام ، لا تمكنهم من اتباع كل مبادىء هذه الديانة باخلاص وورع .

ويتباهى العبابدة بأنهم شعب محارب ، واذا ما بادرت أحدهم بالسؤال : من أنت ؟ فانه يجيبك على الفور فى زهو واعتداد : أنا جندى. ولقد أجاب على هذا النحو كل الذين بادرتهم بهذا السؤال .

ويزعم العبابدة بأن بامكانهم ان يضعوا تحت السلاح الفى رجل، ولعل هذا تقدير مبالغ فيه ، وينبغى أن نتشكك فى صحته ، ولو على الأقل ، تبعا لذلك الميل الذى يغرى الناس عادة بالمبالغة فى قوة أمتهم .

وتتيح لهم طريقتهم فى الترحال أن يجتازوا بلدا صحراويا بالغ الاتساع ، فيقطعون ما يبلغ مائة فرسخ فى أربعة أيام ، ويحمل معه كل راكب هجين ، ثلاث قرب تتدلى بطول السرج : واحدة مليئة بالفول ،

واخرى بالمياه ، اما القربة الثالثة وهى أصغر فتمتلىء بالدقيق . وفى بعض الأحيان ، وبعد أن يكونوا قد تجهزوا على هذا النحو ، يتجمع العبابدة ويتوغلون لمسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخا فى الصحراء، ليباغتوا بالهجوم قبيلة هم فى حالة حرب معها ، أو ليكمنوا ، فى انتظار مرور قافلة يبغون انتهابها .

ويختلف العبابدة اختلافا تاما فيتقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم ، وبنيتهم الجسمانية عن القبائل العربية التى تشغل مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة يحلقون رءوسهم ، ويرتدون العمامة ، ويلبسون ملابسهم ، ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طولها من أربعة الى خمسة أمتار ، وسيوف مقوسة للغاية .. الخ .. أما العبابدة فسود البشرة ، لكن ملامحهم تتشابه فى كثير مع ملامح الأوربيين ، وشعرهم جعد بشكل طبيعى ، لكنه ليس كوبر الصوف ، وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم ، اذ هم لا يحلقون رءوسهم مطلقا. وتنحصر ملابسهم فى قطعة من القماش يعقدونها أعلى الكليتين ، ولا تتدلي لأبعد من منتصف الفخذين .

وحيث أنهم يتعرضون شبه عراة لهذه الشمس الحارقة فانهم — وذلك دون شك لكى يخففوا من اثرها ولكى يحتفظوا ببشرتهم ناعمة — يدهنون كل جسمهم بالدهون . بل انهم يضعون كمية منه فوق رأسهم قبل أن يكون قد ذاب بشكل تام ، حتى ليظنن المرء انهم يضعون المساحيق على طريقة الأوربيين . وشيوخهم ، هم وحدهم الذين يرتدون العمامة فى بعض الأحيان ، بالاضافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب .

وليست لدى العبابدة أسلحة نارية على الاطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ — ١٨٠ سم ، وبسيف مستقيم ذى حدين ، وبسكين مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى ،ويحمل بمثابة سلاح دفاعى — ترسا مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ٦٠ — ٧٠ سم .

ويعرف العبابدة اللغة العربية وان كانت لهم لغة اخرى خاصة بهم.

وربما كان هؤلاء ينحدرون من أصلاب تلك الشعوب الجوابة التى كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم ، والتى حدثنا عنهم المؤلفون القدامى (٨) فالتر جلوديت Troglodytes (أى سكان الكهوف) كما يذكر هؤلاء المؤلفون ، كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد، ورماحا ، وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا يمارسون الختان ، وأخيراً فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون بالحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام، وتمارس هذه الطريقة حتى اليوم عند العبابدة ؛ وفى واقع الأمر ، فقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى أكوام عديدة من الحجارة ، كانت هى مقابر لبعض العبابدة الذين قتلوا فى احدى المعارك ، وقد رأيت كذلك فى منتصف الطريق ، على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ، تلالا من الحجارة ، وقد قيل لى أن من المحتمل أن هذه الحجارة تغطى جثة احد أثرياء التجار ، قد قتل على يد العربان .

ويبدو ان ديودور الصقلى كان يخشى ، وهو يدون منذ ثمانية عشر قرنا ، أن يحمل الناس ما يقصه عن سكان الكهوف (الترجلوديت) على انه خرافات ، وها نحن نجد من جديد على نفس الأرض ، وبنفس الطريقة ، نفس الأسلحة والجزء الأكبر من استخداماتها الكثيرة — وانه لأمر يبعث على الدهشة حقا أن يكون بمقدورنا على هذا النحو ، وبعد انصرام كل هذه القرون ، أن نكون شهودا على صدق مؤرخ .

ولم نشاهد اية خيمة فى ذلك المعسكر الذى كان للعبابدة بالقرب من القصير . وفى أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس ، يضع الرجل من هؤلاء على الأرض سرج جمله ، ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثله فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ، ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف ، وهكذا ينهض بيت ، قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع أكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات . ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة

---

(٨) سترابون ، الكتاب السادس عشر ، ديودور الصقلى ، الكتاب الثالث .

كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم اشاهد فى هذا المعسكر نساء على الاطلاق ، ومن المحتمل الى حد كبير ان تكون الأكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها نساء ، اكثر من تلك اتساعا لحد طفيف .

ولقد دفعنى الفضول مرات كثيرة للذهاب الى العبابدة ، وكنت على الدوام القى استقبالا طيبا ، كنت الفرنسى الوحيد الذى كانوا يرونه بشكل اعتيادى ، وسرعان مانظروا الى كواحد من اصدقائهم ، وكنت شاهدا لمرات كثيرة على مباهجهم وضروب لهوهم .

وليس للرقص عندهم اية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع الذى للمصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبارزات، فيتسلح الراقصون بالرمح او السيف وبالدرع . ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة . وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ، وفى كثير من الأحيان ، يندفع احد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ، ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى ان يجيب عليها بكلمة : عبابدة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .

وليس فى موسيقاهم ذلك الشجن وتلك الرتابة اللتان لموسيقى المصريين : والعازف هو الشاعر نفسه فى ذات الوقت ، وتدور أغانيه حول امتداح امجاد قبيلته والشجعان من ابنائها . وفى بعض الأحيان كذلك تتخذ من العشق موضوعا لها . ويجلس القوم من حوله يستمعون فى صمت وهو يغنى فى مصاحبة نوع من الماندولين ، وفى هذه الحالة تستطيع أن ترى المرح أو الخوف ، الشفقة أو الغضب يرتسم كل بدوره على وجوه السامعين .

ويبلغ عدد الوديان التى يمكن لنا أن نسلكها كى نتوجه من القصير الى مصر اذا ما سلمنا فى ذلك بما اخبرنا به العبابدة ، ستة وديان او سبعة ، ويبلغ طول ذلك الوادى الذى عبرته مرتين حوالى الأربعين فرسخا ، تنبسط ابتداء من القصير حتى بير الأنبار .

وفى البداية يجد المرء على بعد فرسخين من القصير ، ذلك الخور

المسمى لمباجة (٩) ، ومياهه صافية شفافة ، لكنها ثقيلة ومذاقها غير مستساغ ، ويزعم العرب أنها ضارة بالصحة الى حد كبير ، ولذلك فهم لا يستخدمونها الا لجمالهم ، ومع ذلك فقد شربت منها ، وفعل نفس الشيء كثير من الفرنسيين دون أن يصيبنا منها اى أذى . وعلى شواطىء هذا الخور يرى المرء بعض اشجار النخيل ، وقليلا من الخضرة والوفا من الطيور ، وبخاصة الحمام البرى الذى اقام هناك اعشاشه، وهو يسكن فى تجويفات الصخور ويعيش على الحبوب التى تتساقط من القوافل .

ولا يمكن أن يعد اللمباجة شيئا فى بلاد خصيبة أما فى وسط العزلة وبين قحولة الجبال الجرداء فان خورا وبضعة اشجار بالاضافة الى بعض الكائنات الحية تكفى لتجعل من المنطقة مكانا بهيجا . ولعل هذا التعبير لن يبدو مبالغا فيه بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم أن استراحوا فى هذا المكان وهم يعبرون هذه الصحراء . ولسوء الحظ ، فان مياه هذا الخور تضيع فى الرمال على بعد مسافة قصيرة من منبعه . ومع ذلك ففى فصل الأمطار يصبح هذا الخور فى بعض الأحيان نهيرا بالغ الاهمية يصب فى البحر بالقرب من القصير .

وعلى بعد اربعة عشر فرسخا من هذه الواحة الصغيرة يجد المرء عيونا تسمى المدوة ، وهذه عبارة عن ثقوب محفورة فى الرمال فى سفح هضاب منحدر من الشست ، وابعد من ذلك بفرسخ وربع الفرسخ، يجد المرء عين مياه مشابهة تسمى الأحمر ، كما يلمح هنا وهناك بعض الأكاسيا (السنت المستحية) (١٠) وقد عددتها فوجدتها تبلغ العشرين فى كل مساحة الوادى .

وقد قطعنا المسافة من الأحمر الى الجيتة فى ثلاث عشرة ساعة

---

(٩) قبل الوصول الى اللمباجة ، يلمح المرء على اليمين ، المحاجر التى استخرجت منها الأحجار والتى استخدمت فى بناء القصير .

(10) Mimosa nilitica.

ونصف الساعة ، هناك تتجمع الوديان الأخرى ، وآبارها بالغة الاتساع ، يكسوها القرميد ، وثمة منحدر يسمح للحيوانات بالنزول حتى سطح الماء ، وعمق هذا المنحدر لايزيد عن متر تحت سطح الأرض ؛ ويلمح المرء بالقرب من الآبار بعض بقايا الأبنية القديمة ، وخانا صغيرا يستخدم لايواء المسافرين .

وابتداء من القصير حتى ما قبل الجيتة بحوالى فرسخ كنا نسير على الدوام بين جبال عالية وعارية ، من الحجر الجيرى ، والشست ، والجرانيت ، والحجر الرملى ، والرخام ، تتباعد قليلا بعضها عن البعض الآخر ، بل ثمة بعض السلاسل التى لا يتجاوز عرضها ١٢ — ١٥ مترا ، وهناك تسد قطع الصخور الطريق لحد أن جملين محملين ، يسيران فى طابورين يجدان صعوبة فى ان يمرا فيها معا فى وقت واحد ، لكن الوادى عند الجيتة يبدأ فى الاتساع لحد كبير وسرعان مايشكل سهلا واسعا من الرمال ، ينتهى فى اتجاه مصر بسلسلة من تلال صغيرة من الرمال والزلط المستدير .

بعد الجيتة ببضعة فراسخ لمحنا على البعد ارضا مزروعة ، آه !. كم بدت مصر جميلة فى عينى فى هذا الوقت وهى التى قلما بدت لى مقبضة على النحو الذى مضى . وهذه الغابات من اشجار النخيل التى لا يكاد المرء يحس بأن لها ظلا .. كم جعلتنى افتقد غابات وطنى ! وكم بدت لى مقرا للنضارة والانتعاش ! اما النيل .. ايمكننى حقا أن اصور ما شعرت به ما أن رأيته عند خروجى من تلك الصحراء التى قضيت بها مدة ثلاثة اشهر ؟ كانت الخماسين تهب عندئذ بلفحتها الملتهبة ، لكن هذه المياه العذبة ، موطن امانينا ، كانت تخفف من التأثير السيىء لتلك الرياح ، فكم يخفف الأمل فى خير قريب من الم الحاضر ، وعلى الرغم من اننا كنا متعجلين ، عطاشى وجائعين فقد منحنا الخيال الفاكهة وماء النيل ، واسرعنا من عدو جمالنا ، فى حين كنا طوال الطريق منذ القصير نسير فى خطو وئيد .. ولقد استمر هذا العدو مدة ساعتين لكننا كنا رجالا وجمالا ، قد نسينا التعب وسرعان ما وصلنا الى بير الأنبار .

وبير الأنبار هذه قرية صغيرة تقع على تخوم الصحراء والأرض المنزرعة . وهى تبعد بحوالى فرسخ وربع الفرسخ على مدينة قفط

القديمة ، الواقعة على بعد نصف الفرسخ من نهر النيل ، وعلى بعد ثمانية او تسعة فراسخ من الجيتة . وتتبع هذه القرية قبيلة العزايزى العربية ، ويجد المرء بها آبار مياهها بالغة الجودة فى أوقات الفيضانات، اما فى أوقات المياه الواطئة فانها تكتسب مذاقا غير مستساغ ، هو طعم الأيدروجين المخلوط بالكبريت . ويعود هذا الطعم دون جدال الى قذارة الآبار .

استغرق وصولنا من بير الأنبار الى قنا — وهى مدينة صغيرة على ضفاف النيل — اربع ساعات ، وهذه المدينة هى ملتقى القوافل التى تضطلع بتجارة القصير ، وتلك كانت نهاية رحلتى .

والوادى الذى انتهيت من وصفه هو الوادى الذى يسلكه عادة حجاج مكة والتجار الذين يمارسون التجارة مع الجزيرة العربية .

وقد دلنا بروس Bruce وبراون Browne وهما رحالنان انجليزيان على واديين آخرين . لكن اكثر هذه الوديان اهمية هو الوادى الذى اتبعه الضابط المهندس باشلو Bachelu ، ويقع هذا الوادى الى الشمال من ذلك الوادى الذى تحدثت عنه . ويجد المرء فيه الكثير من الآثار القديمة ، وتبلغ المسافة بينهما حوالى اربعة فراسخ ، وهذه الآثار هى نوع من المحطات الحصينة والتى بنيت على نمط واحد ، فهى عبارة عن فناء كبير مربع الشكل ، تحيط به جدران ضخمة وتعلوه الأبراج ، وتجد بداخله بعض الأطلال لمساكن كانت مبنية بداخله فيما مضى . وفى وسط الفناء توجد بئر بالغة الاتساع ، لها منحدر ، تستطيع الحيوانات بواسطته أن تنزل لتروى . وهذه الآبار مطموسة جزئيا ، ولكن من المحتمل ان نجد بها المياه اذا ما حفرناها قليلا .

واول محطة تقابلها عند خروجك من مصر تقع بعد أربعة فراسخ الى ماوراء آبار الجيتة ، وقد كانت هذه بلا شك فيما مضى أول محطة حصينة على هذا الطريق . ويبلغ عدد هذه المحطات حتى القصير ستا او سبعا ، وتبعد الأخيرة عن القصير بحوالى ستة فراسخ ، وفى النقاط التى ينقسم فيها الوادى الى عدة أفرع أقيم مكعب من المواد البنائية ، فى الفرع الذى ينبغى على المرء أن يسلكه . وعند حوالى منتصف الطريق ،

يأخذ الطريق فى الارتفاع تدريجيا ، وبشكل غير محسوس ، وبعد بلوغه قمة الجبل ، يهبط ثانية الى الوادى الذى يمتد بعد ذلك دون أى انقطاع آخر ، حتى خور اللمباجة ليتصل بالوادى الذى سبق أن وصفته .

وقد تحدث سترابون عن طريق يذهب من قفط Cophtos إلى ميوس هرموس Myos - Hormos . وهى مدينة تقع على شواطىء البحر الأحمر ، وكانت ميناء بالغ الاهمية فى ذلك الوقت ، ويضيف سترابون بأن هذا الطريق كان مطروقا بشكل اعتيادى ، وان الناس فى الأزمنة الأولى كانوا يحملون معهم المياه اللازمة فى أسفارهم ، وكانوا يتوجهون مسترشدين بالنجوم ، ولكن حفرت الآبار بعد ذلك وانشئت خزانات المياه للاحتفاظ بمياه الأمطار ، ويبلغ طول هذا الطريق مسيرة ستة أو سبعة أيام سيرا على الأقدام .

ويستشهد كثير من المؤلفين بهذا النص لسترابون Strabon ويطبقونه على طريق قفط ــ بيرينيس Bérénice ، ومع ذلك فلو اننا قرأنا ماكتبه هذا الرحالة بانتباه لوجدناه يتحدث بالفعل عن طريق قفط ــ ميوس هرموس وبالموقع الذى حدده له .

وقد ظن دانفيل d'Anville ، الذى استوعب تماما كل ماأورده المؤرخون القدماء حول موقع ميوس هرموس ، أن عليه ان يعطى لهذه المدينة موقعا على بعد عشرين فرسخا الى الشمال من القصير ، حيث يبدو من المؤكد أن كان يوجد فى هذه المنطقة ميناء بالغ الأهمية .

واذا تبنينا هذا الرأى ، فان الوادى الذى نقابل فيه هذه المحطات الحصينة يمكن أن يكون جزءا من الطريق القديم الذى تحدث سترابون عنه ، والذى كان يفضى بالقوافل الى منطقة تبعد خمسة أو ستةفراسخ من القصير ، حيث نجد المحطة الحصينة الأخيرة ، وهناك يتغير الاتجاه ويتخذ جهة الشمال حتى يبلغ ميوس هرموس .

ويهيىء لنا هذا الطريق ، الذى ظل مجهولا حتى وقت مجىء الحملة الفرنسية الى مصر ، خدمة جليلة ، ذلك انه سوف يستخدم بالضرورة ، فى تحديد موانىء البحر الأحمر ، التى كان يتردد عليها القدماء ، بطريقة أكثر دقة ، وبشكل لم يكن هناك من استطاع حتى ذلك الوقت ، التوصل اليه .

الدراسة الثامنة :

القبائل العربية في صحراوات مصر

دى بوا - إيميه

العنوان الأصلى للدراسة هو : دراسة موجزة عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ..

ليست مصر ، ابتداء من أسوان حتى القاهرة ، سوى واد ضيق طويل (١) تحيط به الجبال الجرداء ، التى لا يكاد ينمو عليها حتى تلك الطحالب الدقيقة التى تغطى جبال أوربا وتلون أحجارها المعرضة للهواء . ولا يشق هذه الجبال نهر أو مجرى من أى نوع ، اذ اننا لانستطيع أن نطلق أيا من هذين الاسمين على تلك الأخوار العابرة التى تحدث نتيجة لسقوط الأمطار ، بالغة الندرة . ولا يمكن المرء أن يلقى هناك بعض النباتات المتناثرة اللهم الا فى قاع الوادى ، كما لا يمكنه أن يعثر ، الا على مسافات بالغة التباعد ، على الآبار . وليست هذه الآبار فى غالب الأحيان سوى ثقوب ضحلة العمق حفرت وسط الرمال ، وتكاد مياهها على الدوام تميل الى الملوحة ، بالرغم من كونها صالحة للشرب ، لكنها فى كل الأحوال ليست غزيرة لحد يكفى أن ننشأ عليها بعض الزراعات . وتتقاطع هذه الوديان فى اتجاهات عديدة ، أما تلك التى تؤدى الى وادى النيل ، فتبدأ فى الاتساع كلما اقتربنا من مصر لتشكل عندئذ سهولا من الرمال تتصل بالأرض المزروعة ، وبالنيل فى بعض الأحيان . وليس ثمة نشاط نباتى اذا صح القول الا فوق الأراضى التى يرويها النهر بشكل طبيعى أو بشكل صناعى — وتتناقص الخصوبة الشديدة لهذه الأراضى وبشكل صارخ مع ذلك الاطار الخارجى الذى يحيط بها .

والى الشمال من القاهرة ، يتفرع النيل عدة أفرع ، وتتسع مصر ، وتأخذ الجبال فى الانخفاض لتنتهى بعد قليل الى سهول فسيحة من من الرمال لتنتهى شمالا بالبحر المتوسط ولتنداح من جهة الشرق بصحراوات سوريا والجزيرة العربية ، أما من جهة الغرب فانها تمتد لتصل مصر بأعماق افريقيا .

هذه الجبال الجرداء ، وتلك الوديان القاحلة ، وكذلك تلك

---

(١) يبلغ متوسط عرضه حوالى ثلاثة فراسخ .

ألسهول الرملية التى تضغط على مصر من كل الجهات ، والتى تبدو وكأنها تتحفز للوتوب حتى لينتهى بها الأمر أن تغطى أرضها الخصبة ، هى برغم ذلك كله مناطق آهلة ، يسكنها رجال ضخام أشداء يسمون بالعربان البدو (٢) ، وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات — مع قطعانهم فى هذا الخلاء الموحش . والمدن عند هؤلاء هى المخيمات ، وبيوتهم هى الخيام ، أما المراعى الوحيدة لقطعانهم فهى نبات العليق وبعض النباتات الشوكية المبعثرة هنا وهناك ، وبامكان هذه القطعان أن تفى بكل احتياجات هؤلاء العربان ، لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر ووسائل اخرى للمعيشة ، ويشاهدهم المرء يحومون حول مصر ، كما لو كانوا ذئابا جائعة تحومحول فريسة دسمة ، وان كان العربانيسعون فى بعض الأحيان وعن طريق معاهدات يعقدونها مع حكام مصر أن يحصلوا على الاذن بالاقامة فى مناطق خصيبة ، وفى أحيان اخرى يقتحمون عنوة هذه المناطق ، والسلاح مشهر فى أيديهم لينتزعوا القطعان والمحاصيل ، ثم ينسلونفجأة ليلوذوا بصحاريهم ، فاذا ماجاء من يلاحقهم فان عادتهم فى تحمل العطش لوقت طويل ، والصبر على المتاعب بالغة الشدة ، تمنعانهم عن عدو غير معتاد الا على حياة أقل خشونة ، . فالصحراء بالنسبة لهم ، حصن منيع يعز اقتحامه ، يلوذون بها فى أوقات الأخطار الكبرى .

اننا نحن فى أوربا ، نستولى على حقول العدو ومدنه عندما يهرب ، ونثرى أنفسنا بأمواله وكنوزه وسائر مصادر دخله ، ذلك انه يخلف وراءه أهلا وأصدقاء وممتلكات يأسى عليها ، أما البدوى فلا يخلف وراءه الا رمالا قاحلة .. أما اذا أرغمته الظروف على أن يترك أى شيء فسرعان ماسيعوضه بأسلاب جديدة ، فلسوف يعود هؤلاء البدو — بعد أن تكون قد ظننت انك قد دفعتهم بعيدا عن مصر — ليشنوا هجمات مضادة . ولهؤلاء البدو حفر سرية يخفون فيها البلح بل وعلف قطعانهم ، ويسهل عليهم الأفق الواسع المحيط بهم ، وكذا بياض الرمال التى يبدو الرجال والحيوانات عليها مجرد بقع سوداء ، أن يكتشفوا العدو على

---

(٢) تعنى هذه الكلمة « رجل الصحراء » .

نفس المسافة التى ممكن فيها الرؤية عندما يكون الانسان فوق سطح البحر . وليس ثمة ما على هؤلاء أن يخشوه سوى المفاجآت الليلية ، لكنهم ، فى كلمة ، « أساتذه » يعرفون متى يقبلون المعركة ومتى يرفضونها ، فاذا رأوا أنفسهم فى المركز الأقوى فلابد أن ينتظرهم نصر مؤزر . أما اذا كانوا فى المركز الأضعف فسيفرون ولن يجنى العدو شيئا من فرارهم .. لذلك فكل الحروب التى يشنونها على مصر تنتهى فى العادة لصالحهم .. وينتهى الأمر بحكام هذا البلد فى معظم الأحيان بأن يتركوا لهم بعض الأراضى الخصبة على تخوم الصحراء ، ويتعهد البدو من جانبهم الا ينهبوا الريف بعد ذلك ، بل وفى معظم الأحيان بأن يدفعوا ضريبة عن الأراضى التى تركت لهم ، ومع ذلك فحيث أن السلاح فى أيديهم على الدوام ، وحيث انهم يحطون رحالهم على الدوام عند حافة الصحراء فانهم لا يحرصون على احترام معاهدة أملاها عليهم التعب والخوف ، وتظل تتحين الخيانة المطبوعة الفرصة لتمزيقها .

ومع ذلك فهناك بعض القبائل ، التى لانت طبائعها بفعل سلام طويل .. قد انتهى بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حالة البداوة الى حالة الزراعة ، وكان فقدانها لحريتها المطلقة هو على الدوام النتيجة التى ترتبت على ذلك ، ويقدم الصعيد مثالا قريبا على مانقول ، فقد كانت قبيلة الهوارة ، وهى التى جاءت الى مصر من المناطق المجاورة لمدينة تونس بعد وقت قصير من هزيمة مصر على يد السلطان سليم ، كانت هذه القبيلة قد استقرت فى الصعيد ، وفى البداية أقامت على مشارف الصحراء ، ثم استولت فيما بعد بواسطة القوة والمهارة الحربية على جزء كبير من مصر العليا، ودعمت وضعها هذا بدفع اتاوة الى حكومة القاهرة ، وحين أصبح الهوارة من ثراة الملاك ، كانوا قد فقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية فاستبدلت بالخيام بيوتا وتحول الحب الطاغى للحرية الى حب للوطن.. وظل هؤلاء العربان فى رخائهم يبدون اسعد حالا من قومهم بالصحراء ، حتى أعلن عليهم على بك الحرب بعد أن اثارت حفيظته قوتهم وطمع هو فى ثرواتهم ، وكان أن هزمهم فى لقاءات عدة . هكذا لم يعد بامكان هؤلاء العربان بعد أن فقدوا القدرة على احتمال الرمال الحارقة وعلى مكابدة

صنوف الحرمان التى كانوا يعـــانون منها فى صحرائهم ـــ لم يعد بامكانهم ان يفلتوا من سطوة المماليك .

وعدد القبـــائل الطليقـــة فى صحراوات مصر كبير واليكم أسماء تلك القبائل التى تعرفت عليها أثناء اقامتى فى هذه البلاد :

طرابين الـــكبرى ، الطميلات ، النفـــاحات ، العبـــابدة ، بلى ، الهوارة ، طرابين الصغرى ، الجوابى ، الهنادى ، الزهرات ، محاز ، بنى واصل ، السمالو ، الفرجان ، الترافع ، العزيزى ، بن وافى (٢) .

ويفترض أن هذه القبائل تستطيع اذا ما تجمعت أن تضع تحتالسلاح مايقرب من ٣٠ ـــ ٤٠ ألف فارس .

ويرتبط بكل من هذه القبـــائل عادة ثلاث فئـــات من الرجال شديدى الاختـــلاف : الأسرى الذين حصـــلوا عليهم أثنـــاء الحروب ، والعبيـــد المشترون ، والفـــلاحون ، والفئتـــان الأوليان قليلتا العدد لحد كبير ، أما الفئـــة الأخيرة فيتفـــاوت عددها قلة أو كثرة تبعا لســـكان الأراضى الخصيبة التى احتلوها وكذلك بحسب عـــدد البؤساء من الفلاحين الذين هربوا الى مخيماتهم بحثا عن ملاذ من طغيان الأتراك والمماليك .

وعلى الرغم من الحروب العديدة ، والأحقـــاد المتوارثة التى تقسم هذه العصب ، فان علينا ان ننظر اليهم باعتبارهم يشكلون امة واحدة ، فأصلهم المشترك ولغتهم وعاداتهم توضح ذلك بجلاء .

ولن آخـــذ على عاتقى هنـــا ان اقـــدم حكايات حروبهم وهزائمهم ومعاهداتهم ، ولن أدخل فى تفاصيل تاريخية عن الأحـــداث والشخصيات الشهيرة ، وانما سأكتفى بأن أبين بعض الملامح التى قد تكون بذات نفع فى التعرف على تقاليدهم وحالتهم السياسية .

---

(٢) حيث أن للعبابدة واكلة الأسماك فى سواحل البحر الأحمر أصلا وعادات مختلفة عن القبـــائل الرعوية الأخرى ، فاننى لم اتناولهم بالحديث هنـــا ـــ راجع ماذكرته عنهم فى مقالتى عن مدينة القصير (الفصل السابع من هذا الـــكتاب) .

تنتمى كل القبائل الرحل التى استقرت فى مصر الى أصل عربى فيما عدا العبابدة (٤) واذا كان ثمة قبائل قد جاءت من جهة المغرب لتبدو وكأنها قد حطمت هذه القاعدة فلابد أن نتذكر أن هذه القبائل عربية وانها ذهبت الى المغرب فى عهد الخلفاء الأول . وأغلب مزارعى مصر الذين يشار اليهم باسم : فلاحين ينتمون لأصل مشابه ، وهم قد استقروا هناك كمنتصرين عندما أصبحت مصر جزءا من امبراطورية العرب وكونوا الجنس المسيطر ، حتى اليوم الذى انتقلت فيه مقاليد البلاد الى أيدى المماليك الأتراك . وبينما استطاع العرب الذين ظلوا حتى هذه الحقبة يحفظون بالعادات الرعوية التى ورثوها عن آبائهم ، ان يتملصوا من قانون المنتصر ، فان أولئك الذين كانوا قد انغمسوا منهم فى زراعة الأرض أو احتراف الحرف والفنون ، وسكنوا القرى والمدن قد كانوا مضطرين للخضوع للسادة الجدد ، وتضاءلوا شيئا فشيئا حتى بلغوا اليوم حالة لا تختلف فى كثير عن حالة العبودية .

ولقد سبق للعرب البدو فى زمن سابق أن يهزموا مصر ، ذلك أن المرء لايمكنه أن يشك فى أن ليس هؤلاء العرب سوى أولئك الذين أراد المؤلفون القدامى أن يشيروا اليهم عند الحديث عن هذه الشعوب الرعوية التى أخضعت مصر واحتفظت بها قرونا طويلة ، ثم طردوا منها قبل عهد سيزوستريس بحوالى ثلاثمائة عام (٥)

---

(٤) أنظر الهامش السابق .

(٥) حول هذا الموضوع اليكم هذه النبذة شديدة الأهمية نقلا عن مانيثون ولابد أن يتذكر المرء أن هذا المؤرخ المولود فى مصر داخل الطبقة الدينية قد استطاع أفضل من أى شخص آخر أن يستفيد من الحوليات والكتب المقدسة فى أمته : فى عهد « تيماؤوس » . أحد ملوكنا ، سمح الرب وكان غاضبا علينا دون أن نفهم لذلك سببا ، بأن يأتى من جهة الشرق جيش ينتمى لشعب ليست له أية شهرة وأن يسيطر بسهولة على بلادنا وأن يقتل بعضا من أمرائنا ويضع السلاسل فى أيدى آخرين ، وبأن يحرق مدننا ويدمر معابدنا وأن يعامل السكان بغلظة شديدة ويقتل عددا كبيرا منهم وأن يسبى النساء والأطفال وأن ينصب ملكا علينا واحدا من أمته يسمى سالاتيس .

=

وثمة اعتقـــاد راسخ لدى العرب ، ودعمه القرآن ، يجعل هـــؤلاء العرب ينحدرون من صلب اسماعيل ، ابن ابراهام (ابراهيم) الذى قال عنه الرب « سيكون رجلا فخورا . ورعويا وحشيا ، ســـيرفع يده فى وجه الجميع وسيرفع الجميع ايديهم ضـــده ، وســـيرفع أغلامه امام كل اخوته ، سأباركه وامنحه ذرية كبيرة وعديدة » (٦) وفى هذه اللوحة عن

= وقد جاء هذا الحاكم الجديد الى ممفيس وفرض ضريبة على المقاطعات العليا والسفلى على السواء وأقام فيها حاميات قوية ، وبخاصة فى جهة الشرق لأنه كان يرى أن الأشوريين ما أن يحسوا بأنهم قد اصبحوا أقوياء، سيسعون لهزيمة هذه المـــلكة ، وعنـــدما بدا له أن مدينة أفاريس فى اقليم سايت الى الشرق من بوباسطة ذات موقع مناسب ، فقد قام بتحصينها تحصينا قويا ، ووضع فيها وفيما حولها كثيرا من المحاربين بلغ عــــددهم حوالى ٢٤٠ ألف جندى . وكان يأتى الى هنـــاك فى أوقات الحصاد كى يبـــاشر جمع المحصول ولـــكى يســـتعرض قـــواته ليحافظ على مستوى تدريبهم وانضباطهم لحد لا يجرؤ معـــه الأجانب على بدء التحرش به بغية امتلاك دولته . وقـــد سيطر هذا الحاكم لمدة تسعة عشر عاما ، ثم أعقبه بيون وقـــد مكث فى الحكم ٤٤ سنة ثم ابخناس وحكم ٣٦ عاما وســـبعة أشـهر ، أما أبوفيس الذى أعقبه فقد حكم لـــدة ٦١ عاما ، وحكم جانياس الذى اعتلى العرش بعده لمدة خمسين عاما وشهرا واحدا ثم أعقبه أسيس الذى حكم لمدة ٤٩ عاما وشهرين .. ولم توجد وسيلة للقضاء على الجنس المصرى الا ولجـــأ اليها هؤلاء الملوك الستة ، وكان هؤلاء جميعا يسمون الهكسوس اى الملوك الرعاة ، لأن كلمة هك فى اللغة المقدسة تعنى : ملك وسوس باللغة الدارجة تعنى : رعاة . ويقـــول البعض انهم كانوا عـــربا » .

ويضيف فلافيوس جوزيف Falvius Joseph (Réponsa à Appidon, trad d'Arnauld d'Antilly, liv. I. Chap. 5) الذى نقل الينا هذا النص من مانيتون بأن هذا المؤرخ يقرر أن ملوك الصعيد ، اذ لم يكن قـــد تم اخضاعهم كلية ، قـــد خاضوا حروبا طويلة ضـــد هؤلاء الرعاة وهزموهم وطردوهم فى النهاية من مصر التى كانوا قـــد احتلوها مدة ٥١١ سنة ، وأن هؤلاء الرعاه قد انسحبوا الى الصحراء وانقضوا على سوريا وانتهى بهم الأمر ان استولوا على اقليم يسمى يهوذا حيث أسسوا مدينة اورشليم .

(٦) سفر التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٢ والاصحاح السابع عشر الآية ٢٠ . وما ورد فى المتن ترجمة للاقتبـــاس كما جاء فى النص الفرنسى ، واليكم نص هاتين الآيتين كما جاءتا فى التوراة :

« وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحـــد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن » « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها انا اباركه واثمره وانجحه كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد واجعله امة كبيرة » . (المترجم)

اسماعيل يتعـــرف المرء على البـــدو ، فالأبنـــاء لا يمكن لهم أن يشبهوا آباءهم بأكثر مما يشبه العرب اباهم اسماعيل .

أن المرء مدفوع على أن يقر بان هـــذا الاعتقـــاد ليس خادعا على الاطلاق ، ولـــكن الشيء الذى لا يمكن أن يتطرق اليه الشك ، هـــو أن للعرب والعبريين أصلا مشتركا ، فلنقرأ التوراة بانتباه ، وسوف يدهشنا هذا التشابه فى التقاليـــد بين قـــدماء البطاركة وبين تقاليد العرب البدو ، وستكون هذه القراءة بالغة الفـــائدة اذا أمكن احد ان يقراها كما قرأتهـــا انا فى أرض جاسان على شواطىء البحر الأحمر ، وفى عيون موسى أو فى الصحراوات التى يحدها عند الأفق جبال حوريب وسيناء (٧) .

كل هذا يؤدى بنـــا ان ننسب الى العرب أصلا من أقدم الأصول ، وربما لا يوجد شعب يستطيع أن يتبـــاهى بأنه قـــد أمكنـــه أن يحتفظ

---

(٧) تستحق التوراة التى تنـــال من البعض ازدراء اكثر مما ينبغى ، وتنـــال من الآخرين ، وهم الذين ينظرون اليها باعتبارها اساسا لمعتقداتنا الدينيـــة ، تقديسا أكثر من اللازم ، وتستحق أن تنـــال اهتمام الجميع من زاوية تاريخية محضة ، ذلك لأنه اذا كانت ظروف الطبيعة تبدو فيها غير قابلة للفهم ، واذا كان التـــاريخ فيها غير مؤكد واذا كانت الوقائع التى ترويها مشكوكا فى صحتها ، فسوف نتفق على الأقل بأنه كان من المستحيل أن ترسم لوحة للحياة الخاصـــة للعائلات الهائمة فى الصحراء بمثل هذه الدرجة من الحقيقة : اذ نحن ما نزال نجد بينهـــا نفس العـــادات ونفس الطريقة فى الحبـــادة بل ونفس مبادىء القـــانون العـــام ونفس الفنون ونفس الآنية ، بل نكاد نقول نفس اللغة .

فقـــانون القصـــاص وحق الانتقـــام الذى يؤول للأهل الأقربين . وحتى شراء الدم (الدية) وسطوة الشيوخ وعقاب المجدفين ، والختان ، وتقـــديم الأضحيات فوق أماكن مرتفعة ، والالحـــاح فى طلب امارة على بكارة الفتيـــات يوم زواجهن والعقم الذى ينظر اليه كلعنة من السماء ، والرغبة فى انجاب ذرية كبيرة العدد ، وحقوق الملكية والميراث ، واعداد الأطعمة ، والفزع من لحم الخنزير ، والمجوهرات والملابس ، وطريقـــة شن الحروب ، واقتسام الأسلاب المنزوعة من العـــدو ، وعادة السكنى تحت الخيـــام حتى فى البـــلاد الخصيبة والمليئة بالمـــدن ، وعادة القـــاء التراب فى الهواء فى أوقات الأخطار الكبيرة ، وفى أيام الأحزان الفظيعة . كل هـــذه أمور مشـــتركة عنـــد كلا الشـــعبين ، وفى زمن محمـــد كان يوجد عدد كبير من القبائل الطليقة فى الصحراوات تتبع ديانة موسى .

بملامحه القديمة بأكثر مما أمكن لهؤلاء العرب أن يفعلوا (٨) منذ العصور

---

(٨) واليكم ما نقله الينا ديودور الصقلى عن العربان فى الصحراوات . وهو ما كتبه منذ ١٨ قرنا « أنهم يسكنون فى الخلاء ، دون ان يظلهم اى سقف ، وهم يتخذون من العزلة علما عليهم ووطنا لهم، وهم لا يختارون مطلقا لاقامتهم الأماكن القريبة من الأنهار وينابيع المياه خوفا من ان يجذب ذلك الأعداء الى مجاورتهم . ولا يسمح لهم قانونهم او عرفهم ان يبذروا الحب ولا أن يزرعوا اشجار الفاكهة ولا أن يشربوا الخمر ولا ان يعيشوا تحت سقف ، ومن ضبط من بينهم مخالفا لهذه العادات يعاقب بالموت لا محالة ، اعتقادا منهم بأن هؤلاء الذين يخضعون لمثل هذه العادات سيخضعون عما قريب لحكام يستعبدونهم . وبعض هؤلاء يرعون الجمال وبعضهم يرعى الماعز فى الخلاء . وليس ثمة أغنى من هؤلاء الأخيرين بين العرب ، لأنهم . على الرغم من كونهم ليسوا الوحيدين الذين يمتلكون قطعانا فى الخلاء ، يقومون فى نفس الوقت — وعددهم لا يتجاوز ١٠ آلاف — ببيع البخور والمر وعقاقير أخرى ثمينة حصلوا عليها من سكان اليمن ليبيعوها على شواطىء البحر ، وفضلا عن ذلك فهم شديدو الغيرة على حريتهم ، وعندما يبلغهم خبر مفاده أن جيشا يقترب منهم فانهم يلجأون الى أعماق الصحراء التى تعتبر حوافها بفعل امتدادها بمثابة متاريس لهم ، لأن الأعداء حيث لا يعرفون فيها موطن الماء ، لن يجرءوا على اجتيازها ، فى الوقت الذى يكون فيه العرب فى أمان من هذه الحاجة — الحاجة الى الماء — حيث قد سبق لهم أن أعدوا لأنفسهم آنية ضخمة خبأوها تحت الأرض ، ولا يعرف سواهم العلامات الدالة على هذه الآنية . وحيث ان الأرض كلها لا تكون الا من أرض طفلية رخوة فانهم يجدون الوسيلة كى يحفروا فيها مغارات عميقة وواسعة على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع منها ذراعا ، وفتحتها بالغة الضيق ، وعندما يمتلىء هذا الكهف (الجب) بمياه المطر يقفلون مدخله ويسوونه بسطح الأرض التى تحيط به ويتركون عليه بعض علامات لا يمكن أن يتعرف عليها سواهم . وهم يعودون القطعان التى يخطفونها الا تشرب الا كل ثلاثة أيام وذلك حتى تعتاد فى تلك الحالة التى سيكون عليهم أن يحيوها عندما يهربون بعيدا بعض الشىء عبر سهول قاحلة على أن تقاوم العطش بعض الوقت ، وهم يعيشون على اللحوم واللبن والفواكه الشائعة والعادية وتوجد فى أراضيهم أشجار الفلفل وكذلك كثير من ذلك العسل الذى يسمى العسل الوحشى وهم يشربونه مع الماء، وثمة أجناس أخرى من العرب يعملون فى فلاحة الأرض ، وهم يخضعون لحكومات مثل السوريين ، وهم يتشابهون فى أمور كثيرة فيما عدا أن السوريين يسكنون فى منازل .

ديودور الصقلى ، الكتاب التاسع عشر ، ترجمة الأب Terrason

الضاربة فى القدم . وهؤلاء العرب - منقسمين الى قبـائل ، وخاضعين لشيخ العـائلة ، وسـاكنين تحت الخيـام - يهيمون مع قطعـانهم من من ضـفاف الفرات الى ضفاف النيل ومن شواطىء المتوسط حتى الخليج الفـارسى وبحر الهنـد ، لم يغز أرضـهم اجنبى ولم يغير من لغتهم او تقاليدهم غاز ، ولـكم أرادت أمتان أكبر قوة وأكثر شهرة بسبب فتوحاتهما وهمـا الفرس والرومان ، أن تخضـعا العرب لسيطرتهما ، بلا جـدوى ولـكن ما أن أصبح هؤلاء العرب فاتحين فى عهد الخلفـاء ، حتى غطوا بجيوشهم شـمال افريقيا ، وأسـبانيا ، ووسط فرنسا ، وسـوريا ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وعنـدما حدث أن طردوا وتمت هزيمة فقد كانوا يعرفون على الأقل ، ودائما ، كيف يحتفظون بوطنهم القديم . وينظر البـدو ، وهم الفخورون بنقاء عنصرهم ، وبأنهم يستطيعون الدفاع دوما عن حريتهم ، ينظرون باحتقار الى أمم العبيد التى تحيط بهم .

وقـد حدد الحب الأبوى والاحترام البنوى شكل حكومتهم ، كما أن هاتين الرابطتين همـا اللتان تربطان بين مجتمعهم ، فكل أسرة تطيع من بينها هـذا الشخص من افرادها الذى جذب لنفسه اكبر قدر من الاهتمام بفضل حكمته وقدراته وثروته ، ويكون هذا الشخص فى العادة رجلا مسنا ويتخذ لقب شيخ ومعنى هذه الكلمة : العجوز أو المسن (٩) .

وعندما لا تكون الأسرة كبيرة العدد لحد تستطيع معه حماية نفسها بنفسها ، فانها تنضم الى أسرة أخرى ، ويعطى اكبر الشيوخ نفوذا اسمه للقبيـلة التى تشكلها هذه الأسر المتحدة ، ويمارس عليها جميعا السلطة التى لم تكن له فى البـداية الا على أهله ، وسلطة هذا الشيخ جد محددة فيما يختص بالأفراد ، لـكن نفوذه كبير فى الأمور المتصلة بالصالح العام: فهو الذى يقرر السلام كما يقرر الحرب، وهو حق خطر مالم يمنعه صالحه الخاص - وهو مرتبط بشـكل حميمى بصـالح قبيلتـه - من اسـاءة استعماله . وهو لا يتقاضى اى راتب عن وظيفته ، ويتكون دخله - شأنه شأن بقية العربان - من منتجات قطعـانه ، ومن الزراعة الوقتية لبعض

---

(٩) كلمة شيخ معناها عجوز ، ومع ذلك فيمكن اطلاقها على شاب مثل كلمـة Senior عند اللاتين التى جعلنا منها كلمة Seigneur

الأراضى ، ومن نصيبه من الأســلاب وضريبــة المــكوس التى تدفعهــا القوافل التى تمر من أرض قبــلته . وتنظم سلطته طبقا للعادة ، وليست ثمة قوانين تحددها بشكل قاطع ، ولــكن اذا ما دفعتــه نزواته ، وكثرة اصــدقائه وخدمه على اســاءة استخدام هذه السلطة وجعلته فى نفس الوقت بمنــأى عن الانتقــام ، وهو الأمر الذى تجلعه حيــاة الصحراء ميسورا على الذين وقع الحيف عليهم ، فاننــا نرى على الفور جمهرة من العائلات تنفصل عنه لتنضم الى قبــائل أخرى . وبهذه الطريقة ، اندثرت فى بعض الأحيان قبــائل كانت كبيرة العدد ، وانتهى بها الأمر أن اختفت بشكل نهائى ، بينما تضاعف عدد قبــائل أخرى فى وقت سريع وهى التى لم تكن تحظى بأى نصيب من الشهرة .

وكلما أطلنا التفكير ، كلما تبينت لنــا قلة وسائل القهر فى حكومة المشــايخ ، حيث لا توجد فى مخيماتهم سجون يمكن أن يزج اليها بالبراءة الطليقــة لتجاور الجريمة البشــعة ، كمانه ليست ثمة سراى يستطيع الحاكم فيها أن يخفى أفعــاله عن كل الأنظار ، ويمضى الشيخ العــربى حيــاته فى الهواء الطلق دون حــرس ودون موكب ، ويشــهد على كل أحاديثه ، وكل فعاله جميع رجال القبيلة ، فهو اذن لايستطيع أن يخفى شيئا عن رقابة الرأى العــام ، كما لايستطيع أن يغطى على سوءة من مساوىء سطلته تحت قناع الصالح العام . كما أن رعاياه ليسوا عديدين لحد يستطيع معه عن طريق لعبة اقتســام المصــالح أن يضرب البعض بالبعض الآخر .

ولا تختلف الحياة الخاصة للشيخ عن حيــاة بقيــة العربان الا فى غذاء أوفر لحد ضئيل ، وفى ملابس أفضل وأسلحة أكثر انتقــاء : ومهما يكن له من خدم فانك لتراه بنظف ســلاحه ، ويقــدم الطعــام لخيــله ويسرجها بنفسه ، وتعد له زوجاته وبنــاته وجبات طعامه ، وهن يغزلن ملابسه ويغسلنها وســط المخيم ، ويذهبن حاملات الجرار ليجلبن المياه من العين المجاورة ، أو ليجلبن لبن القطيع . تلك كانت تقاليدهم القديمة التى لم يهمل هوميروس تصويرها باخلاص ، وتلك حتى اليوم هى حياتهم الأبوية التى لا يزال سفر التكوين يحتفظ لنا بلوحاتها البسيطة والشيقة .

قلنا ان كل قبيله تحمل اسم شيخها ، لـكن تسميتها بهذا الاســم تعود الى وقت تكوينها ، أو تعود الى احدى الفترات الهـامة التى مرت بها . لأن هـذا الاسم لا يتغير مطلقا من جيل لآخر ، فالاسم يبقى هــو نفس الاسم ، حتى يأتى شيخ يستطيع أن يصنع لنفسه ، بفضـل حكمته ومواهبه العسكرية ، شهرة تمجو شهرة أسلافه ، ويصـبح رعاياه تحت حكومته اكثر ثراء واكثر عددا واكثر هيبة ، ويجعل منهم على نحو ما شعبا جديدا .. هنـا يأخذ أتبـاعه يتعودون شـيئا فشيئا أن يشـيروا الى انفسهم باسم ذلك الرجل الذى أخرجهم من الظـلام ، وسرعان ما ينتهى الأمر بهذا الاسم أن يحل كلية محل الاسم الذى كان لهم فيما سبق .

ويوضع عادة امام اسم كل قبيلة كلمة بنى وهى تعنى ابناء . وهكذا فبدلا من أن تقول قبيـلة واصل تقول قبيلة بنى واصل . واسم الابن هذا الذى يتخذه كل العرب بلا تمييز ، هو فى نفس الوقت سلسلة فى حكومة ابوية يخضعون لها : ياله من بون شاسع بين هذا الاسم ، وبين اســم العبد الذى تستخدمه غالبية الشعوب !

وتقدم الخلافات من كل نوع الى محكمة الشيخ ، لكن سلطة الشيخ هى بالأحرى سلطة حكم أكثر منها سلطة قاض . ومهما كانت الجريمــة خطيرة ، فانه نادرا ما يصدر حكما بالموت .

واليكم الصيغة المتبعــة فى هذه الأحوال : يتوجه امرؤ الى الشيخ طالبا اليه القصاص . ويجلس الشيخ على عقبيه على طريقة أهل البلد، وامامه يجلس المتقاضون على نفس طريقتــه ، ويطلب الشيخ اليهم نزع الحجر الذى يحملونه عادة فى حزامهم ويضـــعه على الأرض ، ثم ينصت الى ادعاءات كـل منهم ، فاذا مارفض التـدبير الـذى اشـار به فانه يستدعى اليه شخصية او شخصيتين تحظيـان بالاحترام بحكم سـنهما واخلاقهما ، ويعرض القضية ثم يدعوهما الى ابداء الراى ويستطيع الشيخ أن يستشير مسنين آخرين اذا اقتضى الأمر ، لـكن من النـادر أن يتسع الامر لهـذا الحد ، وعادة ما ينبرى الحضـور الذين جذبهم الفضول الى مكان المنـاقشات للطرف العنيد ويصحبونه معهم وهم يقولون : هيـا ، انت مخطىء ، فقـد جانبك الصواب ، انصرف ، انصرف .. ويبدون وهم

يقولون له ذلك بمظهر الأصدقاء الملاطفين الذين يريدون أن يحصلوا عن طريق اللباقة والرقة على ما قررته حكمة الشيخوخة ، ولكن اذا ما ظل هذا سادرا فى تمرده ، واذا مارفض الاستجابة للراى العام ، وهو عندهم بمثابة الحكم الأعلى ، فانه يطرد من القبيلة وتصادر ممتلكاته .

هذا بخصوص القضايا ذات الصبغة المدنية البحتة . اما اذا اختص الأمر بالسرقة أو بأية جنحة اخرى غير اراقة الدم ، اى من نوع تلك الجنح التى تعكر صفو الأمن العام فيما عدا القتل ، فان نفس الاجراءات سوف تتبع ، مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه ما ان يثبت الاتهام حتى ينفذ العقاب على الفور ، ويعاقب المدان عادة بدفع غرامة أو بتلقى عدد معين من ضربات العصا . وهو أمر لا يأنف الشيخ من القيام به أحيانا بنفسه ، ويسارع كل المشاهدين الى معونته ، فيرقدون الرجل المدان على بطنه ، ويعلقون قدميه فى حلقتين من الحديد مثبتتين عند منتصفهما بعصاة ، ويمسك رجلان بطرفى هذه العصا ، ويرفعان ساقى المذنب ، وتلمس ركبتاه الأرض ، ويظهر باطن قدميه فى الهواء بشكل افقى وفى وضع ثابت . وعلى هذا الجزء يتم الضرب بعصا مرنة لحد ما ، أو بنوع من السياط يسمى كرباج مصنوع من جلد الفيل او جلد فرس النهر .

وتعد المشروبات الكحولية والمواد المسكرة مصدرا لعدد كبير من الجرائم عند الشعوب التى اعتادت عليها ، لكنها عند العرب « حيث هم لا يشربونها » ليست مصدرا لأى جرم ، ويساهم هذا فى الحفاظ على الهدوء فى معسكراتهم .

واذا ما رايت الحدة التى يتناقشون بها لأتفه الأمور ، فانك ستدهش من أن الضربات لا تعقب هذه الكلمات الحادة ، وتكاد مناقشاتهم كلها تمضى فى تبادل الصرخات ، ولعل السبب فى ذلك هو أن رجالا كهؤلاء ، مسلحين على الدوام ، لا يمكنهم الاندفاع فى الشجار دون تقدير منهم لعواقبه ، فنتائج القتل على الدوام خطيرة اذ يكون لأهل القتيل أن ينتقموا له ، وفى هذه الحالة يباح الاغتيال . وهكذا يصبح القصاص قانونا مقدسا لا يستطيع الشيخ نفسه أن يتملص منه . لكن الأمر البشع

فى كل المسألة هو ان القاتل هنـا لا يلاحق وحده ، بل يلاحق معه أهله الأقربون . وعنـدما يكون لأسرة ما ثارات عليها القيـام بها تجاه أسرة اخرى ، فانه يقال حينئذ ان بين هاتين العـائلتين دما ، ويكون عليهما أن تنفصـلا وان نعيشا فى حالة حرب تستمر فى بعض الأحيان لعدة أجيال، ذلك ان الثـار يوجب ثارات اخرى وهكذا ، بل ان موت القاتل نفسـه لايأتى مطلقـا بالهدوء ، واذا ماهلك أحد من آله بسببه فان الأحقاد تتزايد بدلا من أن تقل . وهذه المعـارك الباطنية لا تنتهى ، خاصة اذا ما كانت العـائلات المتمادية تنتمى الى قبـائل مختلفة لأن القبـائل المعنيـة تتخذ عادة موقف الدفاع بالنسبة لأبنـائها ، وتنتج عن ذلك حرب عامة . وثمة حروب من هذا النوع بدات منـذ زمان لا تعيـه الذاكـرة . ومع ذلك فيمكن ــ فى بعض الأحيـان ، وقبل أن تتعقد الفتنـة لأكثر مما يجب ــ تهدئة العـائلة المـكلومة بواسطة تقديم هـدايا اليها ، تتكون بدرجـة اساسية من الماشية ، ويسمى الاتفـاق الذى يتم على هذا النحو بالدية او اعادة شراء الدم . ونرى فى التوراة أن شراء الدم هـذا كان معروفا منذ زمن موسى بين القبـائل الرحل التى كان هو مشرعا لها . اما عندما تكون العائلتان المتعـاديتان تنتميان الى نفس القبيلة فان عقد اتفاق الدية يصبح أقرب منالا . وفى هذه الحالة يستخدم الشيخ وكل مسنى القبيـلة كافة نفوذهم .

ويحدث القصاص والدية ايضا بالنسبة للجروح، وللآباء على ابنائهم حق الموت ، ويطبق الرجال هـذا العقاب على اى من زوجاتهم او بناتهم او اخواتهم تخرج عن سبيل الرشاد .

وليست المبارزة معروفة عنـد العرب ، وهم يستعيضون عن ذلك كما قلنـا للتو بالاغتيالات ، ويلاحظ الأمر نفسه عند غالبية الشعوب ، قـديمها وحديثها على حد السواء ، ذلك أن هذه العادة النبيلة ، عادة تحدى الخصم ومبارزته بسلاح مماثل ، وهى العـادة التى تجعل من هذا الحقد الشـائك والانتقـام البشع نوعا من النزاهة والشجاعة لا تحدث الا عنـد أمم شـمال اوربا . ومع ذلك ، فاننـا نجد فى الواقع ونحـن نتصفح التـاريخ العربى مثل هذه المبـارزات الفريدة التى حدثت عنـد كل الشعوب ــ سواء كانت هذه المبـارزات بين عدد ضئيل من المحاربين

الذين اوكلت اليهم باتفــاق مشترك ، مهمة ان يتولوا وحدهم الدفاع عن مصــالح قريتهم ، او ســواء بين شخصين شجاعين عنــد استعراض الجيوش المتعــادية لمجرد تبــاه بالشجاعة . لــكن مثل هذه الأمور من قعقعة السلاح لا ينبغى أن تختلط بالمبــارزة بالشكل الذى نعرفه نحن فى اوربا منذ زمان ضارب فى القدم كرد على الاهانات الشخصية .

وتقتضى مصالح امن هؤلاء العرب أن يقوم شيوخهم بدراسة اخلاق وطباع حكام الدول المجاورة، وكنا على الدوام ندهش من صوب احكامهم. وهم يتفاوضون بقدر من الشرف ، ويستطيعون ويعرفون كيف يدافعــون عن حقوقهم بمهارة ورقة ودبلوماسية لا يمكن لدبلوماسيينا أن ينكروها . ولــكم اتهمناهم بسوء الطوية ولــكن هل درينــا ما أن كان قــد حدث من جانبنــا تصرف معاد نحو تلك القبائل الصــديقة والتى كان يصعب علينا على الدوام ان نميزها عن تلك القبــائل التى كانت ماتزال فى حالة حرب معنا ، وما ان كان مثل هــذا التصرف من جانبنــا هو الذى هيــأ لهم اسبابا عادلة لمعــاودة حمل السلاح ضــدنا ؟ ولقد كنت لمرات عدة شاهدا على مثل هذهالاساءات غير السارة ، واتذكر وسط ذكريات اخرى، انه حدث عند عبورنا وادى الطميلات مع فصيلة مدفعيــة : ان تابلت مقدمتنا عند حوالى آخر النهار ، عربيا بدويا يجلس على الأرض معاثنتين من السيدات ، وبالقرب منه كان حصانه وسلاحه ، وغير بعيــد من ذلك كانت تبــدو بعض البقرات وبعض الخراف ، ولو أن العربى كان قد أخذته المفاجاة ،لــكانت ما تزال لديه الفرصــة كى يقفز فوق حصــانه وينجو بنفسه ، لــكنه لم يفعل ، وانما ســارع برسم علامة الصــداقة لجنودنا وهى عبــارة عن تقريب ابهــامى كلتا يديه وهو يلفظ : سوا ، سوا ، « معا ، معا » . ولــكن هــذا من جانبه كان بلا جدوى ، ذلك ان جنودنا ــ وقد حرضهم على ذلك انكشارى تركى كان يعمل مرشدا لنــا ــ قــد شتموه وشتموا نساءه وجروا خلف ماشيته . واضطرته طلقة بندقيــة صويت اليــه ان يقرر الهرب ، فاندفع بهمة الى داخل الصحراء وهــو يذود عن نفسه بسلاحه ضــد أولئك الذين يحدقون به ، واطلقت عليــه طلقــات عديدة من البنــادق لــكنه لم يصب بأذى . واسرع صــوت البنادق هــذا من خطو بقيــة الفرقة ، وكنت على حصــانى وتقــدمت

الجميع ، وسرعان ما وصلت الى المقـدمة . وبينمـا انا استعلم عمـا حدث ، أشار خادمى المصرى بيده الى المراتين ثم قال لهما :

« توجها الى هذا الرجل وهو كفيل بحمايتكما » فهرعتـا على التو نحوى وقبلتا طرف ردائى ، فطمأنتهما وتوصلت مع بقيـة الضباط الذين وصلوا معى الى تسوية الأمر ، وحيث أن الانكشارى الذى تحدثت عنـه قـد اكد ان البـدوى الذى فر ينتمى الى قبيلة معـادية فقد اسـتولينا على قطيعه . وصحبنا السيدتين لنسليمهما الى شيخ أول قرية سنعبرها. وفى أثنـاء ماتبقى من طريقنـا لاحظت أن انكشارينا يحرض الجنود على عدم اسـتخدام الرحمـة مع أسـيرتينا ، وكان يريد أن ينتزع من هاتين البائستين الأشـياء القليلة التى كانت معهما . واضطررت أن أتوعـده بعقـاب قاس كى أجعله يكف عن اضطهاده الجبان لهما . وعنـدما حل الليل توقفنـا ، وبينما نحن نوشك على أن نغـادر خيـامنا ، شـاهدنا مشايخ الطميلات قادمين ، وكانت هـذه القبيـلة فى ذلك الوقت فى سلم معنـا . وكان معهم ذلك البـدوى الذى هاجمنـاه البارحة ، وشكوا الينا فى لهجة معتـدلة اعتداءنا الظالم على رجل لم يكن يحق لنـا أن نعتـدى عليه . واسرعنا نوجـه اليهم كل الترضـيات الواجبـة واعيـدت الى المراتين معظم مجوهراتهما التى كان الانكشارى قد سلبهما اياها ، وتلقى هو على الفور ، وفى حضرة البـدو عددا محددا من الضربات بالعصا ، واعيدت المـاشية أو دفع تعويض عنها ، وبعد أن تنـاول الشيوخ العرب بعض أقـداح القهوة معنـا عادوا بالغى السرور . لكننى هنا اتساءل: لو أن هؤلاء البـدو كانوا قـد ذبحوا افراد جنودنا الذين كان من الممكن أن يقابلوهم منعزلين ، بدلا من أن يأتوا الينا ليبثونا صراحه شكواهم .. الم نكن سنتهمهم عندئذ بالخيانة ، بينما هم لم يفعلوا سوى أن انتقموا منا؟

وعندما يتم السلام بين قبيلتين يتبـادل الشيوخ الهدايا ، ولهذه الرسميات سطوتها . وعندما يتعامل حكام أجانب مع العرب فانهم يعنون بالامتثال لهذا الأمر . ومن المعتاد كذلك فى مناسبة مماثلة أن يأكلوا معـا وهو مايسمى بتحالف أو اتفـاق الخبز والملح وهو امارة على صـداقة لن تهدر . وأيا كانت مكانة الشخص الذى تلقى من عربى أقل طعـام فانه سيكون واثقا انه سينال احترام كل القبيلة .

ولدينا على ذلك الوف الأمثلة من الأسرى الذين اخذوهم منا اذ كانت تتوقف اساءة معاملتهم اياهم منــذ اللحظــة التى يأكلون فيهــا معهم ، وأقرر فى هــذا الخصوص واقعــة سجلها المسيو دينون فى مؤلفــه ، وقــد سمعت من يتحــدثون عنها بعــد قليل من حدوثها . منذ عدة أشهر طويلة كان لدى بعض العربان اســير هو ضابط فرنسى .. وفجأة ظهرت احدى وحداتنــا على مقربة من مخيمانهم .. وتفرق العــربان على الفور داخل الصحراء وقــد اخــذهم الفزع وأصــبح كل مايمتلكونه فريســة للمنتصر ، ووجد شيخهم نفســه ــ بعد أن هام على وجهه ــ وحيدا مع اسيره وسط الصحراء ولم يعد معه ســوى قطعــة خبز هى كل طعامه، ولابد أن قلبــه كان مفعما بالنقمة على الفرنسيين ، الذين تسببوا فى كل ما أصــابه من آلام ، ومع ذلك فقد اقتسم مع ذلك الفرنسى الذى كان فى حوزته ، قطعــة الخبز الوحيــدة التى بقيت له ، وقال له : ربما سأحتاج اليها غداً ، لــكنى لا احتمل لوم نفسى لنفسى لو تركتك تموت من الجوع لأضمن انا وجودى .

ان مثل هذه الأخلاق والطبــاع لتشرف الانسانيــة بأسرهــا ، ولا ينبغى علينــا بالمثل أن نسىء القول فى حق أمة تضم رجالا بمثل هذا الكرم بين ابنــائها . لــكن السوءات هى التى تسترعى انتباهنــا بشدة بينما تفوتنــا الفضــائل ! وفضــلا عن ذلك فان الفضــائل لا يمكن أن تكون هى نفسها عنــد كل الشعوب ! فالحدث الفاضل هو ذلك الحــدث الذى يكون مفيــدا بشكل مباشر أو غير مباشر للمجتمع الذى يطريه . وليس هنــاك من هذه الفضــائل الا عدد ضئيل يمكنه أن ينال امتداح كل الناس بدون تمييز .

فعندنا على سبيل المثــال ، لا يتعرض المسافر المولود فى بلد هو فى حالة حرب معنــا لأن يقتل او يسلب ، ذلك ان مصالحنا تحملنا على اســتقبال الأجانب وحمايتهم وأن نبسط علاقتنــا معهم . لــكن العكس من ذلك هو ما يصــدق على الصــحراء فان أى رجل ليس حليفا للقبيلة ســوف يجرد من أمتعتــه ، بل ويقتل احيــانا على يد العربان الــذين يقابلونه، والعربى الذى يحظى بتقدير أكبر هو الذى يستطيع ان ينتزع أكبر قدر من الأسلاب لأن السلب بشكل واحدا من أهم دخول قومهم . ومع ذلك،

بحيث انهم بدورهم يتعرضون لنفس المخاطر ، ويجدون انفسهم في بعض الأحيان فى حاجة الى مأوى عند أعدائهم أنفسهم ، فان البدو قد جعلوا من كرم الضيافة أول واجباتهم ، ولابد أن نقر بأنهم يمارسونها بسخاء لا يعرف فى مكان آخر : فالأجنبى الذى استطاع أن يصل الى خيامهم أو حتى يلمس عتبة خيمتهم لن يناله فقط أى أذى — بل انه — وكما كان يحدث في زمن ابراهام — سيحصل دون اجر على طعامه بل أن القبيلة بأكملها قد تتحمل مخاطر حرب خطيرة دون أن تسلمه الى أعدائه . وقد حدث لى ، كما حدث لكثيرين غيرى من أعضاء الحملة، أن سافرنا وحدنا مع عربان وبقينا بينهم شهورا عدة دون أن يكون لدينا على الاطلاق ما نندم منه على ثقتنا بهم .

وبخلاف التحالف الخاص بين قبيلة وأخرى ، توجد تلك العصب الكبيرة التى تعترف بواحد من مشايخ هذا التجمع على أنه شيخها الأوحد ، وتأخذ هذه العصب اسما مميزا ، مثال ذلك ما يحدث فى مصر السفلى حيث توجد اثنتان : الأولى تسمى : سعد والثانية تسمى : حرام.

وقلما يقاتل العربى البدوى الا وهو يمتطى حصانه ، وهو مسلح عادة بسيف بالغ القصر وخنجر وحربة طويلة كما يكون فى غالب الأمر مسلحا برمح وكمية من الأسلحة التى يعلقها فى قوس سرجه ، وفى بعض الأحيان يستعيض عن رمحه ببندقية كبيرة يستخدمها بمهارة حتى عندما يعدو به حصانه ، رافعا يده دون أن يترك عنان فرسه بطريقة يستطيع بها أن يثبت سلاحه وأن يصوبه كما لو كان راجلا ، وبالرغم من أنه مدرب على القاء حربته لأبعد مدى وبدقة شديدة فانه من النادر مع ذلك أن يتخلى عنها فى المعركة ، فهو يمسك بها عادة بالقرب من سهمها ، ويرمى بها بقوة تاركا اياها تنزلق من يده دون أن يتخلص منها كلية وبحركة معاكسة يستعيدها سريعا الى وضعها الأول وحيث أن كفاءته كفارس اكبر منها عن درجة تباهيه بسلاحه ، فانه يحرص على اتخاذ الجانب الأيسر من خصمه ، وهو يحوم حوله ويتفادى ضرباته هاربا بحصانه الذى تخدمه مرونته المذهلة بشكل رائع فى تلك المعارك التى يلتحم فيها المقاتلون .

ويصنع البــدو بانفسهم البــارود الذى يستخدمونه وهو ردىء ، وتزيد فيــه على الدوام نسبة الفحم بدرجــة أكبر مما ينبغى . وليســت لديهم مدفعيــة ، فالمــدفعية حسب اسلوبهم فى القتــال ليست مفيــدة بالنسبة لهم ، واذا ما اضطروا للتجمع فانهم سهــاجمون كرماة ، ويتم هذا دون أدنى نظام ، فكل منهم يتخذ مكانه حسب هواه . وليست معاركهم الا تلاحمات ، اذ يبــادر اكثرهم شجاعة بالاندفاع نحو الخصم ، ويثير بذلك حميــة رفاقه . هــذا هو واجب القــائد عندهم ، وهو الوحيــد الذى تسمع أوامــره ، وسرعان ماينم احــراز النصر ، ويتفرق المهزومون فى الصحراء ، ويحميهم الليل من ملاحقة أعدائهم .

واذا ما دارت معركة على مشهد من المخيم ، أو اذا كانت مع الفريقين اسرهم ، فانك ترى النساء والفتيات ، جماعات جماعات ، يدققن طبولهن ويثرن بصرخاتهن وأغنيــاتهن حميــة المقاتلين : ووسط كل هذه الضجة، لا يكون عليهن أن يخشين بأسا . فالجميع يحترمون ضعفهن .

ولا يهاجم العربان مطلقا أثنــاء الليل ، ويتلخص تاكتيكهم فى مفاجأة العدو بانقضاضات سريعــة وهجمات غير متوقعة ، وفى نصب الــكمائن له ومناوشته لانهاكه عنــدما يكون هو الأقوى ، وهم فى هــذه الحــالة لا يتحرجون من ان يفروا ، ليعيدوا حشــد سلاحهم وهم يجــرون بأقصى سرعة ثم يعودون الى المعركة حيث لا يكون ذلك متوقعا . والويل لأولئك الذين يبتعــدون من أعــدائهم عن فرقتهم ! لــكم شــاهدت فرنســيين يختطفون وهم على مدى مرمى بنــادق زملائهم ، ثم جردوا وذبحوا أمام فرقنا قبل ان يكون لدى زملائهم الوقت لنجدتهم .

وكم دهشنا ، ونحن نراهم يهربون أمامنــا على الرغم من تفــوقهم العددى علينــا فى حين اننــا شاهدناهم فى مرات أخرى وعلى العكس من ذلك يهاجموننــا بشراسة برغم انهم كانوا فى موقف أضعف بالنسبة لنــا ، وتفسير ذلك أنه لم يكن مع جنودنا فى الحالات الأولى أى أمتعة يمكن لها أن تغرى عدوا لا يقاتل الا للحصــول على مغانم ، بينما كنا فى الحالات الأخرى نصحب قوافل تثير لعــاب شهيتهم التى لا تشبع ، ذلك أنه لا ينبغى علينــا أن ننظر للعربان مثلما ننظر للأمم الأوربيــة ! فالدول الأوربيــة تسمى منتصرا من ســاد ميدان القتــال ، بينما من الممكن عند

العرب أن يعد نصرا ان تلوذ بالفرار بشرط الا تفقد من الرجال الا أقل مما فقد العدو ، وبشرط ان نحصل على بعض الأسلاب . وكثيرا ماخدعنا فيهم ، فقد كنا نظن جبانا ذلك الذى يهرب منا بينما هم ينظرون اليه فى معسكرهم — ربما — على انه بطل .

وحيث ليست لديهم لا مدفعية ولا مشاة فان اقل سور كفيل بايقاف زحفهم ، لذلك فان معظم المدن فى مصر ، قد احاطت نفسها — حتى تحمى من غاراتهم — بسور عال يبلغ سمكه طوبة واحدة . ويكفى ذلك كى يجعل من الأمر فى نظر العربان حصنا لا يمكن الاستيلاء عليه الا باستخدام القوة المسلحة ، عندئذ يضطرون للقيام بحصار المكان ، وهو نوع من المعارك لايتفق مع تلهفهم وعجلتهم، لذلك فانهم سرعان مايوافقون على الابتعاد فى مقابل الحصول على بعض الهدايا .

ولنفس هذا الغرض يقيم الفلاحون فى هذه البلاد ، هنا وهناك، وسط الحقول المزروعة احواضا من الطين على شكل ابراج يعلوها سطح مزود بمتراس . ويزرع هؤلاء البؤساء وعيونهم يقظة : وهم لا يتركون سلاحهم مطلقا ، ويزرعون وهم يرتجفون تلك الأرض التى عليها أن تطعمهم ، وما أن يلمحوا البدو قادمين حتى يسوقوا — على وجه السرعة — حيواناتهم إلى اكثر الأبراج قربا ، ويتسلقونه على درجات صغيرة محفورة فى جسمه الخارجى ، ومن سطح هذا البرج يذودون عن ممتلكاتهم ويبعدون عدوهم بطلقات البنادق .

وعندما تقوم حرب بين قبيلة وأخرى فان العرب لا يتخذون مطلقا من اسراهم عبيدا ، فهم يطلقون سراحهم بعد ان يسلبوهم أمتعتهم ، واذا ما استبقوا بعضهم فانما ليتخذوا منهم رهائن ، لكنهم لا يسلكون نفس المسالك مع الأجناس الأخرى وانما هم فى هذه الحالة كذلك — يحتفظون بعدد قليل من الأسرى ، لكن هؤلاء الأسرى يكونون بمثابة عبيد ، يستخدمون فى أعمال البيت وبخاصة فى طحن الحبوب ، وهذا النوع من العمل يضعهم مباشرة تحت امرة النساء فى القبيلة : ونستطيع أن نميزهم عن العبيد المشترين ، وهم كذلك قليلو العدد — فهؤلاء الأخيرون زنوج فى غالب الأحيان ، يشترون وهم صغار ، ويعاملون بقدر من الرأفة كما لو كانت تربطهم بالقبيلة روابط الدم . وعندما يصبحون

كبارا ، يتبعون سادتهم الى الحروب ويحصلون فى الغالب على حريتهم مكافاة لهم على شجاعتهم ، ويحصلون كذلك على عطاء من الامتعة الضرورية لحالتهم الجديدة ، بل انهم فى بعض الأحيان يقتسمون تركة سيدهم مع ابنائه ، وفى معظم الأحوال يعترف بهم كورثة وحيدين لسادتهم اذا لم يكن (١٠) لهؤلاء الأخيرين ابناء ، حتى ولو كان لهم اهل عديدون وعندما يصبحون أفرادا فى القبيلة ، يكون بمقدورهم أن يتوصلوا هم وأحفادهم الى مرتبة الشيخ . وبهذا يكون الأمر هنا أقرب الى التبنى منه الى العبودية .

وأخيرا فان البدو لا يرغمون الأسرى الذين يحصلون عليهم فى الحروب على اعتناق الاسلام لكنهم يرغمون على ذلك العبيد الذين يشترونهم . ولا يعنى الأمر انهم شديدو التدقيق فى مسألة الدين ، فقلما يكون هؤلاء مسلمين الا بالاسم ، وتنظر اليهم بقية الشعوب التى تدين بهذه الديانة على انهم غير مؤمنين . والختان ، هو الممارسة الدينية الوحيدة التى تحظى بالاحترام بينهم ، ومن المعروف انها كانت تمارس قبل مولد محمد « صلى الله عليه وسلم » بزمن طويل . اما الوضوء الذى امر به هذا النبى فلا يمكن المواظبة عليه فى الصحراوات حيث المياه نادرة وثمينة لحد كبير . وعلى الرغم من أن القرآن قد فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فان هؤلاء لا يؤدون الصلاة فى معظم الأحيان الا مرة عند شروق الشمس ومرة أخرى عند الغروب . بل وربما كانوا يخلطون بين ذلك وبين التقديس الذى يولونه لكل النجوم، ولعل ذلك شيء قد بقى من ديانتهم القديمة تلك التى كانت بسيطة بقدر ما كانت طبيعية . وهم يعبدون كائنا ساميا ، وينظرون الى الأجسام السماوية كوسطاء بينهم وبينه وهى التى تبدو وسط سماء بهذا الجمال وعلى هذه الدرجة من الصفاء وكأنها تدل على عظمة الله التى تتبدى هنا بقدر من الروعة اكبر مما تبدو به فى بقية مظاهر الطبيعة (١١) .

---

(١٠) نجد فى التوراة عادات مشابهة ، فقد كان ابراهام ينظر الى ابن خادمه كوارثه الوحيد قبل أن تجعل منه هاجر أبا (سفر التكوين ، الاصحاح الخامس ، الآية ٣٧) على الرغم من أن ابراهام كان ينتمى الى اسرة كبيرة العدد .

(11) Voltaire, Essai sur les moeurs.

ولا يرى مطلقا فى معسكرات العربان مكان مخصص للصلاة . فكل امرىء يؤديهـا حيث شـاء . ويسلك فى هـذا الأمر على النحو الذى سمع به ، اذ ليس ثمة رجال دين أو أئمـة على الاطـلاق ، ولـكن ثمـة قاضـيا ، وان كان هـذا الفقيه الذى ينبغى أن يحفظ القرآن ويعـرف القوانين والتفاسـير لا يعرف حتى القراءة . يقول شيخ القبيـلة لأحد العربان : انت قاض . فيكون كذلك . ولقـد أخذوا بهذه الاجراءات بدافع سياسى ولارضـاء جيرانهم ، لـكن ما يميزهم على وجه الخصـوص عن بقيـة المسلمين هو أنهم لا يكنون لا حقـدا ولا احتقارا للأديان الأخرى ، بل ويقال انه لا تزال توجد داخل الجزيرة العربيـة قبـائل يهودية ينظر إليها أبناء البدو المسلمين ، على أنهم اخوة لهم .

وفى بعض الأحيـان ، ومن المستحسن أن يحدث ذلك فوق الأماكن المرتفعـة ، يذبح العربان خروفا أو جملا صـغيرا ، وبذكر اسم الله ، ويوزعون على الفقراء جزءا من لحم الضحية (١٢) .

وتوقير المسلمين للحيتهم أمر شـائع ، ولا يستطيع العبيد أن يطلقوا لحاهم . وحلاقـة ذقن رجل حر أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البـدو بلحاهم وهم ممسكون بها بأيديهم ، وفى أحيـان أخرى يقسمون براسهم، لـكن أكثر الايمان تقـديسا وأكثرها قوة ، هو القسم الذى لا يلجـأون اليه الا فى الحـالات ذات الأهميـة القصوى ، ويلفظ به مع رفع طرف الرداء والامساك بعضـو التـذكير ، وعادة القسم بالأعضـاء التناسلية يعود الى زمن جد بعيد فلقد قال ابراهام لخادمه « ضع يدك تحت فخذى، واقسم أن تذهب الى بلاد ما بين النهرين لتتخذ زوجة لاسحاق ابنى » ❋

---

(١٢) ذبح الأضحيات فوق الأماكن المرتفعة تقليد شائع عند العرب منذ الأزمنة الضـاربة فى القدم ، فعلى أحد الجبـال قاد أحد شيوخهم ابنه، لكى يذبحه قربانا الى الله (سفر التكوين ، الاصـحاح الـ ٢٢) وتقـدم التوراة العديد من الأمثلة المشابهة .

❋ هذه ترجمة للنص الفرنسى واليكم النص كما جاء فى التوراة :

« وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له ، ضع يدك تحت فخذى ، فأستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخـذ زوجة لابنى من بنـات الـكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق » ـ وهكذا تزوج اسحاق من رفقة بنت بتوئيل ابن أخى ابراهيم ـ سفر التكوين ـ الاصـحاح الرابع والعشرون .

(المترجم)

وللتعاويذ والتمائم نفوذها الكبير على العقلية الساذجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبته أو تحت ابطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر اليهم البدو على انهم اكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتمائم والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لايفهمونها على الاطلاق بل وكذلك بعض التعاويذ المصرية القديمة ، وفى النهاية فانهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التميمة التى عملت خصيصا لمرض أصابهم أكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب وأسراره . ويحرصون على وضعها فوق الجزء المصاب من الجسم ، وقد يثير الأمر ضحك البعض، وانا مقر بذلك ، ولكن ، هل ينبغى لمثل هذه الأمور أن تثير سخريتنا بينما نحن برغم كل حضارتنا مازلنا أسرى لخرافات مشابهة .

وعندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، أو فى اية ظروف قد تضفى عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فانها قد تحمل البدو على الاعتقاد بأن بها روح جنى ، وتصبح منذ ذلك الوقت أمرا مقدسا ، بحيث لا يمكن انتهاك حرمتها بقطع فرع منها أو حتى بقذفها بحجر ، ويعلقون بها شعر الرأس وشعر الجسم ومزقا من القماش ،وقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية ، ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل ان يسخروا القدر لصالحهم وان يوقعوا الضرر والأذى بأعدائهم ، وقد شاهدت وسط الصحراء ، بين القاهرة والسويس، شجرة ضخمة من أشجار الأكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعسكر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام الى مكة « للحج » ويقوم العرب بهذا الأمر فى تقديس كبير ، وقلما يفوت الحجاج أن ينذروا هناك نذورهم اذا ما كتبت لهم النجاة من اخطار السفر ، وذلك بأن يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم .

كنت أود لو أستطيع ان أقدم هنا تفاصيل الحفلات الدينية التى تصاحب عند كل الشعوب بعض المناسبات الهامة فى حياة الناس ، لكنى لن أتحدث هنا ـ حيث أنى سأقتصر فى هذه الدراسة على الوقائع

التى لمستها وتلك التى تحققت منها بنفسى — عن حفلات الزواج والميلاد، وتحت بند الأخلاقيات والعـادات المدنية .

يتزوج العربان فى سن جد مبكرة ، وهم شديدو الغيرة على نسائهم، فالخنجر مشرع عند اقل هفوة خيـانة ، وهم لا يخفون على الاطلاق نيتهم فى استعادة اى من نسـائهم يقعن سـبايا فى الحرب لتضمهن احضان المنتصر ، وتستطيع الفتاة التى مرت بهذه المحنة أن تعثر على زوج وكأن شـيئا لم يحدث لها ، ومع ذلك فان هذه الفتـاة فى حالات اخرى ، اذا لم تبن بكارتها ليـلة زفافها — ستطرد الى اهلها مجللة بالخزى ، وينتظر هؤلاء الأهل بفـارغ الصبر فى خيمة الزوج قطعـة القمـاش المخضـبة بالدم والتى تشهد بتعقل ابنتهم واسـتقامتها ، بل ويعرضونها أحيانا خارج الخيمة لأنظار الجمهور ، ثم تطويها الزوجة الشابة بعنـاية وتحتفظ بهـا طيلة حياتها .

ولا يعرف شباب العربان هـذه السوءة شـديدة الانتشـار لسوء الحظ فى أوربا والتى تحطم قوى الاخصاب عند ابنائها، وتقضى على البهجة التى ينبغى أن تترب بين البشر وتحيل الحيـاة الى كآبة منفرة ، تصـيب صـاحبها بالانطواء ، وقتـامة المزاج وتجعل منه انانيـا فظا وتتسبب له فى أمراض الوهن والعجز القاسية بل والى موت مؤس مالم يؤد حب النساء الى علاج سريع له ، لـكن هـذه السوءة تحل محلها هنا سوءة أخرى عرفت فى المـاضى عند اليونان ، وكانت شـائعة فى كـل الأمم الرعوية ، تلك هى عادة أن يتبادلوا الحب فيما بينهم .ويحدث هـذا على وجه الخصوص اثنـاء مسيراتهم الطويلة حيث ليس ثمة من مجتمع يحيط بهم سوى قطعانهم .. وهناك ، ينغمسون فى أمور تبعث على الخجل .

ويؤدى الزواج الى اختفاء أو على الأقل الى التخفيف من هذه الملاذ الاثمة . والعربان كما سبق القول يتزوجون فى سن جد مبكرة ، وليس ثمة ما يأملونه اكثر من الحصـول على الـكثير من الأطفـال فتلك هى الوسيلة الاكيـدة للنفوذ والثروة . ومولد طفـل ، هو حـدث يملؤهم بالفرح الطـاغى ، وبسبب هـذا الحب الابوى الـكبير فانهم يضيفون الى اسمهم اسم مولودهم : فاذا كان الأب يسمى محمـدا وابنـه يسمى

علما بان اسم الأول يصبح هكذا : محمد ابو على ، او ابو على فقط ، وهو ما يعنى والد على .

ويحمل الشبان من جانبهم اعظم احترام لواهبيهم الحياة ، كما يحترمون كل الشيوخ على وجه العموم ، فينهضون عند قدومهم ، وينصتون اليهم باحترام شديد ، بل ويكفون عن التدخين فى حضرتهم الا اذا طلب اليهم ان يواصلوا التدخين . وهكذا تتأسس حكومة القبيلة على هذا الخضوع التلقائى لحكمة السنين وخبرة الأيام ، وعلى حب الآباء لأبنائهم .. وهذا هو ما سبق ان لاحظنا من قبل حول هذا الموضوع .

والعربان رشيقو الأجسام ، خفيفوا الحركة اكثر من كونهم أشداء ، تتميز اجسامهم بالنحافة ، لكنها نحافة الصحة ، وثمة نوع من التشابه الكبير فى شكل قامتهم ، اذ قلما تشذ عن طول يتراوح من خمسة اقدام وبوصتين الى خمسة اقدام واربع بوصات ، ولا نرى بينهم مطلقا — كما نرى عندما — اقزاما الى جوار عمالقة ، أو متعدين الى جانب اشداء مفتولى العضل كما لا يرى بينهم على الاطلاق من هو كسيح منذ مولده .. فهناك تتقارب القوى الفيزيقية ، كما تتقارب الصفات الأخلاقية والعادات الاجتماعية بقدر من المساواة لا مثيل له فى مكان آخر من العالم .

والعربان بيض الوجوه : لكن الشمس لوحت بشرتهم لحد كبير ، حيث يشتد أثرها اذ تنعكس اشعتها بفعل الرمال : ولون لحيتهم وشعرهم وعيونهم أسود ، اما اسنانهم فناصعة البياض متناسقة ، فى العادة ، وجميلة وملحمهم روحانى ورقابهم كثيرة العضل ، واكتافهم وصدورهم عريضة ، لكن الركبة كبيرة بعض الشىء ، ولعل هذا قد نتج عن طريقتهم فى الجلوس على الأرض حيث تشابك سيقانهم من تحتهم .

وعيون النساء اكثر اتساعا من عيون الرجال لكنها سوداء بالمثل ، كذلك فان اسنانهن بيضاء متناسقة . وقامتهن هيفاء مرنة ، اما اذرعهن وأيديهن وسيقانهن واقدامهن فعلى درجة من الجمال تصلح معها اية واحدة منهن ان تعد انموذجا « موديل » ، لكن ملامحهن فيما عدا عيونهن قليلة التعبير ، تنقصها الحيوية ، وهو امر ينبغى أن نعود به دون جدال

الى عادة اخفـــاء الوجه تحت النقاب بمثـــابة لا يولينها لأى جزء آخر من جسمهن ، وانفهن كبير ، وفمهن واسع ، وتصبح الــكثيرات منهن قبيحات بالفعل عندما يغطين وجوههن بوشم يجعلهن قريبات الشبه بهنود امريكا.

وسرعان ما تتهدل صـــدورهن ، وهو الذى كان ناضـــجا وجميـــلا عنـــدما كانت المرأة ما تزال فتـــاة فى سن العـــاشرة أو الثانية عشرة، وما ان تنجب الواحـــدة منهن طفـــلا حتى يســـتطيل صـــدرها بدرجـــة كبيرة ، ومما يساعد فى تشويهه اكثر فأكثر انهن لا يبـــذلن اية عنـــاية لحمله أو اخفـــائه ، لذلك فالجميـــلات من نسائهن فى حكم النادرات ، ومع ذلك فهنـــاك بعض الجميلات يمكن لك أن تلمحهـــن وبخاصـــة بين صغيرات السن منهن .

وتتميز هؤلاء النسوة جميعـــا بخصوبة هائلة ، وعنـــدما لا ينجب سيدة متزوجة فانهـــا تلقى الاحتقـــار ولا يتردد زوجها فى تطليقها ، أو على الاقل ، فى اتخاذ زوجة اخرى ، ذلك ان الطلاق وتعـــدد الزوجات أمران مسموح بهما .

ومن اصـــعب الامور عليـــك أن تستطيع تمييز شـــيوخ العرب من شبانهم عن طريق ملابسهم ، فهم يرتدون بصـــفة اساســـية اقل هـــذه الملابس خشونة وتنفيرا ، اضف الى ذلك أن رداء العربان لا يتغير ، على الاطلاق ، اذ يظل هو نفس ما كانه فى الأزمنة الخوالى ، وينبغي أن يقود هذا الى الاعتقاد بأن الأمر انما هـــو نوع من التقـــدير الذى تحظى به الشيخوخة ، أما عندنا ، فعلى العكس من ذلك ، فأهواء الموضـــة تتغير كل يوم .. ومن ثم تأتى سن معينة يجد المرء نفســـه فيها لايسيغ اهواء « موضات » جـــديدة ، فيثبت على بذلة لا تعود تتغير طيـــلة السنوات الأخيرة من عمره ، لذلك فسرعان ما تعد ملابسه مضـــحكة حيث يكون الشباب وهو الذى يبعث البهجة فى كل شىء ، قـــد كف عن استخدامها. ومن جهة أخرى فان الموضـــة فى أوربا لا تؤدى فقط الى تنويع الملابس، بل انهـــا تبسط سطوتها على كل ضروب الحيـــاة ، وينتج عن ذلك فى غالب الأحيـــان تنـــاقض قاس بين الشباب وبين الشيخوخة ! فملابس الآباء تبـــدو فى عين الأبناء مضحكة ، بينما لا يكف الآباء عن انتقاد الزمن الحـــاضر ولا يملون من الأسف على الزمن الذى فات ، ويتبـــادلون فيما

بينهم المرارة فيقولون : فيما مضى كنا نفعل كذا .. وهذه الكلمات التى قد يلفظها البعض بسخريه وقد يلفظها الآخرون بأسى ، تبدو كما لو كانت تعيد الى الأذهان ذكرى زمن سابق على الوقت الحاضر بقرون عدة ، بينما هى فى اغلب الأحيان لا تتعلق الا بفترة مضت منذ حوالى العشرين عاما . لكن الأمر ليس نفس الأمر عند أمم الشرق ، فالعادات ثابتة لا تحول . يقول العرب هكذا كان يفعل آباؤنا وعلينا أن نحذوا حذوهم . ومع ذلك فلابد أن نتفق على انه اذا كان مثل هذا الأمر فى معظم الأحيان ، افضل من ذلك التغيير الذى يحدث بلا انقطاع فان له أيضا عيوبه ! ذلك ان شيئا لن يتطور بمرور الوقت .

ويرتدى العربان جلبابا بالغ الاتساع من القماش أو من الصوف، وهم يشدونه حول وسطهم بواسطة حزام عريض . ويرتدون تحته كملابس داخلية سروالا من التيل . وهم يحلقون رءوسهم بالموسى ويغطونها بعمامة ، ويطلقون لحيهم ، وتظل عارية رقابهم وأذرعهم وسيقانهم . وفى معظم الأحيان يرتدى العربان الذين يقطنون صحراء مصر الغربية فوق ملابسهم معطفا أبيض اللون « عباءة » من قماش صوفى شديد الرقة . وقد شاهدت عربانا آخرين فى مناطق تحيط بمدينة السويس يلقون فوق ظهورهم اثناء الشتاء جلدا ثقيلا من جلود الخراف يعقدون قدميه الأماميتين فوق الصدر ويدلى الذيل الى الأرض وهو الأمر الذى يشبه تمام الشبه تلك الطريقة التى يبدو لنا هرقل بها وهو يرتدى جلد أسد ، ويبدو هذا المعطف البدائى على درجة من الجاذبية والروعة ، اما ملابس السيدات فتكون عادة من رداء طويل يستخدم فى نفس الوقت فستانا ، ومن سروال وعمامة وحجابين ، اولهما وهو الأوسع يوضع فوق الراس اما الآخر وهو اقل اتساعا فيوضع فوق الوجه أسفل العينين مباشرة ، ويثبت بقصاصتى قماش تعقدان خلف الرأس . وثمة أطواق من الفضة — وهى فى اغلب الأحيان من الزجاج الأزرق — تحيط بالذراعين والساقين أما الحلى التى يتزين بها، فهى الخواتم والأقراط المصنوعة من النحاس أو الفضة ونادرا ما تكون من الذهب ، وبعضهن يثقبن احدى فتحتى الأنف لتتدلى منها حلقة فوق الفم .

ونظن النسوة من كافة الفئات أنهن يتزين عندما يصبغن بالأصفر باطن القدمين واليدين « بالحناء » وهو أمر بدا لى على الدوام بالغ القبح ، لكننى سأقول عكس هذا الراى بخصوص عادتهن فى احاطة جفونهن بخط أسود يمتد قليلا عند ركن الجفنين فقد كان تأثير ذلك على الدوام طيبا بالنسبة لى ، فالعين تكتسب بذلك حيوية وتبدو نجلاء وأكثر اتساعا ، ويمكن أن نستنتج من الخطوط التى نراها محفورة حول عيون التماثيل المصرية ان هذه كانت نفس عادة النسوة فى مصر القديمة.

ومنقولات البدوى كما لابد ان يتخيل المرء تتضاءل الى حد الضرورة المباشرة : رحاة ، رقيقة من الحديد لتحميص حبوب القمح أو لانضاج الخبز ، اناء لصنع القهوة « كنكة » ، دلو من الجلد لصب المياه ، بعض القرب ، قصعات من الخشب فناجين صغيرة لشرب البن ، قدر ، حصيرة تستعمل سجادة وفراشا ، وفى بعض الأحيان نول لنسج الأقمشة الخشنة، الأسلحة التى سبق أن تحدثنا عنها ، ماسورة طولها من ٤ — ٥ اقدام ، قليل من الملابس ، نوع من الماندولين (١٣) طبلة وهى عبارة عن اناء من الفخار المحروق لا قاع له ويغطى من احدى فتحتيه بجلد مشدود بقوة .. هذا هو كل ما نضعه على وجه التقريب خيمة البدوى ، وهذه الخيمة ترتفع الى ٥ — ٦ اقدام ، وهى مربعة الشكل ومصنوعة من قماش غامق خشن يصنعه العربان بأنفسهم من وبر الجمال . أما الجزء الخارجى من الخيمة ، وهو الذى يصنع سقفها ، فهو قليل الانحدار ويتخذ فى غالب الأحيان شكلا أفقيا ، وثمة فاصل من نفس القماش يفصل داخل الخيمة حجرة الحريم عن حجرة الرجال .

---

(١٣) استخدمت كلمتا ماندولين وكمان ، على الرغم من أن هذه الآلات تختلف كثيرا عن تلك التى تطلق عليها هذه الأسماء فى فرنسا . وقد أطلقت كلمة ماندولين على تلك الآلة التى تهتز أوتارها بواسطة قطعة صغيرة من قرن أو من خشب ، وكلمة كمان على تلك الآلة التى يعزف على أوتارها بواسطة قوس ، وبامكان من يرغب فى معرفة هذه الأشياء ، بتفصيل اكثر دقة ، أن يعود الى الدراسات التى نشرها المسيو فيوتو Villoteau عن الموسيقى ، فى نفس هذا المجلد (من الطبعة الأولى الفرنسية والسابع فى الترجمة العربية) .

وتتناثر كل خيـــام العرب بلا نظام الواحدة بعد الأخرى ، ولكن فى نفس الوقت بطريقة تجعلها تحوى فيما بينها فراغا فسيحا يستخدم كميدان عام وكمربط للقطعـــان ، واذا ما شاءوا أن يرحلوا فان كل عائلة تعبىء منقولاتها الخفيفـــة فى قمـــاش خيمتها وتحملها فوق جملها ونساق القطعان فى مقدمة الركب ، يتبعها النسوة والأطفـــال والشيوخ ، ويســـير بعض هؤلاء على قـــدميه ويمتطى البعض الآخر الجمـــال أو الحمير ، وهنـــاك بعض الرجال ، على صهوات جيادهم ، يرشدون ويقودون المسيرة ولا شىء يبقى فى المؤخرة ، وسرعان ما تأتى الرياح لتمحو آخر اثر لهـــذه المـــدينة المؤقتـــة .

والعربان قوم بالغو القنـــاعة اذ تكفيهم بضع بلحـــات وحفنـــة من القمح أو الشعير المحمص غذاء ليوم كامل : بل لقـــد رأيت البعض منهم فى اعمـــاق الصحراء يكتفون ببعض من الفول النيىء كانوا يأخـــذونه من طعـــام جمالهم ، ويأكلونه دون اية تجهيزات سوى أن يكسروه الى قطع صغيرة بواسطة حجر حتى يتمكنوا من مضغه بسهولة اكبر ، وهكذا ، فست أوقيات من الطعـــام أو سبع هى كل مايستهلكه البدوى من طعـــام طيلة اليوم فى الصحراء ، وهم يأكلون أكثر من ذلك بقليل عنـــدما يحلون بأرض خصبة ، ومع ذلك فان زهادنا ، وهم المعتـــادون على فترات الصيام الطويل ، لا يستطيعون بحال أن يقتربوا من بساطة هؤلاء وقنـــاعتهم ، فهؤلاء يشربون اقل من القليل ، ويتحملون العطش لأيام بأكملهـــا ، وبلا جدال فانه نتيجة لهذه القناعة المستمرة فان افرازاتهم ، نتيجة لهذه القناعة الدائمة ، جد قليلة (١٤) .

---

(١٤) يمكن أن يعد انعدام العرق عنـــدهم بشكل مطلق فيما أعتقـــد واحدا من الأســـباب وفى نفس الوقت واحـــدا من النتـــائج لقنـــاعتهم، فاذا كانوا لا يعرقون مطلقـــا فان الأمر لا يعود فقط لأنهم يأكلون قليـــلا وانما لأن جلدهم يجف بسبب تعرضهم لشمس حارقة ، وهم لا يرتدون الا ملابس شـــديدة الخفـــة ، وبسبب جفـــاف جلودهم وخشونتها تضـــيق مسامهم وتسد بشـــكل تام . وحيث انهم يتعرضون لقدر قليل من الفقد من طريق العرق فان حاجتهم للطعـــام لاستعادة قواهم تقل تبعا لذلك ، لكننى أمسك عن الخوض فى الأمر اكثر من ذلك مفضـــلا أن اترك الأمر ليحسمه الفسيولوجيون .

واليكم ما يأكله العربان عادة : فطائر صغيرة من الذرة أو القمح لم تنضج لحد كاف ، ارز ، بلح ، عدس ، فول ، لحم ولكن فى اضيق الحدود، لبن طازج او رائب ، زبد ، جبن شـــديد الجفـــاف ، مالح ولاذع الطعم يصنعونه دوما من لبن الفرس والبقر والجاموس والحمـــير والمـــاعز بلا تفرقة ، ولا يشربون ســـوى المـــاء والبن بدون ســـكر ، وهم يحولون القمح الى دقيق بواسطة رحى شـــقاها من حجارة او يسحقونه ببساطة فى حجر مقعر على شكل مدقـــة (هاون) ، بنفس الطريقة التى يصنع بها الرسامون الوانهم .

وبعد عجن الدقيق ، يبسط العجين على سطح من الحـــديد المحمى من قبـــل فـــوق النـــار داخل حفرة فى الرمال ويغطى الجميـــع بالرماد الساخن ، ويجذب الخبز قبل ان يبلغ بكثير درجة النضوج التى نعطيها له فى فرنسا . وهذه عادة استمرت فى الصحراء منـــذ زمن لا يمكن تذكره « انضجوا الخبز تحت الرماد » هكذا كان يقول ابراهام لسارة .

ويستخدم نفس هذا اللوح الحـــديدى الذى ينضج فوقه الخبز فى تحميص حبوب القمح والشعير التى يأكلها العرب عادة بدلا من الخبز .

اما روث الماشية المجفف فى الشمس ، فهو على وجـــه التقريب ، الوقود الوحيد الذى يستخدمونه ، ومن العسير عليهم فى الصـــحراء أن يتزودوا بوقود غيره .

وفى وجبة الاحتفالات يقدم عادة خروف بأكمله .

وقد تناولت العشاء ذات يوم مع بعض البدو ، ولقد استخدم هؤلاء لحثى على الطعـــام وسائل قد لا تقع موقع الاستنكار من أكثرنا تأدبا نحن الأوربيين وهأنذا اقص هـــذه الحكاية التى ســـوف تسهم فى تعريفنـــا بمضيفى من زوايا عدة :

كنت مكلفا أثناء شتاء العـــام السابع (١٧٩٩) بعبور وادى التيه، الذى لم يكن قـــد سبق لأى من جنودنا أن اجتـــازه من قبل .ورحلت من القاهرة مع سرية تتكون من خمسة وعشرين رجلا من المشاة ، وكان مع كل جندى من الخبز مايكفيه لمدة اربعة ايام ، وكان معنـــا جملان يحملان

المياه التى قدرنا اننا سنحتاج اليها . وعندما وصلنا عند غروب الشمس قرب مدخل الوادى ، على مشارف الأرض المنزرعة ، قررت أن نمضى الليل فى هذا المكان ، وتمدد الجنود على الرمال ، وبينما هم يأكلون خبزهم ، مغموسا فى قليل من الماء ، كان خيالهم الذى استثاره اسم الوادى ، قد جعلهم يتخيلون آلاف المخاطر الخرافية وأردت أن أتبين — بتوجهى الى قرية كنا غير بعيدين عنها ، ما ان كان بمقدورى أن أتزود من هناك بمرشد يدلنا على الطريق : اخذت بندقيتى وسرت وحيدا ، ولكن سرعان مادفعتنى الرغبة فى التعرف على مدخل الوادى الى القيام بدورة كبيرة ، ابتعدت معها دون ادراك منى عن سريتى ، وما أن تسلقت بعض التلال التى حجبتنى كلية عن الأنظار . حتى وجدت نفسى فجأة أمام مخيم عربى : فكرت فى الانسحاب لكننى تبينت أن بعض البدو من راكبى الخيول قد قطعوا على كل خط رجعة ، فقررت أن أجعلهم يدفعون ثمن حياتى غاليا . كنت مسلحا بشكل جيد ، اذ كان معى بخلاف بندقيتى المحشوة وسونكيها ، مسدسان ممتازان ، ونادرا ما يحدث أن اخطىء هدفى عند التصويب . شهرت بندقيتى ، لكننى أردت فى نفس الوقت أن أجرب — وأنا رجل جرىء صاحب حيلة — ما ان كنت بمستطيع أن اتفادى معركة غير متكافئة لحد كبير ، فأعطيت اشارة للعربان الذين كانوا يحدقون فى ان يقتربوا منى ، وتوجهت فى نفس الوقت اليهم ، بادى الثقة ، وما أن اصبحت على مسافة تكفى كى يسمعوا خلالها صوتى ، حتى طلبت اليهم أن يصحبونى الى شيخ قبيلتهم لأتحدث اليه . بدأ عليهم أنهم دهشوا لطلبى ، وتبادلوا النظرات فيما بينهم ، فكررت اليهم **بلهجة** حازمة طلبى ، فأشاروا الى أن أتبعهم ، وسرعان ما أصبحنا فى داخل المخيم ، ونبحت الكلاب عند اقترابنا .

كنت أرى هنا وهناك عديدا من الخيول المسرجة ، مربوطة بالقرب من الخيام ، ولاحظت فى دهشة أن العديد من النسوة كن يغطين وجوههن بعناية تماثل ما كان يمكن أن تصنعه زوجات الفلاحين فى موقف كهذا . توقفنا أمام خيمة الشيخ التى لم تكن تختلف فى كثير عن بقية الخيام الا فى كونها اكثر اتساعا بعض الشىء . دخلت فى شىء من التوجس ، فوجدت الشيخ ومعه اثنان من العربان ، وهم منهمكون جميعا فى التدخين وشرب البن . كانوا جالسين على الأرض حول قليل

من ألنــار اســتقر فوقها الغلاى ، وكان دخان هــذا الموقد ، وكــذلك دخان النارجيلات ، بالاضــافة الى السحنة الجادة والمهيبــة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، وكذا المسدسات والخنــاجر التى كانوا يتسلحون بهــا .. كان كل هــذا يتطابق مع الفكرة التى كانت لدينا عن مغارات اللصــوص .. القيت عليهم بتحية الاســلام : السلام عليكم ، فردوا الســلام دون أن يخرجوا عمــا فى أيديهم ، ثم اضــافوا وهم يقدمون الى قدحا من القهوة « اجلس واشرب » استجبت على الفور ، فقــد كنت أعرف أنه نوع من الحماية لك أن تشرب أو تأكل معهم ، وقلت للشيخ : « عرفت أنك تعسكر هنــا فتركت قافلتى على مسافة واتيت وحدى بثقة ، طالبا اليك دليــلا ليقودنى حتى البحر الأحمر عن طريق وادى التيه ، ويمكنك أن تثق بأنه سينال أجرا طيبــا » واضــفت : « ليست معى الآن نقود لكننى سأدفع اليه مقدما نصــف الأجر الذى سنتفق عليه ما أن أعود الى سريتى » ، فأجابنى « ستحصل على دليل فأنا فى سلم مع الفرنسيين » وأخبرنى بعد ذلك أن الفرنسيين قد تركوا له أراضى وقرية البساتين التى كان يعسكر بالقرب منها وأن قبيلته هى قبيلة طرابين .

وبينما نحن نتحدث ، لاحظت أن نساء الشيخ كن يزحن قليــلا حتى يريننى فاصل القمــاش الذى يفصل حجرتهن عن حجرتنــا ، ولابد أنه كان أمرا مثيرا لفضولهن أن يرين واحــدا من الفرنسيين الذين قص عليهن بالضرورة محاربوهن مئات الحكايات الخرافية عنهم والذين كانت ملابسهم ولغتهم وأسلحتهم تختلف اختلافا بينا عما تعودن .

استأذنت فى الانصراف ، بعد أن تيقنت أن دليلا سيأتى فى الغــد ليلحق بى فى المــكان الذى أوضحته لهم ، وعدت الى معسكرى مغتبطــا أننى قد توصلت الى هذه النتيجة السارة .

وعندما عدت الى القاهرة ، بعد ذلك بشهر . قصصت مغامرتى على كثير من زملائى ، واتفقنا معا على تنظيم رحلة لرؤية هــذا المخيم . وفى يوم الرحلة ، كنا اثنى عشر رجلا جيدى التسليح ، نركب جيادا ممتازة ، ويسبقنا سياسنا (سايس)[١٥] الذين كانوا حسب عادة أهل البلاد يجرون

---

(١٥) السياس (سايس) خدم مصريون . وهم فى الوقت نفسه معنــون بأمر الخيل ويجرون بجوار سادتهم وهم لا يعرفون التعب ويحملون معهم فى معظم الأحيان وبخلاف عصاهم بندقية مخدومهم .

على اقـــدامهم ، وبأيديهم عصى طوبلة . سرت وحـــدى فى المقـــدمة كى أنزع كل شك من الطوابين حول مشروع زيارتنـــا .. وعلى الفور ، تعرفوا على ، وعندما وصل زملائى بعد ذلك بقليل ، لقوا ترحيبا طيبا .

وبعد ان استرحنا وتجولنا خـــلال مخيمهم ، وشربنـــا معهم بعض اقـــداح البن ، شرعنا فى الرحيل على الرغم من الحاح كبار القبيلة الذين أرادوا استبقاءنا كى نشاركهم الطعـــام من الخروف الذى ذبحوه عنـــد وصولنا ، لكننا ، بتصنعنا الأوربى ، شكرناهم مدعين أن لدينـــا أعمـــالا لا تمكننا أن نبقى لأكثر من ذلك ، ولاحظت أنهم لم يســـتريحوا لرفضنا ، ومع ذلك ، فبعد أن تبـــادلوا بعض الكلمات فيما بينهم بصوت خفيض ، استعادوا ملمحهم البشوش الذى كان لهم حتى ذلك الوقت ، وقال لنـــا الشيخ وهو يمتطى حصـــانه مع بعض العربان ، انه ذاهب معنا ليدلنـــا على طريق افضل من ذلك الذى نعرفه . وما أن خرجنـــا من المخيم حتى افتعل مناوشة ، وقضينا نحن بعض وقت فى ملاحظة المهارة التى يوجهون بها خيولهم وينقاذفون بها الجريد (١٦) .. كنت قد شاهدت هـــذا الأمر مرات عديدة ، وحيث أننى شـــغوف بهذا النوع من الألعـــاب ، فاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها ، فدخلت بينهم ، واستمر اللعب طيلة مسيرتنا .. وفى النهاية وصلنا الى شـــواطىء النيل ، حيث غابة صغيرة من النخيل ، وهنـــاك فوجئنـــا بوجود وجبة معدة ببذخ على حصير مبسوطة على الأرض ، فقال الشيخ :

---

(١٦) والجريد . عصـــا يبلغ طولها ٤ ـ ٥ اقـــدام وتســـتخدم كرمح ، ويفصل العرب عادة الفروع الخضراء من النخيل لأنها جد ثقيلة. ويستطيع الرجل وهو واقف أن يرمى الجريد على بعـــد أكثر من ٥٠ قـــدما ، أما اذا كان ممتطيا حصانه ويعـــدو بأقصى سرعته فانه يستطيع أن يلقى بها لأبعد من ذلك بكثير ، وهنـــاك من بينهم من يستطيع أن يقـــذف بها بقوة لدرجة يمكن لهذه العصـــا معها أن تتسبب فى حدوث جرح خطير ، بل وفى قتل من لايستطيع تفاديها . وقـــد حدث لى ذات مرة أن وقعت على الأرض دون أن أعرف واحدا ممن كنت ألعب معهم ، وفى نفس اليوم تلقيت ضربة بالجريد منعتنى لشهر كامل من أن استخدم ذراعى .

« ها نحن نجد وجبة فى طريقنا .. بامكاننا أن نتناولها معا دون أن نضيع عليكم مزيدا من الوقت » فترجلنـــا ، وبدأنا فرنسيين وعربا ، ونحن جالسين على الأرض نأكل بشهية طيبـــة .. كان ثمة لبن فى آنية كبيرة ، ودجاج ، وجبن أبيض ، وعسل ، وبعض الفطائر وخبز ، ووسط كل ذلك خروف بأكمله فوق تل من الأرز لم يكد ينضج ، وبدون شوك ولا ملاعق ، وباستخدام أيدينـــا مثل العربان ، كنا ننزع قطع اللحم ، ونأكل كيفما اتفق من نفس الأطبـــاق . واذا كان قـــد سبق لنـــا أن تندرنا على عدم مهارة العرب فى استخدام الشوكة فى طعامهم فقد كان بامكانهم فى ذلك اليوم أن يتنـــدروا من الطريقـــة المبتسرة التى كنا نقلدهم بها ، وكان بعضهم يغمس اللحم بالعسل فحاولنا أن نفعل نفس الشىء ولكننا وجدنا الطعم غير مستساغ لنـــا ، وشربنا ميـــاه النيل الرائعـــة وقـــد بردوها بالقلل (١٧) .. كانت وجبة بالغة المرح على الرغم من أن نصف المدعوين كانوا يجدون مشقة فى فهم النصف الآخر .

ولقد انتهى مضيفونا من الطعام قبلنا ، وعندما كان يشبع أحـــدهم كان ينهض قائلا :شبعت والحمد لله .

وعندما نهضنا جميعا اتخذ خدمنا وكذلك خدم العرب أماكنهم ، وقال الشيخ بصوت عال حسب عادة العرب « يا أبنـــاء البلاد ، تقدموا وكلوا » وعندئذ اتخذ بعض فقراء الفـــلاحين الذين جـــذبهم الجوع أو الفضـــول أماكنهم حول الحصـــير ، ولاحظت أن أقل شىء يشبعهم وأنهم يفسحون بسرعة أماكنهم لآخرين وسرعان ما اختفى كل شىء . ركبنا الجيـــاد من جديد مع البدو وتفرقنـــا كأصدقاء قـــدامى بعد أن تبادلنا التحية العربية علامة على المودة ، وهى عبارة عن التـــلامس عـــدة مرات باليد اليمنى ووضعها عدة مرات فوق الصـــدر مع قول . خذ بالك من نفسك ، حماك الله ؟ وهى مجاملة لا يمل المرء مطلقا من ترديدها .

منذ ذلك اليوم وأنا أعود على الدوام لرؤية الطرابين ، ولقد أخذت عنهم معظم الأفكار التى أدونها اليوم . وعنـــدما كلفت بعد ذلك بعمليات

---

(١٧) القلل آنية فخارية ، غير مطليـــة ، تنسغ الميـــاه من خـــلال مسامها ، وتوضع فى الظل فى تيـــار الهواء ، ويؤدى البخر الذى يحدث فوق جسمها الخارجى الى تبريد المياه التى تحويها .

كثيرة جعلتنى اجتاز صحراوات مصر السفلى أو العليا واتتنى الفرصة أن اتعرف على قبائل اخرى ولاحظت فى كل مكان نفس العادات ونفس السمات والموارد والاحتياجات المشتابهة ، ومع أن هذه الجولات كانت مرهقة بالنسبة لى ، فإن رغبتى فى التعرف جيدا على هذه الشعوب المنفردة — كانت تجعلنى اقوم بها بسرور ، واضيف بأننى كنت على الدوام اتوغل فى الصحراء رغم انه كان ينقصنى تقريبا كل شىء ، اذ لم أكن احمل معى الا قليلا من البسكويت وبعض البلح وقدرا من الماء يكفى لكى لا أهلك من العطش ، وكنت افضل ذلك على أن أبقى فى مدن مصر وسط الوفرة والرخاء فجو الصحراء صحى لدرجة قصوى ، ونادرا ما يبلغها الطاعون ، اما أمراض العيون فقليلة هناك ، ويكاد يكون الجدرى هو المرض الوحيد الذى ينبغى على المرء ان يخشاه فى الصحراء. وبالرغم من هذا الجو الصحى ، الذى لا يقدر بثمن بالنسبة لأحوال المناطق المجاورة فانه من العسير علينا أن نقتنع أن رمالا قاحلة كهذه يمكن ان تقتسم الى ملكيات مميزة ! ومع ذلك فلقد اقتسمت القبائل العربية هذه الرمال ، كما انها تكن لهذه المناطق الموحشة لحد الرعب نفس مايكنه المواطن الفرنسى من الحب للحقول اليانعة ، والظلال الوارفة فى وطنه، وهم ينافحون ويذودون عنها ضد العدو بنفس القدر من الجدارة التى تدافع بها الأمم الأخرى عن أراضيها شديدة الخصوبة . وامتلاك بئر هو على وجه الخصوص كما كان فى زمن البطاركة العبريين أمر بالغ الأهمية ولابد أن ندرك بأن الحدود فى بلد ليست مزروعة ولا تقطعها الأنهار أو مجارى المياه ، كما لا تغطيها المبانى والمنشآت ستكون بالضرورة عسيرة التحديد . لذلك تتولد على الدوام الاحن ، بين القبائل من أجل المراعى ومن أجل المكوس التى تفرض على القوافل ..

وتبرق السماء اللازوردية بالضوء خلال النهار ، كما انها شديدة الصفاء خلال هداة الليل ، ومع ذلك فالأمطار تسقط على المناطق الجبلية بقدر اكبر قليلا من القدر الذى تسقط به فى بقية أنحاء مصر — وهو قدر ضئيل — كما أن رياح السموم تعكر فى بعض الأحيان صفاء الجو .

وتهب السموم أو الرياح المسممة من الجنوب الغربى ، وسرعتها ليست ثابتة ، فهى تسرع وتبطىء من لحظة لأخرى ، وترفع معها الى

مسافة جد عالية دوامات الرمال التى تردم ــ كما حــدث أكثر من مرة ــ قوافل ، بل جيوشـــا بأكملها ، وينسب الى هذه العواصف الهوج سبب ضـــياع الجيش الذى ارسله قمبيز لتــأديب سكان واحة آمون «سيوة» وهذه الدوامات الضــخمة ، وهى نادرة لحسن الحظ ، اقل حــدوثا فى صحراوات مصر الشرقيـــة عنها فى صـــحراواتها الغربيـــة حيث الرمال هنـــا اكثر حركة ولـــكن السموم ، حتى عنـــدما لا تثير اية دوامات امامها تعد كارثة رهيبـــة ، اذ هى محملة على الدوام بالرمال الدقيقة والساخنة، وهى تحجب ضـــوء الشمس ، وتعطى للجو لونا كابيا ، وتصل بالحرارة الى درجة غير محتملة ، وتجفف النبـــاتات بل وتقتل الانســـان والحيوان مالم يتجنبوا فى لحظة هبوب الزوابع أن ينشقوها وهم يغطون وجوههم أو يستديرون عنهـــا برءوسهم .. وهذه الخواص الضـــارة والشريرة لهذه الرياح هى التى جعلت النـــاس يطلقون فى الصحراء عليها اسم السموم، وهى تسمى داخل مصر ــ حيث هى اقل خطورة ــ الخماســـين ذلك أن الناس يشعرون بهبوبها لمدة الخمسين يوما التى تواكب الربيع .

وهناك ظاهرة أخرى تتقدمها الصـــحراء ، وهى تلك التى وصـــفها وشرحها المسيو مونج بذلك الوضوح الذى هو صفة مميزة لكل انتاج هذا العالم الشـــهير .فهنـــاك يظن المرء انه يرى على بعـــد حوالى الفرسخ مساحة هائلة من المياه . بل ان الأجسام التى ترى على هذا البعد ترى صورا معكوسة لها فى اسفلها ، انه السراب كاملا ، وكم من المرات هلك مسافرون بؤساء استدرجهم هـــذا المظهر الخـــادع ، فهلكوا فى ميتـــة قاسية وهم يسعون الى الارتواء من عطشهم من هـــذه البحيرة ــ الوهم التى تتراجع امامهم على الدوام ، فى حين يظن زملاؤهم فى مؤخرة الركب ان هؤلاء قـــد وصلوا الى تحقيق بغيتهم ، ويغبطونهم على ما يظنونهم قد وصلوا اليه . وتعود هذه الظاهرة الى انكسار الضـــوء عنـــد اختراقه للطبقات السفلى من الهواء الذى تتخلخل كثافته على سطح الأرض بفعل حرارة الرمال .

وتستخدم الغزالة الرشيقة ، ذات الخفر ، والحياء والعيون السود اليقظة ، فى معظم الأحيـــان كصورة يرسمها العاشق العربى لمحبوبتـــه الجميلة ، أما النعامة السريعـــة ، والحرباء البطيئـــة ، فهما الحيوانان

الوحيدان اللذان رأيتهما فى الصحراء (١٨) ، وفى معظم الأحيــان ، كنا نرى حول الخيــام كلابا قوية البنية ، كستنائية الشعر ، لا يملكها فرد بعينه ، وانما تعيش فىحالة شبه وحشية وهذه لاتصاب مطلقا بالسعار، على الرغم من الحراره الشديدة والحرمان شبه التــام من المياه ، وهى تعيش على جثث الحيوانات الميتــة والقاذورات الدنسة .. الأمر الــذى يساهم فى الحفـــاظ على صحية الجو من حول المخيمات ، وبالاضـــافة الى ذلك فان هذه الكلاب التى تستطيع أن تميز الأغراب من أبناء القبيلة تعد حراسا اماميين تسارع عن طريق نباحها بتقديم الانذار عندما يلوح أى خطر ، وتوجد كذلك عند بعض جماعات من العربان كلاب سلوقية « كلاب صيد » من سلالة جميلة .. لــكنها لا تعيش طليقة مثل الأولين ، فلهــا سادة يمسكون بها مقيدة فى معظم الأحيان ويستخدمونها فى مطاردةالنعام والغزلان .

وتضطر القوافل التى تعبر الصحراء الى دفع المــكوس للقبـــائل المالــكة للأراضى التى تمر بها خوفا من أن تهاجم وتسلب امتعتها ويؤخذ افرادها عبيدا وســبايا أو يشتتون فى الصــحراء ، ومع أننــا كنا على الدوام نستنكر هذه العــادة ، الا أنها فى حقيقة الأمر تتفق كثيرا معنظام الضرائب عند بقية الأمم ، اليست لنا نحن أيضا قوانين صارمة بخصوص جوازات السفر وتحصيل الجمــارك على البضائع الأجنبيـــة التى تعبر اراضينا ؟ السنا نعــاقب بالمصــادرة والسجن والسلاســل بل وبالموت نفسه أولئك الذين يلجأون الى الخديعة أو الى القوة للتملص منها ؟

وأرض القبيــلة ملك مشاع لــكل الأفراد الذين يكونونهــا . واذا كانت هذه الأرض جرداء ، فان كل واحد يقود قطعانه الى حيث يشاء ، أما اذا كانت خصيبة فانهم يستزرعونها بواسطة الفلاحين أو يستزرعونها فى غيبة هؤلاء بواسطة أسراهم وعبيدهم وخدمهم ، ويقسم العائد بعدالة شديدة بين الأسر المختلفة .

---

(١٨) توجد فى الصحراوات حيوانات مفترسة أخرى مثل ابن آوى والذئب الأفريقى والضبع ... الخ ، لــكننى لا أتحدث هنــا الا عمــا شاهدته بعينى .

وبخلاف الصحراء التى هى ملك كامل لهم ، ينظر البـدو لأنفسهم كحكام شرعيين لمصر ، وينظرون الى الأتراك والمماليك باعتبارهم غاصبين ونتيجة لذلك فقد اقتسموا هـذه المنطقة ، واخذت كل قبيلة تحصـل فى المنطقة التى الت اليها بعض الضرائب العينية ، وبذلك يتخذ الفـلاحون التعساء لانفسهم حمـاة يدافعون عنهم ضد القبائل الأخرى التى ترغب فى انتهابهم ، بل ويشترون كذلك فى معظم الأحيان ملاذا يلجأون اليه عند الحاجة للاحتماء من طغيان الحكومة ومن الجشع النهم لسادتهم .

اما الملكيات الخاصة عند العربان فهى الأثاث والآنيـة والقطعـان ومنتجات بعض المهن ، مثل صـناعة بعض الأنسـجة الخشـنة والزبد والجبن وبيع الجيـاد والجمـال واكراء الجمـال للقوافل ــ كما تتمثل هذه المهن ايضـا حسب المسكان فى تجارة بعض البضـائع مثل الفحم، والسنامكى ، والملح البحرى والأسماك المقددة والنطرون والصودا والشبة والجدائل المستخدمة فى صناعة الحصر .

ويقتنى العرب كثيرا من الجمال ، وهـذا الحيوان ذو نفع كبير لهم ولولاه ما استطاعوا سكنى الصحراوات ولاستسلموا « لحياة الخضوع » لذلك يقال فى معظم الأحيان ان الله ــ او الطبيعة ــ قد خلقه خصيصا كى يجعل الصحراوات قابلة لسكنى البشر . وهو قول لا يعادل خطأه الا الغرور البادى فيه (١٩) .

---

(١٩) تعيش الجمال على نحو طيب فى الصحراء لأن تكوينها يجعلها لا تحس بحاجة لا تستطيع الوفاء بها ، لـكن القول بأنها خلقت خصيصا من أجل الصحراء ، بل ولكى تجعل الصحراء آهلة بالانسـان ، انما هى فـكرة تصـدر عن غرور كبير . ومع ذلك فهـذه الطريقـة فى التعبير والشروح قـد تبنـاها فلاسـفة وعلماء طبيعة يتميزون عن أولئك الذين تركوا أنفسهم ينساقون بفعل مشاعرهم الى تجاوز الحقيقـة البـاردة . وعندما يتـأملون فى تفاصيل تطابق مدهش لحيوان أو نبات فانهم يقولون لأنفسهم : ان الطبيعـة الخيرة قـد منحته هـذا العنصر كى يؤدى هـذه الوظيفة الأساسية للحيـاة أو لقد أعطته هذه الوسيلة للدفاع كى تمنعه من الانقراض على يد اعدائه ! الا يكون من الأبسط ان نقول : انه يعيش لأن له هـذا العضو أو لأن له هذه الوسيلة للدفاع فقد استطاع أن يقاوم أعداءه ، ولولا ذلك لمـا ظهر مطلقـا على ظهر الأرض أو لـكان سرعان ما اختفى منها ، فأين كانت هذه الجودة الخيرة المزعومة للطبيعة بخصوص الأنواع التى انقرضت بشكل تام .

وعندما يجد العربى نفسه بلا ماء ولا حب ولا غطاء ، طريداً فى الصحراء ، وعندما يرى جياده وابقاره وخرافه تنفق من التعب أو الجوع فلسوف تبقى له جماله ولسوف تكفيه . فهى تحمله على ظهورها ، وتطعمه من لبنها وتتحمل الجوع والعطش وتواجه هذه العزلة الشاسعة لتحميه شر اعدائه .

وتكاد الجمال لا تحتاج الى الراحة ، وهى تقرض فى طريقها بعض النباتات الشوكية التى قد يعافيها أى حيوان آخر ، ويطعمها العربان عادة بالقش المهروس « التبن » والفول ونوى البلح . وفى أثناء رحلة قمت بها فى عرض الصحراء لم تشرب الجمال التى كانت معى الا فى اليوم السابع .

وليس للجمال الكبيرة سوى سنام واحد ، ومشيتها المعتادة هى : الخطو ، ووقع عدوها ثقيل ولا يمكنها أن تستمر فيه لوقت طويل ، ويقودها العربان بواسطة زمام « مقود » وعندما تسير الجمال فى شكل قافلة فانهم يربطونها الواحد بالآخر من ذيولها ، ويستطيع شخص واحد فى العادة أن يعنى بستة جمال ، وتحمل الجمال على ظهورها كل الأحمال ، لأن الانسان لا يعرف فى الصحراء لا العربات ولا الزلاجات ، وينقسم الحمل على جنبى الجمل بواسطة برذعة مزودة بالحبال ، ومن النادر أن يبلغ وزن الحمولة أكثر من مائتى كيلوجرام الا اذا كانت المسافة التى على الجمل أن يقطعها بالغة القصر .

ومتوسط السرعة لقافلة تتكون من مائة جمل محملة على هذا النحو، وتسير بخطو معتاد ، حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر فى الساعة ،وقد يقطع الجمل اذا سار بمفرده أكثر من ربع هذه المسافة زيادة على ذلك فى هذه المدة نفسها .

وثمة نوع أكثر ضعفا وأكثر رشاقة وأكثر خفة عند الجرى يسميه العرب ، الهجين ، ولا يستخدم هذا الحيوان الا للركوب ، ويقوده العرب بواسطة حبل مربوط فى حلقة مدلاة من منخاره ، وليس له الا سنام واحد كالجمل ، يوضع عليه السرج ، وعدوه فى العادة أكثر رقة ويكاد

يبلغ عدو الحصان ، ومهما كان عدو الحصـــان بالغ السرعة فان الهجين سيلحق به اذا ما طال الطريق .

وعندما يراد تحميل جمل أو ركوبه فان الانسان يضطر بسبب ارتفاعه الى جعله ينيخ ، ومن اجل ذلك يعودونه على طاعـــة بعض الأوامر التى يبلغونها اليه عن طريق اطلاق أصوات خشنة من الحلق تكاد تشبه صوت الانسان عندما يتفرغر ، ويبدأ الحيوان أولا بأن يطوى الركبتين ، ويثنى ساقيه الأماميتين تحته ثم يدع الساقين الخلفيتين تنزلقان الى الامام لتحيدا بعد ذلك مكانهما الى جانبيه ; وتلامس بطنه الارض .

وعلى المرء عندما يركبه أن يتخذ مكانه بمهارة على السرج وأن ينحنى الى الخلف والى الأمام ، لأن الجمل ينهض — ما أن تضـــع قـــدمك فى الركاب — بشكل فجائى على قدميه الخلفيتين ثم على قـــدميه الأماميتين بطريقة تجعلك تميل أولا ناحيـــة رأسه ، الى الأمام ، ثم تلقى بك بعـــد ذلك الى الخلف . وعلى المرء ان يعرف كيف يسيطر على هاتين الحركتين المتعارضتين ، وهمـــا شديدتان . وتتتابعان بسرعة . ولحم الجمال طيب المذاق ، ويكاد يكون له نفس مذاق لحم البقر ، وهو مفضل بشكل خاص على لحم الحصان .

وتتمتع الخيول العربية الأصيلة بسمعة طيبـــة ، وهى تنقسم الى جنسين متميزين : العبـــادية والنبيلة ، وتسمى الأخيرة : حيل ، وهى أكثر نـــدرة فى صحراوات مصر منها فى صحراوات الحجاز وسوريا. ولا يمكن لحصان أن يعرف بأنه نبيل الا اذا كان أبوه وامه كذلك فى وقت معـــا ، وقول مثل هـــذا الراى فى حصان ما سيكون له أثره الـــكبير فى تقـــدير سعره فان النـــاس يحرصون عنـــدما يراد اتصال فرس نبيلة بحصـــان من نفس النوع أن يسجلوا بذلك حجة فى حضرة شهود ، وتصحب هـــذه الحجة على الدوام حركة بيع الخيول ، ويعلقها النـــاس فى رقاب الخيل داخل جراب صـــغير من الجلد ، وهى تحتوى عادة على كتابة غامضـــة مخصصة لجلب السعادة للحصان وفارسه . والعرب غير معتـــادين على الاطلاق أن يخصوا خيولهم ، أو أن يقطعوا ذيولها أو آذانها ، اذ لا يلجأ النـــاس الى تشويه هـــذا الحيوان النبيل على هـــذا النحو الا فى أوربا ،

فالأسلوب الذى سيطر بشكل مستبد فوق هـذا الجزء من العـالم قـد أخضع الحيوانات نفسها لهفوات شاذة .

وابتداء من سن الـ ١٨ شهرا ، يأخذ العرب فى تعويد خيولهم حمل الركاب ، وعندما تبلغ هـذه سن العـامين يدعون أطفالهم يركبونهـا ، ولا تستطيع الخيل فى هذه السن الا أن تخطو أو أن تعـدو ، وهى تأكل فى النهار القش المهروس وعنـد غروب الشمس تأكل من ٥ـ٦ أرطال من الشعير ، ولا يقـدم لها العشب مطلقـا ، وهى لا تشرب فى اليوم الا مرة واحدة ، ويقل هذا بثلاث مرات عما يشربه الحصان الفرنسى .

وتضعف ساقا الخيول العربيـة الأماميتان وهى فى سـن مبكرة . ويعود ذلك لسببين رئيسيين : الأول ، هو الوضع المتقدم للغاية للسرج ، والثانى هو الطريقة التى يوقفبها العرب خيلهم وهى تجرى بأقصى سرعة، اذ يجذبون اللجـام بقوة ، فيرفع الحصان ساقيه الأماميتين ، ويزحف على قدميه الخلفيتين فتصطدما بالأماميتين . وهكذا يتوقف فجأة وهو فى أقصى سرعته .

ويستخدم العربان شكائم جافة لحد كبير ، ولذلك فانهم يضـطرون عندما يدفعون خيولهم بأقصى سرعة أن يطلقوا أيديهم كليـة ، وعنـدما يستحثونها على مواصلة السرعة فانهم يضايقونها لحد كبير .

ولسرج العربان ، وهو نفس الحـال فى السرج الذى يسـتخدمه المماليك ، مسند يبلغ ارتفـاعه من ٨ ــ ١٠ بوصات ، وهو يشبه ظهـر الأريكة الى حد كبير ولهذا السرج فى مقدمته قربوس فى سمك الذراع ، يرتفع رأسـيا من ٥ ــ ٦ بوصـات ، أما الركاب فيتـكون من لوح من النحاس ، مقوس من الجانبين بطريقـة تجعل منه متكأ للقـدم . مسطح الشنكل ، وأكثر طولا وعرضـا من القـدم نفسها وهو محدب بعض الشىء وشكله رباعى ، وزواياه التى تجاور خصرى الحصـان مقواه بالصلب ، وتغنى هذه عن استخدام المهاميز .

وهذا النوع من السروج مناسب للغاية . فعندما تكون ساقا الفارس فى ركابين قصيرين على هذا النحو ، فانه يستطيع أن ينهض واقفا عندما

يجرى بأقصى سرعة أو عنـدما يقـاتل . وحيث أنه يستطيع أن يستند الى مسند سرجه فانه يجد نفسه مهما يكن مقـاتلا غـير كفء ، طليـق الحركة ، مسيطرا على كل حركاته (٢٠) .

وعندما ينتهى العربان من سباق عملوه فانهم يحرصـون قبل ربط خيولهم على أن يسيروا بها فى خطو بطىء لمدة نصف ساعة حتى ولو لم تكن هذه الخيول تشعر بالحر من جراء الجرى ، ثم يدعونها مدة نصـف ساعة بلا طعام .

ولا يرى المرء عند العربان لا جيـادا كبيرة الحجم ولا جيادا صغيرة. اذ تكاد تبلغ قامة كل منها ٤ اقدام و٩ بوصات ، ويقابل المرء بعضـا منها ــ كما يحدث فى كل مكان ــ وقد نز عنها السن والمرض كل حيوية ، لـكنه لن يقـابل مطلقـا كما هو الحال عنـدنا حصـانا شائها أو رخوا لا يستطيع برغم عافيتـه وقوته ان يعـدو ، اذ هو ثقيل لا يفيـد الا فى جر العربات أو حمل الأثقـال . جرب وضع سرج على ظهر حصان عربى عجوز يدور بالطاحونة منذ سـنوات عدة ، عندئذ ستراه ينهض ليعدو الى حلبةالسباق ، ويضع نفسه فى خدمة سـيد جـديد ، يمكنه أن يظـل يستخدمه ــ مادام به رمق من حياة ــ كحصان عظيم .

والحصان العربى ، فى معظم الأحيـان ، بالغ الرقـة ، وأعتقـد أن وداعته تعود جزئيـا الى القيود الـكثيرة التى تحمل بها سيقانه منذ سنه البـاكرة ، وقـد كنت فى كثير من الأحيـان أرى عربيا متعبا أمام حصـانه ممسكا اياه من رسـغه ، ويدخن بهدوء **نارجيلته** ، بينما يظل الحصـان ، الذى اهاجه القرب من بعض الفرسـات .. بلا حراك ، يعبر فقط بصهيله عن نفاد صبره .

وتعرف الخيول العربية بدقة سيقانها ، وصـغر حوافرها وخفـة

---

(٢٠) يدين المماليك بجزء كبير من هـذا التفوق الملحوظ ، الذى كان لفرسانهم على فرسانـنـا فى بداية اقامتنا فى مصر ، لشكل سروجهم ، فقد كنا على نحو ما نقاتل ونحن جالسون، وكانوا هميقاتلون وهم واقفون، فكانت المعركة بذلك غير متكافئة .

رأسها وبقلة سرعتها عن سرعة خيولنـــا التى تستخدم فى السباق ، ومع ذلك فالخيول العربية أكثر مرونة بشكل لا يمكن المقارنة معه ، فهى تعدو فجأة وبأقصى سرعة اذ بامكان المرء أن يضعها على مبعدة ٦ ــ ٧ خطوات من حاجز ما ثم يجعلها نعبر عــدوا هــذا الحاجز بعــد هــذه المسافة الصغرى، كما أن بامكانه أن يجعلها تدور حول نفسها وفى كافة الاتجاهات بأيسر من اليسر وأن يضيق من الدوائر التى ندور فيهـــا لحــد يبعث على الدهشة دون أن يقلل ذلك من سرعتها، وهذهالمرونة المذهلة وكذا السهولة القصوى التى يوقفونها بها فجأة عندما تندفع حتى ليلامس بطنها الأرض، تجعلانها ثمينة لحــد لا يقــدر بثمن فى حالات القتــال جسدا لجسد ، ولذلك فهى مرغوبة بشكل كبير من الأمم المجاورة ، وهكذا فتجارة الخيل واحدة من أهمتجارات العرب ، ولهذا السببيفضلون الاحتفاظ بالفرسات، ويقال انهم يفضلون ركوبها عن ركوب الجياد لأنها اقل صــهيلاً ، كما أن أسفارها الليلية اقل صخبا ، وهذه ميزة لا يمكن اهمالها عند شعب تعتمد حروبه على المفاجأة الشديدة لعدوه .

والبدو قليلو التعليم، ويكاد لايقابل المرء من بينهم سوى بعضالشيوخ الذين قد يعرفون القراءة ، ومع ذلك فان لديهم الكثير من تلك المعــارف التى يعطيها طول الملاحظة، فهم يعرفون على سبيل المثال كيف يسترشدون بالنجوم وهم يسيرون فى الليل وســط أراضيهم الجرداء والمتشابهة والتى لم يشق بها طريق واحد ، وهم يحددون الوقت الذى تبلغ فيــه الشمس درجة الزوال ، ويقسمون النهار بواسطة قياسهم لطول الظل ، وتتطابق القاعدة التى يستخدمونها بحسب الفصول المختلفة لحد كبير مع خط طول البلد الذى يسكنونه ،ولهم بعض الممارسات فى مجال الطب ، كما لايمكن على الاطلاق الاستهانة بفن البيطار عندهم ، وهم يعرفون عادات حيوانات الصحراء والنباتات التى تمتاز ببعض الخاصــيات النافعة ، وقبل أن يكتشف علماء النبــات عنــدنا بوقت طويــل أجنــاس النبــاتات ، كان العرب يستخدمون تسميات مذكرة ومؤنثة لتمييز اشجار النخيل التىلاتنتج ســوى الزهور من تلك التى تنتج الزهور والثمار ، وكانوا يعــرفون أن ذرات الأوليات اللازمة لاخصاب الأخريات ، وعندما يريدون اثنــاء حملاتهم السريعة ايقاع الأذى بأعدائهم فانهم يكتفون بقطع النخلات الذكور وهذه على الدوام قليلة العدد .

والعرب البدو ذوو خيال مطبوع ، متوهج وحاد ، وهم يتحدثون على الدوام بأسلوب مليء بالكنايات والاستعارات ، فهذه اللغة هى لغة طفولة الشعوب ، كما أنها لغة طفولة الرجال : تقبل من التجـريد وكثـير من الصور . وعند الشعوب التى نسميها نحن شعوبا متوحشة فان الانسان لا تضايقه الا الأحداث ، اذ ليس هنـاك هذا الحشد من القوانين والقواعد والقيود من كل نوع ، تلك التى تعوقه على الاطلاق عن استخدام ملكاته، بل أنه هناك ليس مضطرا للرضوخ للأغلبية ، فحيث أن احتياجاته قليلة ، فانه يهرب اذا ما كدره أمره ، وبامكانه أن يجد لنفسه مأوى فى اى مكان وفى كل مكان ، كما أن مشاعره لا يصيبها ذلك الانهـاك ، الذى يصيب مشاعرنا ، بفعل هـذا التوافق والتطابق فى الحيـاة التى ، وان كانت لا تخلو من قلاقل ومضـايقات ، فانها على الأقل خالية من تلك الأخطار الـكبرى التى نجتازها دون اختيار منا لأفعالنا . اما عنـدنا نحن ، فان البعض منا تشغلهم شئون الدفاع المشترك ، بينما يقوم الآخرون بالزراعة، ويقوم فريق ثالث باعداد الخبز الذى يطعمنـا والأقمشـة التى تكسونا، فنحن باقتسامنا العمل على هذا النحو نزود أنفسنا دون شـك بمبـاهج اكثر ، لـكننا فى نفس الوقت نستعبد أنفسنا . وعلى العكس من ذلك فالانسـان فى المجتمع البدائى قليلا ما يعتمد على رفاقه . وحيث أنه يشعر فى كل لحظة باحتيـاجات كبيرة وبأخطـار كثيرة ، فان روحه اكثر قلقـا وعواطفـه اشـد جموحا فلماذا اذن لاتعكس لغتـه أسلوبه فى الحياة. انه نادرا مايستخدم الكلمة بمعناها الأصلى ، الكلمة المجردة ، انما هـو يكدس الصـور والتشبيهات ، لأنه انما يعبر عن عواطفـه هكـذا .. وهكذا أيضـا فهو غير معتـاد على قمع عواطفه هو .. انه لن يقول « أن هذه السيدة جميلة ، وهى تتصف بهذه الميزة أو تلك ، وسـأحميها ضـد أعدائها » لـكنه سيقول لنفسه : « انها جميلة كأول ضوء نهار ، كالقمر عندما تنعكس صـورته على سطح البحار ، لها رقة النسيم العليل فى قيظ الصيف ، يتدلى شعرها على كتفيها العـاجيتين فى تموجات ماء رقراق ، ان هـذا الشعر ليشبه اغصـان نخلة غضة ، وتشبه عينـاها عيون الغزلان ، أما صـدرها فيشبه يحمورين « نوع من الأيائل » توأمين يرعيان بين الزنابق : سأظل بجوارها كلبؤة غضوب تدافع عن صغارها ،

وسأرعاها بسيفى ، وسأجعل منه بمثابة حصن لها يعز اقتحامه .. الخ .. الخ » .

وهذه اللغة ، التى ليست عند الشعوب المتحضرة سوى لغة عدد صغير من الأشخاص الموهوبين بخيال متقد ، هى لغة الغالبية عند العرب الذين لا يزالون برغم أصلهم الضارب فى القدم فى طور طفولة الحضارة، والذين تشبه حياتهم حياة الشعوب الأولى .

وقد يجادلنى البعض دون شك بأن الأسلوب المجازى لا يزال هو أسلوب كل أمم الشرق التى وصلت الى مرحلة انهارت فيها حضارتها وخضعت للاستبداد المطلق ، هذا صحيح ، لكن هذه ليست المرة الأولى التى تتشابه فيها الشيخوخة مع الطفولة مع الاختلافات الملازمة لكلا الطورين من الحياة ، فكلا الحالتين يسهل تحديدها ، انها نفس الموجة من الأفكار التى تتدافع فى الصدور لكنها فى الحالة الأولى «الطفولة» حية مبهجة ، بينما هى فى الحالة الثانية متهدجة وحزينة ، ونفس الشىء يمكن أن يقال بالنسبة للاندفاع غير المنتظم للخيال عند الانسان الحر والذى نلاحظه بسهولة بين تلك اللغة المليئة بالتكلف ، وتلك التى تمالىء المخاوف . ففى الحالة الأولى ، تعبر اللغة فى محسناتها عن تلك الرغبة التى يريد المرء أن يبلغها ، بينما تظل اللغة فى الحالة الثانية تحوم وتدور دون أن تجرؤ على الاقتراب مباشرة من أهدافها .

وحب البدو للشعر هو نتيجة طبيعية لكل ما انتهينا اليه الآن ، ويتمتع شعراؤهم بهذا الاحترام والتقديس الذى كنا نكنه فى الماضى لشعراء البطولة عندنا ، ذلك أن شعراء العرب اليوم هم ما كانه أولئك فى الماضى ، أى موزعو الأمجاد .. وأى امرىء هذا الذى لن يكون مولعا ببلوغ المجد ؟ وفى بعض الأحيان تخصص اشعارهم للحب ، وغالبا ما يجلس الواحد منهم أمام خيمته وقت الغسق ونسيم المساء ينعش النفوس ، يدعوها للمباهج السهلة ، ويغريها بالترويح بعد نهار شاق، وعلى النغمات المنبعثة من أوتار ربابته يهرع العربان جماعات ويجلسون من حوله على الرمال ، متشابكى السيقان ، يعيرونه آذانا صاغية ، أما هو ، فبعد أن يجرب ببعض النغمات آلته لبضع لحظات ، يبدأ ، وعيناه

شاخصتان نحو السماء ، أو خفيضتان الى الأرض ، وفى هيئة من يحاول أن يتذكر وقائع الأزمنة الخوالى ، يبدأ يغنى انتصارات قبيلته ، وللمفاخر التى صنعها شجاع شنهم ، أو لتلك المآسى التى حاقت بعاشقين (٢١) ، وكم من مرة لم الاحظ فيها وانا جالس بينهم ان الشمس قد اختفت وراء الأفق فى الصحراء ! كانت اشعة الغسق تضىء الوجه المتقد للشاعر المغنى وتضع فى دائرة الضوء حركاته المعبرة ، بينما كان المستمعون يمدون أجسامهم الى الأمام ، ويصغون فى صمت ، وبداوا جميعا وقد استغرقتهم الرواية التى يقصها يتركون دون أن يدروا بارجيلتهم الطويلة ، واخذت ترتسم على وجوههم البرونزية أمارات الرقة والاعجاب والفخار ، ولنتخيل كل هؤلاء الرجال المتدثرين فى خيلاء على أفضل نحو يستطيعون تتدلى منهم لحيتهم السوداء وتفتر شفاههم عن أسنانهم العاجية البيضاء وتمتلىء عيونهم السوداء بحيوية دافقة ، يهز شالهم وعباءتهم وأرديتهم الطويلة نسيم الليل ، وبالقرب منهم تربض أسلحتهم ، وتحيط بهم من كل جانب تلك الصحراء الصموت ، بينما لايقطع صمت الطبيعة الا صوت ذلك الرجل الملهم .. وبعيدا بعيدا ، يأتى صوت صهيل الخيول المسرجة استعداداً للمعارك ، وهى تضرب الأرض بقدمها ، معبرة عن ضجرها بقيودها ، بينما تنيخ الجمال الصبورة على ركبتيها وتمضغ فى وقار بعض النباتات الشوكية تحاول أن تصل الى الأسماع شكاياتها الحزينة . ولنرسم وسط هذه اللوحة ، رجلا فرنسيا بملابس بلاده ، مقبولا بكل ثقة ، وعلى الرحب والسعة ، من كل رجال القبيلة .. عندئذ ستتكون لدينا صورة لمشهد صحراوى كان على الدوام مثار فضولى .. وعندما كانت تتوقف الأغنيات ، كانوا يشعلون من جديد نارجيلاتهم من الموقد الموضوع وسط الدائرة ، وهناك فى غلاى كبير كانت تعد القهوة ، وتدور اقداح مليئة بهذا المشروب من يد ليد

---

(٢١) وهكذا فعن طريق اغنيات تنتقل من عصر لعصر، نقلت الشعوب تاريخها ، من قبل أن يخترع الانسان هذا الفن الدءوب ، فن تجسيد الكلمات بالرسم ، ومخاطبة العين بالكتابة ، لذلك فقد كانت الكتابات الأولى شعرية ، لأنه كان على الانسان أن يبدأ بنقل ما كان يعرفه من الذاكرة ! ولأن الكلمات — التى كانت تغنى على الدوام — قياسا على ذلك كانت كلها منظومة .

لتعيد الى المرء قوته المنهكة ، وتزوده بخدر لذيذ دون أن نغيب عن وعينا كما تفعل بنا مشروباتنا القوية .. وهكذا يعود النشاط ، وتتنبه الحواس، ويلتهب الخيال ، وتمتد السهرة أوقاتا أخرى ، ثم يتفرق الناس وفى مخيلتهم تجول ذكريات المجد ، وذكريات الحب التى تبهج الأحلام ..

ولدى العرب عدد هائل من الحكايات على نمط الف ليلة وليلة (٢٢)، يلعب فيها العمالقة والجنيات دورا كبيرا ولا ينبغى على الاطلاق ان ندهش من ذلك فحياة المقاتلين مليئة بالمغامرات ، وهذا هو الأمر الذى يحدد ميلهم نحو الحكايات الرائعة ، أليست لدى الجنود الفرنسيين ، كذلك ، حكايات من هذا النوع ، لا يغيب فى واحدة منها ذكر الشيطان أو السحرة (٢٣) .

---

(٢٢) اذا كانت الحكايات التى جمعت تحت هذا العنوان تبهج القارىء العادى ، فانها مثار اهتمام اكبر ، لأولئك الذين زاروا الشرق ، فالتقاليد والعادات ، والأثاثات ، بل والبلد نفسه ، كل ذلك قد وصف بأكبر قدر من الدقة والصدق .

(٢٣) فى معسكراتنا ، وبعد أن يختار كل امرىء المكان الذى سيهجع فيه وبعد ان تصف الحقائب والأمتعة على الأرض لتستخدم كمخدات ، يرقد الجميع ثم تصدر عن احد الجنود صيحة عالية ، كما لو كان ليقول .. هل تريدون أن تصغوا الى ؟. فاذا ما سمع من كل الأركان الصيحات التى تعلن الموافقة يبدأ ، كان ياما كان فى سالف الأزمان .. وفى هذا النوع من الحكايات ، يدور الأمر حول أميرة شابة جميلة كانت تحتقر كل السادة الشبان المتأنقين فى بلاطها وكذلك كل رجال الطبقة الحاكمة ذوى النفوذ ، وتصبح عاشقة لجندى بسيط وتتزوجه وتغدق عليه الشرف والجاه والثروة ، وبتوسع الراوى فى امتداح الشجاعة والميزات الأخرى ، فيجعله يصارع ويهزم الشيطان نفسه، ويشرب براميل من الخمر دون أن يغيب وعيه ويصل به لمرتبة هيرقل فى غرامياته ، ويتفنن فى وصف مفاتن محبوبته بأسلوب جسى لايخفى منها شيئا ، ويصحب ذلك كله بايمان مغلظة ، وهذا ما يعجب الجنود، ذلك أن خيالهم سوف يمنيهم للحظات بمصير مشابه لمصير رجل يشبههم، ولكن النعاس سرعان ما يتغلب على مباهج الرواية بسبب تعبهم ،ولهذا السبب يعنى الراوى بأن يتأكد أنهم يصغون اليه بأن يطلق من لحظة لأخرى نفس صيحته الأولى ، وتطمئنه صيحات المستمعين ، وعندما تصبح الصيحات التى ترد عليه قليلة أو عندما لا تعود تسمع فانه سرعان مايستغرق فى النوم مثلهم .

وقد يدهش المرء للوهلة الأولى من تلك اللوعة والرقة اللتين يبثهما الشعراء العرب فى تعبيراتهم عندما يتغنون للحب ، ولكن لماذا ؟ هل نريد ان نقول بأن مثل هذه العاطفة المحمودة لا ينبغى أن تسود عند ابناء أمة لا تختلف فيها حياة النساء عن حياة العبيد ؟ اتساءل هل يمكن للرجل والمراة هكذا خاضعة لمشيئته أن يجعل منها مالكة لمصيره .؟ قد يبدو أن مثل هذه الأسئلة تقوم على أسس قوية لكن انعام الفكر سرعان ما يجعلها فى حكم العدم ، حقا ان النساء عند أمم الشرق يحيين فى عزلة تامة حيث يحرم عليهن مجتمع الرجال ، وعندما يخرجن فثمة حجاب صفيق يخفيهن عن كل النظرات . لهذا كان من المفترض أن تكون مغامرات الحب هنا شديدة الندرة ، لكن كثرة وزيادة التحفظ والاحتياطات القوية ضد اقوى العواطف وابعدها عن الخضوع والسيطرة .. كل هذا يجعلها اكثر قوة وحدة ، فاذا ما لمح شاب اثناء لقاء عابر ملامح سيدة جميلة أو صورها له خياله على هذا النحو ، فان الصعاب ستؤجج رغباته وتبدأ التعبيرات الملتهبة ترسم كل مايشعر به .

وفى واقع الأمر ، فماذا يهم أن تكون النساء اكثر أو اقل ارتباطا بأزواجهن ، ينلن احتراما اكبر أو أقل فى محيط الأسرة ، ذلك أن الأمر ليس أمر من يمتلك ، ولكن أمر من يغتبط بالتملك ، ويبالغ فى قدرة المملوك ويتحدث عنه بحماسة مشبوبة .

أما عندنا ، فحيث أننا نرى اكبر عدد من النساء ونعيش معهن فى مجتمعهن فلابد اننا قد تحصنا ضد مفاتنهن ، ان لنا بالقطع رغباتنا لكنها أكثر غموضا ، واذا ما تسلطت هذه الرغبات على المرء منا لبعض الوقت وهو بمفرده فنادرا ما يطول به الأمر ، اذ سرعان ماتجذب عواطفنا مفاتن اخرى لسيدات اخريات .. وهكذا فسوف نغنى لمذاق الحب فى فرنسا ، وللواعجه عند العرب : حيث أن لتطرفات الأنين والشكوى مباهجها ..

وزيادة على ذلك فالنساء عند عربان الصحراوات عادة اكثر اعتبارا منهن عند بقية أمم الشرق ، بل لقد رأينا زوجات الشيخ يحكمن القبيلة بعد موت زوجهن ، وهناك حادثة كنا شهودا عليها تبرهن بشكل طيب

أن قــدر النساء العربيات ليس مطلقا على هذه الدرجة من العسف التى كنا نظنهن عادة عليها . فقد حدث أن ماجأ بعض البدو المنصورة وذبحوا حوالى المــائة من جنود الخيــالة الذين كانوا يحرســون هــذا الموقع واصطحبوا معهم ســيدة ايطالية كانت زوجة العريف الذى لقى حتفه فى هذه المعركة. وعندما حل السلام ، اشترطنا ضرورة ان نستعيد هذه المراة فوافق البدو على ذلك لكنها هى التى لم تشأ أن تفيد من هذه المــادة من بنود المعاهدة وفضلت أن تبقى بينهم . وراودنا الشك فى ان الشيخ الذى تزوجها كان قــد لمحها فى شوارع المنصورة عندما دخلها ذات يوم متخفيا فى زى فلاح فهام بها حبــا حتى انه عندما عاد الى مخيمه جمع أعوانه ، واستثار حماستهم ممنيا اياهم بالمغانم والأسلاب .

وأختتم مذكرتى هــذه بأن آمل أن تكون الوقائع التى تحتويها بذات نفع ولو ضئيل ، وسيكون هذا هو الجزاء الأوحد الذى سيعود على بفضل سماحة قرائى .

الدراســة التــاسعة

كيف خرج اليهود من مصر القديمة

تاليف : دى بوا - إيميه

« العنوان الأصلى للدراسة : مذكرة موجزة عن اقامة العبرانيين فى مصر ، وعن هروبهم الى الصحراء (١) ، تأليف دى بوا — ايميه مراسل المجمع العلمى الفرنسى ، وعضو شعبة العلوم والفنون بمصر ، وعضو أكاديميــة العلوم فى تورينو ، والفارس الحائز على وسلم الشرف »

---

(١) قدمت هذه الدراسة الى شعبة مصر فى اول أكتوبر عام ١٨١٠ باعتبارها مكملة لدراسة اخرى للمؤلف حول القبائل العربية فى صحراوات مصر ، ثم سحبها المؤلف بعد ذلك ليدخل عليها بعض التعديلات ، وأرسلها الى اللجنة فى اكتوبر ١٨١٣ .

الفصل الأول

مقدمة

اشتهر المصريون ، فى عهد بعض ملوكهم ، بمهارتهم فى فنون القتال ؛ كما حازوا شهرة أكبر من ذلك بكثير بفضل حكمة قوانينهم ، واتساع معارفهم ، فلقد ولدت غالبية العلوم والفنون بين أيديهم ، وحين قاموا — هم — بتحضير اليونان ، فقد غدوا أساتذة لأوربا .

ولقد اختفت هذه الأمة الشهيرة ، كما اختفت مئات الأمم غيرها ، فى حين يظل يعيش حتى اليوم شعب كان عبدا للفراعنة ؛ ومع أنه قد بات مشتتا فوق الكرة الأرضية كلها ، خاضعا لكل صنوف الحكومات ، فقد احتفظ بكل عاداته وشرائعه ، ولغته وملامحه ؛ وفى الوقت الذى تجد أقوى الأمم فى أوربا نفسها غير واثقة من أصلها ، وفى حين يجهل الفرنسى الذى انتزع النصر من فونتنوى وفيينا وبرلين وموسكو وروما أن كانت الدماء التى تتدفق فى عروقه هى نفسها التى تتدفق فى عروق أعدائه ، وفى حين لا يعرف أكان أجداده من الفرنج أو من الغاليين ، أكانوا يقطنون ضفاف السين أو التبر أو الدانوب ، فإن أبسط يهودى يحوز ذلك الشىء ، الذى قد يكون مدعاة فخار للمتحكمين فيه ، أى أنه يمتلك أصلا ينتمى لجنس قديم ؛ إن بإمكانه أن يقول ، سواء كان قد ولد فى بولونيا أو فى إسبانيا ، لقد كان أجدادى يقطنون حقول سوريا وصحراوات مصر فى وقت لم تكن قد وجدت فيه بعد روما ولا أثينا ولا إسبرطة ولا أى من تلك المدن التى تشكل مباهج العصور القديمة وأمجادها .

وتعود هذه الظاهرة السياسية إلى قوة تلك الشرائع والمؤسسات التى أقامها موسى فإنه بعزله شعبه هكذا ، وبشكل تام ، عن بقية البشر ، قد جعل من تشتته أمرا سهلا ، لكنه فى الوقت نفسه جعل فناءه كذلك

مستحيلا ؛ ان اليهود — منتصرين — لم يستطيعوا (بفعل هذه الأنظمة) ان يجعلوا من قوتهم اقوى من قوى الأمم التى أخضعوها ، أما عندما كانت تحيق بهم الهزيمة فلم يكن بمقدورهم أن يختلطوا بالمنتصرين .

وتعود غالبية النقائص التى تعاب عليهم اليوم الى حالة الاذلال التى انتهوا اليها فى كل مكان ؛ وحيث انه لا دور لهم فى ادارة شئون الدولة، كما انه ليس بمقدورهم أن يتملكوا الأراضى ولا أن يتمتعوا بحرية العمل الحقلى ، تلك التى تربى الروح والوجدان ، بل ولأنهم — فوق ذلك — يضطرون لأن يقيموا فى احياء منفصلة فى داخل المدن ، تغلق عليهم بواباتها كل مساء ، وان يعيشوا فيها مكدسين بعضهم فوق بعضهم الآخر ، والا ينخرطوا فى اى فن شريف ، فلم يعد يتبقى لهم من عمل يقومون به الا أن يشتروا وان يبيعوا ؛ اما الذهب ، ذلك الذى يمنحهم الوسائل لاذلال قاهريهم ، الذهب الذى لا يزال يعطيهم بعض ضروب المتعة ، فقد بات هو الهدف الوحيد لطموحهم ، وليست هناك شهوة تستطيع أن تتلف الانسان فى جسده وروحه أكثر من هذه .

وقد يكون من غير المجدى أن نحاول أن نثبت أن عيوبهم هذه تعود الى شرائعهم وتنظيماتهم ؛ ولنتأمل للحظة المسيحيين الخاضعين لسيطرة الأتراك ؛ فنفس الأسباب قد سربت الى هؤلاء نفس المساوىء ؛ فالانسان، ولو كان حرا مليئا بالشجاعة ، ربما يصبح ، مهما تكن الدماء التى تتدفق فى عروقه ، مخاتلا ورعديدا حين يصير عبدا مهانا .

وفى البلدان التى تحسن فيها الأفكار والفلسفات ، والديانة السمحة من قدر اليهود ، ينهض من بينهم — هناك — رجال فضلاء وأدباء متميزون ولقد رأينا فى أيامنا هذه إسرائيليين يقاتلون بعظمة تحت راية فرنسا .

اذن فعلينا الا نحط من قدر امة لاتحتاج ، كى تصبح جديرة بالاحترام، الا لأن نحترم ؛ ودينها فضلا عن ذلك ، هو قاعدة لديننا ؛ وعلينا الا ننسى بصفة خاصة انها اظهرت وسط المحن والآلام خاصية عظيمة ، وانه اذا كان العفو يعد شرفا للقوة فان المشاعر الرقيقة تكون شرفا للضعف ؛ ونسوق مثالا على ذلك لا ينسى ، لقد تجرأت أورشليم على قتال روما التى كان يرتعد امامها اعتى ملوك الأرض ؛ ثم اقام اليهود المهزومون ، فى روما ،

بأيديهم المكبلة بالقيود الحديدية النصب الضخم وقوس تيتوس * Titus الذى تخلد نقوشه البارزة ذكرى سقوط المدينة المقدسة ، حسن ، لقد انقضت حتى اليوم سبعة عشر قرنا لم يمر خلالها مطلقا ، من تحت هذا القوس الذى يكرس هزيمتهم ، احد من أحفادهم أولئك الذين ظلوا على الدوام يحفظون ذكرى هذه الاهانة ؛ وعن طريق منفذ ضيق شقوه لأنفسهم قريبا من هذا المبنى، كان اليهود يخرجون من الفورم ** Forum قبل أن تؤدى عمليات الهدم والتنقيب التى تمت هناك الى فتح منافذ اتصال أخرى .

وذات يوم ، كنت اتأمل فى هذه النقوش البارزة لهذا القوس، شمعدانا ذا سبعة شعب يزين المسيرة الظافرة للامبراطور ، ومر بالقرب منى رجل عبرانى ؛ تعرفت عليه من تلك الملامح التى لم يستطع أى طقس أن ينال منها ، واظننى قرات فى نظرته التى القى بها على هذا المبنى، أبيات الشعر هذه ، التى وضعها شاعر كبير :

اى صهيون ، يامن يستحق الرثاء ؛
ماذا صنعت بمجدك ؟
فالعالم كله مأخوذ بعظمتك ؛
اما انت : فلم تعد سوى غبار ؛
ولم يعد يبقى لنا من هذا المجد ،
الا الذكريات الحزينة .

« استير ، الفصل الأول ، المشهد الثانى ».

وقلت لنفسى : كم من الأسئلة يمكن ان يلقيها هذا العبرانى على ، لو عرف أننى اقمت بمصر ، وأننى أقمت خيمتى فى أرض جاسان ، وعبرت البحر الأحمر سيرا على قدمى ، وتجولت هنا وهناك ؛ وسرت على غير هدى فى الصحراوات التى يحيط بها جبلا حوريب وسيناء !

---

* امبراطور روما من ٧٩ الى ٨١ ، وكان يطلق عليه اسم « ملاذ البشر » ، وكان واحدا من الحكام الذين يسعون باخلاص شديد لتخفيف آلام شعبهم ، وحين لم تواته الفرصة فى احد الأيام لتقديم الخير صاح لقد ضاع يوم من حياتى ، وفى عهده حدثت كارثة بركان فيزوف (عام ٧٩) (المترجم)

(**) ميدان عام فى روما حيث كان الشعب يتجمع ليناقش المسائل العسامة . (المترجم) .

ومع ذلك فأى انسان هو ، مهما تكن معتقداته ، ذلك الذى لن يئهمر بأسئلته على رحالة وطئت اقدامه أرض المعجزات والأمجاد هذه ؟ وهـل هنـاك ملاحظة ، ولتكن اصطناعية لأى مدى ، يكون من شأنها أن تعود بنـا الى التقليب فى تاريخ الاسرائيليين .. دون أن يستمع اليها الانسان بشغف ؟ وعلى هذا ، فمع يقينى بأن من شأن هذا أن يسترعى كل انتباه ، فسأحكى ما أملته على عملية التنقيب فى المواقع ، حول اقامة العبرانيين فى أرض جاسان ، وحول هروبهم الى الصحراء ، وستتواثب الفـائدة من وراء هذا الموضوع من ثنايا ما احكيه .

عن الأسـفار

أسـفار موسى هى مجموعة الـكتب الخمسـة التى خطها موسى ، سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العـدد ، وسفر التثنيـة .

وعلى الرغم من التناقضات التى يعتقد بعض النقاد أنهم قد وجدوها فى هذه الأسفار (٢) ، وعلى الرغم من اختلاف آرائهم حول زمن نشرها ، فان الجميع مضـطرون للاعتراف بأنها اقـدم أثر مكتوب قد وصل الينا ، كما أنهم لا يستطيعون ، مهما تكن طبيعة آرائهم الدينية ، أن يرفضـوا ما نجده فى هذه الـكتب من فائدة كبيرة ترتبط بالتاريخ لشعب كان رعويا جوابا ، ثم زراعيا ، ثم جماعة من العبيد ، ثم عاد مرة أخرى الى حالة التجوال ليصبح بعد ذلك غازيا . ان تغييرات شبيهة تستخدم عند التعريف بالجنس البشرى ، لأنها تشكل تاريخه ، فى الوقت الذى تكون فيه تاريخا لشعب بعينه .

---

(٢) وفضلا عن ذلك فما هى غالبية هذه التناقضات التى تم اكتشافها بكثير من الطنطنة والتقعر ؟ بعض اخطاء من الناسخين ، وعدة تفسيرات عارضة هى من اجتهاد المترجمين ، ثم لا شىء اكثر ، أليس من الأسهل على سبيل المثال أن نتقبل فكرة أن رجلا ينسخ فى سـوريا ، فى غرب الأردن ، نصوص الأسفار ، قد أمكنه أن يضع عبارة فيما أمام هذا النهر فى موضع ما كان مذكورا فى الأصل على أنه الى ماوراء ، وأن يشير الى مقاطعات قديمة بأسمائها الحديثة ، وأن يذكر كذلك أسماء المدن التى أنشئت فيها بعد ذلك ؟

وفى الوقت نفسه ، فاننا عند تصدينا لمادة من هذا النوع ، نحاذر ان نجرح اى راى : فليقرانا المسيحى واليهودى والمسلم والربانى دون ان يستشعر اى حرج او اهانة ؛ فلسنا هنا بصدد كتاب دينى ، ولكننا ننظر اليه كوقائع تاريخية ، وجغرافية ، ومبادىء اخلاقية وروحية .

ومع ذلك فلماذا لا يتقبل اولئك الذين يرون أنهم ليسوا فى حاجة الا لعقيدتهم الدينية حتى انهم يؤمنون ايمانا مطلقا بكل ماجاء فى الأسفار ، لماذا لايتقبلون عن طيب خاطر ان هناك بعض الوقائع (التى ترويها هـذه الـكتب) تعز على التصديق حين تستخدم طرق اخرى للتفكير ؟ أما هؤلاء الذين تدفعهم شكوكهم الى تنحية كل عمل يكتشفون فيه بعضا من الخطأ ووضعه فى مرتبة الأسـاطير ، والى النظر الى وقائع بالغـة البساطة باعتبارها امورا مبهمة تكتنفها الشكوك لمجرد انها تختلط — فى نظرهم — بظواهر تنتمى الى ماوراء الطبيعة — لماذا نراهم غاضبين حين يحاول بعض تبديد شيء من شكوكهم ؟ واما اولئك الذين يتعرفون على الله فى نظـام الطبيعة الرائع فلماذا — هم بدورهم فى النهـاية — يكابرون ، عن غير حق ، فيعتقدوا أن اسبابا روحية يمكنها أن تمارس تاثيرها على المادة ، وان الصلوات وان الدموع تستطيع أن تغير شيئا ما من نواميس العـالم الفيزيقى ؛ ولماذا يسعى هؤلاء الذين لايمكنهم ان يتقبلوا أن يكون اله الكون شبيها بآلهة هوميروس ليصارع بدوره فى سبيل اشخاص زائلين او أمور فانية ، لالقاء الملامة على ابحاثنا ، اذا ماسمعت هذه الأبحاث الى أن تجلو أمامهم تاريخ شعب فريد . وذلك بأن نقدم لهم بعضا من المعجزات التى ترفضها وتتأباها عقولهم باعتبارها شيئا من المصادفات السعيدة التى تجود بها ظواهر الطبيعة ؟

عن الرعاة الرحل

لم يجد الانسان ، فى اكثر مناطق العالم بدائية يمكن أن تصل اليها قدماه ، اشباهه منعزلين ، بشكل تام ، كل منهم عن الآخرين ؛ لكنه وجدهم متجمعين فى شكل قبائل تتفاوت احجامها ؛ واذا لم يكن لدينـا فى هـذا الصدد من زعم اجماعى مثل ما لدى الرحالة فان فكرة التماثل قـد تقودنا فى قضيتنا هذه اذا مالاحظنا بعناية مايدور فى عالم الحيوان ، واذا ماقارنا

التنظيم عند هذه الحيوانات بتنظيمنا ، وعاداتنا الطبيعية وخصالنا الروحية والجسدية بمثيلاتها التى سوف نجدها عند الحيوان .

وتحمل هـذه الاعتبارات نفسها ، اذا ما أضيفت الى الشهادات التاريخية ، على الظن بأن الانسان كان صيادا وراعيا قبل أن يكون مزارعا ، وانه قد ساح فى الأرض قبل أن يكون لنفسه فيها مقار ثابتة ، وان الناس فى كل مكان خصيب التربة ، رقيق الطقس ، صحى الهواء لدرجة كبيرة ، قد تزايدوا بسرعة هائلة ، بعد أن مروا ، من باب أولى ، من الحـالتين الأوليين (الصيد والرعى) الى الثالثة (الزراعة) .

وفى هذه الحالة الجديدة خلق الانسان لنفسه ، وقـد أصبح أقل انشغالا بأمور غذائه والدفاع عن نفسه ، احتياجات جديدة ؛ اصطناعية بلا جدال ، لـكنه يلذ له أن يفى بها ، فارتقى بالفنون ، وزاد من عددها ، واخترع العلوم ؛ وعندما داخله الزهو من تسامى معارفه بدأ يحتقر جهل المتوحشين (البدائيين) ، ورد الأخير على الاحتقار باحتقـار مماثل فاذاق الأول ، لأكثر من مرة ، ماتستطيعه القوة والشجاعة ، وليدتى الاستقلال والفقر .

وبسبب هاتين الحالتين بالغتى التعـارض تولدت أحقـاد واضـحة وحروب دائمة بين الشعوب الرعوية والشعوب المزارعة . وفوق ذلك ، فلقد ساهم هذا الأمر نفسه فى تناقص الأولين لأنهم ــ فى حالة انتصارهم ــ يأخذون عادات المهزومين ، ويرغمون ــ فى حالة هزيمتهم ــ على هجر أنماط حياتهم ؛ وكان يمكن أن يندثر هؤلاء الرعاة ــ على المدى الطويل ــ كلية لو لم تكن توجد على ظهر الأرض أقاليم تحول تحولتها ، أو عدم صحيتها ، دون تقدم أحوال سكانها ، وحيث لايستطيع الانسان أن يعيش الا بمعونة القطعان ، مع تغييره المستمر لمكانه ، ولو لم توجد فى النهاية أماكن يجد فيها هذا الانسان المأوى الأمين ضد جيوش الأمم بالغة القوة . أما هذه الأماكن ، فلقد كانت ، من بين مناطق أخرى ، صحراوات مصر والجزيرة العربيـة وسـوريا وبلاد مابين النهـرين التى سكنتها فيما مضى قبائل العبرانيين ، والتى لا تزال تقطنها حتى اليوم قبائل الرعاة الرحل .

ان الحالة الطبيعيـة لهذه البلاد لاتقدم جاذبية من أى نوع لقـدوم غزوات أجنبية ، كما أنها لاتدع فرصة للاختيار بين عدد كبير من الأنماط

لا فى طرق المعيشة ولا فى العادات أو العلاقات السياسية لسكانها ؛ اذن فعلى المرء أن يعتر هنـا على عادات وتقاليد تاريخ ضارب فى القـدم؛ ان هذا فى الواقع هو ماحدث ، اذ يبدو تاريخ الأسباط القدماء هو نفسه تاريخ شيوخ العرب فى أيامنا هذه (٣) .

ابراهـام

فى تلك الصحراوات القاحلة التى انتهينا من الحديث عنها تطلعت عشـائر بأسرها الى تلك الفكرة السـامية التى تتحدث عن وجـود اله واحد (٤) . وهنـاك نشأت هذه الديانة التى انتشرت وسادت فى اكبر جزء من هذا العالم حاملة اسم اليهودية أو المسيحية او الاسـلام بحسب التعديلات التى تناولتها .

أما فى أقاليم اليونان الزاهية ، على ضفاف نهرى روفيا وسيفيزا ✻ فقد اسـتطاع الانسان أن يعبد ، تحت أسماء فلورا وخيريس وبومونا ، الطبيعة وقد جملتها الورود والمحاصيل والثمار ، كما امكنه ، متمتعا بمباهج الفنون الجميلة ، أن يتضرع اليها باسم منيرفا او ابوللو ، أما فى قبرص المعطرة وأيونيا الرخوة ، وسط أجواء تحمل النفس الى الدعة فقد يعبـد

---

(٣) أنظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ،الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٧٧ (الدراسة السابقة من هذا المجلد)؟ لكننى اكتفى بأن اضيف هنـا الى القائمة التى قدمتها عن بعض العادات الشائعة عند الشعبين ، عادة تمزيق هـؤلاء وأولئـك لملابسهم واهالة التراب على وجوههم علامة على الحزن الشديد .

(٤) تقدم لنـا القبائل العربيـة التى أخذت على عاتقها ، بعد أن تجمعت فى شكل دولة تحمل اسم الوهابيين ، أن تقوم وأن تنقى الدين الاسلامى (من الشوائب التى شابته) ، برهانا جديدا لـما نقوله الآن ؛ فلقد توصل هؤلاء الرجال الخشنون ، فى بساطتهم هذه ، الى نفس نقطة المعتقد الدينى الذى توصل اليه غالبيـة الرجال المتحضرين فى أرقى أمم الأرض ، أى الألوهية الخالصة ؛ فالوهابيون لا يدعون لله شريكا قط ، ولا يبتهلون الا اليه ؛ أما محمد وموسى والمسيح فليسوا بالنسبة لهم سوى حكماء (أنبياء) ، أما الأمجاد الدينية التى يردها النـاس الى هـؤلاء (وقـد يعنى هنـا التوسل بهم مثلا ، أو تعظيمهم — المترجم) فليست فى نظر هؤلاء الوهابيين سوى وثنية .

✻ فى البلوبونيز (المترجم)

فى قسمات وملامح اجمل النساء اللذة التى تجر الى جنس يسحر الألباب، وحيث كان يحصل على مباهجه بمئات الطرق فقد كان يجد فى كل بهجة الها محسناً مختلفاً .

وتحت سماء أقل حظا امكن أهالى تراقيا ، كما استطاع الجرمانيون، الذين كانوا هؤلاء واولئك قد تعودوا فى صيدهم وحروبهم الدائمة على سفح دماء فرائسهم او نظرائهم ، كل يوم ، أن يجدوا مقر رب الحرب فى هذه الغابات المعتمة التى تبدو همهمة الريح فيها كما لو كانت صيحات شاكية تتوجع من الآلام .

لكن ، أكان شعب رعوى ، يضرب فى سهول فسيحة من الرمال ، بمستطيع ان يعبد الأرض مع خواصه العديدة واحداثه المتنوعة فى حين كانت تبدو الأرض بالنسبة له شحيحة للغاية واحادية الشكل ؟ أكان بوسعه ، وهو يجهل ترف الفنون أن يؤله خالقيها (أى مظاهر الطبيعة التى تؤدى الى نشأتها) ؟ وفى الوقت نفسه الذى نجده فيه انسانيا ورقيقا ، يعيش على لبن قطعانه ، أكان فى مقدوره أن يعبد اله الحرب شأنه شأن المتوحش الذى لا يلجأ الا لقوته عندما تجابهه مخاطر الأيام ، والذى يتغذى على لحم ينبض (بالحياة) ويروى غلته بالدماء ؟ كلا ، وانما النجوم وحدها هى التى تبعث على اعجابه : فالشمس التى تحيى وتوقظ المخلوقات هى التى تعطى القوة لأجسامهم كما تنشط أفكارهم ؛ هكذا تأله القمر وتألهت النجوم التى تضىء ليالى الصحراء ، تلك الليالى المتعة للغاية بعد حرارة النهار الملتهبة ؛ وديانة كهذه كانت أقرب بكثير من أية ديانة اخرى لكى تسمو بالانسان حتى يدرك الكائن الأسمى .

وفى واقع الأمر ، فكل شىء فى السماء لا نهائى ، يشمله نظام يدعو الى الاعجاب ويبدو بوضوح للوهلة الأولى ؛ أما هنا على الأرض فكل شىء محدود ، يبدو وكأنه متروك لقدر أعمى ، فما البحر ، والأرض ، والهواء ، والظواهر التى تصدر عنها والتى لا يمكن للمرء أن يتنبأ بها، و ضروب الجمال فى الريف ، وفنون المدن ، والشهوات الانسانية فهذه كلها أمور محددة ومتميزة لحد يكون من العسير معه عليها ان تولد فكرة السبب الأوحد ، محرك الكون : وعلى العكس من ذلك ، فان مراقبة النجوم تكشف

التشابه القائم بينها على أوسع نطاق ، وسرعان ماتبدو حركتها المنتظمة التي تخلع النقاب عن مواضعها نتيجة لارادة عليا ، ودائمة .

اذن فقد كانت الآلهة التي اصطنعها الانسان لنفسه حين ثبت عينيه على الأرض اما طيبة واما شريرة ، تدعو الى المحبة أو تبعث على الأسى، لكنها كانت على الدوام متعددة كذلك كانت سلطتها محددة ، أما حين رفع الانسان بصره نحو السماء ، فقد اهتدى الى اله واحد ، لا نهـــاية لقوته وحكمته : فكرة سامية ، وهى حين تضع كل البشر على مسافة متساوية من الكائن ألاسمى ، فانما تجعل من العبد المـــكبل بالأغلال حـــرا ، مالم تكن الخرافة والعبودية قد امتهنتا بعد ، وبالدرجة الكافية ، روحه حتى ليرى فى أولئك الذين يزعمون لانفسهم أنهم سادته ، صورة من الرب .

أما ابرام ، ابراهام أو ابراهيم ، كما شاء الناس أن يسموه ، فيبدو انه هو الذى بشر ، بأكبر قدر من الحماسة عرفتـــه العرب ، بوجود اله واحد ، ليجعل عبادته تحل محل عبادة النجوم (٥) ؛ ولقد كان المجد الخالد هو جزاء هذا الصنيع الطيب ؛ ففى حين لاتكاد تعـــرف اليوم ، اللهم الا لاشخاص معدودين ، أسماء مثل اتيلا * وجنكيز خان ، وكل اولئك الملوك الذين ظنوا انهم قـــد ملئوا العالم بأسمائهم ، فان راعيا صحراويا بسيطا ظل موضع تقديس من كل شعوب الأرض برغم كل القـــرون التى انقضت منذ تحول جسده الى رماد ؛ فالطفل الذى يبدأ فى تعلم القراءة يتأتىء بالفعل اسمه ، كما أن المسيحى واليهودى والمسلم يطلقون على الاله الذى يعبدونه اسم **رب ابراهيم** ، صحيح ان بعض العلماء النابهين يعتقدون أن غالبيـــة

---

(٥) كانت بعض القبائل بالفعل تعبد « العلى » ومن بينها شعب شاليم (سفر التكوين ، الاصحاح ١٤) ، وان كان ابراهام قـــد اعطى روعة خاصة لهذه العقيدة ، عندما خلصها من كل ما كان من شأنه أن يشوه بساطتها .

* اتيلا ملك الهون الذى انتصر فى عام ٤١٥ على أباطرة المشرق والمغرب ودمر بلاد الغال (وهى المنطقة المحيطة بجبـــال الألب وتشمل شمال ايطاليا والبلاد الواقعة بين جبال الألب والبرانس وبين المحيط ونهر الرين ، وكانت تسكنها شعوب كثيرة مقاتلة) ولـــكنه لقى الهزيمة فى سهول قطالونيا عام ٤٥١ بالقرب من شالون ومات على ضفاف الدانوب عام ٤٥٣ (المترجم)

الشخصيات الشهيرة فى الأزمنة البطولية ؛ الألسيد والجـازون ※ وحتى ابراهيم وموسى والمسيح نفسه هم كائنات مجازية ، لا يرون فى تاريخها الا تاريخ الأجرام السماوية ، ومهما يكن حظ افتراضاتهم هذه من الحذق فليس بمقدورنا أن نقبلها لأنها تبدو لنـا متعارضة مع مسيرة العقل الانسانى ، ومع مانلمسه نحن كل يوم ، لقـد كانت للانسان أسـاطيره قبل أن تكون له علاقة بعلم الفلك . بل ان ماحدث ، فى معظم الأحيان ، هو أن النجوم ومجموعات النجوم كانت تسمى ، ولا تزال ، بأسماء تذكر بأحـداث تمت على الأرض ، وفى النهاية ، فان الانسان حين يؤله كائنات بسيطة فانية ، ويغطى فعالها بقناع من الرمز ، حين ينسب اليها أعمالا لايمكنها أن تتحقق الا على يد الطبيعة ذاتها وتلك نتيجة للمصداقية الدينية (مايؤدى اليـه الدين من قابلية خاصـة للتصديق أو الايمان) ، تلك التى تسـهب أو تضخم من افعال البشر الذين تجعل منهم آلهة أو أولياء أو أنبياء وتنسب الى مقدرتهم أو الى وساطتهم عددا كبيرا من الأحداث المتخيلة أو الحقيقية .

لقد اختلطت الخرافات بالتاريخ فى كل مكان ، فلقد راقت الأعجوبة للبشر على الدوام ، ولسوف تظل تغريهم الى الأبد ، ولدينا كل يوم الوف الأمثلة على ذلك . فلنتعلم كيف ننحيها بحكمة عن كل رواية ، ولكن لنحذر فى الوقت نفسه من أن نقع فى تطرف آخر ، مقابل ، بأن ننكر فى رعونة بالغة الوقائع التى تختلط بأحداث خارقة ، وماذا نقول فى هـذا الذى يخلص من رفضه أن يصدق أن راية الصليب قد ظهرت فى الأجواء عندما زحف قسطنطين ضد ماكزانس ※※ ان هذين الحـاكمين لم يوجـدا على

※ Les Alcides ، أحفـاد هيرقل ، و Les Jasons هم أبنـاء جازون ابن ايزون ملك يولـكوس Iolcos ؛ وكان جازون قـد قاد أبطال الأغريق (الارجوتوت) للحصول على جزات الذهب من كولشيد ، وهناك أحبته ميـديا ابنـة ملك كولشيد الساحرة وهربت معه وتزوجها ، لـكنه هجرها ليتزوج من خريوس ابنة سبزيف ، وانتقمت ميديا لنفسها بأن عملت على دمار سيزيف وخريوس وطفليها . (المترجم)

※※ ماكزانس هو امبراطور روما من عام ٣٠٦ الى ٣١٢ وقد غرق فى نهر التيبر بعد أن منى بالهزيمة عند أسوار روما على يد قوات قسطنطين الأول امبراطور روما من ٣٠٦ الى ٣٣٧ ؛ وادى انتصار الأخير الى اقتناعه بضرورة جعل المسيحية دينا رسميا للامبراطورية ، ثم أصـدر فى عام ٣١٣ مراسيم ميلانو التى تنص على حرية العقيدة الدينية ، ثم نقل عاصمته الى بيزنطة (القسطنطينية) . (المترجم)

الاطلاق؟ أما عن ابراهام، فان مايحول بصفة خاصة دون أن ننظر اليه باعتباره مخلوقا رمزيا يمكن أن يرمز حسب فكرة قديمة عن نشأة الكون الى بعض خواص المادة أو بعض خصوصيات الذكاء الأسمى ، هو انه لم يحدث ان اتخذ منه أحد فى أى مكان على الاطلاق الها او واحدا من سلالة اله، برغم ان زهو كثير من الشعوب كان شغوفا بذلك ، وبرغم أن عبادة الأوثان التى انغمسوا فيها كانت تحبذ مثل هذه الفكرة ؛ وأخيرا فان اسم ابراهام قد جذب الى مكة ، منذ زمان ضارب فى القدم ، شعوب الجزيرة العربية ، فقبر محمد نفسه فى المدينة ليس بالنسبة للمسلمين انفسهم سوى شىء ثانوى فى طقوس الحج بالمقارنة مع الكعبة ، فهذا (المعبد) فى رأى العرب ، هو أول بيت رفع للناس لعبادة الاله الحق ، وهم ينسبون بناءه الى ابراهيم واسماعيل ، ويبدو أن ديودور الصقلى كان على معرفة به عندما يذكر انه « يوجد على شاطىء البحر الأحمر معبد شهير يقدسه كل العرب »(٦) وحين أبطل محمد عبادة النجوم، وازال الأوثان(٧)

---

(6) Biblioth. hist. lib III.

(٧) كان الحجر الأسود ، وينتظمه اليوم جدار فى احدى زوايا الكعبة ، هو الوثن الوحيد (كذا !) من أوثان الكعبة الذى حظى باحترام محمد ، وسبب ذلك بلا ريب هو أن هذا الحجر لم يكن يجسد أى شكل انسانى أو حيوانى ، ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر الخام أو غير المصقول كان مخصصا — قبل مجىء العقيدة الاسلامية — لعبادة الشمس ومن المعروف أن الشمس كانت تعبد فى سوريا على هذه الصورة ، وان روما قد شهدت فى عصر هليوجابال حجرا أسود بسيطا يتصدر آلهة ايطاليا واليونان التى كانت تجسد فى اعظم اعمال النحت ، فوق جبال بالاتان . وقد يكون من المثير أن نبحث عن الدافع الذى قد يكون وراء عبادة أروع النجوم واكثرها بريقا ولمعانا فى اكثر الأشكال خشونة واكثر الألوان قتامة ؛ فلعل هذه الأحجار كانت نيازك سماوية ، وبهذا يكون الناس قد تصوروا أن كرة ملتهبة تهبط من السماء تصحبها ضجة مفزعة لابد أن تكون قطعة من الشمس ولابد كذلك أن تنال الاحترام والولاء من البشر الفانين ؛ وبالمثل فانهم قد رمزوا بها فى كثير من الأديان الى الأشياء بالغة الحقارة والدناءة عندما يظنون ان هذه الأشياء تنتمى الى اله أو قديس .

التى اقامها الناس لها بين جدران الكعبة المقدسة ، فقد احترم الأثر القديم الخاص بهذين الأبوين ؛ كما كرس القرآن عملية الحج القــديم الى مكة تخليداً لاسميهما القديمين والمقدسين ، ولعله قد تم كذلك بقصد سياسى يهدف الى ربط الأمم التى ستدين للاسلام عن طريق هذه التجمعات المهيبة؛ فجعل القرآن من الحج فريضة دينية على كل مسلم .

كذلك كان العبرانيون ينظرون لابراهام باعتبـــاره زعيماً لجنسهم ، وهو مايتطابق مع شهادة العرب الذين يشكل العبرانيون ، فى رأينــــا ، واحدة من أقدم قبائلهم (٨) . وتتباهى أمم كثيرة فى الشرق ، فى الحقيقة،

= ولا يزال حجر الــكعبة (الأسود) حتى اليوم موضع تقـديس من جانب المتعبدين المسلمين ، فعلى الحجاج ان يطوفوا به سبع مرات ؛ أما أولئك الذين لا يستطيعون أن يقبلوه فيجاهــدون كى يلمسوه باليــد على الأقل ؛ وهو من بين كل « الأحجار » المعروفة اكثرها قدماً اكثرها حظاً من التبجيل والاحترام .

تعقيب : ينهار زعم المؤلف من اساسه اذا مااستعدنا قصة اعادة بنـــاء الــكعبة فى حياة الرســول صلى الله عليه وسلم ، فقد تم ذلك قبل بعثه بالرسالة ، وعلى يد قبائل قريش مجتمعة وبادر الرسول الكريم بوضع الحجر فى مكانه حسماً للخلاف بين هذه القبائل . . الى آخر القصة المعروفة ، أما ازالة الأوثان فلم يتيسر للرسول (ص) الا فى العام الثامن من الهجرة . عند فتحه لمكة ، ولم يكن الحجر الأسود أحد هذه الأوثان كما يزعم المؤلف الذى تبدو معلوماته عن الاسلام وتاريخه بالغة القصور . والقصـــة الحقيقيـــة للحجر الأســـود ، كما فسر لى أحد العلماء الاجلاء، هو أنه حجر أسود بين أحجار بيضاء . وانه يحدد بدء الطواف بالــكعبة وييسر بالتـــالى تعـــداد مرات الطواف بدقـــة ، وهـــذا شرط اساسى فى مناسك الحج . (المترجم)

٨ - نجد فى التوراة ان غالبية العشـــائر الرحل التى كانت تقطن صحراوات سوريا والجزيرة العربية سواء كانت تنتمى الى اسماعيل او الى عيسو ، كانت تشترك فى أصلها مع العبريين أو كانت تتحـــد معهم برباط الدم ،ولا تزال تشهد شطـآن الفرات ، كما شهدت شواطىء النيل والأردن ، حتى يومنا هذا قبائل من الرحل يعرفون بهذا الاسم النوعى : العرب البدو ، ويحيون على وجه الدقة نفس حياة الأسباط أو العشائر الأول ؛ ومع ولأن العبرانيين قـــد سكنوا جزءاً من أرض الــكلدانيين يعدون من الــكلدان كما أن البدو الذين أشرنا اليهم للتو ليسو فرساً ولا مصريين ولا سوريين ؛ وفضلاً عن ذلك ، فلا يهمنا كثـــيراً أن نعـــرف ما ان كان العبرانيين هم من نسل العرب أو كان العرب هم الذين جاءوا من اصلاب اليهود ؛ ويكفينا ان نعرف أن لهم اصـــلاً مشـــتركاً ، وتقاليـــد وعادات متشابهة .

بان ابراهيم هو واحد من أجدادها ؛ واذا نحينا جانبا الراى القائل بأن هذه الشخصية ، لهذا السبب ، لم توجد قط ، كما عبر عن ذلك بعض المؤلفين ، فاننا نرى فيه ، على العكس من ذلك ، شهادة على شهرة لم تكن لتنتشر قط عند الكثير من الأمم لو لم يكن لها من أساس واقعى ؛ فلقد تنازعت مدن كثيرة على شرف انتساب هوميروس بمولده اليها ، فهل يمكن القول بأن هذا الشاعر ، لهذا السبب ، لم يكن موجودا قط ؟ من ذا الذى لايعرف زهو وخيلاء البشر ؟ والشعوب ، مثلها مثل الأفراد بصفة خاصة ، يهتبلون بنهم واضح اقل الشواهد احتمالا لبلوغ أصل قديم ضارب فى القدم ، وبعد أن ينجحوا فى خداع الغير ينتهى بهم الأمر أن يخدعوا أنفسهم ؛ والخطأ الذى يحظى بالاعجاب سرعان مالا يعد بعد خطأ .

ويتطابق تاريخ ابراهيم كما قرأناه فى كتب العبرانيين ، فى نقاطه الأساسية ، مع كتابات المؤلفين العرب والفرس . ومع ذلك ففى حين يقدم سفر التكوين لوحة ساذجة وامينة عن حياة أحد مشايخ الصحراء ، فان هؤلاء المؤلفين قد خلطوا ذلك بأساطير تجافى العقل ؛ وهكذا نجد ابراهيم ، طبقا لأقوالهم ، قد رفض حين جاء الى الدنيا صدر أمه ووجد فى أصابعه هو غذاء ربانيا . فمن أحد أصابعه كان يتدفق اللبن ومن أصبع آخر تدفق العسل ؛ وعندما بلغ شهره الخامس عشر كانت له قامة رجل يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، وحكمة ومعرفة رجل ناضج ؛ وحين أصبح ملاذا للفقراء واستنفد مخازن حبوبه بفعل الصدقات الكثيرة التى كان يقدمها تحول الرمل من أجله الى دقيق ؛ وقد أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير وأن يمزقها اربا وأن يوزع هذه الأشلاء فوق أربعة جبال وأن يناديها فتجمعت أشلاء الطيور على صوته وطارت نحوه ؛ وحين القى به فى لهيب متقد فقد لاطفته النار بدلا من أن تلتهمه ✻ .

ومع ذلك فوسط هذه الحكايات الطفلية ، الصبيانية بخيالها الفاسد لدى الشرقيين ، فهناك نص يتميز بنبل بساطته وسمو العقيدة التى يكرسها جاء فيه : « وبينما كان ابراهيم يمشى مع أبيه أثناء الليل ، وهو بعد طفل ،

✻ يلاحظ القارىء ولابد أننا بازاء كاتب يرفض فكرة المعجزة تماما ، وهو على هذا الأساس يرفض الأخذ بكثير مما نعده نحن من المسلمات . (المترجم)

رأى فى السماء نجوما من بينها ، مع نجوم أخرى كوكب الزهرة الذى كان يعبده كثيرون ، وتفكر ! قد يكون هذا هو الرب سيد العالم ، ولـكن بعد بعض من الوقت والروية قال لنفسه : أرى هذا النجم يغرب ويختفى ، فلا يكون هذا اذن هو مدبر الكون ، ونظر كذلك للقمر فى تمامه ثم قال : لعل هـذا هو خالق كل شىء وهو نتيجة لذلك ربى ، ولـكنه عندما رآه ينزل عند الأفق مثل الكواكب الأخرى أصدر عليه الحكم نفسه . وبعد أن عكف على التأمل والتفكير بقية الليل بطوله ، وجد نفسه بالقرب من بابل عند شروق الشمس ، ووجد أعدادا لا حصر لها من الناس كانوا يعبدون هذا النجم ويسجدون له مما جعله يقول : هذا كائن يبعث ولابـد على الاعجاب وسأتخذ منه خالقا وسيدا لـكل الـكون ؛ ولـكننى تبينت أنه ينحدر ويتخذ طريق الغروب كما تفعل النجوم الأخرى ، ليسـت الشمس اذن خالقى ولا الهى ولا ربى . وبعد ذلك رأى ابراهيم النمرود جالسا على عرش بالغ الارتفاع وحوله يصطف ، وفقا لمراكزهم ، فرقـة من العبيد رائعى الشكل من هذا الجنس وذاك ، وسأل ابراهام على الفور : من هذا الشخص الذى يعلو الآخرين على هذا النحو ، فأجابه والده : هـذا هو رب كل الذين تراهم محيطين به وكل هؤلاء القوم يرون فيـه ربهم . وعندئذ تأمل ابراهيم النمرود ، وكان بالغ القبح وقال لهم : كيف يمكن أن يكون هذا الذى تدعونه ربكم قد صنع مخلوقات تفوقه فى جمالها ؟ وكانت هذه هى المرة الأولى التى بدأ فيها ابراهيم يسعى كى يحرر اباه من أوهام الوثنية ، ويدعوه الى وحدانية الله خالق كل شىء » . ٨

---

(8) D'Herbelot, Bibliothèque Orientale.

الفصل الثانى

عن العبرانيين حتى عصر دخولهم مصر (١٠)

كان العبرانيون فى أقدم مراحل تاريخهم ، يشكلون جزءا من هـذه الشعوب الجوابة التى ــ على الرغم من كونها ذات اسماء مختلفـة ، ومع عادات وتقاليد متشابهة ــ لم تكن تكف عن الاستحواذ على بعض منـاطق فيما بين الفرات والنيل .

وهم يستمدون اسمهم من عابر ، وهو اسم أحد أجداد ابراهيم ؛ وقد ظلت عادة اتخاذ اسم أحد رؤساء القوم القدامى وخلعه على الأبناء شائعة لدى العرب المحدثين .

وحيث كان هؤلاء العبرانيون قد انغمسوا ، شأنهم شـأن البدو ، فى الحياة الرعوية ، وكونوا مثلهم منشـات زراعية قليلة الدوام ، فقـد تركوا أرض كلدان كى يمضوا الى منطقة من أرض مابين النهرين تابعـة لسوريا ؛ وكانوا فى ذلك الوقت وثنيين ؛ وكان تارح ، والد ابراهيم ، من ناحور وآران ، على راس قبـائلهم . وعند موته انقسم القوم : فظل بعض فيما بين النهرين تحت حكم ناحور ، وواصل الآخرون مسيرتهم الى ما وراء الفرات ، أبراهيم ولوط ، ولدا أران ، وتكرر حـدوث انقسامات مماثلة عند الشعوب الرحل ؛ ونستطيع هنا أن نلحق بالأسباب التى حتمت حدوث الانقسامات هنـاك تلك الديانة الجديدة التى كان قـد بشر بهـا ابراهيم . وهى ديانة لم يتبنها فى الواقع أولئك العبرانيون الذين ظلوا فى

---

(١٠) نرجو من الذين سيقرأوننا الا يغيب عن ناظرهم مطلقا أننا لسنا هنـا بصدد أن نبرهن على أن هذا الرجل أو ذاك قـد وجد ، أو أن هذا الحدث او ذاك قد وقع فى حقيقة الأمر ، ولـكننا نريد أن نقول فقط انه من المحتمل ، أو على الأقل ، من الممكن أن تكون الأمور قـد جاءت على هذا النحو الذى نسوقه نحن .

بلاد مابين النهرين . وقد أشار سفر التكوين الى هذا الدافع الذى يكمن وراء الانقسام ، اذ نرى فى هذا السفر أن ابراهيم قد انفصل عن أخيه(١١) حتى يستجيب لوحى مقدس. وفى هذا تتطابق التقاليد العربية والفارسية، وطبقا لذلك فقد حدث أن أبراهيم ، كى يحافظ على عقيدته وينأى بها عن اضطهادات الوثنيين ، قد انسحب الى جوف الصحراء . ومع ذلك فقد ظل يسيطر هذا الوفاق الأفضل بين القبائل التى انقسمت على هذا النحو ، ويكفى للتدليل على ذلك زواج ابن ابراهيم (اسحاق) من (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور ، وزواج يعقوب من بنات لابان بن بتوئيل (١٢) .

وتقدم ابراهيم فى البداية نحو الجنوب عبر أرض السوريين ، وبعد ذلك دخل مصر ثم عاد الى سوريا. وهناك انفصل عن (لوط) ابن أخيه ، وبعد مرور وقت قصير انتزعه منأيدى أعدائه (أعداءلوط) ، وينظر بعض الكتاب الى المعركة التى شنها ابراهيم فى هذه المناسبة باعتبارها عارية من أى ترجيح ، وبرغم ذلك فليس فى هذا الأمر مايمكن أن يعد خارقا بالنسبة لشخص عبر صحراوات سوريا وعرف تقاليد الشعوب التى تقطنها . وفى واقع الأمر فان ماهو اكثر من ذلك طبيعة — أى انه أمر عادى للغاية — أن نرى رؤساء أو ملوكا أمثال ملوك ورؤساء شنعار وعيلام والاسار (بشده على اللام) وجوييم يشنون الحرب على ملوك سدوم وعمورة وادمة وصبوييم وبالع (أو صوغر) . وهذه الأسماء الأخيرة هى أسماء مدن ذائعة الشهرة ويمكن الظن بأن الأسماء الأخرى تشير الى بعض فصائل من الفرق الآشورية تقيم بين أربعة شعوب تخضع على الدوام لهذه الأمبراطورية (الآشورية) ، كان شيوخ المدن والقرى والقبائل يتحاربون فيما بينهم ؛ وكان شيخ فريق ما من البدو يعيش لأكثر من مرة فى حياته فى حالة حرب مع سلطان امبراطورية الترك القوية ، ومع

---

(١١) « وقال الرب لابرام أذهب من ارضك وعشيرتك ، ومن بيت أبيك الى الأرض التى اريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وابارك مباركيك ولاعنك العنه » سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر .

(١٢) توجد عند العرب البدو هذه العادة نفسها ، عادة تفضيل الأصهار على أشخاص من العائلة نفسها .

ذلك ، فمهما تكن قوة الأمراء الذين أخضعوا البنتابول الأردنى (١٣) ، فقد استطاع ابراهيم ، باتحاده مع ثلاثة من مشايخ الصحراء هم عانر واشكول وممرا الأمورى أن يفــاجىء وأن يلحق الهزيمة بالمنتصرين . ويقدم لنــا النــاريخ عددا لا حصر له من احداث مشابهة ؛ فقد استطاع خالد ، على راس ثلاثة آلاف عربى أن يحطم ويشتت فى عصر هرقل وبعد معركة من اشد معارك النــاريخ بأسا وعنادا جيشا يتكون من عشرين الفا من الرجال من خيرة جيوش الامبراطورية (الرومانية) ؛ واستطاع على بك ضــاهر فى عصر اقرب ، بخمسمائة من البــدو أن يلحق الهزيمة بخمسة وعشرين الفا من الدروز ؛ وعلى ضفاف الأردن ، عند سفح تل طــابور ، شتت ١٫٥٠٠ جندى فرنسى بقيــادة كليبر Kleber ، أمامهم جيشــا **« ينتمى الى مائة شعب مختلف »** كما يقول اهل البلاد **« ويساوى فى عدده نجوم السماء ورمال البحر »** (١٤) .

وفى الحقيقة فان اسم **ملك** الذى تمنحه التوراة لرئيس مدينة بمفردها أو شيخ قبيلة واحدة قــد امكنه ان يتوج قصــة انتصار ابراهام بهــالة مبهرة ، فنحن ننسب لهذه الكلمة معنى المقدرة العظيمة (والملك الشاسع) ، لــكن الــكلمات نفسها لاتعنى فى كل الأحوال الأشــياء نفسها ، وتظل معانيها تتغير فى مختلف البلدان ؛ فشيخ بضعة الوف من الرجال فى الشرق قد يتسمى باسم امير الأمراء (أو ملك الملوك) ؛ وفى حين أن لقب ملك هو مانطلقه نحن على لويس الرابع عشر أو بطل ترموفيل Thermophyles*

---

(١٣) منطقة خماسية المدن (اى بها خمس مدن) ، ويطلق اســم البنتابول على العديد من تجمعات مدن مماثلة ، ويتكون البنتابول الأردنى من مدن : سدوم ، عمورة ، ادمة ، صبوييم ، بالع (التى هى صــوغر كما تذكر التوراة) .

(١٤) تقدر هذا الجيش بنحو خمسين الف رجل اكثرهم من الفرسان .

* او الأبواب الحارة ، ممر شهير فى تساليا ، حاول عنده ليونيداس الأسبرطى ومعه ثلاثمائة من الاسبرطيين أن يوقف جيش الفرس بقيادة كسركسيس ؛ وحيث لم يتخيل الأخير أن هذه الحفنــة من الرجال تعتزم حقا أن تقطع عليه الطريق فقد كتب الى ليونيداس رسالة لاتضم الا هاتين الكلمتين : « سلم اسلحتك » فكتب اليه الأسبرطى تحت كلماته « تعال خذها » ؛ ولــكن احد الخونة ارشد الفرس الى ممر وســط الأحراش يسمح لهم بالاحاطة بالجبل الذى كان يتحصن فيه ليونيــداس ؛ وحين تبين الأخير أن من المستحيل عليه أن يتفادى الموت ، دعا رفاقه الى وجبة طعــام متقشــفة ثم قال لهم « فى هــذه الليلة سنتعشى عنــد بلوتون اله الموتى » . (المترجم)

فانه يخلع فى الساحل الأفريقى على رئيس بضع ضـياع صـغيرة من ضيعات الزنوج ؛ وبالمثل فقد تلقى شيشرون التحية من الفرق العسكرية التى أطلقت عليه لقب امبراطور بعد حملته على صقلية ، ومع ذلك فليس هنـاك من يخلط بين سطوة هـذا المواطن الفاضل وبين القوة الغاشمة لأولئك الطغاة الذين رفعوا عروشهم عالية فوق أنقاض جمهورية روما .

وبعد أن خلص ابراهام لوطا ، عاد الى بلوطات ممرا الأمورى ؛ وقد حدث بعد سنوات عديدة من الوقت الذى حددته التوراة لدمار سـدوم وعمورة الذى ربما قـد تسبب فى حدوثه صـاعقة رعد أو ثورة بركان.

وتتطابق الرواية التى تحكى اقامة ابراهيم بعد ذلك فى أرض أبيمالك ملك الفلسطينيين وما قدمه اليه هذا الزعيم العبرانى من ثيران وماعز ، مع مايحدث فى أيامنا هذه عندما تريد قبـائل جـوابة ان تقيم فى أرض لا تملـكها .

وقد خلف ابراهيم أبنـاء عديدين اشهرهم اسماعيل واسحق . وقد اصبح الأول بفعل جسارته زعيما لقبائل عديدة تشكل اليوم الأمة العربية، وحملت فى ذلك الوقت طبقا لتقاليد الصحراوات اسمه وتنـادوا باعتبارهم ابنـاءه (١٥) ، أما الثـانى فقد أعقب والده ، وترجع جـولانه وحروبه وتحالفاته واخيراً سيرة حياته الى الوجود الخاص والسياسى لزعيم من زعماء البـدو .

وبعد موت أسحق، انفصل ولداه يعقوب وعيسو، وتسمت القبائل التى اتبعت الأخير بعد ذلك (أو نسله كما تذكر التوراة) اسم الأدوبيين ؛ أما يعقوب فقد استحوذ على الجزء الأكبر من ميراث ابيـه ، وتسمى الرعاة الذين ظلوا محيطين به ، وبشكل نهائى، باسم العبرانيين أو الاسرائيليين. وتجىء التسمية الأخيرة من اسرائيـل ، وهى الـكنية التى كان يحملهـا يعقوب منذ عودته من بلاد مابين النهرين .

---

(١٥)انظر دراستنا عن القبائل العربيـة فى صـحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ٥٨٠ (وهى الدراسة السابقة من هذا المجـلد) .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، أشهرهم يوسف ، ولن استعيد هنا قصته المؤثرة ، فكل الناس يعرفونها ، ويعرفون أنها تعبر بشكل تام عن تقاليد وعادات شعوب الشرق . وفيما بعد اصبحت أسماء ولديه واخوته تشير الى اسباط بنى اسرائيل .

كان يعقوب قد اصبح شيخا كبيرا حين الجأته المجاعة الى ترك ضواحى بير سبع والذهاب الى مصر حيث حصل من فرعون على اذن بأن يستقر فى أرض جاسان .

وكانت أسرة ملوك الرعاة تشغل فى ذلك الوقت عرش مصر ؛ ونعتقد أننا نجد الدليل على تجافى الحنق والتطير اللذين كان يمكن أن يستشعرهما الحكام من العنصر المصرى بالنسبة لرعاة القطعان — فى الترحيب الذى لقيه ابراهام من قبل، وفى تنشئة يوسف - وبالسماح ليعقوب وابنائه بالاقامة فى مصر . ١٦

---

(١٦) مانيتون ؛ يوسيفوس ، رد على ابيون ، الكتاب الأول ، الفصل الخامس .

وقد كان مانيتون مصريا من طبقة الكهان ، وكان يشغل منصبا كبير كهنة هليوبوليس والحافظ للأرشيف المقدس ، عندما كتب تاريخ مصر ، ويبدو لنا مؤلف كهذا انه يستحق على اقل تقدير نفس القدر من الثقة التى تحظى به مؤلفات هيرودت وديودور ،برغم قدمها ؛ فمهما تكن المجاملة التى ابداها الكهان المصريون نحو هيرودت كبيرة ، فان المعلومات التى جمعها منهم عن تاريخ مصر لا يمكنها أن تقارن بمؤلف مستمد مباشرة من المخطوطات الأصلية عن طريق رجل يستطيع ،حيث هو موكل بحفظها، أن يقارن بينها وأن يرجع اليها وأن يدرسها بعناية دون أن يكون فى عجلة من أمره ، شأن مسافر متسرع يريد أن يعرف كل شىء عن البلد الذى يجتازه ، تاريخه ، فلسفته ، عاداته ، جغرافيته ، تاريخه الطبيعى..الخ.

ويتهم المسيو لارشيه Larchet المترجم الضليع لهيرودوت ،مدفوعا بشعور من عاطفة تشيع عند رجل يتجاوز دوره كمترجم ، يتهم مانيتون بالجهل فى كل مرة لا يكون فيها هذا المؤرخ على وفاق مع هيرودت ؛ دون أن يسترعى انتباهه ان مانيتون كان يعرف مؤلفات هذا الأخير ، وانه اكتشف فيها اخطاء عديدة ، وأنه بهذه الطريقة على الأقل لم يبتعد عما جاء بها بسبب جهله . واخيرا فان المسيو لارشيه ينسب معرفة اللغة المصرية القديمة لمواطن من هاليكارناس وينكرها على كبير كهان هليوبوليس ؛ ويعطى هذا الحق للأول لأن هذا الرحالة يقرر أن الكهنة

=

وسوف تساعدنا هذه الملاحظة على تعويض النقص الخطير الذى نجده فى الكتب المقدسة منذ موت يوسف وحتى مولد موسى ؛ وان كان لابد لنا أن نحاول فى هذه اللمحة السريعة حول نشأة وسقوط أسرة الملوك الرعاة فى مصر ، أن نلقى بصيصا من الضوء على هذا الجزء القديم من تاريخ العبرانيين .

عن فتح مصر على يد الرعاة ، وعن العبرانيين منذ وفاة يوسف حتى هروبهم الى الصحراء

تتم هجرات الشعوب فى معظم الأحيان فرارا من عدو يحمل اليها معه القيود ، اكثر مما تتم سعيا وراء مناخ افضل ؛ وفى معظم الأحيان كذلك ، يقوم هؤلاء الفارون ، حين يصبحون غزاة بالضرورة ، بتأسيس امبراطوريات قوية .

ولكن عندما يدفع حب السيطرة والمجد والثروة ، وحده ، أمة ما بأن تحمل السلاح ، فانها قد تستطيع أن توسع أملاكها بشكل هائل ، لكنها لا تغادر وطنها ، فالارتباط بمسقط الرأس أمر اكيد فى كل زمان ومكان ، وعندما تشكل الأقاليم المغلوبة والمستعمرات البعيدة دولا مستقلة فانها تحتفظ بعلاقات من المودة والاحترام مع الوطن الأم ، تستطيع المصالح أن تعكرها فى بعض الأحيان لكنها لا تقدر أن تنهيها بشكل تام الا بعد قرون طويلة .

=

المصريين قد ترعوا له حوليات بلادهم كما لو لم يكن بمقدور هؤلاء الكهان أن يشرحوا له باليونانية النصوص بالغة الأهمية من المخطوطات التى أتاحوا له رؤيتها ، ثم ينكرها على مانيتون بسبب العصر الذى كان يعيش فيه ومعنى ذلك فان أثر رشيد (حجر رشيد.) يبرهن على أن اللغة القديمة فى عصر البطالمة ، بل حتى الكتابة الهيروغليفية نفسها ، كانت لاتزال معروفة من كهان مصر .

وأخيرا فان هذا الاعتراض الذى تكرر مرات كثيرة من أن مانيتون لم يستطع أن يرجع الى الحوليات المقدسة التى انتزعها ارتكسركسيس — أوخوس حين ضرب هذا الأمير مصر فى الأولمبياد السابع والخمسين يسقط من تلقاء نفسه اذا التفتنا الى أن ديودور ، الذى يقص علينا هذه الواقعة ، يضيف بأن باجواس ، المقرب من ارتكسركسيس قد رد الى الكهان المصريين وثائقهم ، فى مقابل مبلغ كبير من المال .

وحين يخبرنا التاريخ بأن مصر قد غزاها جيش من الرعاة قادم من جهة الشرق . فانه لا يحيطنا علما بما ان كانت هى روح الغـزو أو هى ضرورة دفع عدو قوى هى التى حملت هـذا الشعب الرعوى على غزو الأراضى الخصيبة التى يرويها النيل ؛ وان كان المرء يستطيع طبقا للمبادىء السابقة أن يستخلص أن فتوحات الأشوريين ، بامتدادها الى جنـوب الفرات ، كان لابد لها أن تدفع الى مصر بالقبائل العربية البدوية ، التى تشغل جزءا من سوريا والجزيرة العربية . ويتطابق هذا الرأى مع شهادة مانيتون ، حين يقرر أن أول ملك من ملوك الرعاة حكم مصر قـد وضع الجزء الأكبر من جيشـه على الجبهـة السـورية لأنه كان يخشى قـوة الأشوريين .

وقـد تبنى الرعاة العرب ، دون جـدوى ، خلال امتلاكهم الطويل لمصر ، غالبية طقوس الديانة المصرية ، لكن احتفاظهم ببعض عقائدهم ، وبصفة خاصـة تحالفهم مع قبـائل الصحراء الذين واصلوا التضـحية لآلهتهم بحيوانات يقدسها المصريون ، جعل المواطنين من أهل البلاد ينظرون اليهم بكراهية وازدراء .

وقـد أدى انتشار أحد الأمراض ، هو البرص او الجـذام ، الذى اصبح أكثر شيوعا فى مصر لأن المنتصرين كانوا — ربما — يجهلون مبادىء الصحة التى تدعو اليها الديانة المصرية للتقليل من عمل طقس غير صحى — ادى بالقدامى من اهل البلاد أن يطلقوا عليه اسم مرض الرعاة ، وهو الشىء نفسه الذى فعله اهالى نابولى عنـدما أطلقوا اسم أمتنـا ، فى القرن الخامس عشر على مرض وافد ، وذلك بفعل ماكانوا يكنونه لنـا من أحقاد . وقد أوقع اسما « المجذومون او الأنجـاس » ، اللذان كان المصريون يستخدمونهما سرا للاشارة الى المنتصرين عليهم ، المؤرخين فى اخطاء خطيرة حين اعتقد هؤلاء أن الأمر هنـا يشـير بالفعل الى اناس أصيبوا بالجذام ، كما لو كان باستطاعة ذوى العاهات والمرضى أن يكونوا هيكل أمة وينشئوا جيوشا قوية !

أما ملوك مصر الشرعيين ، الذين لاذوا بالصعيد ، فقد كونوا هناك دولة مستقلة ؛ ثم نزل أحدهم ويدعى اليسفراجمو توفيس ، ولعل ذلك قد تم بمعونة من الأثيوبيين وبدعوة من الساخطين ، نزل نحو ممفيس ،

واحرز انتصارات هائلة على العرب واضطرهم الى أن يركزوا قواهم فى أفاريس ، وهى مدينة بالغة القوة تقع فى أقصى الشرق من مصر السفلى ※

وباختصار ، فيمكن القول بأنه منذ هذه الفترة قد انتهى عهد ملوك الرعاة فى مصر ، بعد مرور نحو خمسة قرون من تأسيس أسرتهم وتربعها فوق عرش الفراعنة ، واذا كان كهنة ممفيس وهليوبوليس أو طيبة قد لزموا الصمت بشكل سام عن هؤلاء الملوك عند حديثهم الى هيرودوت فقد كان ذلك دون ريب لأنهم كانوا يضعون فى عداد ملوك مصر أولئك الأمراء من الجنس المصرى الذين حكموا مصر خلال الفترة نفسها من الزمن ، اذ كانوا يعتبرون هؤلاء الذين صمتوا عنهم ملوكا غاصبين .

أما تحيموسيس (أحمس) ، ابن وخليفة اليسفراجمو توفيس ، فقد حاصر فى أفاريس بقايا جيش الرعاة ، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، وافق أن تخرج الحامية من أرض مصر مع كل ماكانت تملكه .

وقد عبر هؤلاء الرعاة صحراء سوريا ، ولما كانوا يخشون بأس الآشوريين — وكان هؤلاء بالغى القوة فى آسيا — فقد استقروا فى جبال الجودية حيث أسسوا مدينة جيروزاليم (أو : أورشليم) (١٧) ؛ وان كان هذا الفريق من الأمة التى أدى استحواذها على مصر لفترة طويلة ، الى تبعثرها بالضرورة فى كل البلدان ، قد اضطر للخضوع وأن يستسلم بدوره لما يمليه عليه قانون المنتصر .

※ يقول الأستاذ محمد رمزى فى قاموسه الجغرافى للبلدان المصرية ، الجزء الأول الخاص بالمدن المندرسة ، من مدينة افاريس : أواريس مدينة أنشأها الهكسوس جنوبى بيلوز (الفرما) ، وأسموها هات أورات Hat Awrat ، ومنها اسمها أواريس ، وقد اتخذها رمسيس الثانى سكنا ومعسكرا له ، وسماها برمسيس أو مدينة رعمسيس . وقد اندثرت الآن وحل محلها تل الحير أو الهير ؛ وظن بعض الباحثين أنها هى مدينة تيكو التى أسماها الرومان هيروبوليس ومكانها الآن تل المسخوطة .
(المترجم)

(١٧) كانت هذه المدينة فى واقع الأمر موجودة حين دخل الاسرائيليون ، بعد وفاة موسى ، أرض كنعان ، لكنهم لم يستحوذوا عليها بشكل مطلق الا فى عهد داود .

أما العبرانيون ، الذين كانوا قد وجدوا قبل ذلك فى مصر ، مأوى وحماية ، بسبب أصلهم المشترك وتطابق عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد الرعاة (العرب) فقد واصلوا سكنى هذه المنطقة ، وجرت عليهم نفس أقدار المهزومين ، وانسحب عليهم ما كان يكنه الوطنيون من أحقاد نحو هؤلاء الرعاة ، وأخذ الوطنيون يشيرون الى هؤلاء وأولئك ، دون مواربة ، باسم الانجاس أو المجذومين .

وقد ظل الانجاس ، وهى تسمية كان ينـدرج تحتها كذلك المصريون الذين تمثلوا بعض ممارسات الرعاة الدينيـة ، يتمتعون فى مصر ، مع ذلك ، بقدر محدود من الحرية حتى عصر أمينوفيس ، والد سيزوستريس الشهير ؛ بل لعل القوم قد تركوا كذلك لعدد من القبائل مقاطعات صغيرة، ضئيلة الأهمية ، على تخوم صحراء ، أو فى مستنقعات مصر السفلى ، وهو أمر لا يزال يتم حتى اليوم مع البدو . وقد آمن أمينوفيس ، يدفعه فى ذلك الكهان ، انه سوف يتقرب الى الآلهة ، باضطهاده للرعاة ، وكل المصريين الذين لم تعد عقيدتهم — فى رأيه — خالصة نقية ، فجمع عددا كبيرا منهم ، أستخدمهم فى قطع الأحجار من جبل المقطم .

وبعد ذلك ، دفعت بعض المخاوف الأسطورية ، والمتطيرة ، امينوفيس لأن يسمح لكل هؤلاء البؤساء بالانسحاب الى أرض جاسان ؛ وهنـاك اختاروا رئيسا لهم ، واحدا من كهنة هليوبوليس اسمه أوزرسيف ، كان قد نفى معهم بسبب آرائه الدينية دون شك ؛ ولحق به وانضم اليه كهان مصريون آخرون كانوا يشاطرونه معتقداته ، وتبع هؤلاء كل الأشخاص الذين يريدون الفرار من اضطهادات واقعـة أو يخشـون من حـدوث اضطهادات جديدة ، لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها ، وقد أعطى أوزرسيف لهذه الألوف من المنشقين المصريين ، وللقـوم من جنس الرعاة ، ديانة خاصـة كانت بالضرورة خليطا من ديانتى هذين الشعبين ، وأمر هؤلاء الا يتصاهروا الا فيما بينهم ، ولكى يحول دون حدوث أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين ، أباح لأتباعه أن يأكلوا حيوانات كانت تعـد مقدسة عند هذا الشعب وأصدر تعليماته لهم بهدم تماثيل آلهة مصر .

وقد كانت النتيجة الحتمية للاضطهادات الدينية من جانب امينوفيس، والحروب والثورات ونوبات الغزو الأجنبى التى نبحث عنها ان اضطر

عدد كبير من العائلات أن تبحث لأنفسها ، ومعها آلهتها عن وطن جديد. وعلى هذا ، يكون هذا الوقت هو الفترة المحتملة التى نشأت خلالها مستعمرات عديدة فى بلاد الاغريق ؛ فان رأى البعض أن هذه الديانة لم تكن هى ، على وجه الدقة ، نفس الديانة المصرية القديمة فاننا نضطر الى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يقتفوا جميعا — وهذا مرجح — معتقدات أوزرسيف ، والذين كانت لهم ، بالضرورة ، فى عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين (١٨) ، باعتبارهم

---

(١٨) فى واقع الأمر فان الاحتمال ضئيل فى ان يكون المصريون قد اسسوا المستعمرات العديدة التى تنسب اليهم عادة ، فهم الذين أغلقوا لوقت طويل للغاية ابوابهم فى وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط اذ كانوا ينفرون من هذا البحر ويكنون له الكراهية ، كما أنهم اخيرا كانوا يرتبطون بروابط كثيرة بمسقط رأسهم ، لأنهم أثرياء ، تجمعهم دولة وحكومة ، وتتحكم فيهم الأساطير الدينية ؛ لكن الأمر ليس على هذا النحو بالنسبة للرعاة ، فأمة تتكون من قبائل متفرقة يصعب عليها أن تظل متحدة ؛ فالرؤساء القلقون أو الساخطون ينعزلون بأنفسهم ، ويسعون لأن ينشئوا لأنفسهم مؤسسات أو أنظمة خاصة بهم ، ولم يكن الرعاة الذين فتحوا مصر يتعلقون ببلد أكثر مما يتعلقون بآخر ، لقد كانوا رحلا ومقاتلين ، وسرعان ما قدر عليهم أن يعملوا بالملاحة ، على طريقة هؤلاء العرب — وهم من نفس جنسهم ، وقدموا من نفس صحراواتهم — الذين حملوا معهم الى اسبانيا ، فى القرن الثامن (الميلادى) ، الفنون والعلوم التى أرادوا هم أنفسهم قبل ذلك بوقت قصير أن يمحوا كل أثر لها ، حين حرقوا مكتبة البطالمة [سبق لنا أن دحضنا هذا الافتراء عندما نقلنا رأى جاستون فييت بهذا الخصوص عندما ورد مثل هذا الزعم فى دراسة جراتيان لوبير عن مدينة الاسكندرية ؛ انظر المجلد الثالث من الترجمة العربية — المترجم] .

اذن فيبدو مما لا ريب فيه أن هؤلاء الذين نقلوا الى اليونان فنون مصر ، هم هؤلاء الرعاة الذين أدى بهم استحواذهم الطويل على مصر لأن يتمثلوا هذه الفنون . وهذا الرأى هو نفس رأى فريريه Fréret وهو لا يسلب قط عن مصر العليمة مجد انها أمدت اليونان بالبذور الأولى لحضارتهم ، وهى بذور ثمينة دون شك ، لكنها قد تطورت وتقدمت بسرعة بالغة تحت سماء اليونان الناضرة ، موطن ربات الفن والجمال حيث أرتقى الجنس البشرى لأسمى درجات النبل والحرية والسعادة .

ينتمون اصـــلا الى الشرق ، وتطبعوا بهذه الخصال على ضـــفاف النيل بفعل سلســـلة طويلة من الأجيـــال ، واذا لم يكن كتاب آريوس ، ملك لاسيديمونيا الى اونيـــاس كبير احبـــار اليهود ، مزيفـــا قط ، فانه يأتي ليدعم هذا الراى ، الذى يعطى العبرانيين وبعض أمم الأغريق ، اصـــلا مشتركا (١٩) .

واخيرا فان علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد امينوفيس هذا ، وأن نضع فيه أيضا أول الاضطهادات التى لحقت بالعبرانيين ، والذى تشير اليه التوراة .

وقد دفع الخوف من سطوة فرعون ، وكذلك ، ودون جدال، الرغبة فى الانتقام ، أوزرسيف لأن يطلب من رعاة الجودية أن يلحقوا به ، ليزحفوا معا لفتح مصر ؛ وذكرهم بأنهم كانوا من قبل قد تملكوا هذه البلدان الثرية، وبأن قـــد لحقت بهم (هنـــاك) اهانات ينبغى الاقتصاص فيها ، وهرع اهالى اورشليم الى افاريس استجابة لنـــداء اخوتهم ، وانضموا اليهم ، وحملوا على مصر « فلم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبوه ، كما يقول مانيتون ، ولم يكتفوا باحراق المـــدن والـــكفور وتحطيم صـــور الآلهة ، وانما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة ، وارغموا الـــكهان المصريين والعرافين بأن يكونوا هم ذابحيها ، ثم اطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم امهاتهم » .

وانسحب امينوفيس الى ماوراء الشلالات على حدود مملكته ، وثبت هنـــاك بدعم من الأثيوبيين مدة ثلاثة عشر عاما ينـــاوىء الرعاة ؛ وفى

---

(١٩) واليكم ترجمـــة هـــذا الـــكتاب كما أورده المؤرخ يوســـفوس « من ملك الاسبطيين (اصل لاكيدايمونيا) اريوس أويناى ـــ تحيةوسلاما ، حدث أن وجدت فى بعض النقوش أن اليهود واهل لاكيدايمونيا ينتمـــون لجنس واحد وان الأخيرين ليسوا بغرباء عن نسل ابراهام . لذلك فمن الأوفق ـــ مادمنااخوة ـــ أن تطلعونا على كل ماترغبون فيـــه ، ونحن من جانبنا سنفعل الشىء ذاته ، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا ســـواء بسواء ، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة ، وان ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا ، وهذه الرسالة مدونة فى صـــفحة مربعـــة الشكل وتحمل خاتما هـــو عبـــارة عن نسر يصارع ثعبانا » .

نهاية هذه المـدة جمع قوات كبيرة ، ونزل الى مصر السـفلى وهـزم اوزرسيف ، وطارده ، ودفع نحو سوريا شتات جيشه .

واذا ماصـدقنا زواية مانيتون ، فلابد ان يكون أوزرسيف هو موسى نفسه ، ولابد ان يعترف المرء ان التشابه بينهما شـديد ، بل قـد يكفى الافتراض بأن الجودية كانت قـد تم غزوها على يد قبـائل اخرى ،فى الوقت ألذى كان سكانها فيـه يخربون مصر كى نفسر أقامة الاسرائيليين الطويلة (تيههم) فى الصحراء ، وكذا الحروبالتى كان عليهم انيخوضوها كى يعودوا الى سوريا بعد ان تم طردهم من أرض جاسـان . ومع ذلك، فاذا ماقبلنا ، فيما يتصل بالوقائع الأساسية ، ان يكون هذا الراى محددا للاطار العـام لذلك الذى جاء فى اسفار موسى الخمسة ، فينبغى القول ايضا بأنه سيظل يوجد فى قصـة موسى ، اذا ماتبنينا هـذا الراى ،عدد هائل من الأحداث لابد ان نلقى بها جنبا الى جنب مع الأساطير . وفضلا عن ذلك ، فمن السهل ان نوائم بشكل افضل بين ما جاء بكتب العبرانيين وبين ما جاءت به كتب التاريخ الدنيوية ؛ وهكذا نستطيع، على سبيل المثال، القول ، مرتكزين على اسس كافية بأن جزءا من الرعاة الذين هـزمهم امينوفيس قـد ظلوا أسرى فى مصر ، حيث فرضت عليهم اقسى درجات العبـودية ، وان القبـائل الاسرائيلية ، قـد تلفتت فاذا بهـا ضـمن هؤلاء العبيد .

فلنقبل اذن الفكرة القائلة بأن العبرين كانوا لا يزالون يقطنون مصر حين اعتلى سيزوستريس العرش .

ومع ذلك فان المباهج التى تمتع بها المصريون فى عهد هـذا الملك الشهير تحول دون أن ننسب لعهده تلك الكوارث التى خربت هذه المملكة وادت الى تخليص شعب الله . لقد كان سيزوستريس شـديد البأس ، لحد لايستطيع معه ان يخشى من هؤلاء العبد البؤساء ، الذين عرفكيف يفيد منهم حين استخدمهم فى اقامة الجسور وحفر الترع وبناء المدن ، وهى أعمال خلدته بأكثر مما خلدته فتوحاته .

وقد خلفه ابنه الذى يسميه هيرودوت فيرون فى حين يسميه ديودور سيزوستريس الثـانى ؛ لـكن الابن لم يرث لا فضال ولا مواهب والده،

ويصوره التاريخ أميرا ضعيفا ، متطيرا ، يؤمن بالخرافات ، وقاسيا . ويبدو أن يد الرب ، على حد قول المؤرخين الدنيويين أنفسهم ، قد ثقلت عليه، ففاض النهر بدرجة غير مألوفة ودمر القرى والحقول وافزعت العواصف والأعاصير والسيول الشعب ، واصيب الأمير بعمى البصيرة حتى غمت عليه هذه العلامات التى تنذر بغضب السماء (٢٠) .

ونعتقد نحن من جانبا أن فى عهد هذا الأمير — ولابد — تمت عملية هروب العبرانيين الى الصحراء .

هروب العبرانيين الى الصحراء

بعد الهزيمة الماحقة التى حاقت بالرعاة ، أرغم العبريون على ترك الحياة الرعوية ، وبعد أن كانوا بدوا تحولوا الى فلاحين (٢١) وأرهقوا بالأعمال ، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة العهد الطويل والمجيد لسيزوستريس أن يتملصوا من العبودية ، ومع ذلك ، فحين لقوا بعض المعاملة الانسانية بلا ريب ، تضاعفت اعدادهم وحيث قد بداوا يستوعبون حالتهم الجديدة، فقد كان كل يوم يمر ، يجعل من العسير عليهم اكثر من ذى قبل ان يخرجوا (من مصر) ، ثم ارتقى فيرون العرش وأثقل كاهل العبرانيين بنير من حديد (٢٢) ، فلم يجد هؤلاء البؤساء الذين كانوا يئنون فى صمت اية نهاية لآلامهم الى أن ظهر بينهم واحد من أولئك الرجال غير العاديين الذين يبدون وكأنما قد جاءوا خصيصا لتغيير أقدار أمتهم ، وكان موسى عند طفولته قد جرفه الماء ، وكان هذا فى عصر امينوفيس ، وانقذت ابنته حياة الطفل العبرانى ، لكنها لم تكتف بما قدمته اليه من رعاية واحسان ، وانما امرت بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم ، ومن المعروف أن العلوم والفنون فى مصر كانت فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها ؛ واذ اضطر

---

(٢٠) هيرودوت ، الكتاب الثانى ؛ ديودور ، الكتاب الأول .

(٢١) لاتزال تغييرات مماثلة تحدث فى بعض الأحيان فى مصر ، بين القبائل العربية التى استقرت فيها ، انظر دراستى عن القبائل العربية فى صحراوات مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول، ص ٥٧٩ . [وانظر كذلك دراسة جومار عن العرب والعربان فى مصر الوسطى ، من هذا المجلد — المترجم] .

(٢٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث ، الآية ٧ .

موسى بعد موت تلك التى احسنت اليه لان ينجو بنفسه لائذا بالصحراء لقتله احد المصريين فقد فر الى البحر الأحمر ليقيم بين عرب مديان (مدين)؛ وذكره نمط حيـــاة هذه القبيلة بلا ريب بالزمن الذى كان ابراهام فيـــه يتجول فى عزلة بقطعانه ؛ وبدت له الحرية والاســـتقلال ، برغم ضروب المخاطر وصنوف الحرمان افضل كثيرا من العبودية مع الوفرة والسكينة؛ وصمم مشروعه النبيل لقطع أغلال العبرانيين .

وعند قمـــة جبل حوريب ، وســـط البروق والرعود ، وعلى مشهد البحر الهـــائج والصحراء الصموت ، تأمل طويلا ، فى عزلته بعيدا عن البشر ، مشروعاته الواسعة (٢٣) ؛ وفى النهاية رجع الى أخوانه ودعاهم للهروب ، وتذرع فى ذلك عند فرعون بأنهم سيقدمون أضحية فى الصحراء: « فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم فى هذه الأرض، فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا ، لاننـــا انمـــا نذبح رجس المصريين للرب الهنا ، أن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا ؟ » (٢٤) .

وتردد الملك : هل يعطى الاذن المطلوب منه أم يرفضه ، هل يخفف من شقاوات العبرانيين أم يضاعف منها ، ويتأرجح الملك بين هذا الموقف وذاك تبعا لدرجة الفزع الذى ينتابه كلما توالت الكوارث التى كانت تفكك وتدمر دولته * وعلى الدوام فان افكار الانسان المسبقة وخرافاته تربط أقداره بنظام الســكون .

ولقد وردت فى ذلك الجزء من الكتب المقدسة الذى تناول هذه الفترة وقائع كثيرة ، لــكنها برغم خروجها عن كل مألوف ، تتوافق مع روايات المؤرخين الدنيويين (٢٥) ومع الحالة الراهنة لهذه البلاد ؛ فلا يزال الحواة

---

(٢٣) نجد فى حياة محمد [ص] خصوصية مماثلة ، فقد كان ينشد العزلة فى غار فى جبل حراء ، ويمضى هناك خمسة عشر يوما (كذا!) فى حياة العزلة قبل أن يعلن نبوته . وليست هذه وحـــدها فقط هى نقطة التشابه التى نجدها بين هذين المشرعين (كذا!).

(٢٤) سفر الخروج ، الاصحاح الثامن ، الآيتان ٢٦و٢٧ .

* بسبب غضب الرب عليه لرفضه السماح بخروج بنى اسرائيل من مصر كما يشرح ذلك سفر الخروج . (المترجم).

(٢٥) هيرودوت ، ديودور .. الخ .

هناك حتى اليوم يأتون مع الثعابين بأشياء خارقة تعد من قبيل المعجزات، فهم يستدعونها وينومونها ويخدرونها حتى يظن أنها قد ماتت ، ويعلمونها كذلك كيف تنهض واقفة وتتبع سيدها على هذه الحال ، ثم يخبئونها في ثنايا ثيابهم ويتلفعون بها حول رقابهم دون أن يخشوا أن تلدغهم ؛ولعل جراح مصر التي لا تندمل تتمثل في مياه النيل ، الصفراء والخضراء ، المعكرة والضارة في بعض الأوقات ، والتي يمكنها على نحو يكاد يكون ثابتا ، وحين تتغير أحوالها بغتة عاما ما ، أن تروع الشعب ، كما تتمثل في الحشرات من كل نوع ❋ تلك التي تكثر بوفرة في بعض الأحيان في مصر وبطريقة مفزعة في كل مكان تشتد فيه الحرارة والرطوبة(٢٦) ؛

❋ يتحدث سفر الخروج عن أن الرب قد ابتلى مصر بالضفادع التي كثرت حتى ملأت البيوت والأنهار ثم ابتلاها بعد ذلك بالبعوض .. الخ . (المترجم)

(٢٦) يمكنني أن أذكر هنا ، نقلا عن المؤرخين العرب ، سنوات كثيرة كانت فيها الضفادع والثعابين وفيرة حتى ظن الناس أنها تتساقط من السماء ، واكتفي بأن أورد هنا واقعة كان المقريزي نفسه شاهدا عليها ، وقد كتب في هذا الخصوص : أنه في العام ٧٩١ والأعوام التالية تزايد الدود الذي كان يهاجم الكتب والاقمشة الصوفية بشكل كبير في المنطقة المحيطة بمرعى الزيات الواقع خارج القاهرة بين المطرية وسرياقوس ؛ وقد أكد له رجل أهل للثقة أن هذه الحشرات قد قرضت له ١٥٠٠ قطعة قماش تشكل حمولة اكثر من خمسة عشر جملا ، وحين دهش المقريزي من حادثة شاذة لهذا الحد فقد اتخذ طبقا لعادته كل الاحتياطات اللازمة كي يتأكد من الحقيقة . فشاهد بعيني رأسه أن الخسارة التي سببتها الديدان لم يكن (تقديرها) مبالغا فيه ، وأنها دمرت في الجهات التي تحدث عنها كمية كبيرة من الخشب والأقمشة ، وقد شاهد بالقرب من المطرية جدران حديثة بها صدوع وتشققات طويلة وعميقة أحدثتها هذه « الحيوانات » الصغيرة . وفي نحو العام ٨٢١ تكررت هذه الكارثة في حي الحسينية الواقع خارج القاهرة ؛ فبعد أن أتت الديدان على كل مايؤكل وما يلبس الخ ، وهو ماسبب للسكان خسائر لا يمكن حسابها ، هاجمت البيوت وقرضت العوارض التي تصنع السقوف حتى أصبحت هذه العوارض جوفاء تماما ، وأسرع الملاك بهدم البيوت التي غزتها الديدان حتى كاد الحي أن يكون قد دمر دمارا تاما . ثم مدت هذه الحشرات نطاق دمارها حتى بلغت البيوت التي تجاور بابي النصر والفتوح . ولم تكن تلفياتها هناك أقل عنها في المدينة ومكة حيث قرضت الديدان سقف الكعبة ــ عن ترجمة ايتان كارتمير .

وفى الطاعون الذى يخرب هذه البلاد من وقت لآخر ، ويبـــدو فى معظم الأحيان وكأنما يصر على افنـــاء جنس دون آخـــر ، وفى الرعود والبرد (بفتحة على الراء) ، نادرى الحدوث حتى أنه لايسمع بحدوثهما هناك ، وقد لايحدثان سوى مرة واحدة على مدار قرن بأكمله ، فهما اذا حـــدثا لن يسببا ســوى الفزع الشديد ؛ وأخيرا فى أسراب الجراد التى تأتى من جوف الصحراوات ثم فى الظلام المؤقت الذى تسببه الدوامات الترابية التى ترفعها وتحملها رياح الخماسين ، وفى هذه الريح المؤذية نفسها والتى لايحس بها الناس فى كل أنحاء مصر ، دفعة واحدة (٢٧) .

فلنجنب اذن من وصـــف النكبات التى حلت بمصر تلك المبالغـــات الشاعرية المسموح بها ، لشخص يحلو له أن يسترسل فى وصف الظواهر التى استخدمها لتخليص شعبه وسوف نرى كل سطوة لها قد خبت ، ومع ذلك فان تتـــابع أحداث كثيرة غير مألوفة ، برغم كونها مع ذلك ظواهـــر طبيعيـــة ، مع مالها من نتـــائج على قلب فرعون القـــاسى ، يمكنه أن يعد برهانا قويا على حماية الرب .

فهذا الحـــاكم فى الواقع لم يستطع أن يقاوم شـــكاوى رعيته التى كانت تنسب آلامها ومصائبها ، بعد أن اصابها طاعون فتاك ، الى رقيات « الأنجاس » المؤذية فاعتقدت الرعية أن ابعاد هؤلاء ، سيجعل الآلهـــة أكثر لطفا بها : « فدعا ــ أى فرعون ــ موسى وهارون ليلا ، وقال قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو اسرائيل جميعا » (٢٨) .

---

(٢٧) عندما تهب الخماسين ، تصبح الشمس ذات صفرة كابية ، وتنحبس أشعتها ، وتزيد العتمة فى بعض الأحيان حتى يظن المرء أننـــا قـــد بتنا فى ليل شديد الحلكة ، على النحو الذى رأينا بأنفســـنا عنـــد منتصف النهار ، فى قنـــا ، احدى مدن الصعيد ، ويورد بعض المؤرخين العرب ، أنه عندما غزا السلطان سليم مصر ، فان السماء قد وهبته نفس « الخدمة » التى قدمتها لموسى ، فقد حجبت سحابات كبيرة ســـوداء ، مسيرة جيشه ، عن عدوه طومان باى .

(٢٨) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ٣١ .

مسيرة العبرانيين فى الصحراء
حتى المنطقة التى عبروا عندها البحر الأحمر

رحل الاسرائيليون من أرض جاسان ، ولا يمكن أن تكون هذه المنطقة سوى منطقة السبع أبيار الممتدة الى الشرق من مصر نحو سوريا ، لأننا نقرأ فى سفر التكوين (الاصحاح السادس والأربعين) أنه عندما غادر يعقوب ضواحى غزة كى يذهب الى مصر ، أرسل يقول ليوسف الذى كان يقيم فى ممفيس أن يأتى للقائه « فأرسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان ثم جاءوا الى أرض جاسان » ؟ وقد ترجم النص على هذا النحو فى التوراة اللاتينية ※ « وأرسل يعقوب يهوذا أمامه الى يوسف لينبئه بمجيئه لكى يأتى هو أمامه فى أرض جاسان » ؛ فقد كانت أرض جاسان اذن تقع على الطريق بين ممفيس وغزة ، وقد منحت للاسرائيليين بالطريقة نفسها التى منحناها بها ، أثناء اقامتنا فى مصر ، لثلاث قبائل عربية[٢٩] ، جاءت ، كما جاء العبرانيون ، من سوريا .

أما وقد عرفنا نقطة البدء ، فسوف يكون من السهل علينا أن نتتبع مسيرة الاسرائيليين ؛ كان موسى يريد أن يقودهم الى ضواحى جبل سيناء ، وكان واثقا أنه سيقابل بالترحاب من عرب مدين ، لأنه عاش طويلا بينهم ، وتزوج من (صفورة) ابنة كاهنهم يثرون ، وكان طريقه المباشر يقتضى المرور شمال البحر الأحمر ، لكنه خشى ان هو اقترب أكثر مما ينبغى من بلاد الفلسطينيين أن ننهض ضد الاسرائيليين حروب تجعلهم يأسفون لفراقهم مصر ويعتزمون العودة اليها (٣٠) ، ولذلك فقد

※ الـ Vulgate هى الترجمة اللاتينية للتوراة ، وهى المستعملة فى الكنيسة الكاثوليكية ؛ وقام بالجزء الأكبر من هذه الترجمة سان جيروم ، وقد قرر مجمع الثلاثين فى العام ١٥٤٦ أن يعد هذا النص المرجع الأوحد للتوراة . (المترجم)

(٢٩) وهذه القبائل الثلاث هي : ترابين (أو طرابين) الكبرى . عرب طحا (أو عرب طه ؟) ، والأناجبر ، وكان هؤلاء فى ذلك الوقت فى حرب مع باشا غزة الذى كان قد دبر لاغتيال كبار شيوخهم .

(٣٠) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٧ [وهذا هو نصها : « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب اذا رأوا حربا ويرجعوا الى مصر »] .

آثر موسى أن يسير بحذاء الساحل الغربى للخليج العربى * ، وتجنب بذلك ، فى الوقت نفسه ، أن يثير ، لأكثر من اللازم ، وفى وقت مبكر ، الريبة فى عزمه على الهروب ، لدى فرعون ، الذى أعطاه الاذن بأن يقود شعب الله فى الصحراء لتقديم الأضحيات ، ولهذا فان موسى ، كما جاء فى سفر الخروج نفسه قد أمر بأن يقوم العبرانيون فى مسيرتهم بلفة طويلة ، وصحبهم ، متخذين طريق الصحراء التى تقع بالقرب من البحر الأحمر (٣١) .

لكن الوضع الحالى للخليج العربى سوف يحول فى الواقع دون تصور كيف وجد الاسرائيليون أنفسهم على الفور على شواطئه عندخروجهم من أرض جاسان ، ان لم يكن المرء على بينة من ان الخليج ، فى الفترة المتأخرة التى نحن بصددها ، كان يمتد الى مسافة قريبة من منطقة السبع ابيار : وتأتى طبيعة الأرض بين هذه النقطة وبين مدينة السويس ، مع ترسيبات القواقع البحرية ، وعدد لا حصر له من ملاحظات جغرافية أخرى ، تضاف اليها شهادات القدماء ــ لتعطى لهذا الرأى ، على أقل تقدير ، اكبر قدر من الترجيح (٣٢) وهكذا يمكننا أن نتصور كيف

---

* البحر الأحمر .

(٣١) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١٨ [وهذا نصها : « فادار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف »] .

(٣٢) وهذا دليل جديد على صحة رأيى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر . انظر دراستى حول هذا الموضوع ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ [المجلد الثالث من الترجمة العربية] ولكننى اكتفى هنا بنقل هذه الفكرة عن نيبور Niebuhr ، والتى لم أكن أعرفها فى حينها ، والتى تتفق مع أفكارى : « ويقول الرحالة دانوا Danois : ان شاطىء البحر قد تغير هنا كما حدث له فى أماكن أخرى ؛ ويقابل المرء على كل ساحل الجزيرة العربية آثار انحسار البحر ، فعلى سبيل المثال مخا التى يقول عنها كل القدماء بأنها كانت ميناء العربية السعيدة (اليمن) تقع اليوم بعيدا عن البحر بفراسخ عدة ، ونرى اليوم بالقرب من الوحة وجدة تلالا كبيرة تمتلىء بالمرجان والقواقع من الأنواع نفسها التى نراها حية فى الخليج العربى (البحر الأحمر) ، وتوجد بالقرب من السويس تكلسات من كل هذه الأشياء . وقد رأيت على بعد ثلاثة أرباع الفرسخ نحو الغرب من هذه المدينة أكمة من القواقع الحية فوق صخرة لاتغطيها المياه الا بفعل حركة المد والجزر . وهى عالية لحد لاتبلغها معه مياه هذه الحركة ، اذن فمنذ الوفعدة من السنين كان الخليج العربى أكبراتساعا ، كما كان يمتد لأكثر من ذلك تجاه الشمال ، وبصفة خاصة ذراعه القريبة من السويس ؛ لأن الشط عند هذا الطرف من الخليج بالغ الانخفاض » .

سار الاسرائيليون ، فى ذلك الوقت ثلاثة أيام بالقرب من البحر الأحمر لكى يصلوا الى النقطة التى يحدد عندها الأثر طريقهم الذى شـقته لهم المعجزة بين الأمواج .

كان محطهم الأول يسمى سكوت ، وهى كلمة تعنى الخيمة ، ويمكنها ان تدفع الى الظن بأن هـذا الاسم لاينطبق أبداً على مدينة قديمة وانما على مجرد معسكر . وزيادة على ذلك ، فهناك خرائب عديدة على حواف الأرض التى هجرها البحر ، وهذه أو تلك يمكنها أن تنتمى الى سـكوت وفى اليوم التالى عسكروا فى ايتام عند طرف « البرية » (٣٣) .

ويدفعنى هذا الموقع لأن أجزم انه بير السويس (٣٤) ، الذى يقع فى الحقيقة ، وكما يبدو ، عند طرف الصحراء اذا كنت قادما من جهة السبع ابيـار ، لأن البحر ، باتخاذه شكل مرفق يتجه الى الغرب ، يبدو ،عند اتصاله بسلسلة جبل عتاقة العالية ، وكأنه يشكل النهـاية الجنوبيـة للصحراء : وفضلا عن ذلك ، فان المياه العذبة بالغة الندرة فى كل هذه المنطقة ، كما أن الآبار ، ولابد ، هى التى تحدد النقاط التى تحط عندها القوافل .

وبعد ذلك تحدث الرب الى موسى قائلا : « كلم بنى اسرائيـل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » (٣٥)

---

(٣٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ٢٠ .

(٣٤) بير السويس تعنى البئر الموجودة بمدينة السويس ؛ ويقع هذا المكان على مسافة نحو الفرسخ الى الشمال الغربى من السويس :وهو يشتمل على سورين صغيرين متلاصقين ، ومهشمين جزئيـا ، وينسـب بنـاؤهما الى السلطان سليم الأول . ووسط واحد من هذين السورين توجد بئر لمياهها مذاق غير مستساغ تفوح منها رائحة هيدروجين كبريتى. ولا تستخدمها فى العسادة الا الحيوانات ، ولـكننى شربت منها دون أن اشعر بقرف ، وكذلك فعلت السرية التى صحبتها معى . فقد وصلنا الى هنـا بالغى الظمأ وبعد نهار شديد القيظ ومسيرة مرهقة على الأقدام ، وقضينا منه الثمانية عشرة ساعة الأخيرة دون أن نشرب . ويلمح المرء خارج السور بقايا مجرى مائى كان يستخدم فيما مضى فى توصيل ميـاه البئر الى السويس .

(٣٥) سفر الخروج ، الاصحاح الرابع عشر ، الآية ٢ .

ومن السهل أن نتبين سبب هذا الارتداد الى الخلف ، فلعل فم الحيروث ان يكون مكانا حصينا به حامية مصرية . وفى الواقع فان المرء يرى أن الاسرائيليين لم يدخلوه قط ، وانما عسكروا تجاهه على شاطىء البحر ، وهنـــاك كان عليهم أن يعبروا ، وأمكنت حاجتهم للماء العذب أن تدفعهم إلى اجتياز هذه النقطة فى اليوم التالى ؛ وبمعنى آخر ، فعلى بعد نحو ثلاثة فراسخ من بير السويس ، مع الارتداد نحو وادى السبع أبيار ، نجد قصرا قديما وحصـــينا يسمى الها جيروث (العجرود) ؛ وفى النص العبرى نجد أن المقطع Phi (فى) ينفصل بصفة دائمة عنكلمة الحيروث، بل لقد حذف تماما فى الآية الثامنة من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد ✻ . ويعتقد أن كلمة Phi أو Pi (فى أو بى) كانت هى أداة التعريف فى اللغة المصرية ثم ظلت كذلك فى اللغة القبطية . اذن فقد كأن المحط الثالث يسمى هاهيروث ؛ وهــذا التشابه مع كلمـــة هاجيروث (العجرود) لابد فى رأيى أن يسترعى الانتباه .

عبور البحر الأحمر

تجاه الهاجيروث ، على وجه التقريب ، تكونت نحو الجنوب الشرقى، كتلة الرمال التى اقتطعت من البحر الأحمر هذا الحوض الواسع الــذى نجده اليوم الى الشمال من هذا البحر . والذى لاتزال تربته ، وهى أدنى بكثير من أدنى حركات المد والجزر ، تحمل كل الخواص الدالة على اثر المياه ، ومع ذلك فقد كان من الضرورى ، قبل أن تكون هذه الــكتلة من الرمال قــد ارتفعت لحد يكفى لصنع بحيرة من الطرف الشمالى للخليج العربى ، أن يتبقى فى هذا المــكان مستنقع ظل الخوض فيه مستحيلا ، لوقت طويل ، حتى عند حدوث نوبات المد الواطئة .

ومن المحتمل أن يكون الاسرائيليون قــد اتبعوا موسى عنــد هذه المخاضة ؛ فهــذا الرجل الشهير ، الذى تربى على حكمة وعلوم المصريين، والذى لاذ لوقت طويل بشواطىء البحر الأحمر ، كان يعرف امكانيةعبورها

✻ وتقول هذه الآية : « ثم ارتحلوا من أمام الحيروث وعبروا وسط البحر الى البرية .. الخ » .

وهنا نلاحظ غياب كلمة فم التى يشير اليها المؤلف بالمقطع فى أو بى الوارد فى الآية الأولى منالاصحاح الرابع عشر منسفر التكوين (المترجم)

سيرا على الأقدام من عند هذه النقطة ، فى حين كان على عبيد بؤساء ، غارقين فى أحط درجات الجهالة ، والذين لم يخرجوا قط من مصر من قبل ، أن يعتقدوا ، عند ظهور الجيش المعادى من جانب ، ووجود البحر من الجانب الآخر ، ان خط الرجعة قد قطع عليهم (٣٦) ؛ ويورد فلافيوس جوزيف (٣٧) أن الاسرائيليين كانوا محصورين بين الجيش المصرى والبحر وصخور وعرة ؛ ويتفق هذا الوصف تماما مع الوضع الذى أنسبه للجيش الاسرائيلى ، اذ أن سلسلة الجبال التى يلمحها المرء الى الجنوب تتوغل فيما يبدو حتى الشط .

ولقد كان مع فرعون ، فى جيشه ، دون ريب ، أشخاص كثيرون ، لم يكونوا ليجهلوا النقاط التى يمكن اجتياز البحر عندها ، ومع ذلك ، فاذا اكتفى فرعون بأنه قد أصبح على مرأى من الاسرائيليين ، فقد كان من الطبيعى للغاية ان ينشد الراحة للفرق العسكرية التى أرهقتها مسيرة لابد انها كانت بالغة التعجل دون أن يخشى ، مجرد خشية ، أن يتمكن هؤلاء البؤساء الشاردون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، من الافلات منه ؛ أما موسى ، فقد أفاد من الضباب أو دوامات الرمال التى يتحدث عنها الكتاب المقدس ويسميها « غبارا » ليخفى مسيرته عن العدو ، كما امكنه ان يستغل نوبة المد الوطيئة لكى يخوض البحر على رأس العبرانيين . وقد اعترض بعض بأن عدد هؤلاء كان كبيرا لحد لا يمكنهم من اجتياز البحر فى تلك المسافة من الزمن ، التى تفصل بين حركة مد وأخرى ؛ ومع ذلك فلابد ان نتوخى الحذر عند وقوفنا على روايات المؤرخين ، عندما يحتمل أن تكون هذه قد جاءت متأثرة بفعل الكبرياء القومى (٣٨) . وفى هذا الصدد ، على سبيل المثال ، فان مانعرفه عن طبيعة الصحراء والقبائل التى تسكنها ، يحملنا على الاعتقاد أن بعض اليهود ، من أولئك المتحمسين للغاية لمجد أمتهم ، سوف يستبيحون لأنفسهم ، فى الأصحاح الأول

---

(٣٦) كذلك توجد فى البحر الأحمر ، تجاه السويس ، مخاضة يتردد عليها البدو ، وتجهلها غالبية سكان مصر .

(37) Antiquités Judaïques, liv. II Ch, 6.

(٣٨) فلنستبدل ، على سبيل المثال بكلمة ملك كلمة شيخ ، عندئذ سوف يمكننا أن نتصور كيف يستطيع يشوع أن يهزم فى معركة واحدة ٣١ ملكا (أنظر سفر يشوع) .

من سفر العدد واحدة من هذه التحريفات التى يعترف الكرادلة والمجامع المقدسة بامكانية وجودها فى الأسفار الخمسة. (٣٩) ؛ وتكفى ظروف نشر هذه الأسفار نفسها لتوليد الشكوك ، ان لم يكن بخصوص الوقائع الأساسية ، فعلى الأقل بخصوص التفاصيل ، لاسيما عندما يتعلق الأمر، كما هو الحال هنا ، بدقة العدد ؛ فمن المعروف فى واقع الأمر أن كتاب الشريعة قد نشر لأول مرة فى أرض مواب « فى عبر الأردن، فى أرض مواب ابتدأ موسى يشرح هذه الشريعة » (٤٠) . اى بعد أربعين عاما من خروج العبرانيين من أرض مصر (٤١) ، ولم يكن قد ظل على قيد الحياة ، عندئذ ، فى كل اسرائيل ، ممن شهدوا الوقائع التى وردت بالأسفار (الخمسة) سوى اثنين هما : يشوع بن نون وكالب بن يفنة (٤٢) ، اللذان كانا متعاونين على الدوام مع موسى (٤٣) الذى باركهما وجعل منهما وارثى سلطته ، لقد كان الأبناء الذين لم يكونوا بعد يعرفون كيف يميزون أن يتبصروا الخير والشر ، حين كان آباؤهم يعسكرون فى صحراء فاران ، كانوا — وحدهم — الذين نالوا من الرب الاذن بدخول

---

(٣٩) عندما كان مصلحو القرن السادس عشر يسعون لاحراج بلاط روما بأن يجابهوه على الدوام بالكتب المقدسة ، كان رجال الكنيسة ، من حائزى ثقة البابا والمقربين اليه يقولون بصوت عال : ان هذه النصوص تستمد قداستها من تبنى الكنيسة لها ؛ ولم يقتصر التشيع لهذه الفكرة على رجال خاملى الذكر، بل ان قاصدا رسوليا فى مجمع الثلاثين ، هو الكاردينال وارمى Warmie لم يخش من مغبة أن يعلن فى مؤلف مطبوع انه لو لم تكن الكنيسة قد احتضنت الكتاب المقدس وبشرت به كمشروع كنسى لما استحق هذا الكتاب الكثير من الاعتبار أو طبقا لنص كلماته : « ذلك انه من المؤكد أن مؤلفنا (الكتب المقدسة) هذا كان سيغدو عملا ضئيل الأهمية ، لولا أن سلطة الكنيسة قد علمتنا أن هذه الكتب المقدسة كتب أصيلة » ؛ وفى النهاية ، فان أكثر آباء الكنيسة علما من امثال اوريجين وسان أوغسطين لا يأخذون بالمعنى الحرفى للتوراة على اطلاقه ، ويرون فيما ورد فيها رموزا واستعارات .

(٤٠) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٥ ؛ والاصحاح ٢٩ الآية الأولى ، الاصحاح ٣١ ، الآيتان ٩ ، ٢٤ .

(٤١) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣ .

(٤٢) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .

(٤٣) سفر العدد ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٦ .

الأرض الموعودة (٤٤) ، فهل كان بمقدور هؤلاء ، وقد أصبحوا رجالا ، أن يعرفوا حقيقة اعداد قبائلهم عندما غادرت مصر ، وأن ينحو جانبا شهادة رجل كان هو نبيهم ، وفى الوقت نفسه مشرعهم وحاكمهم المطلق المرهوب (؟) أولسنا نعرف بأية سهولة يتبنى الرجل المتمدين ، كما يفعل الرجل المتوحش ، اكثر المبالغات بعدا عن العقل اذا كان الأمر يتعلق بقوة أمته وعدد من هزمتهم من الأعداء ؟ وأخيرا ، فان شريعة موسى فى أورشليم كما فى السامرة قد هجرت فى غالبية الأوقات من أجل عبادة آلهة مزيفة ، ولقد ضاعت الكتب المقدسة الأولى ثم عثر عليها من جديد ، واستوجب الأمر مرات عديدة تجديد الشعب اليهودى عهده مع الرب .لذلك فلا ينبغى أن يخالجنا الشك فى أن بعض تغييرات طفيفة قد حدثت للأسفار، وأن بعض الأخطاء فى الأرقام على وجه الخصوص تتسرب اليها حين يكون للكبرياء القومى بعض المنفعة من وراء الترويج لها (٤٥) .

وبمجرد أن علم الفرعون أن العبرانيين قد اجتازوا البحر ، أخذ فى ملاحقتهم ، واقتفت قواته ، مدفوعة بالحماسة التى تؤججها خطواتهم دون أن تلقى بالا لمد البحر الذى لن يدع لها الوقت الكافى لبلوغ الشط المقابل ، فأنقذ المد بعضا منهم وابتلع آخرين . وعلينا أن نضع فى الاعتبار تلك

---

(٤٤) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٣٩ .

(٤٥) حين تعبر الأعداد عن نفسها بالأرقام فمن الممكن أن تقترف أكبر الأخطاء من مجرد جرة قلم ، وخصوصا اذا كان لهذه الأرقام تشابه كبير فيما بينها ولها فى الوقت نفسه قيم شديدة الاختلاف . ويضاف الى أخطاء النساخ هذه خطأ من نوع آخر ؛ واذا شئنا على سبيل المثال أن نبين الى أى حد يمكن أن يؤدى سهو مترجم ما ، أو سعيه وراء كل ماهو عجيب أو غير مألوف ، الى تحريف مؤلف ما ، فلنفتح التوراة اللاتينية ، سفر الخروج ، الاصحاح الثانى والثلاثين ، وسنجد فيه أن موسى بعد حادثة عبادة العجل الذهبى قد أمر بقتل ٢٣ (ثلاثة وعشرين) ألفا من الاسرائيليين، فى حين نجد الأمر فى النص العبرى ، وفى الترجمة السبعينية يتناول ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وهو تقدير كبير مع ذلك ، وهناك خطأ آخر أكبر ، وهو الذى اقترفه المترجم نفسه حين قدر بـ ٥٠٠٧٠ (خمسين ألفا وسبعين) عدد سكان بيشان المضروبين بالموت عند عودة التابوت فى حين كان عليه أن يقول ان من بين هؤلاء الآلاف الخمسين هلك سبعون ، وقد نقلت هذه الأرقام (ثلاثة وعشرين ألفا ، وخمسين ألفا وسبعين) الى ترجمات أخرى نقلت عن التوراة اللاتينية ، ولعلها قد تذكر ذات يوم ، دليلا على دقة الأعداد ؛ وهذا مثال يوضح كيف يتخذ الخطأ بتكراره ، شكل الحقيقة.

الرياح القوية التى كانت تهب فى ذلك الوقت (٤٦) . وبذلك لن تعترينا الدهشة إذا قيل إن جزءا من المصريين قد ابتلعتهم الأمواج (٤٧) .

يبلغ المد عند السويس نحو المترين ؛ وفى أوقات العواصف ، حين تهب بشدة رياح الجنوب ترتفع لمدى يبلغ فى بعض الأحيان ستة وعشرين ديسيمترا ؛ وهذا اكثر من كاف لكى يغرق المد جيشا كبيرا ؛ فاذا كان جيش المصريين لم يهلك قط بأجمعه ، وهومايوضحه فيما يبدو صمت المؤرخين الدنيويين ، فيمكن افتراض ان هذا الجيش ، وقد أفزعه حجم الخسائر التى لحقت به ، ولأنه قد بدأ يخشى فى ذات الوقت أن يكتشف نفسه فى صحراء لايعرفها بالقدر الكافى ، لم يحاول قط ان يخوض البحر الأحمر عند نوبة المد المنخفض (الجزر) التالية .

وهكذا امكن الاسرائيليين ان يترنموا بهذا النشيد :

١ ــ « أرنم للرب فقد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر ؛

٢ ــ « الرب قوتى ونشيدى ، وقد صار خلاصى ، هذا الهى فأمجده ، اله أبى فارفعه ؛

٣ ــ « الرب رجل الحرب ، الرب اسمه ؛

٤ ــ « مركبات فرعون وجيشه القاهما فى البحر ، فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف ؛

٥ ــ « تغطيهم اللجج ، قد هبطوا فى الأعماق كحجر ؛

٦ ــ « يمينك يا رب معتزة بالقدرة ، يمينك يا رب تحطم العدو ؛

٧ ــ « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك ، ترسل سخطك فيأكلهم كالقش ؛ .

---

(٤٦) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢١ .

(٤٧) فى العام السابع من نشأة الجمهورية الفرنسية ، شاهدنا الجنرال بونابرت ، وهو عائد من عيون موسى ، يريد أن يعبر البحر عند المخاضة الواقعة قريبا من السويس بدلا من تلمس الخطوط الكنتورية لقمة الخليج ؛ وهو الأمر الذى يختصر طريقه لمسافة تزيد على الفرسخين؛ حدث هذا فى أول الليل ، وكان المد يعلو ، ثم ازدادت سرعة نوبار المد لدرجة لم يعد الانتظار معها ممكنا ؛ وتعرض الجنرال ومن معه لأشد الأخطار ، فى وقت كان معهم أدلاء من أهل البلاد .

٨ ــ « وبريح انفك تراكمت الميــاه ، انتصبت المجارى كرابية ، تجمدت اللجج فى قلب البحر ؛

٩ ــ « قال العدو اتبع ادرك أقسم غنيمة ، تمتلىء منهم نفسى ، أجرد سيفى، تفنيهم يدى ؛

١٠ــ « انفخت بريحك فغطاهم البحر ، غاصوا كالرصـــاص فى ميــاه غامـــرة ؛

١١ــ « من مثلك بين الآلهة يا رب ، من مثلك معتزا فى القداسة ،مخوفا بالتسابيح ، صانعا عجائب ،

١٢ــ « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض ؛

١٣- ترشد برأفتك الشعب الذى فديته. تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك؛

١٤ــ « يسمع الشعب فيرتعدون ، تأخذ الرعدة سكان فلسطين ؛

١٥ــ « حينئذ يندهش أمراء أدوم ، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة ،يذوب جميع سكان كنعان ؛

١٦ــ « تقع عليهم الهيبة والرعب ، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته ؛

١٧ــ « تجىء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك ، المكان الذى صنعته يا رب لسكنك المقدس الذى هيأته يداك يا رب ؛

١٨ــ « الرب يملك الى الدهر والى الأبد ؛

١٩ــ « فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه الى البحر ، ورد الرب عليهم ماء البحر ، أما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر . (٤٨)

هكذا كانوا يشكرون السماء على خلاصـــهم ، كانت مريم النبيـــة (أخت هارون) ، وكانت نساء اسرائيـــل ، وقد انقسمن الى جوقات ، يكررن على صوت دفوفهن :

« رنموا للرب فانه قد تعظم ، الفرس وراكبه طرحهما فى البحر ».

---

(٤٨) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات من ١ الى ١٩.

فلو شاءت بعض العقول المدققة ان تتبين معنى هــذا التعبير الذى جاء فى التوراة : « فدخل بنو اسرائيل فى وسط البحر على اليــابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم » (٤٩) لجاءها الرد بأن الأمر لايعدو ان يكون اسلوبا مجازيا للتعبير عن أنهم كانوا يعبرون النهر عند مخاضة، ولمــا لم يكن ينبغى لهم أن يبتعدوا لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ، فقد كانوا محصورين بفعل المياه فى مساحة بعينها كما لو كانوا بين بحرين . هكذا . ان ترانيم شاعر ما لا يصح أن تفسر بقدر أكبر من الصرامة ، كما أن الآية الخامسة من الاصحاح ١٥ والتى اوردناها من قبل ، تبين لنا كيف أن المصريين قــد سقطوا فى قاع البحر ، وليســت المياه هى التى عاودت سقوطها فوقهم (أو انطباقها عليهم) (٥٠) .

وقد احتفظ الأثر لدى العربان البدو بذكرى عبور البحــر الأحمر ، فنجد على شاطئه الشرقى — على بعد ثمانية عشر الف متر الى الجنوب من النقطة التى المفترض أن الاسرائيليين قد عبروها — عيون ميــاه تسمى حتى اليوم عيون موسى .

ويعتقد بوكوك Pococke ان العبرانيين قــد خاضوا البحر تجــاه هذه العيون ، ولا يعطى سندا لقولته هذه الا أن هناك أثرا عن ذلك لايزال موجودا لدى البدو ؛ ومع ذلك فلو كان علينا أن نصدق فى هذا الصــدد ما يقول سكان الصحراء .

لتحدد المسلك المؤدى إلى موقع العيون الذى نسالهم عنه .

ويرجع الدكتور شو Shaw بنقطة العبور هذه الى الجنوب بدرجة ابعد ، ويجعلها محددة تجاه وادى التيه ، وهناك من المؤلفين من يعتقدون أن بحرا واسعا وعميقا هو الذى تتجلى فيه اكثر من غيره قدرة الاله .

---

(٤٩) سفر الخروج ، الاصحاح ١٤ ، الآية ٢٢ .

(٥٠) يترتب على أخذنا تعبيرات الشعراء الأقدمين بمعنــاها الحرفى ان يختلط بالتاريخ كثير من الخرافات البعيــدة عن كــل عقل؛ ومع ذلك فليست هذه هى غلطة الشعراء بقدر ماهو خطأ تفكيرنا ؛ فعبارات مثل : امفيون الذى بنى طيبة على انغام قيثارته ، وأريحا التىانهدمت علىصوت قرع دفوف بنى اسرائيل ، انما هى عبارات من السهل أن نعطيها المعنى الصحيح لها بقدر ماهو سهل ان نشرح هذا البيت من الشعر للشــاعر الفرنسى بوالو Boileau : كونديه ، هذا الذى يكفى مجرد ذكر اسمه ، لاسقاط الحصون .

وفى مقابل ذلك ، فهناك آخرون يظنون أن بنى اسرائيل لم يعبروا البحر من شاطىء لآخر ، وانما هم — بعد أن دخلوا سريره (مجراه) فى حالة المد المنخفض ، انسحبوا نحو الأرض مع بدء ارتفاع نوبة المد ، مواصلين مسيرتهم فوق منحنى بيضاوى الشكل ، من جهة المياه ؛ وهذا رأى لاينهض على أساس ، وانما يبرهن فقط كيف يصبح المرء عرضة للخطأ حين يعمل محض خياله ، وفى جهل تام بالمواقع .

وهناك آخرون كثيرون كانوا أكثر توفيقا فى شرحهم عبور البحر الأحمر عن طريق المستنقعات ؛ فيتحدث أوزيب (٥١) Eusèbe * عن شخص يدعى ارتابانوس Artapanus قد أورد هذا الرأى ناسبا اياه لكهان ممفيس ؛ وعندما خشى المؤرخ يوسيفوس أن تبدو روايته عن عبور البحر الأحمر بعيدة عن التصديق لدرجة كبيرة فقد قرر أن الشىء نفسه قد حدث للمقدونيين عندما عبروا بحر بامفيلى Pamphylie ** تحت قيادة الاسكندر ، وأضاف « ومع ذلك فاننى اترك لكل امرىء أن يحكم على الأمر كما يشاء » . وهذا الاعتراف من جانب أحد الأحبار ، وواحد من أكثر أعضاء الاكليروس اليهودى علما ، انما هو اعتراف ثمين للغاية لأنه يبين لنا ما كان عليه عندئذ رأى هذه الهيئة الدينية ؛ ولذلك فان لوما شديدا قد وجه الى يوسيفوس بسبب صراحته هذه ، من جانب أناس ظنوا ، برغم كونهم مسيحيين ، أن عليهم أن يبدوا أكثر منه فى يهوديته ، وهو مايستحيل على المرء أن يأخذ به عند قراءته لهذا المؤرخ ، ومن بين المحدثين ، نجد نيبور Niebuhr ولوكليرك le Clerc يحددان السويس موقعا لهذا الحدث بسبب المخاضة التى تقع أمام هذه المدينة ، ولم يك بمقدور هذين الرجلين أن يعتقدا ، مثلى ، أن العبور قد تم لأبعد من ذلك ، قليلا ، نحو الشمال ، وعند نقطة لايشغلها البحر اليوم ، لأن

---

(51) Proepar, evang. lib IV, Cap. 17.

* أما أوزيب فهو مطران قيسارية ، وله مؤلف ضخم عن التاريخ الكنسى ، (٢٦٥ الى ٣٤٠ م) (المترجم)

** احدى مقاطعات آسيا الصغرى قديما وهى اليوم مقاطعة اضاليا ، وهو هنا يشير الى خليج يحمل نفس الاسم . (المترجم)

الحدود القديمة للبحر الأحمر لم تكن معروفة لهما ، ولأنه لم تكن قد حدثت بعد أية عمليات تقدين فى هذا الجزء من البرزخ ؛ وفوق ذلك فهذان الرايان لا يختلفان فيما بينهما الا بقدر طفيف للغاية حتى ليمكن للمرء أن يتبنى ، دون تفرقة، هذا الراى او ذلك، فلقد كان موقع حصن هاجيروت أو الحيروث الذى ضرب أمامه الاسرائيليون خيامهم ، بالاضافة الى أن البحر فى الفترة المتأخرة كان فى الأرجح اكثر عمقا تجاه السويس مما هو عليه اليوم — كان هذا كله هو الذى قد حسم اختيارى (٥٢) .

وهكذا رأينا ، ماهو ، فى نظرى، التفسير الأكثر طبيعية لعملية عبور البحر الأحمر ، فأما أولئك الذين يضعون الحدث فى صف الخرافات فسوف يتفقون معنا ، على أقل تقدير ، أن يحتمل أن يكون الأمر قد حدث على هذا النحو ، وأما أولئك الذين يعتقدون بصحة وقوعه فلا تثريب عليهم ، دون ريب ، ان لم يجدوا من الضرورى أن ينقلب نظام السكون كى نتعرف على قدرة الله فى تخليص العبرانيين ، وفى الحاق الخسارة بالمصريين .

المياه المرة تصبح مياها عذبة

« ثم ارتحل موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور، فساروا ثلاثة ايام فى البرية ولم يجدوا ماء ، فجاءوا الى مارة ، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر ، لذلك دعى اسمها مارة ، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ، فصرخ الى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا » (٥٣) .

لو أن موسى قد كان يعلم خاصية هذا الشجر أثناء هربه الأول الى الصحراء لظل هذا السر محفوظا لديه (أو معروفا منه) ، ولوجدناه

---

(٥٢) لابد أن البحر قد كان فى ذلك الوقت ، أمام السويس ، اكثر عمقا مما هو عليه الآن ، مادامت كتلة الرمال التى تحول دون امتداده نحو الشمال بحوالى خمسين الف متر لم تكن بعد عالية بالقدر الذى يكفى لابقائه داخل حدوده الحالية . انظر دراستى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر ، الدولة الحيثة ، المجلد الأول ، ص ١٨٧ . (المجلد الثالث من الترجمة العربية) .

(٥٣) سفر الخروج ، الاصحاح ١٥ ، الآيات ٢٢ الى ٢٥ .

عند البدو الذين لهم بلا جدال مصلحة كبيرة فى جعل الماء صالحا فى صحراء تنقصها المياه الصالحة بدرجة كبيرة ؛ اذن فعلينا فى هذا الصدد أن ننقل ماقاله المؤرخ يوسف* واليكم نص ماقاله حول هذه القضية (٥٤) ؛ وبعد أن مشى الاسرائيليون طويلا ، وصلوا عند حلول المساء الى مكان يسمى مارا ، وسمى كذلك بسبب مرارة ميـاهه ، وحيث كانوا منهكين للغاية فقد وقع اختيارهم على التوقف هنـاك فى الوقت الـذى كانت تنقصهم فيـه المؤن ، ذلك لأنهم وجدوا هناك بئرا جعلتهم يأملون ، برغم انها لم تكن لتستطيع ان تفى بحاجة مثل هذه الألوف العديدة ، فى بعض الانفراج فى احتياجاتهم ، كما ان هذه البئر قـد واستهم ، لاسيما وقـد قيل لهم انه لا توجد آبار مطلقا على طول طريقهم. لكن هذه المياه جاءت مرة حتى انه لا البشر ، ولا الخيول ، ولا الحيوانات الأخرى ، أمكنهـا أن تشرب منها . يالها من مفارقة تدعو للاسى ، قـد جعلت الشعب كله فى حالة من اليأس ووضعت موسى أمام صعوبة اليمة وعجيبة ، فالأعداء الذين عليه أن يهزمهم هذه المرة ليسوا من أولئك الذين يمكن دفعهم بفعل بذل سخى ؛ انهم الجوع والعطش اللذان قـد جعلا ، وحدهما ، هـذه الألوف كبيرة العدد من الرجال والنساء والأطفال يشرفون على الهلاك ؛ وفى الوقت نفسه لم يكن موسى ليعرف نصيحة ما يأخذ بها ، واستشعر هو آلام الآخرين جميعا باعتبارها آلامه الخاصـة اذ كان الجميع يلتجئون اليه ، فالأمهات يستعطفنـه أن يكون شفوقا بأطفالهن ، والأزواج يلتمسون منه أن يحنو على زوجاتهم ، وكل امرىء يتضرع اليه كى يبحث عن بعض علاج لهـذا الألم العظيم . وبينما هو فى مثل هذه الحاجة الماسة اتجه الى الله يطلب عفوه ورحمته وأن يحيل بقدرته وفضله هذه الميـاه المرة الى ميـاه حلوة ، فأنبـأه الله انه قـد منحه هذا الفضل ؛ عندئذ اخـذ موسى قطعـة من الخشب ، وشقها الى اثنتين ، وبعد أن القى بها فى البئر قال للشعب ؛ ان الرب قـد استجاب لدعواته ، وانه سينزع عن هذه المياه كل مافيها من مرارة أو طعم غير مستساغ ، شريطة أن ينفذوا ما يأمرهم به . ثم طلب اليهم ماينبغى ان يعملوه فأمر أشدهم قوة وامتنهم بنيـة بأن يسحبوا جزءا كبيرا من ماء البئر مؤكدا لهم أن المـاء الـذى

---

(54) Antiquités Judaïques, liv. III, Chap. 1.

* يوسف أو جوزيف أو يوسيفوس ، وهى طرق ثلاث لـكتابة اسم واحد يشير الى المؤرخ نفسه (المترجم) .

نسيتبقى سيكون صـــالحا للشرب . فاطاعوه ، فجنوا بعد ذلك ثمرة الوعد الذى أعطاه لهم » ـــ عن ترجمة المسيو أرنو دانديى Arnaud d Andilly

هذا اذن هو تفسير المعجزة ؛ فمن المعروف انه بافراغ احدى الآبار، صبح الميـــاه التى تتبقى عادة افضـــل بكثير ؛ وتتطابق هذه الملاحظة مع قوانين الطبيعة ، وفضلا عن ذلك فقد وآتتنا الفرصة أن نكررها مـــرات عدة فى مصر ؛ ففى المناطق الصحراوية التى اقمنا فيها بعض التحصينات، اصبحت الميـــاه المائلة للملوحة ، والنتنة فى معظم الأحيان ، افضل على الدوام بعد مرور بعض الوقت على اغترافها .

عن السحاب وعمود النار
وعن بعض الظواهر الأخرى المثيرة للانتبـــاه

هنـــاك معجزة اخرى اخذت تتبدى للعبرانيين منذ خروجهم من مصر، وظلوا يحظون برؤيتها بعـــد عبورهم البحر الأحمر ؛ لقـــد بدا الرب لهم نهارا فى صورة سحاب وليلا فى شكل عمود نار ؛ وعلى هذا النحو سار فى مقدمتهم ليرشدهم الى طريقهم . . ثم يجلس فوق مظلة حين يعسكرون. اليس ثمة احتمال فى وجود بعض اخطاء ، او سوء فهم ، من جانب الشراح المتبحرين فى التوراة ؟ وهل يمكن أن يستدعى موسى مثل هذه الشواهد عند مسيرة العبرانيين ، ليقدمها كمعجزة ؟ الأمر المؤكد هنا هو أن القوافل تستخدم فى بعض الأحيان ، اثناء سيرها الليلى ، شعلات ضخمة يحملها الأدلاء يسبقون بها الموكب ، واليكم حول هذا الموضوع ، نصين ننقله عن العـــدد ٢٤ من بريد مصر Courrier de l'Egypte ، وهى الصـــحيفة التى كانت تطبع فى القاهرة (اثناء الحملة الفرنسية) :

« فى العاشر من نيفوز ، رحلنا من السويس ، واتجه الجزء الاكبر من القافلة نحو العجرود ، ومضى القائد العام وفى صحبته الجنرالات برتييه Berthier ، ودمارتان Dommartin ، وكافاريللى Cafarelli ، والمواطنان مونج Monge وبرتولليه Berthollet ـــ الى الطرف الشمالى الأقصى للخليج ، كى يتبينوا على الطبيعة ما ان كانت توجد أى آثار لتلك الترعة التى ترسمها الخرائط باعتبـــارها كانت تقيم اتصـــالا بين النيـــل والبحر الأحمر ، وفى الواقع ، فقـــد تم العثور على مثل هذه الآثار ، وكان اول

من تبينها هو الجنرال بونابرت نفسه . ثم سارت الفرقة لمسافة أربعة فراسخ فى مجرى الترعة نفسها ؛ وفى الوقت نفسه ، فمع السير فى هذا الاتجاه ، ابتعدت هذه الفرقة كثيرا عن العجرود ، حيث كان عليها ان تعود لتلحق ببقية القافلة حيث الماء والمؤن والأطعمة ، كان الليل يقترب ، وكان موقع العجرود بالنسبة لها غير معروف ؛ وتعرض من فى الفرقة لخطر أن يضلوا الطريق .

وصحب كل من الجنرالين بونابرت وبرتييه رجلا فوق حصانه ، وسارا فى المقدمة ، واتجها بأقصى سرعتيهما نحو النقطة التى كانت تغيب عندها الشمس ، وساقهم هذا الاتجاه لحسن الحظ الى العجرود ، وأمر القائد العام باطلاق قذيفة مدفع ، وباشتعال النار فوق أبراج القصر ، وبأن توضع فوق بعض النقاط العالية من الطريق الذى انتهى هو من اجتيازه مشاعل (او فوانيس) من تلك التى تتزود بها القوافل على الدوام لتكون علامات على الطريق اثناء الليل ؛ وهذه الشعلات بالغة البساطة ، فالشعلة منها اسطوانية الشكل ، توضع بها نار قوية ولامعة ، اذ توقد بها قطع بالغة الجفاف من خشب السنط ؛ وهذه المشاعل مثبتة فى الجزء العلوى منها بعصا يصل طولها خمسة الى ستة اقدام ، وتغرس فى الأرض حين يراد التوقف ؛ فاذا شاءت القافلة ان تسير خلال الليل ، يمشى فى مقدمتها رجال عديدون يحملون شعلات مماثلة ، ويحرصون على بقائها عالية ليلمح كل مسافر نارها .

وعند المساء ، التأم شمل الجميع (٥٥) .

سيقال ، بلا جدال ، ان ليست هذه قط شعلات تماثل تلك التى تكون السحاب وعمود النار اللذين تشير اليهما التوراة ، ذلك اننا نقرأ فى التوراة ، فى الآية ٢١ من الاصحاح الثالث عشر من سفر الخروج أن الرب كان يسير امام العبرانيين . ومع ذلك فهل يتحتم علينا أن نأخذ هذا التعبير بمعناه الحرفى فى حين يعرف المرء أن شعبا شديد التدين

---

(55) Cowrrier de l'Egypte, No. 24, le 27 nivòse an 7. de la Republique Française.

يجعل كل شيء من صنع الرب ، وان الاسرائيليين ، بشكل خاص كانوا يتقبلون في الشعر ، وفي النثر ذاته ، كل المبالغات التي تتجاوز كل حد؟ ولدينا نحن ، حيث تضع اللغة الكثير من التحفظ والتعقل أو القيود ، ألسنا نجد أناسا يتسمون ملائكة أو كائنات مقدسة أو مخلوقات سماوية؟ لنضع انفسنا لحظة في مكان العبرانيين ؛ أجنبي يسير على رأسنا ليهدينا السبيل في صحراء مجهولة منا ، الشعلة التي يحملها في الهواء تلقى خلال النهار دخانا ، وخلال الليل لهيبا يهتدى على ضوئه رجالنا . الأمر المؤكد أن لن يكون ثمة ماهو أبسط ولا أيسر من أن نقص ذلك بأسلوب يخلو من الشاعرية . ومع ذلك فعلينا الا نواجه الأمر في ذاته ، ولنتدبر نتائجه ، وعندئذ سوف نغير من لغتنا ، ولسوف نقول : كيف هبط علينا هذا الرجل في الوقت نفسه الذي نحتاج اليه فيه أشد الاحتياج؟ كم نحن محظوظون أن وهبنا اياه ! **انه رجل مبارك ، انه ملاك ، انه اله !**

وحيث يتعاظم كل شيء ، بالنسبة نفسها في لغة الحماسة ، تتحول الشعلة الى عمود من النار ، الى عمود من السحاب ، الى مجد الرب (٥٦) .

ومما يدل على أن موسى لم يكن يريد أن يقدم هذه الواقعة باعتبارها أمرا خارقا للطبيعة انه يخبرنا بأن حماه ، هذا العربي من مديان (مدين)* هو الذي قاد الاسرائيليين ، واليكم مانقرؤه حول هذا الموضوع في سفر العدد ، الاصحاح العاشر :

آية ٢٩ : « وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المدياني ، حمى موسى ، اننا راحلون الى المكان الذي قال الرب أعطيكم اياه ، اذهب معنا فنحسن اليك ، لأن الرب قد تكلم عن اسرائيل بالاحسان ؛

آية ٣٠ : « فقال له لا أذهب ، بل الى أرضي والى عشيرتي أمضي ؛

آية ٣١ : « فقال لا تتركنا **لأنه بما انك تعرف منازلنا في البرية تكون لنا كعيون ؛**

---

(٥٦) أطلق القديس يوحنا على مطارنة الكنائس الآسيوية السبعة اسم ملائكة هذه الكنائس : « وقال ابن الرب اكتب الى ملاك كنيسة أيفيزوس » .

* وهي احدى المدن الآيونية على بحر أيجه . (المترجم).

آية ٣٢ : « وان ذهبت معنـا فبنفس الاحسان الذى يحسن الرب الينا نحسن نحن اليك ؛

آية ٣٣ : « فارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة ايام وتابوت عهـد الرب راحل أمامهم مسيرة ثلاثة أيام ليلتمس لهم منزلا » .

وبالتـأكيد ، فلو أن ملاك الرب كان حقيقة هـو الذى يمشى أمام العبرانيين لـكان موسى فى غير حاجة الى حميه ليكون مرشداً لهم ولما كان وعده بالـكثير من « الاحسان » ـ أى الثروات ـ ليحمله على البقاء بالقرب منه .

أما هذه العبارات : **ان الرب أو ملائكته كانوا يقودون جيش اسرائيل فى شكل دخان أو لهيب** فيقتصر معناها على أن تابوت العهد كان محمولا فى مقدمة المسيرة (٥٧) .

اما هذه الوسيلة فى ارشاد الفرق او الجيوش ، عن طريق اشارات نارية توضع اثنـاء نوبات الراحـة فوق خيمـة القـائد ، فأمر لايخص العبرانيين وحدهم . فمن المعروف أنها كانت مستعملة عند الفرس ، كما اننـا سوف نقرأ هنـا باهتمام النص التـالى عنـد كينت ـ كورس . Quinte - Curce ✻ بسبب تشابهه الشديد مع ما جاء بالاصحاحين التاسع والعاشر من سفر العدد . يقول كينت كورس عنـد حديثـه عن

---

(٥٧) التابوت عبارة عن صندوق من خشب السنط تكسوه صفائح من ذهب ، ويبلغ طوله ذراعين ونصف الذراع ، وعرضه ذراعا واحـداً ونصف الذراع وبارتفاع يماثل عرضه ؛ وقد حفظت فيه ألواح الشريعة؛ ويسمى غطاء التابوت **المـائدة** ، ويعلوه اكليل من الذهب ، يشكل جناحاه المبسوطتان مايشبه مقعـدين يفـترض أن تجلس عليهما ذات الرب غير المرئية ، سفر العدد ، الاصحاح السابع ، الآية ٨٩ . وكان جانبا التابوت، من ناحية الطول ، مزودين بحلقتين كانتا تدخل فيهما العصوان اللتـان تستخدمان فى حمله فوق الأكتاف ، ويمكننا أن نرى فى أطلس العصور القديمة ، اللوحة الثانية ، المجلد الأول ، الشكل ٤ ، رسما بارزا فى جزيرة فيله يماثل التابوت لدرجة كبيرة ، وهو ماسبق أن لاحظه من قبل المسيو لانكريه Lancret فى دراسته عن وصف جزيرة فيله ، ص ٢٧ .

✻ مؤرخ لاتيني عاش في القرن الميلادى الأول وله مؤلف كبير عن تاريخ الاسكندر . (المترجم) .

الاسكندر : « وعندما كان يريد أن يفض معسكرا ، كانت الطبول تعطى الاشارة ، ومع ذلك ، فحيث كانت الضجة فى معظم الأحيان تحول دون سماع دقات الطبول ، فقد كان الاسكندر يأمر بأن توضع على خيمته عصا يستطيع أن يلمحها الجميع وأن ترفع فوقها شارة الرحيل : **وكانت هذه نارا اثناء الليل ودخانا اثناء النهار » (٥٨) .**

ونقرأ فى الاصحاح التاسع من سفر العدد :

آية ١٥ : « وفى يوم اقامة المسكن غطت السحابة المسكن خيمة الشهادة ، وفى المساء كان على المسكن كمنظر نار الى الصباح ؛

آية ١٦ : « هكذا كان دائما ، السحابة تغطيه ، ومنظر النار ليلا ؛

آية ١٧ : « ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة كان بعد ذلك بنو اسرائيل يرتحلون ؛ وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو اسرائيل ينزلون » .

وفى الاصحاح العاشر :

آية ١ : « وكلم الرب موسى قائلا ؛

آية ٢ : « اصنع لك بوقين من فضة ، مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ؛

آية ٣ : « فاذا ضربوا بهما يجتمع اليك كل الجماعة الى باب خيمة الاجتماع » .

ولا يمكن المرء بالتأكيد أن يجد تشابها اكبر بين عادات الأمتين فيما يتصل بمسيرة فرقتهما .

معجزات اخرى كثيرة يمكن تفسيرها بشكل طبيعى مماثل لما تم مع المعجزات السابقة . كذلك فان السمان ، الذى يكون منهكا بعد رحلة طويلة يتساقط الكثيرون منه فى الأيدى عند شاطىء البحر ، فى الفصول

(58) De Rebus Gestis Alex, Lib, V. Cap. 7.

نفسها التى كان العبرانيون يستخدمونه خلالها طعـاما لهم . ونقرأ عنـد ديودور الصقلى أن مصريين منفيين لادانتهم بالسرقة فى عهد اكتيزانيس، فى صحراء برزخ السويس ، كانوا يتغذون بالطريقة نفسها ، اما المن ، فما برح يحصد من شجرات لعلها كانت فى الماضى وفيرة العدد فى المناطق المحيطة بجبل سـيناء ، أما النـار اليونانية ، فهى مثال على أن الشرقيين قد عرفوا ، فى فترات سابقة ، كيف يشعلون النـار ، وكيف يستخدمونها على هذا النحو المخيف .

ومع ذلك فان كل هذه التفسيرات لا تتعـارض فى شىء مع الرأى القـائل بأن من المستطاع أن يكون الرب قـد جاء لمساعدة شعبه ؛ فهذا الاتفاق العارض او الفجائى لأحداث مواتيـة ، والتى ليس بمقدور أحد ان يكررها ، يمكن ان ينظر اليه باعتباره (فى حد ذاته) معجزة ، وفضلا عن ذلك فلا ينبغى أن نتوقف عند هذا الأمر اكثر من ذلك ، ولنصل مباشرة الى تلك اللحظة التى اقام فيها الاسرائيليون ، دون جلبة ، فى الصحراء، بعد ان هزموا العماليق فى رافيديم .

الشريعة تتنزل على جبل سـيناء (٥٩)

كانت كل الشعوب القاطنة فى ضواحى جبل سـيناء على يقين من ان الرب يقيم هنـاك ؛ ذلك انه يكاد ينظر الى الجبال العاليـة فى كل مكان ، باعتبارها المقر الاعتيـادى للالهة ؛ وهـذا أمر طبيعى ، فليس هنـاك واحد منا لم يستشعر عند سفح هذه الـكتل الصخرية المظيمة ضعفه ، وهو أمر ينتج عنه خشوع وتأمل يهيئان لانبعاث روح الأفـكار الدينية ، وفضلا عن ذلك فان الجبال تكون مسرحا لعدد كبير من الظواهر المفزعة ، التى تبدو كما لو كانت جهازا هائلا فى ايدى آلهة جبارة ؛ ولقد ملح الخوف ، باكثر مما فعلته المعرفة ، البشر اولى افكارهم عن الألوهية، فمن قممها تندفع السيول المـدمرة ، كما تتكون فى باطنها وعلى ضجيج الانفجارات التى تزلزل وتقلب باطن الأرض ، الأحجار الملتهبة ، والمعادن المنصهرة التى تبتلع المـدن وتدمرها حين تخرج فى شكل شواظى من نار

---

(٥٩) يسمى العرب هذا الجبل باسم جبل موسى .

وأنهــار من حمم ؛ كذلك ، على ذراها ، تزمجر الرياح العاتيات ، وتتراكم السحب التى تتخذ من الأشكال مايبعث على الرهبــة ، وتتفجر الرعود الهــائلة وسط البروق التى تبدو وكأنها ستصعق الوديان (٦٠) .

على مشهد عاصفة مماثلة ، أراد موسى أن يصدم خيال الاسرائيليين حتى ينتهى باقتنــاعهم بصحة تلك العــلاقة القــائمة بينه وبين الرب ، لم تكن سماء مصر قد قدمت لهم من قبل ، شيئا شبيها بذلك ، فهى تتوهج بالضوء البــاهر اثناء النهار ، وبأجمل لون لازوردى اثناء الليالى الهادئة، ولا تحجبها قط اية ســحب معتمة ؛ وفى الربيع فقــط نرى بعضــا من سحب بالغة الارتفــاع تدفعها بسرعة ريح الشمال ، لتمضى سريعــا كى تتراكم فوق جبال الحبشة العالية ، حيث تتحول الى أمطار ينشأبسقوطها عدد لا حصر لـه من الأخوار التى تصب فى النيل مكونة فيضان هذا النهر . اما الخماسين أو الريح المسممة (ريح السموم) ، بدواماتهــا الترابيــة الملتهبة واعمدتها الرملية فتعكر وحدها صفو الجو ، ومع ذلك ، وبخلاف أنها لا تهب على مصر الا مرة أو مرتين على مدار العــام فانها هناك ضارة أو مؤذية اكثر منها مفزعة ، فهى تمارس على الحيوانات والنباتات آثارها الضــارة ، وتسبب امراضها ، بل قد تقتلها أحيــانا ، فان ذلك يحدث فى معظم الأحيان بالطريقة التى تحدث بها آثار السموم ، تلك التى تعمل دون جلبة ، دون عنف ظاهرى ؛ وبالأضافة الى ذلك ، فبامكاننــا ، أن نحكم عليها بدواماتها تلك بأنها بنت الأرض أكثر منها وليدة للسماء ، لذلك

---

(٦٠) عندما قرأت فى المجمع العلمى بالقاهرة ، فى السادس عشر من بروميير من العــام التاسع ، مذكرتى هــذه عن عبور الاسرائيليين للبحــر الأحمر ، وعن اقامتهم عند سفح جبل سيناء ، أعلنت ان هذا الجبل يمكن أن يكون بركانا خامدا ؛ فالأحجار البركانية الضخام التى كنت رأيتهــا فى صنابورات السفن (الصابورة : ثقل يوضع فى سفينة لحفظ توازنها) عند مدينــة الطور تلك التى كانت تصل الى السويس والقصير ؛ كما أن الوصف الذى يعطيه موسى للحظة تجلى الرب فوق جبل سيناء قد رجحت عندى هذا الرأى ؛ وبعد وقت من قراءة دراستى توجه اثنان من رفاق رحلتنــا همــا السيدان كوتل Coûtelle وروزيير Rozière الى كهف فى جبل سيناء ، وتبين لهما أن الجبل جرانيتى وليس به اى اثر لبركان ، ومع ذلك فان الأعاصير أو العواصف ، تتفق بنفس القدر مع مايمكن أن تحدثه ثورة بركانية كتلك التى جاءت فى رواية موسى .

فنحن نعتقد أن قدماء المصريين قد اتخذوا منها رمزا للقدوة السيئة . وعلى هذا يكون من السهل علينا أن نتصور كيف كان العبرانيون مأخوذين بفعل رعب دينى عند أول مرة يرون فيها البروق تشق ظلمات السحب ، ويسمعون فيها هزيم الصواعق فوق الجبال العالية ، تتزايد أصداؤه وتمتد لأبعد مدى قعقعاته (٦١) . وفى الواقع فان السحب نقدم لمن يرصدها أشكال شياطين بالغة الغرابة ، كما أن حركتها ، وأشكال المسخ التى تقدمها قد أفزعت فى معظم الأحيان والهبت خيال الضعفاء من الرجال أو جهالهم ، فقد رأى بعض فيها علامة على غضب السماء ورأى آخرون فيها آلهتهم ذاتها او ارواح أجدادهم الهائمة ، أما الرعد ، فقد جعلت منه كل الشعوب سيد الكون ، وها نحن نرى ، برغم تقدم العلوم والفنون الذى يهيئه التعلم ، ان كثيرا من الناس يبرحوا يخافونه بأكثر مما يخافون الأخطار الوشيكة او الداهمة ، والسبب فى ذلك بالغ البساطة ؛ أن من الممكن لنا أن نصارع ضد هذه الأخطار فى الوقت الذى لانملك فيه وسيلة ما لدرء أخطار الرعد . وزيادة على ذلك ، فكل ضجة هائلة تولد الاحساس بوجود قوة عظيمة ، كما يجعل منها الخيال صرخة غضب هائلة تصدر عن كائن عظيم وقادر فى حالة غضب وهياج .

لقد ظل موسى لوقت طويل يرعى قطعان حميه فوق جبل سيناء ، وهناك كان شاهدا على ظواهر وأشكال سامية شكلتها الرعود والعواصف فوق هذا الجبل الشامخ ؛ وبلا ريب فان ذكرى ما كان هذا الرجل الماهر قد استشعره منها هى التى دفعته الى استغلالها فى تحقيق مآربه .

وننقل هنا نصا حرفيا من جزء من الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج :

آية ١ ، ٢ « فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من ارض

---

(٦١) اثناء قرابة نحو أربع سنوات قضيتها فى مصر ، لم اسمع سوى مرة واحدة صوت الرعد ؛ ومع ذلك فقد كان هذا الصوت ضعيفا حتى أن كثيرا من الأشخاص ، ممن كانوا معى ، لم يلحظوه قط .

مصر ، فى ذلك اليوم جاءوا الى برية سيناء ؛ ارتحلوا من رفيديم وجاءوا الى برية سيناء فنزلوا فى البرية . هناك نزل اسرائيل مقابل الجبل ؛

آية ٣ : « واما موسى فصعد الى الله ، فناداه الرب من الجبل قائلا : هكذا تقول لبيت يعقوب ، وتخبر بنى اسرائيل ؛

آية ٧ : « فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى أوصاه بها الرب ؛

الآيات من ٨ الى ١٢ : « فأجاب جميع الشعب معا وقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب ؛ فقال الرب لموسى ها أنا آت اليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما اتكلم معك فيؤمنوا بك ايضا الى الابد ، واخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم ؛ ويكونوا مستعدين لليوم الثالث . لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء ؛ وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا الى الجبل أن تمسوا طرفه . كل من يمس الجبل يقتل قتلا » .

وفى واقع الأمر ، فليس من العسير أن يتنبأ بحدوث الرعد قبل موعده ببضع ساعات (٦٢) ؛ فالبحارة وسكان الجبال العالية يبرهنون لنا كل يوم على صحة ذلك اذ تحملهم غريزة البقاء على أن يلاحظوا بعناية كل نذر الظواهر الجوية التى يخشونها ، وقد تطلب الأمر من موسى — وقد عمل لمدة طويلة راعيا فوق جبل سيناء — أن يقوم هناك بتأملات

---

(٦٢) تتضح نذر الثورات البركانية كذلك ، وبطريقة تكاد تكون شبه مؤكدة ، عن طريق توهج المستنقعات والأبخرة التى تحمل روائح كبريتية وكذلك عن طريق الهواء الثقيل والحار ، والأصوات تحت الأرضية وجفاف الآبار ، ونقص — وفى بعض الأحيان التوقف التام — للدخان الذى يتصاعد عادة من فوهات البراكين القديمة ، وكذلك عن طريق الفزع الذى يتملك الحيوانات فتعبر عن قلقها بصرخاتها وسيرها المتخبط والقلق ، وتفعل الطيور نفس الشيء فتطير هنا وهناك — هذه كلها علامات على قرب حدوث العواصف أو الأعاصير أو الزوابع ، كما انها فى الوقت نفسه نذر بحدوث هذه الكارثة الرهيبة (ثورة البراكين) .

وملاحظات مماثلة . اما عن الفترة المحددة والتى تبتعـد قليلا عن الأيام الثلاثة التى حددها موسى فى الآيات من ١١ الى ١٥ فان علينا أن نعتقد ان موسى ، عند حديثه الى العبرانيين ، كان يعطى لكلماته غموض الوحى القائم بالوساطة بين النـاس وبين الرب ، والـذى يكرر ذلك دون ان يصيبه الفشل ، وان كان يدون نبوءاته (الغامضة تلك) — ما أن تمضى الحوادث ، بطريقة واضحة محددة (٦٣) .

ونواصل مرة اخرى النقل عن الاصحاح التـاسع عشر من سـفر الخروج :

آية ١٦ : « وحدث فى اليوم الثالث لمـا كان الصباح ان صـارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ؛

آية ١٧ : « واخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ؛

آية ١٨ : « وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل ان الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وارتجف كل الجبل جدا » .

الآيتان ٢٠ ، ٢١ : « ونزل الرب على جبل سيناء الى راس الجبل، ودعا الله موسى الى راس الجبل فصعد موسى ؛ فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون » .

السنا نضع ايدينا الآن على وصف بالغ الدقة للرعد ؟ السنا نرى كم كان موسى يخشى أن يأتى أحد أبنـاء شعبه ليجده وسط السحب التى تغطى قمة الجبل ، لـكنه لن يجد هنـاك الرب المقـدس الذى اصطنع له ذكاء موسى وحكمته ، وقابلية هؤلاء للايمان والتصديق مكانا هنـاك . واما موسى فقد اقترب الى الضباب حيث كان الله ، هكذا تخبرنا الآية ٢١ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج .

---

(٦٣) انظر بالاضافة الى ذلك ماسبق أن ذكرناه فى الجزء الخـاص بعبور البحر الأحمر عن نشر الأسفار .

ويتعرف المرء كذلك ــ ولا يزال ــ فى هذا الاصحاح نفسه على الدوافع التى حدت بموسى ان يقود الاسرائيليين الى جبل سيناء، اذ يقول لهم : « انه الله انما جاء لكى يمتحنكم ولكى تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا » .

« انتم رأيتم اننى ــ اى انا الرب ــ من السماء قد تكلمت معكم »*

وبعد ذلك ، وبعد أن منع موسى أن يتبعه أحد ، ذهب فوق الجبل، وأمضى هناك أربعين يوما ، وخط خلال هذه العزلة لوحى الوصايا وقدمهما الى الشعب باعتبارهما حسب قوله « المكتوبين باصبع الرب »**

وبهذه الطريقة نفسها فرض غالبية المشرعين الاحترام الكبير لشرائعهم ؛ نوما Numa يستلهم حورية الماء والغاب ايجريا ، والملك جبريل يملى القرآن على محمد ، ومانكو كاباكا Manco Capac يتحدث باسم الشمس ، وليكورج ، نفسه ، حتى ليكورج Lycrgue الحكيم يبحث عن دعم لشرائعه فى وحى معبد دلفى ، ان هؤلاء الرجال العظام ، الأكبر مهارة والأكثر علما من عامة الناس*** يفيدون من ظواهر الطبيعة المعروفة لهم جيدا كى يحيطوا انفسهم بالمهابة والقداسة . السنا نرى كريستوف كولمبوس ، فى زمن اكثر حداثة ، وحين كاد يهلك جوعا ، ينذر البسطاء، سكان جمايكا ، بأنهم ، ان لم يجلبوا الأطعمة الى معسكر الأسبان ، فسوف تعاقبهم يد الله ، ثم حدث كسوف الشمس الذي كان يتوقعه فخر القوم سجدا من الرعب ، وأطاعوه .

---

* اقتباس من الآيتين ٢٠ ، ٢٢ من الاصحاح العشرين من سفر الخروج . (المترجم)

** سفر التثنية ، الاصحاح التاسع ، الآية ١٠ (المترجم) .

*** ينظر المؤلف الى الجميع بلا استثناء باعتبارهم مشرعين وبذلك يطبق فكرته على المشرع الحقيقى والمشرع المفترض وجوده وكذلك الأنبياء. وفكرته هنا تعميمية لأقصى حد ، قد تصلح دليلا على حذقه هو ولكنها لاتعد دليلا على صدق مايذهب اليه . وقد وضح من سياق مقاله قلة معرفته ــ ويكاد يكون جهله ــ بالاسلام ونبيه العظيم . اما الذين يشير اليهم هنا فهم :

=

حقا ! ان طفولة الشعوب تمتلىء على الدوام بالمعجزات (٦٤) .

= نوما Numa : ثانى ملوك روما كما تحكى الأساطير (٧١٤ — ٦٧١ ق.م) وكانت السلطة فى ذلك الوقت فى يد الرؤساء أو السيناتوريين، اما الملك فكان يقوم بدور الكاهن الأكبر . ولكى يلزم شعبه وقومه الهمجى فى ذلك الوقت بالأخلاق القويمة وجد أن من الضرورى له أن يبدو فى صورة من يستلهم كلماته من غير حكمة البشر فادعى أنه يلتقى فى الليل بايجريا، الحورية المقدسة التى تلهمه الرشد والنصيحة ، وأفلح بذلك فى توحيد دين قبائل روما وتقويت وحدة الدولة وزاد استقرارها .

مانكو كاباكا Manco Capac : مؤسس امبراطورية بيرو وأول ملوك الأنكا ؛ عاش فى القرن العاشر الميلادى .

ليكورج Lycurgue يقول عنه هيرودوت انه أبن عم الملك كاريلوس ملك اسبرطة ، تلقى من الوحى فى دلفى بعض مراسيم يراها البعض قوانين ليكورج نفسها ويراها آخرون تصديقا ربانيا على قوانين ليكورج . وقد وجد باعتباره مشرعا أن افضل طريقة لتغيير عادات الناس القائمة ولادخال عادات جديدة ان يقدم قوانينه باعتبارها أوامر من عند السماء . وفى حين يجزم بعض المؤرخين بأنه واضع قوانين اسبرطة يرى كثيرون انه شخصية خيالية ، ولعل هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل واحد بعينه ، ولكنها طائفة من العادات تحولت الى قوانين وسميت باسم الشخص الذى قام بجمعها وتدوينها . (المترجم) .

(٦٤) ليس هناك ماهو اسهل من خداع الطبقة الدنيا من الشعب عن طريق معجزات مزعومة حتى عند الشعوب المتحضرة . الم يهرع القوم فى ايطاليا ، فى ايامنا هذه ، ليحيطوا بصورة العذراء المقدسة التى كانوا « يرونها » وهى تحرك عينيها ؛ ولهذا السبب لم يكن القساوسة يكلفون انفسهم عناء تحريك اى جهاز لاتمام « المعجزة » ؛ كانوا يكتفون بالقول: هل ترون ؟ ويجيب الجميع . نعم . نحن نرى .

وكم يكون الخيال قادرا على الخلق !

موت موسى

بعد ان سار الاسرائيليون لبعض الوقت على غير هدى ، وعلى طريقة العربان ، فى المناطق المحيطة بجبل سيناء ، حاولوا التوغل فى أراضى سوريا الى الغرب من البحر الميت .

كان موسى قد استنهض عزيمتهم مخبرا اياهم ان الرب قد اعطى لنسل ابراهيم أرض كنعان . ومع ذلك فقد رفضوا عند وصولهم الى حدود هذه الدولة أن يمضوا لأبعد من ذلك فقد افزعتهم تقارير جواسيسهم ، ثم عادوا فطلبوا أن يدخلوا المعركة بعد أن استنفرتهم ملامات موسى ، وحدس هذا الرجل الذى كان شاهدا على ما ابدوه من فزع منذ وقت قصير انهم سيهزمون لو تجاسروا على الهجوم برغم منعه اياهم من ذلك ؛ ولم يستمعوا اليه ، وحاقت بهم الهزيمة التامة (٦٥) . وادرك موسى من هزيمتهم تلك ، ومن عصيانهم الذى تفجر قبل ذلك بقليل ، ان الاسرائيليين ، لم يصبحوا بعد ، مضرسين بالقتال ولا منظمين بالقدر الكافى حتى يمكنهم ان يستقروا بالقوة القاهرة فى أرض السوريين ؛ فانتظر فى الصحراء ثمانية وثلاثين عاما حتى مات غالبية العبرانيين الذين ولدوا بمصر . ولقد سمعهم مرات عديدة يأسفون على قيودهم ، وشعر كم هو عسير أن يولد روحا قومية لدى رجال ربما كانوا ينتمون لأجناس متفرقة ، وولدوا فوق ذلك فى اغلال العبودية . واستغل من جانبه كل هذا الوقت فى تطويعهم لشرائع تتناسب مع أوضاعهم وما يهدف هو اليه . ولقد نجح فى ذلك . وحين يتخيل المرء صعوبة هذه المحاولة من جانب موسى ، فانه يجد مايغريه على أن يضع هذا المشرع فى مقدمة كل المشرعين الآخرين ، ليس فقط لانه انتزع عبيدا من سادتهم وانما — كذلك — لانه جعل منهم امة شهيرة غير قابلة للفناء ، واذا كانت فتوحاته وفتوحات من خلفوه لا يمكنهما من ناحية الاتساع والأهمية أن تقارن بفتوحات محمد وخلفائه ، فى ظروف تكاد تكون متشابهة ، فقد تم الأمر على هذا النحو لأن موسى كان يجابه فى زمنه أمما قوية وشعوبا مضرسة بالقتال تشغل أرض سوريا وفارس

(٦٥) سفر العدد ، الاصحاح الرابع عشر

ومصر وبلاد العرب ، أما عند ظهور محمد ، فقد كانت امبراطورية الرومان العملاقة وكذلك امبراطورية الفرس قد بليتا من القـدم بعد ان اقتسمتا العالم ، وكانت الشعوب التيأخضعها هؤلاء والتيسئمت أغلالها تظن انها تحطم اغلالها بانتقالها من سيطرة سيد قديم الى أيدى سادة جدد * ؛كذلك فان موسى كيخلق منعبيد دولة متماسكة قد اضطر انيوحى اليهم بالهلع من الأجانب وهو شعور ظلوا يحملونه بين جوانحهم حتى أنهم يفضلون أن يستأصلوا شأفة عـدوهم عن أن يهزموه ، بل انهم يزدرون المعتنقين الجدد لدينهم حتى فى ذراريهم ، فلا يعطون الا للجيل العاشر من هؤلاء الحق فى دخول جمـاعة الرب . فى حين ان محمدا ، بعد أن أخضع للاسلام كل العرب — وكان لدى هؤلاء شعور قومى بالغ الوضوح منذ زمان بعيد ، قد أمكنه أن يستخدم القوة والاقتنـاع لحشد أنصار جدد مانحا اياهم كل الحقوق المقررة للمؤمنين القـدامى ، وبهذه الطريقة ضاعف قواته الظافرة بجنود من الأمم التى فتحها **

وقد عكف موسى ، كما سبق لنـا القول ، لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما منذ انتصـار الـكنعانيين (٦٦) ، على تطويع العبرانيين لشرائعه، وفى النهاية حاول من جديد أن يستقر فى سـوريا ، وزحف نحو الشرق من البحر الميت ، متخذا هذه المرة ، طريقـا مختلفا عن الطريق الذى كان قـد أتبعه عند حملته الأولى ، متجنبا فى كل الأحوال أن يمر بأرض ملك ادوم الذى كان يخشى بأسه (٦٧) ؛ وضمن موسى لنفسه ، من هذه الناحية دعم أو على الأقل حيدة كثير من العشائر حين اذاع أن العبرانيين يشتركون معهم فى أصل واحد ، وحين وعد باحترام أملاكهم وبأن يدفع حتى ثمن المـاء الذى سيشربه هو وقومه عند عبورهم بلادهم (٦٨) .

* لا يمكن اى منصف أن يقبل هذه الأفكار على اطلاقها ، بالاضافة الى أن الكثير مما جاء فى كلامه مردود عليه ولا يمكن تفسيره الا بالتحامل أو تجاهل معطيات التاريخ ، وهو أمر يؤسف له من جانب رجل يتسـم بروح متحررة ، وباطلاع واسع . (المترجم) .

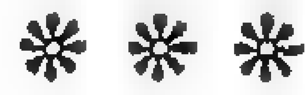
** وهكذا تتحول الميزات والفضـائل الى عيوب ومآخـذ عند من يريدون التحامل على الاسلام بأية وسيلة (المترجم) .

(٦٦) سفر التثنية ، الاصحاح الأول ، الآية ٤٦ ؛ والاصحاح الثانى ، الآية ١٤ .

(٦٧) سفر العدد ، الاصحاح العشرون .

(٦٨) سفر التثنية ، الاصحاح الثانى .

وعندما شنت عليه معـارك اثنـاء مسيرته ، فقد انتزع انتصارات عديدة لا بأس بها ، واستولى على منطقة خصيبة تقع الى الشمال من نهر الأردن ؛ وهنـاك ، حيث شعر بقواه تخور ، شاء أن يجعل من موته أمرا مفيدا فى تحقيق مآربه ، فأعلن للشـعب أن الرب قـد رفض أن يدخله الأرض الموعودة لأنه قـد شك مرة واحـدة ، واحدة فقط ، فى قدرته * واعلن باسم الرب الخالد أن يشوع بن نون قد صـار خليفة له ؛ وبعد أن صعد موسى جبـال عباريم ونبو اشـار بيده للعبرانيين الى الأرض التى سيكافئهم بها الرب جزاء فضائلهم ولا سيما عقيدتهم الدينية .



وهانذا استحضر صورة هذا الرجل المسن ، الجديد بالقداسة ، فى ملامح موسى الذى رسمه ميكل انجلو فى كنيسة القـديس بطرس ، فى روما ؛ جبهته التى جعـدتها السنون لا تنم الا عن الهـدوء ، أما عيناه فتحتفظان ببريقهما مع القدر الأكبر من الرقة والحنو ؛ ولقـد احترمت يد الزمن عظمة تقاطيعه ، أما أسـنانه البيضاء كالعـاج (٦٩) فتظلها لحيـة كثيفة تتـدلى فوق صـدره ، هذا هو يمشى ببطء ولـكن فى ثقة ، أما شحوب لونه ونظراته الشاخصة الى السماء فتنبىء وحدها أنه تارك الأرض كى يذهب الى مقام أكثر قداسة ، يحيط به المقـاتلون والنساء والأطفال ، بل والعبيد ، كلهم قلقون ، لـكنه بصوته الملهم يتنبـأ لهم بأقدارهم التى يحملها لهم المستقبل ، ويباركهم ؛ ويجثو الشعب على ركبتيه ، وحين يعلن لهم عن موته الوشيك يتفجر النحيب وتنساب الـدموع ، فى كل مكان ، ويقول لهم كلمة الوداع الأخير ثم يبتعد ؛ يندفع النـاس ليتبعوه ، لـكنه بحركة واحدة من يده الخائرة يلزمهم ، أماكنهم ؛ من يتجاسر على عصيان

* تقرأ فى التوراة : « فقال الرب لموسى وهارون ، من اجل انكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى اسرائيل ، لذلك لاتدخلان هـذه الجمـاعة الى الأرض التى اعطيتهم اياها» سـفر العـدد ، الأصـحاح ٢٠ ، الآية ١٢ .

وكذلك :"لأنكما خنتمانى فى وسط بنى اسرائيل عند ماء مريبة قادش فى برية صين إذ لم تقدسـانى فى وسـط بنى اسرائيل فانك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل الى هناك ، الى الأرض التى اعطيتهـا لبنى اسرائيل » .

سفر التثنية ، الاصحاح ٣٢ ، الآية ٥٢ . (المترجم)

(٦٩) « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته » سفر التثنية . الاصحاح الرابع والثلاثون ، الآية ٧ .

هذا الرجل الذى اصطفته السماء فى اللحظة نفسها التى يذهب فيها كى يتحد بالذات الخالدة ؟ ولم يره أحد بعد ذلك يعاود الظهور ، أما يوشع المخلص الوحيد لما كان يهدف اليه ، وكذلك بلا ريب لقراره الأخير ، فيقود الاسرائيليين من جديد فى عربات موآب حيث يظلون يبكونه ثلاثين يوما ؛ مشرعا ونبيا وأبا .

ومع ذلك فلن أمضى لأبعد من ذلك فى بحثى ، فالجيل الذى عبر الأردن كان غريبا عن مصر ، وقد لا يتصل تاريخه بقدر كاف بخطة هذا المؤلف * لكننى أختتم بهذه الفكرة ؛ ان كل ماانتهينا الى استخلاصه من الأسفار الخمسة انما هو احتمال وقريب كذلك من الصحة ، ويتطابق أو يتفق بشكل تام مع روايات المؤرخين الدنيويين لدرجة يستحيل معها ان تكون هذه الأحداث اسطورة ، كما شاء بعض أن يزعم ذلك بفعل خيال عزرا أو حلقيا ** اللذين كانا يعملان خيالهما لمقاصد سياسية ودينية . وفضلا عن ذلك فلعل هذين الجدين اليهوديين قد اصطنعا — مع ذلك — للعبرانيين اجدادا أثرياء واقوياء ، ولعلهما قد قصرا حديثهما على الانتصارات وليس عن الهزائم ؛ فحين يخترع انسان ما تاريخ أمة ، فان الكبرياء القومى هنا هو الذى يملى عليه كل جملة يقولها .

---

* وصف مصر .

** Esdras او Helcias ونلمس هنا خلطا فى الأسماء وقع فيه المؤلف ، فنحن فى الواقع بصدد رجل واحد هو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ، احد مصلحى وباعثى القومية اليهودية عند نهاية الأسر البابلى ، وهو كما تصفه التوراة « كاتب ماهر فى شريعة موسى » ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو حفيد الكاهن الأكبر الذى كان نبوخذ نصر قد أمر باعدامه بعد استيلائه على أورشليم، وبعد عودة اليهود من الأسر ،بعد أن سمح لهم بذلك الملك كورش أصبح حاكما للجودية ، وظل صاحب نفوذ قوى على قومه ، وقد أمرهم بالتخلص من زوجاتهم غير اليهوديات باعتبارهن « من شعوب الرجاسات » وأن عليهم الا يتزوجوا أبدا بأجنبية كى لايزيدوا « على اثم اسرائيل » .ويرى بعض المؤرخين أنه هو واضع « أخبار الأيام الأول » و « أخبار الأيام الثانى » المتممين لسفر الملوك الذى قام هو كذلك بوضعه ، كما يقال انه قد غير الكتابة العبرية القديمة واستبدل بها الحروف العبرية الحديثة وهى نفسها الحروف الكلدانية (المترجم) .

الدراسة العاشرة :

حصر للقبائل العربية التي تقطن بين مصر وفلسطين

أنيديه جوبير

العنوان الأصلي للدراسة هو :

حصر شامل للقبائل العربية التى تقطن بين مصر وفلسطين ابتداء من خان يونس وغزة حتى نهر العاصى ، والجزء الشمالى من الصحراء التى تفصل مكة عن سوريا .

اصبحت اليوم تقاليد وعادات العرب الذين يهيمون منذ زمان لاتعيه الذاكرة فى صنجراوات مصر وسوريا ، معروفة بشكل كاف ، ولقد نقل الينا مؤرخو وفلاسفة وجغرافيو العصور القديمة ، فى هذا الخصوص، تفاصيل لاتختلف فى كثير عن تلك التى نقرؤها فى مؤلفات الرحالة المحدثين، لـكن الأسماء الحالية للقبائل وقوتها العسكرية المفترضة ، والأماكن التى تقطنها ، لا توجد فى اى مؤلف من هذه المؤلفات ، بكل التحديد والدقـة المرغوبين .

واذا لم نول بالا الا للظلام الدامس الذى يبدو وكأنه مقدر على هذه العشائر نصف المتوحشة ، وانعدام اتصالاتنا بهم ، فقد يبدو أمرا ضئيل الأهمية فى الواقع أن نتعرف على كل الخصوصيات الماسة بهم ، اللهم الا اذا كان من شأن هذه الخصوصيات أن تلقى بصيصا من الضوء على جغرافية صـحراواتهم بحيث تصبح بذات فائدة للرحالة الذين يأتون من بعـدنا ، ذلك أن العرب ، وهم بطبيعتهم متعجـرفون ومتغطرسـون ، لايرحبون الا بأولئك الذين يقدرونهم ويحترمونهم ، خاصة ، أولئك الذين يعرفونهم ، لذلك فقد ظننت أن حصرا لهذه القبائل العربية ، أى لهـذه الجماعات الرحل التى تقطن البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر العاصى، لن يكون أمرا عديم الجدوى . ولكى يكون لهذا العمل ، ذلك النوع الوحيد من التقدير الذى نرجو أن يناله ، فقد قارنا بعناية فائقة هذه المعلومات التى هيأها لنا رجال من أهل البلاد لاجئين الى فرنسا بتلك المعلومات التى جمعت فى نفس أماكن حدوثها أثناء الرحلتين المختلفتين (اللتين قمنـا بهما) ، وقد دونا أسماء الأعلام بالحروف العربية والفرنسية ، وتفادينا بشكل خاص أن ندرج ، سواء فى العمود الخاص بالأسماء ، أو بالعمود الخاص بالملاحظات كل ما قد يكون عرضة لعدم الدقة وكل ماقـد يكون مدعاة للتشكك .

بيـــــان بالقبـــائل العربيـــــة

فى مصر السفلى

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عـــرب الترابين أو ترابين	وادى التيه ، ضـــواحى غزة وبخاصة المنطقـــة المسماة دير التين	٥٠٠ فارس
عرب السواركة	نفس الصحراوات حتى جبـــل الطور	مجهول
عـــرب الطور	تسكن هذه القبيلة كما يوحى بذلك اسمها ضواحى جبل الطور	٤٠٠ فارس
عـــرب محـــارب أو نفعيات	ضواحى بلبيس والقرين	أكثر من ٤٠٠ فارس
عرب التهاينـــة عرب الطرابنس عرب بن البرائق	تسكن هـــذه القبائل الثـــلاث الضواحى الرملية والقاحلة لخان يونس	من ٢٠٠ الى ٣٠٠ فارس
عرب الحنـــاجرة	الصـــحراء الى جنـــوب خان يونس	العدد مجهول

ملاحظات	المصادر والمراجع
كانت هـــذه القبيلة التى يعرفها كل من زاروا مصر فى الأزمنـــــة الأخيرة ، اكبر عـــددا فيما مضى عما هى عليه الآن . فهى واحدة من تلك القبـــائل التى عانت من غضبة على بك عندما عزم هـــذا الزعيم المملوكى على تخليص مصر من العربان .	استخلصت هذه المعلومات بمعرفتنا ومن نفس الأمـــاكن التى توجـــد بها القبيلة .
هذه القبيلة فى تحالف مع القبيـــلة السابقة ، وكان اسم شيخها فى عام ١٧٩٩ يسمى ابن معوى .	هذه المعلومات مستخلصة من مذكرات فى حوزتنا وصلت الينا عن طريق المرحوم ميخائيل صباغ النـــاسخ العربى بالمكتبة الملكية .
ينقل عرب الطور الى القاهرة الفحم وفواكه هذا الجبل وكذلك بعض سلع الهنـــد القـــادمة عن طريق السويس .	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنهـــــا ومذكـــرات د. روفائيل أعدت حديثا ونشرها مايو Mayeux
لا ينبغى ان نخلط بين هـــذه القبيلة وقبيلة أخرى تحمل نفس الاسم وسنتناولها فيما بعد .	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنهـــا ومن مذكرات ميخائيل صباغ .
على الرغم من أن هذه القبائل تابعة لحكومة غزة الا انها تعتبر قبائل مصرية بسبب رحلاتها العديدة الى القـــاهرة . وفى عام ١٧٩٩ لم يكن لها سوى شيخ واحد يسمى ابو شكال وحيدى .	من مذكرات فى حوزتنا نقلها الينـــا السورى خليل مسعد .
. . . . .	شرحه

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القطاب	ضواحى القاهرة ، الى مسيرة يوم من شرق الجنوب من هذه المدينة	٦٠٠ فارس على الأقل
عرب البساطين	على بعد ثلاثة فراسخ من القاهرة	قليلو العدد
« الحويطات	تجاور القبيلة السابقة	٤٠٠ فارس
« الصوالحة	ضواحى العريش والى الشمال منها	٤٠٠ فارس
« نصف حرام	شواطىء بحيرة صغيرة تسمى بركة الحج بالقرب من القاهرة	٥٠٠ فارس
« البيصار	ضواحى مصر العتيقة	٣٠٠ فارس
« العايدى	ضواحى القاهرة ، على مسيرة يوم الى الشرق من المدينة	١٠٠٠ فارس
« الحبايبة	على مسيرة يوم ونصف من القاهرة فى الصحراء	٦٠٠ فارس
« نصف سعد	نفس المكان	٣٠٠ فارس
« بلى	شرحه	٣٠٠ فارس
« الزناتى	شرحه	٢٠٠ فارس
« الطميلات	واد يحمل نفس الاسم كانت تمر به فيما مضى ترعة السويس المسماة خليج أمير المؤمنين	٥٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . . .	من مذكرات المرحوم ميخائيل صباغ .
. . . . . .	شرحه ، وكذلك من مذكرات الدكتور روفائيل .
كانت لهذه القبيلة علاقات كثيرة ودية مع الفرنسيين	من معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
الصوالحة متحالفون مع القبيلة السابقة . وكان شيخها الذى تعرفنا به شخصيا فى عام ١٧٩٩ يسمى الشيخ محمد بن صالح .	شرحه
. . . . . .	شرحه
يجد المرء بالمثل عربانا يحملون نفس الاسم بالقرب من أهرام الجيزة.	شرحه ، ومن مؤلف المسيو مايو Mayeux
تنقسم هذه القبيلة الكبيرة العددالى فروع كثيرة أسماؤها مجهولة لنا.	من مذكرات ميخائيل صباغ
كانت هذه القبائل الأربع وبخاصة القبيلتين الأخيرتين فىحالة حرب ضد الفرنسيين .	شرحه، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا من نفس أماكنها .
. . . . . .	من مذكرات ميخائيل صباغ ، ومن معلومات استخلصناها بمعرفتنا.

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب العايد « قلازين « الجبارات « العمارين	مناطق التل ، وعراق المنشية	مجهولة العدد
« بكير	بين غزة وجبل الخليل وهو مقر القبيلة القديمة يهوذا وتعد الخليل مدينة مقدسة منذ زمان طويل باعتبارها مكان قبر ابراهيم	. . .
« الوحيدات	بين العريش وغزة وفى الصحراء الواقعة الى الجنوب الشرقى من هذه المدينة الأخيرة	٣٠٠٠ فارس على الأقل
« الأمارة	ضواحى الرملة واللد (ديوسبوليس القديمة)	٢٠٠ــ٣٠٠ فارس
« أبو كشك	شواطىء النهر الذى يجرى الى الشمال من يافا والمرتفعات التى تطل على هذه المدينة	٢٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
كان شيخ القبائل فى عام ١٧٧٩ يسمى ابنحسين الدايمى وحيدى	مستخلصة من مذكرات السورى خليل مسعد
. . . . .	شرحه
تسيطر هذه القبيلة القوية على كل البلاد الواقعة اسفل خط عرض ٣١بين البحرالمنوسط والبحرالميت وينتمى اليها على الدوام شيوخ القبائل المجاورة وتنقسم الى عدة فروعاشهرها عادة عرب عايشة أو عايشية الذين يقطنون بالقرب من غزة .	من معلومات استخلصناها من نفس اماكنها ، وكذلك من مذكرات د. روفائيل .
يقوم الأمارة عادة بحراسة الأشخاص الذاهبين للحج الى بيت المقدس وفى عام ١٧٩٩ كان شيخهم يسمى سلامة الأمير .	من معلومات استخلصناها من نفس اماكنها وكذلك من مذكرات السورى خليل مسعد .
كان شيخ هذه القبيلة فىعام ١٧٩٩ يسمى أحمد بكير .	مستخلصة من معلومات نقلها الينا يعقوب حبيب شيخ الشيفا عمر فى سوريا .

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الملاح (أو باعة الملح)	نفس المناطق	قليلو العدد
عرب عدوان	ضواحى القدس الشريف	« «
« المسعودى	تجاور القبيلة السابقة وتعيش كذلك على شواطىء نهر الأردن	« «
« النفعيات	يعيش هؤلاء العرب فى القوافل التى تقابلها بالقرب من قيسارية فلسطين ويرون على الدوام يتجولون فى أطلال هذا المقر القديم للمليبيين	« «
« السعدية	نفس المناطق	قليلو العدد لحد كبير
« الحوارث	« «	« «
« النعيمات	المناطق الواقعة بين قيسارية وروحة وشواطىء البحر حتى طنطورة	« «
« براريش	البلاد الواقعة بين المرج وروحة اى سهل جبرائيل القديم أو سهل ازدريلون المشهور بخصوبته ومراعيه	٢٠٠ فارس
« المساعيد	جبل الكرمل	٢٠٠ فارس
« زبيدات	المناطق الخلفية الجبلية من بلدة نابلس ، وهى شكيم القديمة فى بلاد السامرة	٢٠٠ فارس
« السناقرة	البلاد الواقعة بين يافا ونابلس التى كانت تسكنها قديما قبيلة أنرايم	قليلو العدد

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	من مؤلف المسيو مايو
. . . . .	من مذكرات الشيخ يعقوب حبيب
. . . . .	« « « «
كان شخصهم فى عام ١٧٩٩ يسمى عبد الله السراب .	شرحه وكذلك من معلومات حصلنا عليها بأنفسنا .
. . . . .	شرحه
. . . . .	«
. . . . .	«
نستخلص ان هذه القبيلة هى نفس القبيلة التى يشير اليها روفائيل باسم باراريش فى مذكراته .	«
. . . . .	«
. . . . .	«
. . . . .	«
. . . . .	«

العدد المفترض	أماكن اقامتها	اسم القبيلة
شرحه	المناطق التى تشكل ممتلكات قبيلة منسى	عرب الغابة
٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس	الصحراء الواسعة التى تمتد من شرق البحر الميت والتى كانت فيما مضى موطنا للرعاة المؤابيين .	« الصقر
قليلو العدد	ضواحى صفد	« الحلف
شرحه	مكان يسمى العوجة	« العوج
شرحه	من قاقون حتى جسر ابن عامر	« التركمان
العدد مجهول	ابتداء من هذا الجسر حتى بيسان وهى مدينة بيتشان القديمة فى نابلس	« الصقر بادية
كثرة العدد	بين جسر بنات يعقوب والقنيطرة	« السمكية
شرحه	نفس المناطق	« السميرات
«	شرحه	« الجعاثين
العدد مجهول	ضواحى القنيطرة من جهة الشرق وهى بلدة كثيرة الأشجار .	« تركمات الثلجية

ملاحظات	المصادر والمراجع
وكما يدل عليها اسمها فان البلاد التى تقطنها كثيرة الأشجار .	شرحه ، وكذلك مذكرة الدكتور روفائيل .
تقوم هذه القبيلة القوية الشكيمة بجولات متعددة فى بلاد صفدالتى كانت قديما جزءا من ممتلكات قبيلة نفتالى وحتى اسوار نابلس وعكا وصور .	معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها ومن معلومات قدمها يعقوب حبيب وكذلك من خريطة المسيو بولتر Poultre
. . . . .	من معلومات الشيخ يعقوب.
كان شيخ هؤلاء العربان فى عام ١٧٩٩ يسمى ابو كشك شأنها شأن القبيلة التى تحمل نفس الاسم والتى ذكرناها آنفا :	شرحه ، وكذلك من معلومات السورى خليل مسعد
لا يشترك هؤلاء التركمان الا فى الاسم مع القبائل التى تسكن سهل انطاكية وضواحى الجنوب الغربى لدمشق وبلدة عنبية .	شرحه
يسكن هؤلاء العرب البلاد التى كانت فيما مضى تشكل جزءا من قبيلتى يساكر وزبولون ، وقد حاربوا وكذلك العرب الذين سنذكرهم بعد ذلك الفرنسيين فوق تل طابور .	يعقوب حبيب ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها . ومن الجغرافى القديم دانفل d'Anville جـ٢ ، ص١٧٧
. . . . .	يعقوب حبيب
. . . . .	د. روفائيل
يتحدث هؤلاء العربية والتركية	د. روفائيل والشيخ يعقوب .
. . . . .	شرحه

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب نعيمات الشرقية	ابتداء من القنيطرة حتى منطقة تسمى الجيدور	كبيرة العـــدد
« خيط بوادى	جنوب بحيرة طبرية بين صفد وجسر بنات يعقوب	١٠٠٠ فارس
« مساعيد امارة وعرب الوهايب	ضواحى اريحا أو جيركو القديمة	العدد مجهول
عرب كاظم أمارة	الشـــواطىء الغربيـــة للبحر الميت والجبال الواقعة الى شمال القدس الشريف	شرحه
« التمابيـــة	من القدس الشريف حتى نهر الأردن	«
« الفهيدات	شـــواطىء نهـــر الأردن حتى بيسان	«
« الشعالبة	نفس الأماكن	العدد مجهول
« البشاتوه	الجبل الذى يشرف على بحيرة طبرية الى الشرق	قليلو العـــدد
« المشاليخة	نفس المناطق حتى نهر الأردن	« «
« الغور	شـــواطىء البحيرة الصغيرة المسماة الحولة	٣٠٠ فارس
«صخور الغور	شـــواطىء بحيرة طبرية الى الشمال حتى البـــلاد التى يشغلها العرب السابقون (الغور) وهى بلاد صخرية	٣٠٠ فارس
«الغوارنة	نفس الأماكن	العدد مجهول
« الصبيح	ابتداء من شـــفا الغور حتى الجزء الأوسط من تل طابور	شرحه
« الدكاشرات	الى الغرب من القبيلة السابقة	«

المصادر والمراجع	ملاحظات
معـــلومات استخلصـــناها فى نفس أماكنها وكذلك الشيخ يعقوب .	هؤلاء العرب أثرياء فى مواشيهم
شرحه ، وبخصوص العـــدد ، من مذكرة د. روفائيل .	. . . . .
يعقوب حبيب	المناطق التى تتجول فيها هـــذه القبـــائل العربية تشـــكل جزءا من أملاك قبيلة بنيامين
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
»	كان هـــذا السهل يشكل جزءا من ممتلكات قبيلة منسى .
شرحه وكذلك د. روفائيل .	. . . . .
شرحه	. . . . .
»	. . . . .
الشيخ يعقوب	. . . . .
خليل مسعود	. . . . .
شرحه	. . . . .

اسم القبيلة	اماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب النميرات وعرب محمدات	ضواحي حاصبيا وظهر الهضبة السورية التي تناخم بلاد المتاوله	العدد مجهول
« العباد	ضواحي البلقاء والسلط	كثيرو العدد
« اهتيم او « العدوان	صحراء بلقة وضواحي شفا الغور والسلط والزرقا	العدد مجهول
« الغنيمات	البلاد المعروفة باسم عمان وجرش الى الشرق من القبيلة السابقة	شرحه
« المهداوى	نفس المناطق	«
« بنى حسن	شرحه	«
« بنى كلاب	ضواحي ملكه	
« الموالى	البلاد الواقعه بين حمص وحماه وحلب	٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فارس
« الحدايد	سهل يسمى الغوطة ويمتد بين لبنان والهضبة السورية	كثيرو العدد
« بنى سعيد	ابتداء من البقاع بالقرب من بعلبك حتى جبل الدروز	قليلو العدد
« الرشوان	يقضون الصيف فى سوريا والشتاء فى قونية	الف خيمة

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	الشيخ يعقوب حبيب
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	شرحه وكذلك د. روفائيل .
. . . . .	شرحه ، أما بخصوص موضع الغوطة ، فعن المكتبة الشرقيةفى Herbelot
. . . . .	شرحه
يتحدثون العربية والتركية لكن اسم قبيلتهم عربى بلا شك .	الشيخ يعقوب ، ومن مؤلف نشر حديثا وعنوانه : Itinéraire d'une partie de l'Asie Mineur

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب القثلية	شواطىء النهير المسمى النهر الكبير الذى يصب فى البحر بالقرب من اللاذقية	العدد مجهول
عرب القدامسة	ضواحى اللاذقية	كثيرو العدد
« قره حجلة	شواطىء نهر العاصى	« «
« عنزة	الصحراء الواسعة الواقعة بين مكة والفرات واللجاة	« «
« الهوارى	الصحراء الممتدة الى الجنوب من دمشق	قليلة العدد
« عرب السردية	الصحراء التى اشتهرت باسم اللجاة	شرحه
« الدمالجة	الصحراء الواسعة التى تعرف اليوم كما كانت تعرف قديما باسم جبل حوران	«

ملاحظات	المصادر والمراجع
تتبع هاتان القبيلتان مذهب النزاريين	يعقـــوب حبيب ، د. روفائيـــل ، والمؤلف السابق ذكره
. . . . .	الشيخ يعقوب حبيب
عنزة هو الاسم الأصلى لهذه القبيلة القوية التى تنقســم الى عــدد لا حصر له من الفروع أشهرها في سوريا بنى صنخرة .	شرحه، د. روفائيل ، خريطة بولتر Poultre الخ الخ .
هذه القبيلة ، البالغة الشهرة فى سوريا تشغل البـــلاد التى كان يقطنهـــا فيما مضى العمونيون أو بنو عمون .	الشيخ يعقوب ؛ خريطة بولتر .
. . . . .	شرحه
. . . . .	»

ملحق

على الرغم من أنه لا يدخل فى موضوعنا أن نعرف القارىء بالقبائل العربية التى تعسكر فى مصر العليا والوسطى والسفلى ، وكذلك بتلك القبائل التى تتجول فى ضواحى الاسكندرية ، وعلى الرغم من أن المعلومات

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الهوارة	بين اسوان وجرجا	٢٠٠٠ فارس على الأقل
« العبابدة واللبابدة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
« زناتى	طهطا	٤٠٠ فارس
« هنادى او الهنادوة	ولاية جرجا	كثيرو العدد
« العطايات	بنفلوط	قليلو العدد
« ابن وافى والطحيوى	الى الشمال من منفلوط	شرحه
« أبو كرايم ومنهم :	ملوى	«
« الجهمة	نواحى بحر يوسف حتى المنيا	«
« التراهونة	تلة	«
« الخوين	ضواحى سمالوط	«
« الفوايد	ولاية بنى سويف	٣٠٠ فارس
« العدايد	شرحه	العدد مجهول
« السحارات	«	شرحه
« المحاز		«

التى تزودنا بها بهذا الخصوص ليست بالغة الاتساع وليست كذلك دقيقة للحد الذى كنا نتمناه ، ومع هذا ، فحيث انه كانت لهؤلاء العربان علاقات عديدة مع الفرنسيين ، وحيث أنه قد ورد ذكرهم كثيرا فى الدراسات التى عالجت الحالة الحديثة لمصر ، فاننا نعتقد أن من المفيد للقارىء ان نقدم اليه هنا أسماء القبائل الرئيسية .

ملاحظات	المصادر والمراجع
يتم اختيار شيخ هذه القبيله بالانتخاب وهو يقيم فى فرشوط.	من معلومات جمعت فى مصر ، ومن مذكرات ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	من دراسة دى بوا — ايميه
كان شيخهم يسمى الشيخ عبد الله ابن محمود	شرحه
كان شيخهم يسمى الشيخ عبد الله ابن على	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب محارب	ولاية المنيـــا	شرحه
« بنى واصل	. . . .	«
ومنهم :		
« السمالو	. . . .	«
« الفرجان	. . . .	«
« الترافع	. . . .	«
« العزايزى	. . . .	العدد مجهول
« بنى وائل	ضواحى المنيـــا	شرحه
« بنى حرام	ضواحى الأطفيحية	٤٠٠ فارس
« الضمفا	ضواحى شمال بنى سويف	٢٠٠ فارس
« الخويلد	ولاية البهنسا	٤٠٠ فارس
« نجمـــا	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
« غـــزالة أو خبيرى	ضـــواحى الجيزة والمنـــاطق القاحلة بجوار الأهرام	العدد مجهول
« الزيدية	مكان يسمى أوسيم بالقـــرب من الجيزة	٣٠٠ فارس

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	شرحه
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخها فى عام ١٧٩٩ يسمى ابو بكر	مستخلصة من ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
على الرغم من قلة عدد هذه القبيلة فهم مرهبون تماما فى البهنسا.	»
. . . . .	»
. . . . .	»
كان شيخهم فى سنة ١٧٩٩ يسمى أحمد	»
يقال انهم من نسل المماليك الذين طردهم السلطان سليم من مصر عام ١٥١٧	»

مصر

اسم القبيلة	أماكن اقامتها	العدد المفترض
عرب الجويلى	ولاية البحيرة	٥٠٠ ، ٦٠٠ فارس
« ابن بغداد	ولاية المنوفيـــة	٤٠٠ ، ٥٠٠ فارس
		ضواحى الاسكندرية
« الجوابى	نواحى بحيرات النطرون	٦٠٠ فارس
« السمالو	نفس الأماكن	٢٠٠ فارس
« مسينيد	المكان المسمى الميمون	٥٠٠ فارس
« أولاد على او بنى على	ضـــواحى الجنوب الغربى من الاسكندرية	١٠٠٠ الى ١٢٠٠ فارس
« مطيرد	وادى الميمون عـــلى مســيرة يومين الى الغـــرب من الاسكندرية	

ملاحظات	المصادر والمراجع
. . . . .	ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
وبحيرات النطرون	
يبدو أن عرب الجوابى من اصل أفريقى ، وهم يقومون بنقل ملح النطرون من البحيرات حتى الاسكندرية والطرانة وبنقل البضائع الخاصة بواحة آمون (سيوه)	شرحه، ومن معلومات استخلصناها فى نفس أماكنها
. . . . .	ميخائيل صباغ
. . . . .	شرحه
هذه القبيلة قوية بنفسها وبحلفائها ويسكن شيخها قرية تسمى القتلية بناها أجداده الى جوار الدير المحرق	شرحه، ومن معلومات استخلصناها من نفس أماكنها
. . . . .	شرحه

الفهرس

